

جَزِيرَةُ الْعَرَبِ

فِي الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ

تأليف

حافظ وهبة

الوزير الفوض والشروب فوق العادة

للمملكة العربية السعودية بلندن

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية



مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة

البريد الالكتروني :

Alsakafa_aldinaya@hotmail.com

هاتف: +2025922620

فاكس: + 2025936277

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية :

جزيرة العرب فى القرن العشرين

تأليف :حافظ وهبة

ط-1 القاهرة :مكتبة الثقافة الدينية 2014

عدد الصفحات :

ا-شبة الجزيرة العربية – تاريخ

ب-العنوان

رقم الايداع :5-622-341-977-978

الترقيم الدولي:2014-16939

جزيرة العرب

بلاد العرب أو جزيرة العرب - كما تعرف عند علماء العرب -: هي الأراضي المحاطة ببحر الهند، والبحر الأبيض المتوسط، ثم دجلة والفرات^(١). أما علماء الفرنج فيجعلون النفود الشمالي الفاصل بين نجد الشمالية، وصحراء سوريا، هو الحد الطبيعي لجزيرة العرب من الشمال.

يبلغ متوسط عرض الجزيرة ٧٠٠ ميل، ومنتهاى طولها ١٢٠٠ ميلاً، وتزيد مساحتها عن مساحة الهند، وبلاد العرب من البلاد القليلة التي حافظت على تقاليدها وعاداتها، وطرق معاشها منذ أقدم عصور التاريخ، وإن ما انتابها من التغير لا يكاد يذكر؛ وذلك بسبب العزلة التي يفضلها العرب على كل شيء سواها.

وجزيرة العرب مشهورة بصحاريها الواسعة، ورمالها التي يقصر الطرف عن مداها، وتشغل هذه الصحاري قسماً كبيراً من مساحتها.

وأهم هذه الصحاري: الدهناء، النفود، الصحراء الجنوبية، أو صحراء الربع الخالي، وهذه الصحاري - وإن كانت رملية - إلا أن تربة بعضها خصبة بحيث تصبح بعد الأمطار من أفضل المراعي للحيوانات، وقد اخترقنا الدهناء بعض مرار من الشمال، فقطعناها في ١٣ ساعة على الإبل، ومن جهة الإحساء فقطعناها في ست ساعات، كما أني قطعت النفود من بعض نواحيه من جنوب الزلفى إلى شقراء، وهو أشق من عبور الدهناء، وقد قطعت الدهناء في رحلتي الأخيرة إلى نجد، في ثلاث ساعات بالسيارة (٢ يناير سنة ١٩٣٥).

(١) يسميه العرب بحر الشام. ياقوت: جزيرة العرب، والقاموس: مادة جزر.

وليست طبيعة التربة في الدهناء والنفود متجانسة من كل وجه، فهناك بعض الجهات لا ترى فيها غير الرمال المرتفعة، التي تكاد تبتلع المارة لنعومتها وعدم تماسكها، فيتجنبها المسافرون؛ ابتغاء سلامة أرواحهم وأموالهم.

ويوجد ببلاد العرب هضاب يبلغ ارتفاع بعضها أكثر من ثمانية آلاف قدم، في شمالي وجنوبي منطقة البحر الأحمر - مدين واليمن - أما قلب الجزيرة فالارتفاع فيه تدريجي؛ فمستوى البلاد في نجد يبلغ حوالي ٢٥٠٠ قدم، بينما يصل في بعض الجهات كأجا في الشمال إلى خمسة آلاف قدم، وفي نهاية الجنوب الشرقي توجد هضبة عالية، يتكون منها الجبل الأخضر، وفي الوسط الشرقي يوجد مرتفع طويل يقابل الغرب، يسمى جبل طويق، ويبلغ ارتفاعه نحو ٦٠٠ قدم.

الوديان

لا يوجد في بلاد العرب أنهار بالمعنى المعروف؛ ولكن بعض مجار أو نهيرات صغيرة دائمة في عسير واليمن وجهات عدن، الإحساء، وعمان ونجد، ووديان لا عداد لها مما تجري فيها المياه إبان المطر، وهي في الغالب طويلة وغير عميقة. وأطول هذه الويان وادي الرمة؛ الذي يبدأ قريباً من المدينة، ويمر في القصيم، ثم إلى شط العرب. ووادي حنيفة الذي يبدأ من منحدرات جبل طويق الغربية، إلى اتجاه الخليج الفارسي، (وهو لا يصل إليه) فهذان الوديان يمكن أن يُعبر مجراهما أثناء فيضانها الواطئ والمتوسط بدون صعوبة، وهما يحفظان الماء في باطن مجراهما؛ حيث يمكن الوصول إليه بحفر آبار تختلف أعماقها باختلاف المكان، وفي بعض الأماكن كما في القصيم (وادي الرمة) والخرج ووادي حنيفة تعلو المياه سطح الأرض، وهنالك تتكون سلسلة من الواحات.

أما الوديان التي تتجه نحو البحر الأحمر، فإنها ذات مجرى أعمق وأكثر انحدارًا، وهي تكاد تكون معدومة النفع، وهي عقبة في سبيل المرور من الشمال إلى الجنوب، وهي لا تكون واحات مثل مياه الأودية الأخرى، بسبب ما تجلبه المياه في انحدارها من الأتربة، وغيرها مما يتراكم بعضه فوق بعض بسرعة، بحيث لا تستطيع حرارة الشمس أن تؤثر في صلابته. ووديان غربي اليمن، ومنطقة قسم البحر الأحمر من هذا النوع - من مدين إلى حضر موت.

المناطق الداخلية الخصبة

بين الصحاري المترامية الأطراف، وبين الأودية والمنحدرات، توجد مناطق خصبة عامرة بالسكان، وتوجد بقسط من حاجات السكان الضرورية وأهمها:

١- جبل شمر:

هو إلى جنوبي النفود الشمالية، وتنحدر إليه المياه من جبلي طي الشهيرين «أجا وسَلْمَى» اللذين يمتدان من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي.

وتشغل مدينة حائل، ومدينة فَيْد^(١) القديمة، وعدة قرى أخرى صغيرة وكبيرة في المنطقة المجاورة لسلسلة الجبال.

٢- القصيم:

واقعة إلى ما بعد المنحدرات في جنوبي جبل شَمَر، فالقسم المنخفض ترجع خصوبته إلى المياه الموجودة في باطن الأرض باستمرار، وإلى المياه التي تفيض عليه

(١) انظر ياقوت.

أحياناً من وسط مجرى وادي الرُّمة. وتمتد منطقة القصيم في خط يبلغ طوله أكثر من مائة ميل، تتخلله بعض ألسنة النفود فتفصله عن بعضه. وفي هذا الخط تقع أكبر مدينتين تجاريتين في قلب الجزيرة، وهما: عنيزة وبريدة، وعدا هاتين المدينتين يوجد أكثر من خمسين بلدة كبيرة وصغيرة.

والقسم المرتفع غني بمراعيه الواسعة، ويعتمد على الآبار التي توجد في أكثر من أربعين بلدة.

٣- نجد:

وهذه بلا نزاع أكبر مجموعة من المناطق الخصبة، وتبلغ مساحتها بما في ذلك بعض المنحدرات أكثر من عشرة آلاف ميل، وهي تتكوّن من سلسلة مناطق واقعية عند أطراف جبل طويق، وتمتد سلسلة من البلدان والقرى من سُدير في الشمال، وتنتهي في الجنوب إلى وادي الدواسر. ومجموعة المناطق الخصبة تحيط بها الدهناء شرقاً وجنوباً، والنفود، والمنحدرات من الشمال، ومنحدرات من الغرب. ومنطقة الخصوبة أوسع على جانب شاطئ البحر الأحمر وفي الجنوب الشرقي؛ ففي الشرق تجد أن هذه الحلقة رقيقة وتفصلها حواجز واسعة، فثلث شاطئ الخليج الفارسي من الكويت إلى القطيف أرض جرداء، وبعد ذلك تبدأ سلسلة عيون في الداخل حيث منطقة الأحساء، ولا يوجد على الشاطئ إلا مناطق صغيرة قليلة الخصوبة. ومن نقطة رأس الجبل تبدأ عُمان التي تنحدر إليها المياه من مرتفعات الشاطئ الشرقي وجبال عمان غرباً، كما ينزل المطر فيها في فصول معينة. كذلك الجبل الأخضر الممتد على الشاطئ تجاه رأس الحد. وكذلك في المنطقة الواقعة شمالاً خلف شاطئ الباطنة، توجد وديان خصبة وغنية وسلسلة عريضة من الأراضي الخصبة، وفي الجنوب توجد الصحراء ممتدة على طول الشاطئ حتى رأس الحد. ولكن لما كانت الأرض

تأخذ في الارتفاع تدريجياً تجاه خط تقسيم المياه الغربي، فإن ودياناً وأرضاً خصبة تبدأ في الظهور ولكنها غير متصلة. وبعد عبور مدخل وادي حضرموت تأخذ الأرض الخصبة في الظهور بشكل متقطع.

ومن مدخل وادي حضرموت فصاعداً، يعتبر القسم الغربي من شبه الجزيرة، ونجد أمامنا عندما ندور حول الزاوية الجنوبية الغربية للجزيرة منطقة ساحلية منخفضة خصبة، في المواضع التي تنحدر منها الوديان من المرتفعات. ويوجد وراء هذه المرتفعات مرتفع خصب (صَنَعًا ٧٥٠٠ قدم)، تكتنفه جبال عالية هي خط تقسيم المياه، وتمتد هذه المناطق، الخصبة إلى ٢٠٠ ميل من الشاطئ الغربي. ثم تأخذ المنحدرات تتلاشى حتى تختفي في الربع الخالي. وهذه المنطقة هي ما كان يطلق عليها قديماً العربية السعيدة، والتي يطلق عليها الآن اسم اليمن، وعدن والمكلا من جهة، وعسير من جهة أخرى. وعلى أية حال فإن الخصوبة تنتهي عند مدينة الليث على شاطئ البحر الأحمر. ومن هذه النقطة شمالاً لا تشمل رياح المونسون هذه المنطقة؛ ومن هنا تبدأ مناطق الواحات منفصلة عن بعضها وعليها قوام حياة السكان. وفي بعض المنطقة الواقعة بين مكة والمدينة يوجد بعض مناطق خصبة صغيرة في باطن بعض الوديان، وإلى مائة ميل شمالاً من المدينة تنتهي سلسلة المناطق أو الواحات المنعزلة بمنطقة خير والعلا. أمّا بالنسبة للشاطئ من جدة فليس فيه إلا مداخل الوديان، التي عندما تنحدر فيها المياه وتتخلل باطن الأرض، تمكن بعض السكان من حفر آبار للارتواء.

الجو

يعتبر الجو في الجزيرة على العموم - ما عدا بعض نقط على الشواطئ - صالحًا للحياة؛ فالحرارة التي تشتد نهارًا والبرودة التي تشتد ليلاً تقتل أغلب الميكروبات التي تحارب بني الإنسان في جهات أخرى، والحياة على وجه العموم في الجزيرة، وبالأخص في المناطق الخصبة طويلة، ولكن حياة البدو الرحل الذين يعيشون على المنحدرات شاقة تقصر الأجل، وكذلك الحال في هضبة اليمن التي يبلغ ارتفاعها ما بين ٧ - ٨ آلاف قدم.

والشيء الذي يميز الجو في الجزيرة هو الجفاف، فإن بلاد العرب واقعة بين البحار؛ ومع هذا فليس لها أي أثر في جو الجزيرة، وتستفيد اليمن من رياح المونسون في الصيف، وينزل في عمان قدر كاف من الأمطار، بينما المنطقة الواقعة إلى غربي خط تقسيم المياه لا ينزل فيها المطر إلا نادرًا.

أما باقي الأقسام فإن أكبرها حظًا من المطر النفود الشمالي وجبل شمر، فالأمطار تهطل في الشتاء، وكذا رياح البحر الأبيض المتوسط تسبب المطر فتنبت أعشاب الربيع. وأما الصحراء الجنوبية فربما لا يصيبها الرذاذ ساعة واحدة، كل ثلاث أو أربع سنوات.

ومن ظواهر الجو أيضًا في الجزيرة الحرارة: فالنصف الجنوبي من الجزيرة تبلغ الحرارة فيه نهايتها في شهري يوليو وأغسطس، أما تأثيرها في الإنسان فيختلف تبعًا لارتفاع المنطقة التي يعيش فيها.

وأشد المناطق حرارة شاطئ عُمان وتهامة اليمن؛ ولكن الجو في شاطئ الخليج والمحيط الهندي ليس طيبًا.

السكان عددهم - الحضر والبدو

لم يعمل إحصاء للسكان في جزيرة العرب؛ ولذا لا يمكن معرفة عددهم بالضبط، وإذا قلنا: إن عدد السكان لا يقل عن سبعة ملايين؛ فربما كنا إلى الصواب أقرب. وهم موزعون في مناطقهم كما يلي:

ثلاثة ملايين في منطقة البحر الأحمر من مدين إلى اليمن، ومليون ونصف في المنطقة الجنوبية والساحل البحري، بما في ذلك حضر موت وعمان، ومليونان ونصف في وسط الجزيرة.

الحضر

إن كثرة ارتحال القبائل وغزواتها العديدة، ترك عند الناس فكرة خاطئة عن عدم وجود مدن وبلاد في جزيرة العرب ومناطق زراعية، وكثير من الناس لا يعلم بوجود مدن سوى مكة والمدينة وجدة وصنعاء.

إن المناطق الساحلية في الجنوب الشرقي والجنوب الغربي من الجزيرة أراض زراعية أهلة بالقرى والمدن، والأهالي يشتغلون بالزراعة والتجارة، ويوجد علاوة على ذلك مستعمرات أو واحات عديدة في وسط الجزيرة، يتجاوز سكان الواحدة منها سبعة آلاف نسمة، وهذا عدا الأماكن الأخرى المبعثرة المملوءة بالسكان. ومما

لا شك فيه أن حياة الحضر في داخل الجزيرة متأثرة إلى درجة ما بحياة البدو الرحل؛ لاتصال الفريقين في كثير من المرافق، فإن الفريقين كثيرًا ما يتصلان بالمصاهرة والتجارة.

والحضر تختلف طباعهم باختلاف المناطق التي يعيشون فيها، وظروف الحياة التي تحيط بهم، فأهل حائل أقرب مظهرًا إلى البداوة، وأهل مكة والمدينة واليمن العالية أبعد مظهرًا عن البداوة من البلاد الأخرى العربية، وأهل القصيم ألين عريكة من أهل العارض؛ لأنهم كثيرو الأسفار، كثيرو الاختلاط والتعامل مع البلاد الأخرى؛ كالشام وفلسطين ومصر، ولذا فترى موظفي ديوان الملك المكلفين بالمقابلات والتشريفات من أهل القصيم أو حائل.

وأهل الرياض أرق بكثير من أهل الدواسر الذين لم يفارقوا بلادهم، ولم يعرفوا شيئًا عن أحوال العالم الخارجي.

والحضر في تنافس وتفاخر دائم؛ فأهل القصيم يفضلون أنفسهم على سائر سكان نجد؛ بالعلم والمعرفة وسماحة الخلق والإحاطة بأحوال العالم. وأهل العارض يفضلون أنفسهم بالشجاعة، والصبر على المكاره، والمحافظة على شمائل العرب، وأنهم جند التوحيد الموالون لأهله في أوقات الشدة.

وأهل البحرين يفاخرون أهل الكويت بكرمهم فيقولون: إذا حضر عندنا الكويتي دعونا وذبحنا له، ولم نقبل له عذرًا، ودعونا معه أصدقاءه ومعارفه. أمّا الكويتي فإذا قابلك في بلده قال لك: مرحبًا! متى الوصول؟ كيف حالك؟ في أمان الله! ثم انصرف. وإذا لم يجد مقرًا من الدعوة لروابط العمل والصدقة المتينة، فإنه يدعوك ويشتري اللحم من السوق؛ أي: لا يذبح لك الخروف.

وأهل الكويت من جهة أخرى يرمون أهل البحرين بالبساطة، وحضر نجد وبدوهم ينالون من أهل الكويت والأحساء والبحرين، ويقولون: لقد أضاعوا مفاخر العرب؛ لا يعرفون الخيل والجمال، ولا الكر ولا الفر، ولا يحسنون إلا قيادة السفن.

والحضر يعيب بعضهم بعضاً بلهجاتهم، وربما كانوا مجمعين على النيل من لهجة أهل الأحساء والبحرين؛ لما فيها من الرخاوة والميل إلى الإمالة.

ويغلب على الحضرة الخلق التجاري، وبعض الجهات يمتاز عن بعض في هذا الخلق؛ فأهل القصيم والزلفى وشقرا أنشط من أهل نجد في التجارة، فقوافلهم تقصد سائر الجهات العربية، وتجارهم كثيراً ما يسافرون إلى الهند ومصر في سبيل التجارة، والتجار النجديون المعروفون في الهند ومصر والعراق من أهل هذه البلاد. أما أهل الكويت فنشاطهم في التجارة البحرية، وقد كانت لهم أساطيل بحرية في الماضي لنقل الحاصلات العربية إلى الهند وبعض سواحل الخليج الفارسي، وجلب السلع الهندية والأوربية إلى بلاد العرب، وقد قضت السفن البخارية على هذه الأساطيل، وقللت من أهميتها، ومع ذلك فلا تزال للكويت بعض السفن تنقل عليها تمر العراق إلى الهند، وتأتي من الهند حاملة الأرز وأدوات السفن وسائر الحاجيات الأخرى. أمّا في فصل الصيف فتكاد السفن تقتصر على الغوص لاستخراج اللؤلؤ.

ويمرن الحضرة أولادهم على التجارة من الصغر: يمنح الوالد ابنه الصغير مبلغاً من المال للتعامل به، تحت إشراف أبيه وإرشاده، وكثيراً ما يشارك الوالد ابنه في بعض السلع التي يراها رابحة، فيشب الفتى وقد مرن على الأعمال التجارية، وشعر بكثير من المسئوليات، ووقف على الطرق التي تدر عليه النقود، وعرف المشقات

والصعوبات التي قد تعترض التاجر والتي عاناها أهلوهـم، فإذا مات رب العائلة حلَّ محله ابنه الذي لم يصبح غريباً في محيطه الجديد.

ويغلب على حضر الجزيرة -وعلى الأخص أهل خليج فارس- التعاون التجاري، سواء بين الأهالي بعضهم مع بعض، أو بين الأمراء والأهالي، فمن التعاون المألوف في الكويت أن يدع تـجار اللؤلؤ نقودهم بعد بيعه عند أصدقائهم في التجارة؛ لاستثماره على مسئوليتهم الخاصة. وحكام الكويت: جابر، وسالم، والشيخ الحالي له مبالغ طائلة عند رعاياه التجار لا يتقاضى من ورائها ربحاً أو فائدة؛ وقد كان حكام البحرين كإخوانهم حكام الكويت عندما كانت يدهم مطلقة في شئون البحرين الداخلية والمالية. وحكام نجد وتطـر لهم مثل هذه الأيادي على رعاياهم البدو.

أمّا البدو فهم القبائل^(١) الرحل المتنقلون من جهة إلى أخرى؛ طلباً للمرعى أو الماء، والطبيعة هي التي تجبر البدوي على المحافظة على هذه الحياة.

وحياة البدوي حياة شاقة مضنية؛ ولكنه وهو ممتنع بأكبر قسط من الحرية يفضلها عن أي حياة مدنية أخرى.

هذه الحياة الخشنة هي التي جعلت القبائل يتقاتلون في سبيل المرعى والماء، وهي التي جعلت سوء الظن يغلب على طباعهم؛ فالبدو يـنظر إلى غيره نظرة العدو الذي يحاول أخذ ما بيده، أو حرمانه من المرعى.

(١) سـكتب فصلاً في الجزء الثاني عن القبائل العربية وأنسابها وأماكن إقامتها.

إنَّ البدوي في الصحراء لا يهتم إلا المطر والمرعى، فأزمته الحقيقية انحباس المطر وقلة المرعى، ولا يبالي بما يصيب العالم في الخارج ما دامت أرضه مخضرة، وبعيره سمينًا، وغنمه قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحمًا.

أما إذا نما السكان وضاعت بهم الأرض، أو لم تجد أراضيهم بالمرعى، فليس هناك سبيل إلا الزحف والقتال، أو الهجرة إن كان هنالك سبيل إليها، وكذلك القبيلة التي غلبت على أمرها، وحرمت من مراعيها وأراضيها، ليس أمامها سبيل آخر سوى الهجرة، وهذا يفسر الهجرة من وقت لآخر إلى العراق وسوريا ومصر واستعمار الجزء الشمالي الغربي من إفريقيا، وتدفق شمر إلى ما بين النهرين، وقبائل عزة إلى الحماة، فكلها نتيجة تغلب غيرهم عليهم من القبائل، واضطرارهم إلى ترك أراضيهم، التي لم يعد لهم سبيل في الإقامة بها لضيق وسائل الحياة.

ومن الحوادث البارزة في القرون الأولى، والتي تشبه ما يجري في بلاد العرب من وقت لآخر، إغارة الساميين على بابل، والكتنانيين على سوريا، والمكسوس على مصر، والعبرانيين على فلسطين.

لقد كان البدو قبل ثلاثين سنة في غارات وحروب مستمرة؛ كل قبيلة تنتهز الفرص للإغارة على جارتها لنهب مالها، وتعدد الإمارات وتشاحن الأمراء وتخاصمهم مما يشجع البدوي.

ولهذا كان للعصبية قيمتها في بلاد العرب؛ فالإنسان يقوى بأبنائه وأبناء عمومته الأقربين والأبعدين، وإذا كانت العصبية ضعيفة، أمكن تقوية القبيلة بالتحالف مع سواها حتى يقوى الفريقان ويأمننا شر غيرهما من القبائل القوية.

وقد جرى العرف أن القبائل تعتبر الأرض التي اعتادت رعيها، والمياه التي اعتادت أن تردها ملكاً لها، لا تسمح لغيرها من القبائل الأخرى بالدنو منها إلا بإذنها ورضاها، وكثيراً ما تأنس إحدى القبائل من نفسها القوة، فتهاجم بلا سابق إنذار على قبيلة أخرى، وتنتزع منها مراعيها ومياهها.



جمعة من البدو مجتمعين في الصحراء (بين الرياس والأحساء)



رعاة غنم في طريقهم إلى الماء

إن قبائل العرب ليسوا كلهم سواء في الشر والتعدي على السابلة والقوافل، فبعضها قد اشتهر أمره بالكرم والساحة والترفع عن الدنيا، كما اشتهر بعضها بالتعدي وسفك الدماء بلا سبب، سوى الطمع فيما في أيدي الناس.

ومع أن الدين الإسلامي أبطل كثيرًا من العصبية القديمة، وأحل محلها الأخوة في الدين: { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ } فقد عادت العصبية بشورها في بلاد العرب مرة أخرى. والفضل الآن في استتباب الأمن والضرب على أيدي المفسدين، يرجع إلى المرحوم الملك عبد العزيز وسهره، وإقامة أحكام الشريعة، وسرعة تنفيذها.

ليس للبديوي قيمة حربية تذكر؛ ولذا كان اعتماد الأمراء على الحضرة، فهم الذين يصمدون للقتال ويصبرون على بلائه وبلوائه. وكثيرًا ما كان البدو شرًا على الأمير المصاحبين له، فإن ذلك الأمير إذا ما بدت منه الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب، ويحتجون بأنهم هم أولى من الأعداء المحاربين؛ ولقد جرى كثير مثل هذا في الحرب الإنجليزية العراقية مما كان يندش له الضباط الإنجليز؛ لأنهم لم يعرفوا أن صديقًا ينهب صديقًا؛ ولكن البادية لا تعرف شيئًا غير النهب والسلب، وعندها الغنيمة مقدمة على كل شيء. والبديوي لا يرى حياة أسعد من حياة البادية، ويرى الحاضرة حبسًا لحريته وتنقله حيث يريد، كما أن أهل الحاضرة يرون البداوة شقاء لا يعادلها شقاء، ويصفون البدو بأنهم جفاة غلاظ القلوب.

والبديوي إذا لم يجد سلطة تردعه، أو تضرب على يده، يرى من حقه نهب الغادي والرائح، فالحق عنده هو القوة يخضع لها، ويخضع غيره بها. على أن هؤلاء قواعد للبادية معتبرة عندهم كقوانين يجب احترامها؛ فالقوافل التي تمر بأرض قبيلة وليس

معها من يحميها من أفراد هذه القبيلة معرضة للنهب، ولذا فقد اعتادت القوافل قديمًا أن يصحبها عدد غير قليل من القبائل التي ستمر بأرضها، ويسمون هذا رفيقًا.

والبدوي يحتقر الحضري مهما أكرمه، كما أن الحضري يحتقر البدوي، فإذا وصف البدوي الحضري فإنه في الغالب يقول: حُضيري؛ تصغيرًا لشأنه.

ومن عادة البدوي الاستفهام عن كل شيء، وانتقاد ما يراه مخالفًا لذوقه أو لعادته بكل صراحة، فإذا مررت بالبدوي في الصحراء استوقفك وسألك: من أين أنت قادم؟ وعمن وراءك من المشايخ والحكام؟ وعن المياه التي مررت بها؟ وعن أخبار الأمطار والمراعي؟ وعن أسعار الأغذية والقهوة؟^(١) وعمن في البلد من القبائل؟ وعن العلاقات السياسية بين الحكام بعضهم وبعض.

ومع أن البدو قد اعتادوا النهب والسلب، فإنهم كثيرًا ما يعفون عن أهل العلم خوفًا من غضب الله عليهم، وبعض البدو لا يحلف كاذبًا مهما كانت النتيجة.

لقد شاهدت كثيرًا من القضايا في الأحساء وغيرها، كان البدوي ينكر إذا وجد مجالًا للإنكار، ويفلت بمهارة من الإجابة عما يسأل، ولكن إذا وجه له اليمين وكان لا مفر له، اعترف بجرمه إذا كان مذنبًا، ولا يحلف بالله كاذبًا، وهذا أمر يدعو إلى الغرابة والإكبار أيضًا؛ فإنه يدل على شعور عميق بالخوف من الله، وأن هذا الشعور إذا أحيط بالعناية والرعاية، فإنه ربما يوجه إلى الخير، أو على الأقل إلى الإقلاع عن الشر.

وقبائل نجد على العموم لا يزال فيهم الكثير من الصفات الطيبة التي اشتهر بها العرب الأقدمون: يعرفون حقوق الصحبة والرفقة، ويثمر معهم عمل المعروف؛ فلا

تسمع في نجد أن جملاً قتل رفيقه في السفر، كما اعتاد الناس أن يسمعوها في الحجاز. وليس أعدل من البدوي في تقسيم الغنيمة حتى قد يُتلفون الشيء تحرياً للعدل، يقسمون السجادة بينهم كما يقسمون القميص أو السروال، كل هذا إرضاء لضمايرهم ودفعاً للظلم. إنهم يعرفون الخيام حق المعرفة لأنها بيوتهم التي يعيشون فيها، ومع ذلك فهم يقسمونها مراعاة للعدل، أمّا الإبل والغنم فإنهم يقسمونها إذا أمكن القسمة، أو يقومونها بثمان إذا لم يكن هنالك سبيل للقسمة.

والبدو لا يفهمون الحياة حق الفهم كما يفهمها الحضري؛ لا يفهمون البيوت وهندستها، ولا يفهمون فائدة الأبواب والنوافذ الخشبية، حتى إن البدو الذين كانوا في جيش الملك حسين في الثورة العربية، كان عملهم بعد الاستيلاء على الطائف نزع خشب النوافذ والأبواب، لا لبيعها والانتفاع بثمنها؛ بل لاستعمالها وقوداً إما للقهوة أو الطبخ أو التدفئة، وبدو نجد قد فعلوا مثل ذلك تماماً، فعندما أسكنت الحكومة بعض القبائل ثكنة جرول، اكتشفت الحكومة أن النوافذ الخشبية والأبواب تنقص بالتدريج، وأنها استعملت للطبخ وتحضير القهوة، فأخرجهم جلالته الملك تَوْاً من الثكنة وأسكن الحضري فيها، والحضري بطبيعته يفهمون ما لا يفهمه جهلة البدو عن النوافذ والأبواب.

وللبدو مهارة عظيمة في اقتفاء الأثر، وكثيراً ما كانت هذه المعرفة سبباً في اكتشاف كثير من الجرائم، ولا تكاد تخلو قبيلة من طائفة منهم، وأشهر قبائل براعة المرأة، ولهم قصص كثيرة لا تخلو من المبالغة، فإنهم يزعمون أن الخبير له من الخبرة ما يمكنه من معرفة الذكر والأنثى، والبكر والثيب، والحامل والحائل.

والقبائل العريقة المشهورة من حضر وبادية تحافظ على أنسابها تمام المحافظة، وتحرص عليها كل الحرص؛ فلا تصاهر إلا ما يساويها في النسب، والقبائل المشكوك في نسبها لا يصاهرها أحد من القبائل المعروفة.

أما حكام العرب فيترفعون عن سائر الناس حضرهم وبدوهم، لا يزوجون بناتهم إلا لقرباهم. أما هم فيتزوجون ممن يشاءون، وطبقات الحكام يترفع بعضها عن بعض: الأشراف يرون أنفسهم أرفع الخلق بنسبهم، وآل سعود يرون أنفسهم أرفع من الأشراف، وأرفع من سواهم من حكام العرب الآخرين، ومع أن العرب المحفوظة أنسابهم كلهم أكفاء لبعض، فلا تزال أمثال هذه العادات متأصلة في البادية أكثر من الحاضرة.

وهنا ترى الروح الصحيحة البدوية التي لا تملك شروى فقير، ترفض الزواج من غني؛ لأنه ابن صانع أو أنه من سلالة الغبيد، أو لأن نسبه القبلي يحوطه شيء من الشك، فليست المال لا قيمة له عند العرب. ومع وجود هذه الروح الأرستقراطية التي تتجلى فقط في الزواج ورياسة القبيلة والحكم، فإنه لا يكاد يوجد فارق في طرق المعيشة الأخرى، فالفرد وشيخ القبيلة والأمير يأكلون جميعاً الأرز واللحم واللبن والتمر، ويلبسون جميعاً الثوب والعباءة والعقال والقُتر (الكوفية)، ويتمتع أفرادهم بحرية لا حد لها، فالبدوي يقف أمام الحاكم فيجادل في سبيل حقه، ويستعمل كل الأساليب التي يراها موصلة إلى ما يريد.

التقسيمات الإدارية

يجمع العرب وحدة اللغة والدين والنسب أيضًا، وهم إن اختلفوا في بعض العوائد وفي نظام المعيشة، فهناك صفات عامة وسجايا تكاد تكون مميزة للشعب العربي.

لقد اصطلح القدماء على تقسيم البلاد العربية إلى خمس ولايات أو مناطق: الحجاز. نجد. اليمن. تهامة. اليمامة ... ولكن حدود هذه الولايات موضع اختلاف الباحثين بين القدماء؛ وكما قدمنا أن العرب بالرغم من تعدد إماراتهم وتنازعهم فيما بينهم، فإن هذا كله لا يقضي على ما بين الشعب العربي من مميزات الوحدة؛ ولا سيما اللغة والدين، وكثيرًا من الصفات الأخرى.

أمّا الحوادث التي سنعرض لها فهي خاصة بالحجاز ونجد وملحقاتها، أو ما يطلق عليه اليوم البلاد العربية السعودية، والكويت والبحرين على الخليج الفارسي. والحوادث التي وقعت في هذه البلاد في العشرين سنة الأخيرة هي أهم الحوادث في التاريخ العربي الحديث؛ فقد غيرت الحالة العربية عما كانت عليه تمامًا قبل الحرب العامة، وأوجدت للعرب شخصية دولية محترمة يرعاها الآن الملك عبد العزيز.

الحجاز

يقع الحجاز من جزيرة العرب في ناحيتها الشمالية والغربية، وهو يمتد من معان ماراً برأس خليج العقبة إلى نقطة بين الليث والقُنفُذَة^(١) على شاطئ البحر الأحمر. أمّا حدوده من الجهة الشرقية فلم تكن معروفة تماماً؛ بل كانت تمتد وتتقلص تبعاً لقوة الأتراك والأشراف، ومبلغ سيطرتها على البلاد.

وفي البداية يطلقون الحجاز على المنطقة الجنوبية للطائف، فإذا قالوا: إن هذا البدوي حجازي؛ يعنون أنه من جنوبي الطائف، وهذه التسمية لها وجه؛ فإن جبال السّراة الممتدة من اليمن إلى الشمال هي حجاز؛ بمعنى أنها فاصلة بين الغُور وهو تهامة ونجد.

والمساحة التقريبية للحجاز تبلغ زهاء ٧٠٠ ميل طولاً (من الشمال للجنوب) و ٢٥٠ ميلاً عرضاً (من الشرق للغرب).

(١) في الحرب الحجازية الأخيرة ضمت العقبة ومعان إلى شرقي الأردن، ولكن الحكومة العربية السعودية لم تعترف بهذا الضم، واتفقت مع الحكومة البريطانية صاحبة الانتداب على شرقي الأردن على حل هذه المشكلة بالمفاوضات السياسية.

ولم تثر الحكومة العربية السعودية موضوع العقبة وعُمان بعد إعلان استقلال الأردن؛ فإن وجود إسرائيل كاف لإزالة أي خلاف بين العرب، فإن خطر إسرائيل مهدد للجميع على السواء.

طبيعة البلاد

تتكون الحجاز من عدة مناطق طبيعية محاذية بعضها البعض، وهي:

١- المنطقة الساحلية: الممتدة بمحاذاة شاطئ البحر الأحمر (تهامة)، وتحفها شعاب مرجانية.

٢- منطقة جبلية عالية: تأخذ في الانخفاض التدريجي حتى تصل إلى ما بين جدة ومكة؛ إذ لا يزيد ارتفاعها هنالك عن ألفي قدم.

٣- منطقة نجدية: (واقعة بين جبال) مرتفعة جداً في الشمال، ومغطاة بالحُمم (السائل البركاني) من العُورِض، ولكنها تأخذ في الانخفاض في اتجاهها للجنوب؛ فيصل ارتفاعها في غربي مكة والطائف إلى نحو ألف قدم.

٤- الأخدود الرئيسي: الأجزاء المرتفعة منه مغطاة بالحُمم، كما هو الحال في الخرمة، والعُورِض، وخَيْبَر (٦٠٠٠-٨٠٠٠ قدم)، ولكنه لا يزال محتفظاً بارتفاع لا يقل عن خمسة آلاف قدم خلف مكة.

٥- المنطقة الأخيرة: وهي أعلى حافة المنحدر الشرقي في اتجاه قلب الجزيرة؛ ففي المنطقة الأولى والثالثة تقع المدن الآهلة بالسكان، فميناء العقبة والمُويلح والوجه، وأملج، وَيَنْبُج، ورابع، وجدة، والليث واقعة في المنطقة الأولى، وميناء العلا، والمدينة ومكة واقعة في المنطقة الثالثة.

ويوجد في الحجاز واحات خصبة متفرقة هنا وهناك، وهي على الأغلب واقعة على خط بين المنطقة الرابعة والخامسة، ومنها الحائط، والحَوَيْط (فَدَك)، وخيبر، والحَنَّاكِيَّة، والطائف، ووادي فاطمة (مر الظهران)، والصفراء.

الجو

إنَّ كميات المطر التي تنزل في الحجاز قليلة وغير كافية بالمرة؛ ولهذا فإنه يكاد جميعه يكون قاحلاً؛ إلا حيث توجد الواحات. وفي الطائف -وبخاصة في الجنوب- لا توجد أمطار دورية تنزل فيه، كما هو الحال في عسير واليمن.

ودرجة الحرارة في أجزاء الحجاز الواطئة أخف منها في تهامة اليمن؛ ومتوسطها هو من ٨٠ - ٩٠° ف، والهواء رطب، ونظراً لأن مكة منخفضة الارتفاع (٧٠٠ - ٨٥٠ قدم) ومحاطة بمرتفعات صخرية جرداء؛ فإنها شديدة الحر صيفاً، بخلاف المدينة؛ فإن درجة الحرارة فيها لا تزيد عن ٧٠، وهي بلد صحي.

والطائف أحسن بلاد الحجاز قاطبة، جاف الهواء؛ والمرتفعات فيها وراء مكة والطائف جوها بارد.

السكان

يمكن تقدير عدد سكان الحجاز: بدو وحضر بمليون نسمة ونصف؛ ثلثهم يشتغلون بالزراعة أو يقيمون المدن، والثلثان قبائل متنقلة.

التجارة والصناعة

تكاد تنحصر التجارة في الحجاز فيما يحتاجه القاصدون للبلاد المقدسة من الحاجيات، وكلها ترد إلى الحجاز من الخارج. ويُصدَّر الحجاز بعض حاصلات من التمر والجلود والحناء والصمغ، ولكنها قليلة جدًا بالنسبة للواردات.

وترد البضائع من كل الجهات إلى مكة، التي تعتبر أهم مركز تجاري في قلب الجزيرة؛ نظرًا لموقعها الجغرافي والديني.

وتعتبر جدة لقربها من مكة أهم مواني الحجاز. وفي غير موسم الحج تشتغل جدة بالتجارة مع سوريا والهند ومصر، وإفريقيا وبريطانيا، وممالك جنوب أوروبا. وإلى جدة يصل أكبر عدد من الحجاج، ومنها يقضون أغلب ما يلزمهم في سفرهم إلى مكة.

وشركات البواخر التي تمر بميناء جدة في الوقت الحالي؛ هي شركة مصر للملاحة البحرية، والخليوية، والإيطالية، وهناك شركات أخرى تمر بواورها كلها مست الحاجة.

ينبع:

هي الميناء الثانية للحجاز، ومنها يصدر للداخل جزء غير قليل من التجارة مع أواسط الجزيرة. وهي الميناء الطبيعية للمدينة المنورة وما جاورها، وتمر على الميناء البواخر السابقة.

المدينة:

وتسمى طيبة أيضًا، هي العاصمة الأولى للمسلمين في عهد الرسول وخلفائه الثلاثة، وهي معقل الإسلام، وبها قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ولمنزلتها الدينية ومركزها في الحركة الإسلامية الأولى، فضلها بعض العلماء على مكة.

تبعد المدينة عن ينبع ١٣٠ ميلًا، وعن مكة ٣٠٠ ميل تقطع بالإبل في عشرة أيام، وبالسيارة في نحو ثلاثين ساعة.

يبلغ طول المدينة ميلًا واحدًا، وهي قسمان: المدينة القديمة ويحيط بها سور، وهي في الشمال الشرقي، والبلدة الحديثة، وتفصل المناخة بينهما، وللمدينة خمسة أبواب.

والمدينة محاطة بالمزارع من جهاتها الأربع إلا الجهة الغربية، وتمتد المزارع حولها إلى عدة أميال، وبها عين الزرقاء، منبعها من قباء على بعد ميلين من المدينة.

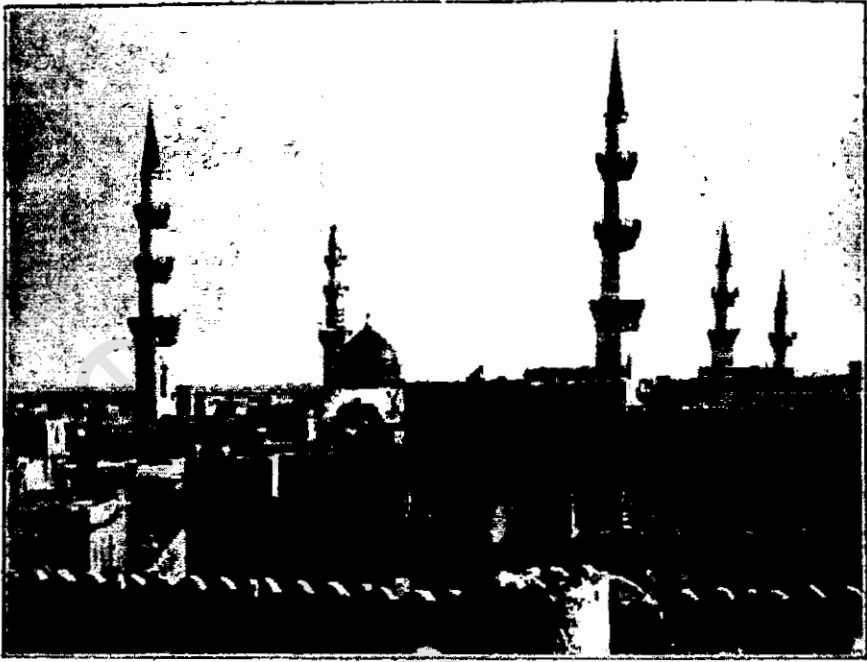
يبلغ سكان المدينة عشرين ألفًا، وقد بلغ سكانها قبل الحرب العظمى بعد اتصال السكة الحديدية بها ٨٠ ألفًا، ولكن مصائب الحروب أفقرت المدينة من السكان ومن العمران. وبالمدينة كثير من قبور الصحابة وآل البيت، وأئمة الحديث والفقه، وقد كان مُشِيدًا على قبور هؤلاء القباب والمباني، فهدمتها الحكومة الحالية في السنة الأولى من فتح الحجاز سنة (١٣٤٤هـ - سنة ١٩٢٦م) تنفيذًا لوصايا الرسول وأوامره بتسوية القبور، ولقد أثار هذا العمل نائرة المتعصبين للقبور؛ ولكن الحكومة لم تأبه لاحتجاجاتهم، ولقد عرض كثير من الأمراء والجمعيات الإسلامية في الهند وغيرها

استعدادهم لإرجاع القباب وبناء القبور؛ ولكن الحكومة في سبيل رضا الله رفضت جميع الاقتراحات الخاصة بهذا الموضوع.

مسجد الرسول:

هو أهم ما في المدينة من المساجد، وقد بني على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم باللبن، وسقفه الجريد، وعمده جذوع النخل، وقد كانت مساحته سبعين ذراعاً في ستين، وزاد فيه عمر، وبناءه على بنيانه في عهد النبي باللبن والجريد وأعاد عمده جذوعاً، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كبيرة، وبني جداره بالحجارة المنقوشة والقُصَّة (أي الحص)، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج، وامتدت الزيادة حتى دخلت فيه بيوت أزواج النبي، ومنها بيت عائشة الذي دُفن فيه النبي وصاحباؤه، فبنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله؛ لئلا يظهر في المسجد.

وزاد فيه الوليد بن عبد الملك من (٨٨-٩١هـ)، والمهدي (سنة ١٦٦هـ) من جهة الشمال، والمأمون (سنة ٢٠٢هـ)، وفي سنة ٦٥٤هـ احترق المسجد، فاهتم الخليفة العباسي المعتصم بالله عبد الله بن المنتصر بالله، فبدأ تجديد المسجد سنة ٦٥٥هـ.



منظر المسجد النبوي من خارج المدينة

وما زال المسجد موضع عناية ملوك وأمراء المسلمين بناءً وترميمًا وتجديدًا. والبناء الحالي هو بناء السلطان عبد المجيد العثماني، بدأ بنائه سنة ١٢٦٥ هـ، وانتهى البناء سنة ١٢٧٧ هـ، وهو بناء بديع جمع بين الفن والجمال، وهو يفضل بناء المسجد الحرام بمكة كثيرًا، وقد حدث بالبناء الحالي تصدع؛ فاهتم ملك مصر فؤاد الأول بأمر المسجد، ولم ير الملك عبد العزيز أي غضاضة في أن يقوم بهذا الشرف ملك آخر؛ فإن الاهتمام بالحجاز والمحافظة عليه وعلى مساجده، أمر يشترك فيه المسلمون جميعًا؛ أمراء وأفرادًا، كل بالقدر الممكن، والملوك أقدر من غيرهم على القيام بالواجب.

ولقد كان بالحجرة النبوية والمسجد الحرام كثير من الهدايا الثمينة، تقدر بثلاثة ملايين من الجنيهات، نقلها قائد المدينة فخري باشا إلى الآستانة؛ خشية أن تقع في أيدي الملك حسين.

وفي مباحثات مؤتمر لوزان طلب اللورد كروان بالنيابة عن الملك حسين، رد الأمانات التي وضع الأتراك يدهم عليها؛ ولكن الأتراك أجابوا بأن هذه المسألة من المسائل الإسلامية الخاصة بالمسلمين.

ولم نعرف أن الملك حسيناً بعد ذلك دخل في مفاوضات مع الأتراك لاسترداد هذه الأمانات الخاصة بالحرم النبوي، والمهداة إليه من ملوك المسلمين.

الأقاليم الشمالية

ينحصر هذا القسم الواقع في شمال الحجاز ما بين خط العرض ٣٠ شمالاً، وهو قسم جبلي، لا يقيم به من السكان إلا نفر قليل ممن يعيشون في أكواخ صغيرة، وخط سكة الحديد الحجازية المار في هذا القسم لا يوجد به مدن في المحطات الواقعة عليه، فمن معان إلى دار الحمراء (٢٥٠ ميلاً تقريباً) لا يوجد فيه مدينة أو قرية إلا في تبوك؛ فإن بها نحواً من ٨٠٠ ساكن.

والساحل في هذا الجزء عبارة عن أرض منبسطة، يبلغ عرضها من ٧ أميال إلى ١٥ ميلاً، وليس به مزارعات إلا في فم الوديان؛ ولكن به بعض الآبار القديمة التي كان يردها حجاج مصر قديماً.

وأهم المدن والقرى هي:

١ - العقبة:

تقع على الشاطئ الشرقي من خليج العقبة، قريباً من رأس الخليج الذي يشبه نصف دائرة قطرها ثلاثة أميال، وبها قلعة قديمة على شكل مربع، وهي تحتوي على ١٠٠ منزل، وبها بساتين ومزارع نخيل.

٢ - المويّليح^(١):

قرية وقلعة على بعد ١٦٠ ميلاً إلى الجنوب، وبها سوق للحبوب، ونحو مائة عائلة يسكنون الأكواخ، وبها بساتين ومزارع نخيل، ومياهها من الآبار. ومن المويّليح توجد طريق قوافل لتبوك وللمدينة المنورة.

٣ - ضُبّا:

تقع إلى جنوب المويّليح وهي المحل الرئيسي لقبيلة الحَوَيْطَات، اتخذها الأتراك قديماً مركز دفاع عن الشاطئ. بها آبار ومزارع نخيل.

المنطقة الوسطى

يقع ضمن هذا الجزء جميع البلاد الواقعة بين خطي عرض (٧٥° و ٢٤°) شمالاً، ويمتد هذا الجزء نحو مائتي ميل، وجميع الوديان ومجاري المياه في هذه المنطقة تنفذ إلى

(١) إليها ينسب صاحب سيرة ابن هشام.

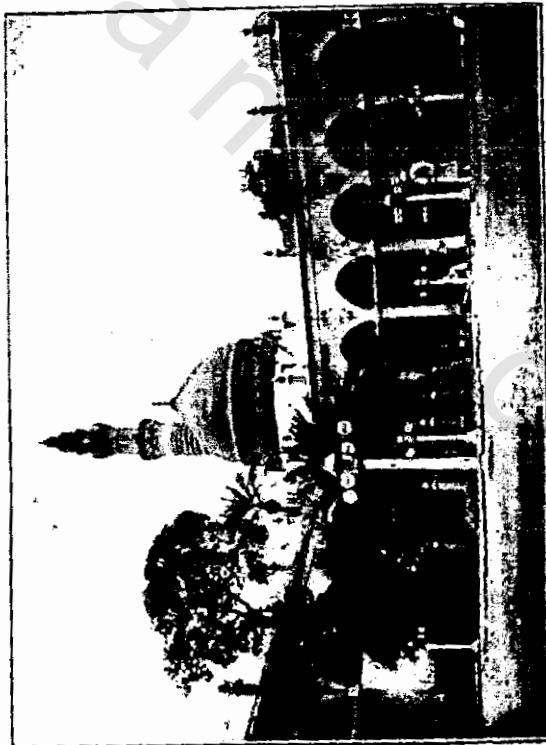
البحر الأحمر بواسطة منفذ واحد، هو وادي الحمض الذي يقع فمه إلى جنوبي الوجه بثلاثين ميلاً.

ووادي الحمض نفسه ينحدر إلى البحر من العُويرض وخيبر.

والبلاد الرئيسية في هذه المنطقة هي:

الوجه:

وهي بلدة صغيرة تحتوي على بضعة بيوت مبنية من الحجر، سكانها نحو ألفي نسمة، وبها قلعة وسوق، ومياها تميل إلى الملوحة.



البحر الأحمر من الداخل

أملج:

قرية بها نحو مائة منزل، بها قلعة صغيرة، وأمامها تقع جزيرة حَسَّان التي من رملها يصنع الزجاج، بها مزارع نخيل، ومنها تمتد طريق في الداخل إلى اصطبل عَنَزْر؛ إحدى محطات سكة حديد الحجاز (١٢٠ ميلاً)، وإلى المدينة المنورة (١٤٠ ميلاً) والأراضي هنا خصبة، وبخاصة في وادي عين الواقع إلى شمال جبل رَضْوَى.

ينبع البحر:

مبنية على سهل واقع بين البحر والجبل، وهي مسورة من جهة الداخل؛ بيوتها مبنية من الحجر الجيري، سكانها نحو ٥٠٠٠ نسمة، والمسافة بينها وبين المدينة تقطع بالسيارة في ست ساعات، ويجلب إليها الماء من مياه تسمى المُسِيحِي تبعد عن البلدة نحو أربع ساعات. وقد أنشأت الحكومة الحالية (كُنْدَانَسَا) لتقطير المياه من البحر؛ محافظة على صحة الزجاج وتوفير وسائل الراحة لهم.

ينبع النخل:

هي واحة نخيل مياهها كثيرة، وهي مقر عرب جهينة وحَرْب، ويتبعها نحو عشرين قرية أهلة بالسكان.

العَلَا:

تقع في شمال سكة حديد الحجاز، وسكانها نحو ٣٠٠٠ نسمة، والبلدة نفسها صغيرة وضيقة؛ ولكن الواحة تمتد حولها إلى ثلاثة أميال، وبها نهير صغير درجة حرارة المياه فيه ٩٢ ف. ومحاصيلها كثيرة يشترها البدو الرحل في الشمال، وبها بساتين قليلة.

خير:

هي قرية أو مجموعة قرى في واحة تسمى باسمها، واقعة في حرة على مرتفع يبلغ ٢٨٠٠ قدم فوق سطح البحر، وهي على بعد ستين ميلاً من شمالي المدينة المنورة. والبلدة نفسها تقع في وادي زَيْدِيَّة أكبر وديان خير، وبها قلعة قديمة تسمى الحصن، وبها عيون ماء جارية كثيرة.

وخير اسم مشهور من قديم في الإسلام؛ فقد وقعت فيها معارك. وسكانها ٣٠٠٠ نسمة أكثرهم مولدون، والعرب لا يحبون الإقامة فيها خوف الحمى. والواحة غير صالحة، وقد كانت خير موطن لليهود في صدر الإسلام.

الحِثَاكِيَّة:

موطن صغير في جنوب خير، وعلى مقربة من رأس وادي الحُمَض، وقد كانت قديماً تابعة لقبيلة الرُّوَلَة؛ ولكنها الآن أصبحت موطناً للموالي، وبها نحو خمسين منزلاً، وبها مزارع للنخيل. وهي واقعة على إحدى الطرق ما بين المدينة وْبُرَيْدَة.

القسم الجنوبي

يمتد هذا القسم من خط عرض ٢٤° إلى خط عرض ٢٠° شمالاً، حيث تبتدئ حدود عسير من هذا الخط. وأهم مدنه:

رابع:

وهي عبارة عن مجموعة من البيوت الصغيرة؛ ولكن بها مزارع نخيل واسعة تمتد في الداخل إلى بضعة أميال.

جُدَّة:

هي مدينة مسورة، وتقع ميناؤها في منتصف البحر الأحمر تقريبًا، وهي ميناء مكة، والمسافة بينهما خمسة وخمسون ميلًا، ويبلغ سكانها حوالي ثلاثين ألف نسمة.

أسس جدة الخليفة الثالث عثمان. وميناؤها خطر لكثرة الشعوب الموجودة فيها، وقد كان بجدة قبر ينسب إلى حواء أم البشر، وقد كان الحجاج يزورون هذا القبر ويتبركون به، كما أن أهل جدة أنفسهم كانوا يقصدون هذا المكان للتعظيم، وقد هدمت الحكومة الحاضرة القبة الموضوعة على القبر، كما أزال البنيان الذي على القبر، ومنعت الناس من التمسح به، أو إتيان أي عمل لا يتفق مع الشريعة الإسلامية.

ولقد زار العلامة ابن جبير الأندلسي جدة في حجه (سنة ٥٧٩هـ) فذكر بعض آثار جدة، ومنها الموضع الذي شيد عليه «قبة عتيقة» يقال إنه كان منزل حواء أم البشر عند توجهها إلى مكة، ولم يذكر ابن بطوطة شيئًا عن قبة حواء عند مروره بجدة في طريقه إلى اليمن (سنة ٧٣٠هـ) ولم نقف على تاريخ تشييد القبة؛ وعلى كل حال فليس هنالك حجة تاريخية على صحة هذه النسبة.

ويحيط بجدة قرى صغيرة في الجنوب والشمال، أكثرها مؤلف من بيوت صغيرة أو أكواخ يسكنها البدو، والجمالون وكثير من الزنوج.

وجدة ليس بها نهر أو عين لشرب السكان؛ ولكن بها آبار كثيرة خارج البلد يملك أكثرها الأشراف والأهالي، وهي تملأ بماء الأمطار؛ كما أن البيوت بها صهاريج تملأ بماء ينحدر إليها من سقوف البيوت، وهذه المياه غير صحية؛ ولذا فقد كان الأغنياء يجلبون ماءهم من الآبار البعيدة.

وقد شيدت الحكومة التركية آلة على البحر لاستخلاص الماء الحلو؛ فساعد أهل جدة والأوربيين المقيمين بها على الحصول على ماء صحي نقي، وقد اشترت الحكومة الحالية ماكيتين كبيرتين لهذه الغاية بالنظر إلى قدم العهد على الآلة الأولى، فتوفرت المياه العذبة للسكان وللحجاج، وفي الستين الماضيتين أوصلت الحكومة الحالية ماء عين الوزيرية إلى جدة، وهي تعمل لإيصالها إليها بالأنابيب الحديدية، وهي على وشك الانتهاء من هذا العمل الجليل.

وقد كانت جدة في القرن الماضي مركزاً تجارياً هاماً، تجلب البضائع إليها من الهند وغيرها، ومنها توزع إلى بلاد العرب ومصر والسودان وغيرها، ولكن شأنها ضعف بعد أن وضع محمد علي باشا يده على الحجاز، وفتح السويس للتجارة. وقد أضعف شأنها كثيراً فتح ميناء بورسودان، فأصبح هو الميناء الأول في البحر الأحمر.

الليث:

قرية تبعد عن الميناء نحو ميل ونصف؛ بيوتها من الطين، شاطئها منخفض ورملي، وفي الداخل تبدأ الأرض في الارتفاع إلى الشمال حيث تتحول إلى جبال عالية بعد مسافة.

مكة:

وتسمى بكة وأم القرى، أشهر مدن الحجاز، بها بيت الله والمسجد الحرام، وتقع مكة في واد ضيق عميق يتجه شمالاً مع ميل قليل إلى الشرق، والتلال المحيطة به ترتفع إلى مئات من الأقدام، وتحيط بالوادي إحاطة كاملة، أغنت السكان والأمراء عن بناء سور لحمايتها، وقد شيدت عدة ضواح شمالي مكة.

يبلغ سكانها نحو ١٠٠ ألف نفس، وقد عمل إحصاء لمكة (سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م) ولكن النساء^(١) لم يدخلن في هذا الإحصاء، وعلى كل حال فالإحصاء تقريبي، وجو مكة حار جداً وجاف؛ ولكنه صحي.

(١) وتذكرنا حوادث استثناء النساء من الإحصاء بما حاولته إدارة الصحة من وجوب الكشف على الأموات قبل الدفن، فاحتج أهل مكة على سريان هذا القانون على النساء، وساعدهم علماء نجد على رأيهم، فلم تستطع الحكومة تعميم الكشف، واضطرت أخيراً لاستخدام بعض السيدات الملمات بأصول الطب لهذا الغرض، وبعض الأغراض الأخرى الخاصة بالسيدات.



منظر من مناظر جدة

وأهم ما في مكة من المباني والآثار: الكعبة المشرفة، والمسجد الحرام.

فالكعبة -أو بيت الله أو البيت العتيق- بناء مربع تقريبًا، بني في أوسع نقطة من الوادي، والآن يحيط بها المسجد، والمسجد من حيث السعة والبناء والجمال والفن المعماري لا يفوق غيره من المساجد الأخرى الموجودة في الشرق، ولكن الاحترام والتقدير إنما هو للكعبة.

يبلغ ارتفاع الكعبة ١٥ مترًا، وطول جدارها الشمالي ٩٩٢ مترًا، والجنوبي ١٠٢٥ مترًا، والغربي ١٢٢٥ مترًا، والشرقي ١١٨٨، وفي الجدار الشرقي بابها،

ويرتفع عن الأرض مقدار مترين وعتبته مصفحة بصفائح الفضة، وكذلك مصرعا الباب؛ إلا أن صفائح الفضة مطلية بالذهب.

ويلاصق جدار الكعبة من أسفلها بناء من الرخام، يسمى بالشاذروان، أقيم تقويةً للجدران، وهو محيط بها من جميع جوانبها، ولا يعلم بالضبط متى بدئ البناء على أصل الشاذروان، وقد جدد البناء عليه مرارًا، وفي الركن الجنوبي الشرقي للكعبة من الخارج الحجر الأسود، وهو مبدأ الطواف، ويرتفع عن الأرض مترًا ونصفًا، وهو كاسمه أسود، وقد عمل له غطاء من الفضة (سنة ١٢٩٠ هـ) بسبب التشقق الذي حدث فيه، وقد قال سيدنا عمر في تقبيل الحجر: إنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلك ما قبّلتك.

أمّا تاريخ تشييد الكعبة والغرض الأساسي من بنائها، فإنه يشغل قسماً هاماً من التعاليم الإسلامية، والتاريخ العربي والديني؛ غير أن الروايات الكثيرة التي وردت في ذلك يحتاج أكثرها إلى بحث علمي دقيق؛ فإن الروايات الخاصة بهذا الموضوع كثيرة ومتناقضة، وبعضها لا يتفق مع قواعد العلم^(١).

إذ إن المكان الذي شيدت عليه الكعبة قد أرجعه الرواة إلى آدم أبي البشر، ومع أن هذا لا يستند إلى خبر صحيح، فإنه يدل على أن بناء الكعبة قديم يرجع إلى ما قبل التاريخ.

والتاريخ الحقيقي للكعبة يبتدئ من عصر إبراهيم عليه السلام، وسنلخص فيما يلي ما رواه البخاري، لما له من المركز الممتاز عند مؤرخي المسلمين، وللدقة التي كان يتوخاها في تمحيص الروايات:

قال البخاري: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبانها إسماعيل، وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس في مكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء؛ ثم قفل إبراهيم منطقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ وقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت: الله أمرك بها؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: {ربنا إني أسكنت من ذرتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم} حتى بلغ {يشكرون}. وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر: هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً؛ فهبطت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت: هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات؛ فلذلك سعى الناس بينهما، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه^(١)، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن هاهنا بيتاً لله بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ من يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من

(١) أي: تجعل موضعاً يجتمع فيه الماء.

جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء^(١)، فنزلوا في أسفل مكة، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجه امرأة منهم، ثم طلقها وتزوج من أخرى، ثم جاء إبراهيم وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة من زمزم، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد. ثم قال: يا إسماعيل! إن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يتأوله الحجارة، وهما يقولان: ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم.

^(٢) ولما بنوا القواعد وبلغا مكان الركن، طلب إبراهيم من ابنه حجراً فأظهر كسله، فانطلق إبراهيم يطلب الحجر، فجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض من ياقوتة بيضاء، وكان آدم هبط به من الجنة، فاسود من خطايا الناس.

وقد همت قریش ببناء الكعبة سنة أن بلغ رسول الله خمساً وثلاثين سنة، ولكنهم كانوا يهابون هدمها، وإنما كانت رضاً فوق القامة، فأرادوا رتعها وتسقيفها، فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها، قام ابن وهب - أو أبو وهب بن مخزوم، أو المغيرة بن مخزوم - وقال: يا معشر قریش! لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، ولا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

(١) جبل بأعلى مكة.

(*) هذه الزيادة ليست من رواية البخاري، وإنما ذكرها المؤرخون والمفسرون، وهي بلا شك أشبه بالأساطير. (صحيح مسلم).

فأخذت قريش تجمع الحجارة؛ كل قبيلة على حدتها، حتى بلغ البنيان الحجر الأسود، فاختصموا فيه؛ كل قبيلة تريد أن تمتاز بهذا الشرف، حتى كاد الأمر يفضي بهم إلى القتال، وأخيراً أشار عليهم أبو أمية بن المغيرة أن يتركوا الفصل في هذا النزاع إلى أول داخل من الباب، فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد.

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، فصلى الله عليه وسلم: ((هلم إليّ ثوباً)) فأتي به، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال: ((لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً)). ففعلوا حتى إذا بلغوا موضعه وضعه هو بيده، ثم بنى عليه.

ولم تزل الكعبة على بناء قريش حتى احترقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير، وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصر ابن الزبير في مكة ورماها بالمنجنيق، فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض، وبنائها على قواعد إبراهيم، وأدخل فيها الحجر وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين بالأرض، كما سمع ذلك من خالته عائشة عن رسول الله. ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان. وقد أراد هارون الرشيد أو أبوه المهدي ردها إلى بناء عبد الله بن الزبير، فاستفتوا الإمام مالكاً في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها. فترك ذلك الرشيد.

وقد عملت ترميمات عديدة في أيام الخلفاء العباسيين، وسلاطين مصر المماليك، وسلاطين آل عثمان، بسبب السيول والأمطار، وتجدد في داخل الكعبة وخارجها ما يشير إلى ذلك.

وتغسل الكعبة من الداخل مرتين في السنة: في رجب وذى الحجة؛ يقوم بهذا العمل الشيخ الشيبى سادن الكعبة، ويدعو لحضور هذا العمل الذي يعد من حفلات مكة الهامة حكام البلد وأعيانها، وبعض البارزين من الحجاج، ويزدحم الناس حول الكعبة في ذلك اليوم ازدحاماً يدل على ذلك الأثر الديني العميق في النفوس؛ على أن هنالك بعض أشياء تحدث من العامة وغير الواقفين على العقيدة الإسلامية الصحيحة؛ من شرب ماء الغسيل والاعتسال به، ولكن الجهل آفة كل شيء، وقد حضرت هذا الاحتفال مراراً أثناء إقامتي بالحجاز.

ويجمع الشيخ الشيبى ماء الغسيل ويضعه في قوارير يهديها مع المكانس للحكام وكبار الحجاج، وتكسى الكعبة كل سنة، وليس من موضوع الكتاب التوسع في وصف الكسوة وتاريخها في الجاهلية والإسلام، فقد أفردت كتب كثيرة في العربية واللغات الأخرى في وصف مكة والمدينة، وكل ما يتعلق بهما.

مقام إبراهيم:

لا يعلم بالضبط: هل موضع المقام الحالي هو موضعه الأصلي، أو كان ملصقاً بجدار الكعبة، ثم نقل إلى موضعه الحالي؟

فبعض الرواة يرجحون أن المقام كان ملصقاً بجدار الكعبة، ونقل من مكانه في خلافة عمر، وروى الأزرقى أن موضعه الحالي هو موضعه في الجاهلية وفي عهد أبي بكر وعمر؛ إلا أن السيل ذهب به في خلافة عمر، فجعل في وجه الكعبة، إلا أن عمر رده إلى موضعه بمحضر من الناس، ويذكر ابن جبير أن الذي صرفه إلى موضعه الحالي هو النبي صلى الله عليه وسلم.

والناس يصلون خلف مقام إبراهيم ركعتين بعد الانتهاء من الطواف، وكثير من الحجاج من يقبل الحجر المسمى مقام إبراهيم ويتبرك به، حتى المتسبين إلى العلم منهم؛ فالرحالة ابن جبير الأندلسي الذي حج في (٥٧٩هـ) يذكر مقام إبراهيم ويصفه ويقول: عايناه وتبركنا بلمسه وتقبيله، وصب لنا في أثر القدمين المباركين ماء زمزم فشربناه، نفعنا الله به.

ولقد فعل فعلته السيد أحمد السنوسي سنة (١٣٤٤هـ - سنة ١٩٢٥م) فقامت عليه قيامة الإخوان النجديين، ونهره الملك ابن السعود على فعلته؛ لأن الملك عبد العزيز في سبيل التوحيد والأمر بالمعروف لا يراعي أحدا؛ فإن مبدأه الدين قبل كل شيء، ورضاء الله مقدم على رضاء الخلق.

المسجد الحرام:

إن ساحة البيت - وهو المسجد - كان قضاء للطائفتين، ولم يكن عليه جدر أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر من بعده، ثم كثر الناس فاشترى عمر دورا هدمها وزادها في المسجد، وأدار عليها جدارا دون القامة، وفعل مثل ذلك عثمان، ثم ابن الزبير، ثم الوليد بن عبد الملك، وبناه بعمد الرخام، ثم زاد فيه المنصور، وابنه المهدي، وما زال المسجد موضع عناية الحكام والملوك والسلاطين من عباسيين ومماليك وأتراك وعرب وغيرهم، يتولونه بالتعمير والترميم من وقت لآخر كلما مست الحاجة إلى ذلك.

بئر زمزم:

قد تقدم في قصة بناء الكعبة أن الملك فجرها لإسماعيل بعقبه، وقد طمرها الحارث بن مضاض، وجددها عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم، ويروون

في ذلك قصة تشبه القصص الأخرى التي تروى عن أمثال هذه الأماكن التي لها ما لزمن من الاحترام في نفوس الناس. ويقولون: إن عبد المطلب رأى رؤيا منامية^(١)، فسمع هاتفًا يهتف في أذنه: أن احفر طيبة، فاستيقظ من نومه، ثم غلب عليه النوم فسمع للمرة الثانية: أن احفر برة، فاستيقظ ثم غلب عليه النوم فسمع للمرة الثالثة: احفر المضمونة، ضمنت بها على الناس إلا عليك، بنقرة الغراب الأعصم، وإنما بين القرث والدم، وعند قرية النمل، إنها لا تنضب أبدًا. فلما قام ليحفرها رأى ما رسم له من قرية النمل، ونقرة الغراب، ولم ير القرث والدم، فبينما هو كذلك نذت بقرة لجازرها فلم يدركها حتى دخلت المسجد الحرام، فنحراها في الموضع الذي رسم له؛ فسال هنالك القرث والدم، فحفر عبد المطلب حيث رسم له، وقد عثر على غزالين من الذهب كانتا مهادتين من الفرس للكعبة، وكانت قد دفنهما الحارث بن مضاض.

وذكر الزهري أن عبد المطلب اتخذ حوضًا لزمن يستقى منه، وكان يخرب بالليل حوله، فلما غمه ذلك، قيل له في النوم، قل: لا أحلها لمغتسل، وهي لشارب حل وبيل، وقد كفيهم، فلما أصبح قال: نعم، وكان بعد من أرادها بمكروه رمى بداء في جسده حتى انتهوا عنه، والمسلمون يعتقدون في ماء زمزم البركة، وقد كانوا يحملونه إلى بلادهم بعد الحج؛ لإهدائه إلى أصدقائهم وأقاربهم، ويعدون ذلك من أفخر الهدايا، لكن إدارة (الكورنتينات) تمنع دخول ماء زمزم إلى البلاد التي يفدها الحجاج.

ولا يزال الماء يستخرج من زمزم بالدلاء الجلدية حسب العوائد القديمة. ولقد فكر جلالة الملك عبد العزيز (سنة ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م) في الاستعانة بالآلات الحديثة لتكثير الماء وتوزيعه بطريقة صحية، وصيانة الحرم مما يتعرض له في موسم

الحج من الازدحام والمخاصمة، وما يتبع ذلك من فقدان النظافة، فأمر جلالتة في تلك السنة بتركيب آلة رافعة للماء، وأحضر مهندساً من مصر لهذه الغاية. ولكن لما كان هذا العمل يؤثر في كسب طائفة الزمازمة والسقائين، وعملهم محصور في إخراج الماء بالدلو من البئر وتوزيعه على الحجاج، ولا يرضى الجامدين الذين لا يرضون بجديد ولو كان نافعاً، قامت قيامتهم ضد هذا المشروع النافع. ولقد ابتدأ العمل بالفعل وجرى الحفر بالحرم لوضع الأنابيب، وأرسل إلى مصر لشراء الآلة والأنابيب والأحواض الكبيرة التي يوزع منها الماء، وأخيراً أثار الزمازمة أهل نجد وألبسوا عليهم الأمر، وأن بئر زمزم سينضب ماؤها بعد تركيب هذه الآلة الرافعة، ولا شك أن هذا العمل سيجلب عليهم سخط المسلمين، فألحَّ أهل نجد المقيمون بمكة على الملك بإلغاء هذا المشروع، وإبقاء القديم على قدمه، حتى لا تجري هذه المصيبة في أيامهم، فلم ير الملك من المصلحة إغضابهم في هذا الوقت الذي بدأت فيه حركة الإخوان، فأمر بإيقاف المشروع والعدول عنه. ولعل الحكومة تبعث المشروع من جديد، لتضمن توزيع ماء زمزم بطريقة صحيحة.

بيوت مكة:

ولقد كان في مكة كثير من الآثار التاريخية مثل: مولد النبي، بيت خديجة، بيت أبي بكر، وغيرها من الآثار. ولكن الإخوان هدموا هذه الآثار مع ما هدموه من القباب والقبور؛ لأن هذه الأماكن اتخذت مصدراً لابتزاز أموال الحجاج، فسداً للذريعة أزالوا كل أثرها. ويقول المؤرخون للحركة السعودية الأولى: إن مكة والمدينة في أثناء الحكم السعودي في القرن التاسع عشر الماضي، قد أزيل منهما كل الآثار التاريخية التي كان يتبرك بها الحجاج.



سقاء بالصفايح في مكة

وبيوت مكة من الحجارة، وهي في نظافتها خير من سائر بيوت جزيرة العرب؛ غير أن نظام المراحيض لا يتبع النظام الصحي. وقد عمل سلاطين الأتراك مجرى كالمجاري التي تعمل في المدن، ولكنه ليس عامًا من جهة، وغير واف تمامًا من الوجهة الفنية.

ونظام الشرب على الطريقة القديمة؛ فالسقاءون هم الذين ينقلون الماء إلى البيوت؛ إما بالقرب أو صفائح الغاز.

ومكة كالبصرة والقطيف في كثرة البعوض؛ ولكنه من النوع الذي لا يحمل جراثيم الملاريا كما هو الحال في بعض المدن الحجازية الأخرى، ولم تعمل إدارة الصحة أو البلديات حتى الآن عملاً جدياً لإبادته؛ فلعل هذه الإدارات تشمر عن ساعد الجد، وتقوم بحملة عنيفة لتخليص البلاد من هذا العدو الخبيث، ولا شك أن جلالة الملك سعود المهمة القعساء سيكون أكبر معاون للعاملين.

ومكة مملوءة بالحمام حرمة صيده، وتجذ في الحرام منه أسراباً أسراباً، وهو يشبه في إلفه للناس أنواع الطيور التي توجد في الحدائق العامة في أوروبا. وكثير من الحجاج يعتقد أن مكملات الحج تقديم الحبوب لحمام الحرم، كما أن الكثير من الناس اعتقاداً بأن الحمام لا يعلو الكعبة، ولا يقف على سطحها، ولا يقذرها. أما المسجد ولا سيما الأروقة المحيطة به، فكلها أعشاش للحمام، ولا يخلو حاج من أن يصل إليه شيء من أقدار الحمام، ويعتقد بعض الجهلة أن من أصابه شيء من أقدار الحمام، سيكسى كسوة جديدة، وهي تعزية لطيفة!

وأهل مكة والمدينة يعنون بنظافة بيوتهم، كما يعنون بنظافة أبدانهم وملابسهم أكثر من سواهم من سكان جزيرة العرب. ويعيش أهل مكة على ما يكسبونه من وفود الحجاج، وهو مصدر خير عظيم إذا كثر الحجاج، أما إذا قلَّ عددهم فلا يتصور أحد ما يعانيه هؤلاء من صنوف الضيق.

لقد أولى المسلمون عنايتهم بمكة والحجاز وأهله عناية عظيمة في القرون الأولى والوسطى، فلا تزال عين زُنَيْدَة وغيرها من العيون ناطقة بتلك المكرمة التي أسداها أهل الخير لسكان البلاد المقدسة والوافدين.

وكان الخلفاء والسلاطين يولون الحجاز عنايتهم، فكانوا يمدونه بالصدقات والأوقاف على اختلاف أنواعها، مما لا يزال بعضه باقياً حتى الآن؛ ولكن بلغ الإهمال بالمسلمين في القرون الأخيرة ما جعل الحجاز في مستوى أقل مما يجب له من العناية والإجلال؛ فالمسجد الحرام الذي يؤمه المسلمون من كل ناحية، ليس في جمال مساجد الآستانة والقاهرة والهند.

ومدينة مكة في طرقها ومبانيها ونظامها الصحي، ليست كالقاهرة أو دمشق أو بغداد، وهذا التقصير تقع تبعته على المسلمين عامة، وعلى الحكومة التركية التي حكمت البلاد قرونًا عديدة، ولا شك أن أشرف الحجاز يتحملون قسطاً من التبعة؛ لأنهم كانوا الحكام الحقيقيين لمكة؛ فقد كان بوسعهم لو كانوا ذوي بصائر نافذة، وعقول راجحة، وعلم بتطورات العالم، أن يجعلوا الحجاز وسكانه في مستوى خير من مستواه الحالي؛ ولكن الأشرف سلطوا مطامعهم على الحجاج وعلى سكان بلد الله الحرام، وحالوا في كثير من الظروف دون ترقية البلاد. ولسنا نرمي فئة خاصة من الأشرف، فإن الأشرف الذين حج في أيامهم الرحالة ابن جبیر في القرن السادس، وابن بطوطة بعده، كانوا مثل أشرف القرون الأخيرة.



زى من أزياء النساء في مكة

الرقيق في مكة:

كانت مكة أكبر سوق للرقيق في جزيرة العرب، وكان العرب يحرصون على شراء الجوارى والعبيد منها؛ لأن لأهل مكة عناية خاصة بتربية الجوارى والعبيد، وتدريبهم على الخدمة المنزلية، وقد تتجاوز قيمة العبد ستين جنيهاً، والجارية مائة وعشرين جنيهاً، وأفضل العبيد والجوارى المجلوبون من الحبشة؛ لأنهم أخلص في الخدمة وأوفى لسادتهم.

والرقيق الذي يرد للحجاز وجزيرة العرب، هو الغنيمة من الغزوات والغارات في بلاد الحبشة الواسعة الأطراف؛ فالتجار يشترون الرقيق هنالك من الغزاة، ثم يجلبونه إلى بلاد العرب بوساطة السَّنايك^(١) إلى السواحل العربية، وبالرغم من

(١) نوع من السفن الشراعية.

مطاردة هؤلاء التجار، وإنزال أشد العقوبات بمساعديهم، فإن التجار لا يزالون يُغامرون في هذا النوع من التجارة. والغالب شراء الرقيق للخدمة المنزلية أو الخدمة في البساتين، وقد تشتري الجوارى لأغراض أخرى، وهذا على الأكثر في عسير. وأمراء العرب يكثر من الرقيق رجالاً ونساء؛ فالرجال للخدمة على اختلاف أنواعها وللحراسة الخاصة، والجوارى للخدمة المنزلية وغيرها.

على أن تحرير الرقيق من الأعمال المحبوبة شرعاً والتي لا يزال العرب يعدونها من أفضل القربات إلى الله، فقلماً يمت أحد ولا يوصي بتحرير بعض عبيده وجواريه مع شيء من المال يساعدهم. وفي الغالب يفضل الرقيق الذي يحرر أن يبقى في بيت أهله، ويأبى أن يغادر من عاش في كنفهم.

لقد جرت محاولات لإبطال الرق في بلاد العرب؛ ففي سنة ١٢٧٢ هجرية أمرت الدولة العثمانية بمنع الرقيق؛ فحصل هرج ومرج بمكة، جعل الحكومة التركية تعدل على أمرها.

وفي أيام الملك حسين جرت مخابرات بينه وبين الحكومة البريطانية؛ لإبطال سوق الرقيق في الحجاز، ولكن الملك حسيناً كان يحتج بأن الرقيق ليس مصدره مكة، فإن امتنع وزوده إلى الحجاز بطل بالتدريج.

وفي سنة (١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م) اتفقت الحكومة البريطانية والملك عبد العزيز على التعاون على القضاء على الرقيق، فوضع الملك عبد العزيز بعض القيود للتجارة فيه؛ فضعفت هذه التجارة.

والمسألة في الواقع اقتصادية، فلو أن الخدم يتوفرون في مكة وبلاد العرب ما لجأ الناس إلى الرقيق، ولكن أهل مكة يفضلون خدمة الحجاج؛ لأنها تدر عليهم من المال ما لا تدره عليهم الخدمة الأخرى، وقلما تجد خادماً في مكة للخدمة المنزلية.

واعتقد أنه ليس في إمكان أية حكومة أن تأمر بإلغاء الرقيق، وتحرير العبيد في جزيرة العرب دفعة واحدة، فإن ذلك قد يؤدي إلى ثورة أهلية، ولكن إذا قضى على التجارة في السواحل العربية ضعفت في الداخل. وعلى كل حال فإن الرقيق يتناقص عدده في كل سنة، وسيقضى عليه لا محالة. ومن الغريب أن بعض الأوربيين في إقامتهم في بلاد العرب تصل إليهم عدوى الرقيق، فيحوزون الرقيق، كغيرهم من العرب ويستعملونه في الوجوه التي يستعملها فيه العرب.

منع غير المسلمين من دخول الحجاز:

لقد جرى العرف على ألا يدخل البلدان المقدسين - مكة والمدينة - غير المسلمين. ومنشأ هذا ما روي عن ابن عباس: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في مرض موته: ((أخرجوا المشركين من جزيرة العرب)). وأن عمر سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ((لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع فيها إلا مسلماً)). وأن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: آخر ما عهد النبي أنه قال: ((لا يترك بجزيرة العرب دينان)). وأن ابن عمر قال: إن عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وأنه أجلى يهود خيبر إلى تبء وأريحيا. وحكى الحافظ ابن حجر في الفتح في كتاب الجهاد: أن الذي يمنع منه المشركون من جزيرة العرب هو الحجاز خاصة، وهو مكة والمدينة واليامة وما والاها، لا ما سوى ذلك مما يطلق عليه جزيرة العرب؛ لاتفاق الجميع أن اليمن لا يمنعون منها، مع أنها من جملة جزيرة العرب. وعن الحنفية: يجوز مطلقاً إلا المسجد.

وعن مالك: يجوز دخولهم الحرم للتجارة. وقال الشافعي: لا يدخلون الحرم أصلاً إلا بإذن الإمام لمصلحة المسلمين.

وذكر في المغنى أنه: لا يجوز لغير المسلمين دخول الحرم بحال. وبهذا قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: لهم دخولهم كالحجاز كله، ولا يستوطنون به، ولهم دخول الكعبة. والمنع من الاستيطان لا يمنع الدخول والتصرف.

وذكر صاحب المغنى أيضاً أنه يجوز لهم دخول الحجاز للتجارة؛ لأن النصارى كانوا يتجرون إلى المدينة في زمن عمر.

ويؤيده ما ورد في كتاب «أخبار مكة» للأزرقي ما نصه:

«... وأخبرني جدي قال: أول من عمل القبة التي بين زمزم وبيت الشراب، المهدي في خلافته، عملها لهم أبو بحر المجوسي النجار، وكان جاء به عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنه إلى مكة من العراق».

وما ورد في كتاب «تاريخ المدينة» للمطري:

«... وأرسل الوليد إلى ملك الروم فقال: إنا نريد أن نعمر مسجد نبينا الأعظم، فأعنا بعمال وفسيفساء. فبعث إليه بثمانين عاملاً: أربعين من الروم، وأربعين من القبط، وثمانين ألف مثقال، وبأحمال من الفسيفساء، وبأحمال من سلاسل للقناديل».

وقد وضعت الحكومة الحالية تشريعاً، من مقتضاه ألا يدخل الحجاز من يدخل في الإسلام إلا بعد مضي سنة على إعلان إسلامه؛ منعاً للبعض الأوربيين الذين يدعون الدخول في الإسلام بقصد زيارة مكة أو المدينة فقط.

الطائف:

هي مدينة مسورة واقعة في سهل رملي، محاطة بتلال منخفضة، وتقع على بعد ٧٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مكة، على ارتفاع خمسة آلاف قدم من سطح البحر؛ وهي مصيف رجال الحكومة، وبيوتها مبنية من الحجر، والمدينة تغطى بالسكان زمن الصيف فقط، وجوها أبرد بكثير من مكة، والمياه فيها غزيرة، وهي في جوها وتربة أرضها تشبه الأراضي العالية في عسير واليمن. والأمطار الغزيرة تسقط هناك في فصل الخريف، والآبار كثيرة، ومنها تروى الأراضي الزراعية البعيدة عن مجاري المياه.

يبلغ عدد السكان نحو عشرة آلاف نسمة، وأغلبهم من ثقيف وعُتيبة، ويشغلون بزراعة البساتين والخضر. وفاكهة الطائف مشهورة بجودتها في سائر البلاد العربية؛ ففيها العنب والرمان والخوخ والليمون الحلو والمشمش والسفرجل. أمّا زراعة النخيل في الطائف فلا تجود لشدة البرد.

وينمو الورد في الطائف، ويستخرج منه عطر فاخر يباع على الحجاج في موسم الحج.

عسير

يطلق «عسير» على الجهة الغربية من بلاد العرب الواقعة إلى جنوب الحجاز وشمال اليمن. وقد كان هذا القسم أيام حكومة الأتراك غير محدود تحديدًا واضحًا؛ فمع أن الأتراك قد كونوا متصرفية^(١) عسير، وجعلوها تابعة لولاية اليمن، فقد كان أشرف الحجاز يدعون تبعية بعض المناطق المجاورة للحجاز، كما كان أمراء نجد أيضًا يدعون ملكية بعض المناطق من الجهة الشرقية. أما اليوم فإن عسيرًا أصبحت من المملكة العربية السعودية، حسب معاهدة الطائف الأخيرة.

ومنطقة الحجاز الرملية الموازية للشاطئ تمتد إلى بلاد عسير بعرض يختلف من (٢٥-٣٠ ميلًا)، ثم تتصل بتهامة اليمن. أما المنطقة الثانية والثالثة والرابعة في الحجاز^(٢)، فإنها لا تظهر بجلاء في بلاد عسير، ويكاد لا يكون هناك تمييز بين هذه المناطق الثلاث.

وعلى بعد نحو ثمانين ميلًا من الشاطئ توجد سلسلة مرتفعات عالية، يبلغ ارتفاعها نحو (٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ قدم)، ومن هنالك تأخذ الأرض من جانبها الشرقي في الانحدار شيئًا فشيئًا، حتى تتصل بصحاري نجد.

(١) متصرفية: مديرية في عرف مصر.

(٢) راجع التقسيم الطبيعي لولاية الحجاز.

ونظرًا لما يصيب بلاد اليمن من المطر الموسمي في الخريف، ونظرًا لقرب عسير منها، فإنه يصيبها من هذا المطر غير قليل. ولذا فإن وديانها الكثيرة الشاسعة تعتبر من الدرجة الأولى في الخصوبة. وأهم هذه الوديان هو:

وادي رائية. وادي بيشة. وادي شهران. وادي عقيق.

وأغلب الوديان الكبيرة تجري فيها المياه، إما فوق سطحها أو قريبًا منه. وحالة الوديان تختلف عنها في الحجاز؛ لأن البلاد خالية من النفود^(١).

وتجري الوديان الرئيسية في اتجاه وادي الدّوأسر الواقع في جنوبي نجد، والبلاد الداخلية في غاية الخصوبة، وخصوصًا من تنومة إلى تميّة. وهي تضارع أحسن وأخصب البلاد العالية في اليمن. والمزروعات -على اختلاف أنواعها من حبوب وبقول وفاكهة- تجود في الوديان.

والجزء المجاور لشاطئ البحر وإن كان رمليًا، فإنه أحسن بكثير من نظيره في الحجاز؛ ففي أجزاء كثيرة منه تنبت المزروعات، ويعيش كثير من السكان عليها، وينزل مطر غير غزير في جنوبي تهامة وتهامة الوسطى في شهري فبراير ومارس. وفي شهر يونيو تنزل أمطار غزيرة، أما في الشمال سواء في الداخل أو في البلاد الساحلية، فإن المطر ليس دوريًا جليل الفائدة.

(١) النفود: جبال رملية.

السكان

يبلغ عدد السكان تقريباً حوالي مليون ونصف. والأهالي كلهم شافعيو المذهب؛ إلا النادر القليل جداً في الشمال الشرقي؛ فإنهم حنابلة سلفيون. ويشغل غالب الأهالي بالزراعة، والبدو الرحل قليلون جداً في عسير. والاختلاط في الأنساب قليل فيها، إلا ما كان منه في المدن الكبيرة، وحدود القبائل بعضها من بعض معينة دقيقتاً ليس له نظير في غير عسير. وأقوى القبائل وأكثرها عدداً يحتل صلب البلاد، ورءوس الوديان الداخلية، والجزء الأعلى من العقبات.

الزراعة

تتوقف الزراعة في تهامة على أمرين: الأول: نزول الأمطار المحلية، والثاني: سيول المياه من الوديان المنحدرة إلى البحر. وفي مجرى أغلب الوديان الكبيرة تقام السدود لحجز المياه، وتوجيهها في اتجاه الأراضي المراد زراعتها. وتحصد الأرض مرتين؛ في الربيع وفي الصيف، وثلاث مرات في بعض الأحيان.

والمزروعات هي: الدخن والأذرة والسمسّم والقطن، وكل أنواع الخضرة المحلية. وأخصب الأجزاء في تهامة هو الجزء الواقع بين حيلي والبرك. وفي الداخل يزرع القمح والشعير والأذرة والفواكه، وشجر البن؛ ولكن بكمية قليلة لا تفي بالقدر الذي يستهلك في داخل البلاد.

والماشية والغنم والماعز والجمال تربي بكثرة في عسير، سواء في تهامة أو في الداخل.

التجارة

وموانئ الواردات إلى عسير هي: القنفذة، والبرك، والشقيق، وجيزان الجعافرة، والمضايأ، وتعرش، والموسم، والقرنية.

وواردات عسير قليلة، وأهمها البضائع القطنية، والسكر، والبترو، والأرز، وأدوات الطبخ، والأسلحة والذخائر.

أما الصادرات فإنها أقل، وهي: القمح، والدخن، والأذرة، والسمن، والسمنك المقدد؛ ويصدر إلى جدة أثناء موسم الحج، كما يصدر إلى مصوع وعدن: السمن، والجلود، والسمن، والصوف، والتمر، والصمغ وبعض الدواب.

البلاد

بلاد عسير المشهورة هي ما يلي:

١ - بيشة:

بلدة زراعية مكونة من جملة قرى، واقعة في الوادي المسمى باسمها، وهي على بعد ٢٤٠ ميلاً من شرق الجنوب الشرقي لمكة، وهي نقطة هامة على الطريق من وادي الدّوأسر إلى الحرمين، وأهم مكان بين الطائف وصنعاء، ويعتبرها العرب

مفتاح اليمن. وتروى الواحة بوساطة نهر صغير يسير متجهًا نحو الشمال الشرقي، حيث ينحدر إلى وادي الدواسر مع سواه من النهرات الأخرى الصغيرة، وقد حكم الأشراف قديمًا هذه المنطقة -قبل الحركة الإصلاحية- في نجد؛ ففي تاريخ العصامي، كثير من أخبار الأشراف في بيشة، وللاتصال الشديد بين بيشة ووادي الدواسر، كانت هذه المنطقة موضع نزاع بين الأشراف ونجد.

٢- تُرْبَة:

تقع على بعد تسعين ميلًا من جنوب شرقي الطائف، وهي على الطريق العام من نجد إلى اليمن، وهي مدينة مسورة، وتقع في حجم الطائف، وتحيط بها الأراضي الزراعية، ومزارع النخيل، وتروى بمياه غزيرة، ويجوارها عدة تلال؛ يزرع على سفوحها الشعير والأذرة. وقد اشتهرت تُرْبَة بمقاومتها العنيفة لقوات محمد علي سنة ١٨١٥م، كما اشتهرت بمعركتها الشهيرة بين جنود نجد والمليك حسين في ٢٤ مايو سنة ١٩١٩م.

٣- أَيْهَاء:

مدينة بيوتها مبنية من الحجر، على تل في وسط عسير، وهي على بعد نحو ١٣٩ ميلًا من قلعة بيشة، وكانت مركزًا للمتصّرّف^(١) زمن حكم الأتراك، وهي مركز هام للمواصلات وطرق القوافل في عسير.

(١) المدير في عرف مصر.

٤- محاييل:

بلدة في داخلية عسير تبعد عن القنفذة بنحو ٧٢ ميلاً، وهي ملتقى عدة طرق: من أبها، ومن القنفذة، ومن حلي، ومن البرك.

٥- خميس مُشيط:

هي أكبر مدينة في أخصب جزء من جنوبي عسير، وهي واقعة بين التلول إلى جنوب وادي بيشة، وهي على بعد ١٢٥ ميلاً من شرق الجنوب الشرقي للقنفذة التي تتصل بها بوساطة درب للقوافل، مياهها وفيرة، وهي مركز لتصريف تجارة التمر.

٦- أبو عريش:

أشهر بلدة في تهامة، ولها تاريخ هام في القرن التاسع عشر؛ عصر النهضة الدينية الأولى، وكانت عاصمة للشريف حمود الذي لعب دوراً هاماً في ذلك العصر، وهي على بعد ٧٠ ميلاً شمالي اللحجة، وهي مقر المركز المسمى باسمها، وأكثر بيوتها مبني بالحجر، مياهها غزيرة وزراعتها واسعة.

٧- صَبَا:

على بعد عشرين ميلاً في الداخل، وهي إلى الجنوب الشرقي من جيزان، وكانت عاصمة الأدارسة، وبها قلعة قديمة بنيت أيام الحكومة الأولى، وقد أصلحتها الحكومة الحالية بعد القضاء على ثورة الأدارسة الأخيرة (سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م) وسكانها نحو عشرة آلاف نسمة، مياهها غزيرة ومزروعتها واسعة.

٨ - القنفذة:

بلدة صغيرة مسورة، ومكونة من جملة بيوت وأكواخ على شاطئ البحر الأحمر، وهي على بعد ٢٠٠ ميلاً إلى جنوب جدة، وسكانها زهاء أربعة آلاف، وتجلب المياه من حَفائر على بعد ميلين ونصف في الداخل، وهي ميناء أثبأ، وتقع على بعد ٧٢ ميلاً من محَائل.

٩ - جيلي:

هي الرأس الغربي لخليج تحمي من رياح الشمال والشرق، وتقع على بعد أربعين ميلاً من جنوب الجنوب الشرقي للقنفذة، وهي قرية صغيرة قرب الشاطئ، وبقرها توجد قمة جبل جيلي المشهورة، وهي على شكل مخروطي.

١٠ - جيزان:

ميناء صغيرة على بعد ٢٠٠ ميلاً من جنوب الجنوب الشرقي للقنفذة، وهي واقعة أمام مجموعة جزائر فرسان، ويحيط بها من جهة الداخل جبل جيزان، وبالبلد بعض مبان بالحجر؛ ولكن الجزء الأكبر من بيوتها مبني باللبن، والمياه في البلدة قليلة جداً، ولكن على بعد ثلاثة أميال ونصف من شمال شرقي البلدة توجد آبار مياه وحفائر، وسكانها يبلغون ألف نفس، وهم يشتغلون باستخراج اللؤلؤ، وبقر جيزان جبل ملح حَجري.

١١- ميلدي:

قرية مكونة من بيوت قليلة وأكواخ، ومنها تذهب القوافل شرقاً إلى صعدة وصنعاء، وهي الآن من حدود اليمن، ويتبع منطقة عسير جزائر فرسان.

خلاصة تاريخية عن حكومة عسير

كانت مقاطعة عسير متصرفية، تابعة لولاية اليمن أثناء الحكم التركي؛ ولكن الحقيقة أن هذه المقاطعة كان يتنازعها نفوذ شريف مكة، وإمام اليمن، والإدرسي، وبعض الأمراء المحليين، الذين كان يتمتع بعضهم بشبه استقلال؛ غير أن الجميع كانوا يعترفون بسلطة الحكومة التركية.

فأمير مكة كان نفوذه يمتد إلى قبائل غامد، وبنى شهر وشهران. وكان على أتم صلة بمشايع هذه القبائل؛ غير أن هذا النفوذ لم يعد التأثير المعنوي. أما طريقة الإدارة والحكم، فلم يعرف أنه كان لأمير مكة أي أثر في ذلك. وفي سنة (١٣٢٩هـ- ١٩١٠م) اتصل بالقبائل الضاربة بين الليث وأبها أثناء الحملة التركية ضد الإدرسي؛ تلك الحملة التي كان للشريف يد ظاهرة فيها، وعلى كل فإن الأتراك أنفسهم لم يكن لهم نفوذ على غير القنفذة على الساحل، ومحابل وأبها في الداخل، وبعض البلدان الصغيرة القريبة منها، والطرق الموصلة بينها.

أمّا المنطقة التي كان يمتد نفوذ الإدرسي عليها، فتشمل قبائل قحطان في القسم الجنوبي من عسير، والقسم الأكبر من تهامة، من البرك إلى الحديدة؛ حيث يبلغ طول هذه المنطقة من الشمال إلى الجنوب نحو ٣٥٠ ميلاً وعرضها نحو ٧٠ ميلاً.

واتخذ الإدريسي مقاطعة صَبِيَا كعاصمة، ومِيدِي وجِيزان ميناءين. وقبل أن يقوم محمد علي الإدريسي بحركة تأسيس حكومته في عسير، كان القسم الأعظم من المنطقة الممتدة من ظهران إلى الطائف خاضعاً لنفوذ عائلة بني مُغَيْط (Mugheid) وعاصمتهم مُنَاطِر، أو أَبْهَا كما تسمى اليوم. واشتهر من بني مُغَيْط في القرن الماضي عايض بن مَرْعِي، الذي كانت له مواقف مشهورة في الحملة المصرية في عسير سنة ١٨٣٤م، وبقيت البلاد حرة من هذه السنة حتى سنة ١٨٦٩م، حيث رجع إليها النفوذ التركي، فتقلص نفوذ آل عايض، وأصبح سلطانهم لا يكاد يعدو منطقة أَبْهَا.

أمّا ما يطلق عليه المخلاف السليمانى، فكان مستقلاً مدة طويلة، وبقي محافظاً على هذا الاستقلال ضد الحكومة التركية، والقبائل اليمنية من جهة، وضد القبائل الضاربة في الجبال الداخلية من جهة أخرى.

وبين سنتي (١٨٣٠ و ١٨٤٠م) خضعت أَبُو عَرِيش للشريف علي، الذي اتفق مع المصريين على التخلص من نفوذ عايض بن مرعي، وفي أثناء حكمه وصل السيد أحمد الإدريسي المغربي -أحد رؤساء الطرق- إلى صَبِيَا (وكان قبل ذلك مقيماً بمكة منذ سنة ١٧٩٩م واعظاً ومرشداً إلى طريقته) وأقام بها إلى أن توفي سنة ١٨٣٧م. وفي أثناء إقامته في صَبِيَا نشر فيها وفي عسير تلك الطريقة التي تلقنها في مكة سنة ١٨٢٣. وقد ترك السيد أحمد لأولاده من بعده ثروة مادية ومعنوية لا يستهان بها، ظهر أثرها في أيام ولد السيد أحمد وحفيده، بعد انهزام الشريف حسين، حاكم أبو عريش، وقد تصاهر الإدريسي مع العائلة السنوسية المنتشرة في السودان ومصر قرب الأقصر. والحقيقة أن نفوذ الإدريسي لم يقتصر فقط على المخلاف السليمانى؛ بل امتد شمالاً وجنوباً حتى إن بعض القبائل الضاربة حول صَعْدَة انتشرت بينها تعاليم الإدريسي.

هذا ما تركه السيد أحمد الإدريسي الكبير من الأثر في عسير، والذي استغله من بعده السيد محمد علي الإدريسي حفيده.

وُلد السيد محمد علي الإدريسي في صبييا سنة ١٨٧٦ م، وتلقى تعليمه ما بين الأزهر والكُفْرَة مقر السنوسي، ثم رجع إلى صبييا واضعاً نصب عينيه انتزاع عسير من يد الأتراك، والاستقلال بها. وفي سنة ١٩١٠ م طرد الترك من كثير من البلاد؛ غير أنه لم يوفق في الاستيلاء على أبها، حيث لم يقو على الوقوف في وجه الحملة التي سيرها الأتراك بقيادة أمير مكة الشريف حسين بن علي. على أن ذلك لم يفل من عزمه، فإنه انتهاز فرصة اشتغال الأتراك بمحاربة الإيطاليين في طرابلس، فقام محاولاً الوصول إلى غرضه الذي وضعه نصب عينيه، مستعيناً بالإيطاليين؛ إلا أن هذه المحاولة لم تثمر الثمرة المطلوبة، فإن أمير مكة الذي كان له بالمرصاد، كان أكبر عقبة في سبيل الوصول إلى ما يريد؛ ومع ذلك فإن الإدريسي قد استطاع أن يسط نفوذه الأدبي، وبعض نفوذه المادي في أثناء الحرب البلقانية، وقد حاول أن ينال من الأتراك اعترافاً بحكومته ففشل، ولم يعترفوا به إلا قائمقام^(١) على صبييا وأبي عريش، فاكتمى بذلك متحيزاً الفرص الملائمة. وفي أثناء الحرب العامة انضم إلى الحلفاء ضد الأتراك، وعقد معاهدة مع القيم في عدن في شهر مايو سنة ١٩١٥ م^(٢)، وأخذ يُغير على الأتراك في المناطق الجنوبية، حتى وصل إلى اللّحْيَة، وبعد إمضاء الهدنة ترك له الإنجليز الحُدَيْدَة؛ التي احتلوها أثناء الحرب؛ اعترافاً بخدماته التي قام بها أثناء النضال العالمي. وقد استطاع السيد محمد علي الإدريسي أن يقف في وجه الشريف حسين من الشمال، والإمام يحيى في الجنوب، مدة حياته بالتحالف مع سلطان نجد سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢١ م).

(١) نظير مأمور في عرف مصر.

(٢) تجد نص هذه المعاهدة في ذيل الكتاب.

توفي محمد علي الإدريسي في شعبان سنة ١٣٤١ هـ، وولي الأمر بعده ولده السيد علي الإدريسي، فوقعت البلاد في فوضى، وحاول الملك حسين والإمام يحيى أن يوسع كل منهما منطقته على حساب الإدريسي، فلم ينجح الملك حسين؛ لأن الفرصة لم تساعده كما ساعدت الإمام يحيى.

وفي ربيع الأول من سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) دخلت جيوش الملك عبد العزيز مكة ظافرة، وظلت الجيوش سنة وبضعة أشهر تتعقب الأشراف لإجلالهم عن الحجاز، فانتهاز الإمام يحيى هذه الفرصة السانحة فاحتل الحُدَيْدَة، وتابع زحفه شمالاً حتى وصل ميدي، فلما وجد الأدارسة ما حل بهم عزلوا السيد علي الإدريسي، وولوا مكانه عمه السيد الحسن الإدريسي، أخا السيد محمد علي.

لم يجد السيد الحسن نفسه قادراً على الوقوف في وجه الإمام يحيى، فأرسل من قبَله السيد مرغني الإدريسي مندوباً إلى مكة للاستنجاد بالملك عبد العزيز، فاجتمعت بالمرغني ووضعنا معاً معاهدة الحماية في سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) لإنقاذ ما بقي من ملك الأدارسة. وفي سنة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) طلب السيد الحسن أن تضم البلاد إلى مملكة جلاله الملك عبد العزيز، وأن يكون حكمه فيها مباشراً. ومن ذلك التاريخ أصبح ذلك القسم من عسير ملحقاً بمملكة نجد والحجاز؛ التي يطلق عليها الآن المملكة العربية السعودية، وطويت صحيفة الأدراسة، كما طويت صحيفة آل عايض من قبلهم.

نجد

هي أكبر قسم من بلاد العرب، ويشمل صحراء العرب الوسطى، ومع أن حدود نجد غير معروفة تمامًا في الجغرافية العربية؛ لكثرة الأقوال وتعدد الآراء؛ فإن نجدًا اليوم تشمل الأراضي الممتدة من قُرَيَّات الملح شمالًا، إلى وادي الدواسر جنوبًا، ومن حدود الأحساء شرقًا، إلى حدود الحجاز غربًا.

وفيها كثير من الجبال والأودية والصحاري، وهي ليست قاحلة، كما كان يتصور الناس قديمًا. فمن الشمال ابتداء من حُوزَان إلى شواطئ الفرات؛ أرض منبسطة تسمى الحَمَاد، ليس بها أقل ارتفاع، كما أنه لا يوجد بها قرى أو مدن. ويظهر للمازِّ بها أحيانًا بعض الأعشاب الصغيرة. وهذا القسم لا يزال كما كان منذ ٢٣٠٠ سنة.

ويوجد بها من الحيوان: الحَبَّارَى، والنَّعام، وابن آوى، وبقر الوحش، وحمار الوحش. وتقع صحراء الأحقاف جنوبي نجد، فنجد على هذا محاطة من جميع جهاتها بسهول رملية، مترامية الأطراف. ونجد مشهورة بمراعيها الجيدة، وبها كثير من العيون الغزيرة المياه، وبها كثير من الأطلال القديمة التي لم تمسها حتى الآن يد البحث والتنقيب.

وأشهر إيالاتِ نجد من الجنوب إلى الشمال: وادي الدواسر، الأَفْلَاق، الحَرِيق، الحَرْج، العارض، الوَشم، سُدير، القَصِيم، جبل شمر، الجُوف، قُرَيَّات الملح.

ويبلغ امتداد نجد من الشمال إلى الجنوب - أي من قريات الملح إلى وادي الدواسر - نحو ٨٠٠ ميلًا، ويبلغ عرضها من الغرب إلى الشرق - أي من الوشم إلى سدير - نحو ٢٢٠ ميلًا.



سائفة يستقي منها الماء في نجد

الجو

تغنى الشعراء قديمًا بهواء نجد، وأسهبوا في وصف نسيمه، وهو على العموم جاف معتدل؛ غير أن إقليم نجد يختلف هواؤه باختلاف المنطقة، وموقعها الجغرافي، فالحر يق كاسمها شديدة الحر، ووادي الدواسر كذلك.

أما العارضُ فهوؤها معتدل جاف في السهل، شديد البرد في مرتفعات طُوَيْق. والجو في القصيم جاف بارد في الشتاء، ومعتدل في الصيف، وليالي القصيم في الصيف كليلي الصحراء، نسيم عليل، وسما صافية، ونجوم تسطع في السماء، تُلذ رؤيتها للشعراء والموامين بالهدوء الصحراوي البديع.

أمَّا هواء جبل شمر فشديد البرودة، ولذا فإن بشرة سكان نجد الشمالية تميل إلى البياض؛ عكس سكان الجنوب.

والأمطار في نجد لها الشأن الأول في الحياة، وهي قليلة على العموم إذا قيست ببعض المناطق الجنوبية، وكثيرًا ما تكون الأمطار محلية، وقلما تكون عامة؛ فالأمطار شمالي النفود قلما تمتد إلى جنوبي جبل شمر، وحديث الناس -أمرائهم وبدوهم وحضرهم- هو المطر. وسؤال القادم يبدأ بالمطر والمرعى. ومن يعيش في بلاد العرب يعرف الأثر العظيم الذي يحدثه المطر، والتعاسة التي يسببها تأخره، فأهل نجد لا يأبهون بشيء إذا رزقهم الله المطر؛ تحيا به زروعهم وحيواناتهم، وتشملهم السعادة بكل معانيها.

وأمَّا إذا انقطع المطر، فلا يمكنك أن تتصور ما يصيب الحيوان من الضعف والموت أحيانًا.

والرياح التي يكثر هبوبها، الرياح الغربية، وتميل إلى الجنوب في الجهات الشمالية القصوى.

السكان

يبلغ سكان نجد من حضر وبدو مليون نفس تقريباً، فالحضر هم سكان المدن، وهم في الأصل من البدو، توطنوا في مساكنهم من قديم.

وأهم العشائر النجدية: آل مُرَّة، وبنو خالد، والعِجْمَان في الشرق، وقحطان في الجنوب، والجنوب الغربي، وسُبَيْع والسهول في الغرب، ومُطَيْر في الشمال الغربي، وشمَر في الشمال، وعُتَيْبَة في الشمال الغربي، وحرَب في الشمال الشرقي، وعَنْزَة في الشمال الشرقي أيضاً.

وأهل حایل ينتمي أكثرهم إلى شمَر. وأهل القصيم يرجعون في الغالب إلى بني خالد وبني تميم، وأهل الجنوب ينتمون في أنسابهم إلى عَنْزَة، وأهل الوسط إلى الدواسر وبني تميم، وأهل الجنوب الغربي ينتمون إلى الدواسر وقحطان.

الأدوات المحلية والمصنوعات

هذه الأدوات قديمة العهد في نجد، كما هي في باقي بلاد الجزيرة العربية، لم يشملها التحسين والتجديد.

وفي مقدمة السكان حضارة أهل عُنَيْزَة^(١) في القصيم، وآخرهم حضارة سكان وادي الدواسر والسُّلَيْل.

(١) عَنْزَة: اسم للقبيلة، وعُنَيْزَة: اسم للبلدة.

جميع المباني من اللبن، ويقل سمك الحائط في مرتفعه؛ إلا في القرى الموجودة في الجنوب، فإنهم يستعملون جذوع النخل، والسقوف مسطحة وهي من الطين الموضوع على جذوع النخل، أو فروع الأثل. والنوافذ عبارة عن فتحات صغيرة على شكل مثلث لإدخال النور، وكل منزل فناء كبير يستعمل لحفظ الدواب المنزلية ولحفظ السّماء، والمنازل ذات الطابقين قليلة جداً، والأثاث في البيوت بالمعنى المعروف في البلاد المتقدمة غير معروف؛ إلا في بيوت العائلات الكبيرة؛ فالرجال يجلسون وينامون على الحصير المصنوع من خوص النخل، ونصف أرضية المكان تبقى عارية، والملاعق والسكاكين والشوك لا تكاد تستعمل في نجد، والنور الكهربائي غير معروف إلا في قصر الملك وعائلته، وأغلب السكان يستعملون مصابيح تضاء بالبترو، وهي واردة إليهم من الخليج أو الحجاز، وأواني الطبخ من النحاس غالباً، وقد يستعمل الألومنيوم أحياناً ولا سيما في القصيم، ويصنع بعض أنواع الفخار في نجد، ويصنع الخبز على شكل مسطح رقيق، وهو إما أن يسوى على الجمر، أو يسوى على لوح من الصاج. أما أواني القهوة فتزد من الأحساء والشام، وتصنع الخناجر والسكاكين في حائل أو الخليج، أما الأسلحة النارية فتزد من الخارج.

وأما خامات الملابس فكلها تزد من الخارج؛ إلا ما يصنع من الصوف، ويستعمل في عمل العباءات والعقالات، ويصنع من الصوف الخيام، وأخراج الجمال، وأحسن أصناف العباءات تزد من الأحساء، ويكتفون من الملابس الداخلية بقميص من القطن، ولا يستعملون النعال كثيراً. وأغلب المصنوعات الجلدية تزد من الخارج، إلا ما يلزم لإقرااب المياه والدلاء، والسروج، والنعال، فإنها تصنع في نجد. ويصنع أيضاً الحصير والمراوح من الخوص، ولكن هذه الصناعة متقدمة نوعاً

ما في القصيم، ولا سيما غنيزة؛ ومع ذلك فإن أنواعها أقل بكثير مما يصنع في موانئ الخليج الفارسي.

والطعام العادي في نجد هو الثمر واللبن والخبز، وأحياناً الأرز واللحم.

إيالات نجد

العارض:

ويعرف في الجغرافية القديمة بِجَوّ، والعَرُوض، واليهامة، ويقع بين سُدير شمالاً، والخرّج والحريق جنوباً، وهو يكوّن القسم الأوسط من طُوَيْق الشَّهير.

ووادي حنيفة هو قلب العارض، وفي جنوبه الغربي يقع سهل ضُرْمَا، وفي شماله المِحْمَل، والقسم المعمور من العارض مساحته ١٠٠ ميلاً مربعاً.

وأهل العارض مشهورون بالشجاعة والإقدام، واحتمال المكاره، والحماسة الدينية، وقوة الإرادة والدهاء، وهم شديدو الإعجاب بأنفسهم، يميلون إلى العزلة، ويفضلون عدم الامتزاج بسواهم، يغلب عليهم سوء الظن، وربما كان ذلك بسبب الفتن الكثيرة وما جرته عليهم من المصائب؛ ولكنهم مع ذلك طيبو القلب لا يحملون حقداً لأحد، إن وثقوا بأحد صموا آذانهم عما يقال فيه، وهم عدة آل سعود وجندهم، يرجعون إليهم عند الملمات. ويستندون عليهم عند اشتداد الكروب، ولغلبة الخلق الحربي عليهم ترى في طباعهم شيئاً من الخشونة والصلف.

أشهر بلدان العارض:

أشهر بلدان العارض في الشمال: الرياض، وشمالها: لبِن، القُرَشِيَّة، عِرْقَة،
الدَّرْعِيَّة، المَلْقَى، العَمَّارِيَّة، أَبُو الْكِبَاشِ.

وفي الشمال الغربي: الْجَبِيلَة، الْعُيَيْنَة، الشُّعَيْب.

وفي الشرق: صَلْبُوح، مِلْهَم، الْقُرَيْنَة.

وفي الجنوب الغربي: سَدُوس، حُرَيْمِلَة، الْمُحَمَّل، ثَادِق، الْمُحَرَّقَة، رَغَبَة،
الرَّوَضَة.

الرياض:

عاصمة نجد كلها اتخذها آل سعود عاصمة لهم بعد تخريب الدَّرْعِيَّة سنة
١٢٣٣هـ (١٨١٨م)، وقد عمرت الرياض، وكثرت مبانيها وسكانها في أيام الإمام
فيصل جد الملك الحالي، ثم أهمل أمرها بعد جلاء آل سعود عنها؛ فَعَلَا شأن حايِل في
الشمال، وقد استردت الرياض مكانتها، واشتهر أمرها، وأصبحت كعبة آمال
العرب، ومقصد الوافدين من جميع الأنحاء العربية، بعد أن ساد الملك عبد العزيز
نجدًا كلها وقضى على منافسيه فيها، وتنخفض الأرض المشيدة عليها عن المستوى
العام بنحو ١٠٠ قدم، حتى أن القادم من الشمال أو الشرق لا يراها إلا من قريب،
ويحيط بالرياض بساتين النخيل، وهي وضواحيها تمتد من الشمال إلى الجنوب نحو
ميلين، حيث تقف عند قاع وادي حنيفة أو الباطن.



منظر داخلي لقصر جلالة الملك في الرياض



منظر خارجي لقصر جلالة الملك في الرياض

والرياض كسائر البلدان النجدية: كانت محاطة بسور محصن بأبراج عديدة؛
لحماية البلدة من غارات البدو وعدوان الأعداء.

ومباني الرياض من الطين أو اللبن، وهي قليلة النواخذ على الطريق العام، فإن ذلك محدود من العيوب في البلاد العربية. ويشغل قصر الملك ومنازل العائلة الحاكمة قسماً عظيماً من المساحة، وهي تشبه في بنائها قصور القرون الوسطى من جهة السعة وإقامة الأبراج عليها، والقصر الحالي بناه الملك عبد العزيز على أنقاض القصر القديم.

والرياض هي مقر آل الشيخ، أو خلفاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح الديني، وهم في مركزهم الديني أشبه بأعضاء المحكمة العليا في البلدان الأخرى، وهم المرجع الأخير في جميع المشكلات الدينية، ويقومون في الوقت نفسه بوظيفة تدريس العلوم الدينية والآداب العربية في بيوتهم، التي يقصدها طلبة العلم، ويجدون فيها ما يساعدهم على الانقطاع لطلب العلم.

والرياض تزخر بالزائرين، وتعج بالوافدين من الحضر والبدو وقت إقامة جلالة الملك بها، وقد يبلغ عدد الضيوف عشرة آلاف، ولا يقل عدد الضيوف عن ٨٠٠ في الأيام العادية، وكلهم تهيأت لهم سبل الضيافة، وتوفرت لهم جميع وسائل الراحة على نفقة جلالة الملك.

وأهل الرياض أشد أهل نجد صلابة في الدين وغيره على حرماته، وشأنهم شأن أهل نجد في المحافظة على صلاة الجماعة، والضرب على أيدي المتساهلين في أدائها. ويبلغ عدد سكان الرياض نحو ٢٥ ألفاً، وقد أمر جلالة الملك في سنة ١٩٣٣ بإنشاء بلدية للإشراف على تنظيف البلد وتوسيع طرقها، وقد ربطت بيوت العائلة الحاكمة بعضها مع بعض بأسلاك التليفون، وأصبحت بعد إنشاء المحطة اللاسلكية فيها سنة ١٩٣١ مرتبطة مع سائر البلدان العربية، وأصبحت على اتصال وثيق بالعالم الخارجي، بعد ما كانت في عزلة تامة عن العالم.

وقد زرت الرياض في ديسمبر سنة ١٩٣٢، ويناير سنة ١٩٣٥ بعد زيارتي لها سنة ١٩٢٤، فوجدت البلدة قد نمت نموًا عظيمًا وكثرت مبانيها وعدد سكانها، وقد تبع ذلك نمو حركة التجارة فيها.

الدَّرْعِيَّة:

وهي العاصمة الأولى لآل سعود، تخربت سنة (١٢٣٣هـ - سنة ١٨١٨م). أما الدرعية الجديدة فتقابل البلدة القديمة، وهي في الجهة الشمالية من وادي حنيفة، تقع في غربي الرياض، وتبعد عنها نحو ١٢ ميلًا.

ويبلغ سكانها الآن نحو ١٥٠٠ نفس، وبها كثير من أشجار النخيل والفاكهة يرونها نحو ٤٠٠ بئر غزيرة المياه، وأشهر ضواحيها الطريف في الجهة المقابلة من الوادي ومَرِيحَة والغُصْبِيَّة، وهي منفصلة عن بعضها بأسوارها الخاصة.

سَدُوس:

بلدة صغيرة في موقع كثير المياه، خصب التربة، وفيها كثير من أشجار الفاكهة والنخيل، وقد اشتهرت سدوس بما فيها من الآثار، وقد عثر فيها على تمثال يبلغ قطره ثلاثة أقدام، وارتفاعه ٢٢ قدمًا، ويبلغ سكان سدوس نحو ألف نفس.

حُرَيْمِلَة:

في طَوَيْق أيضًا، وفي الشمال الشرقي من سدوس، وتبعد عنها نحو ١٢ ميلًا، وهي أيضًا في منطقة خصبة كثيرة المياه، بها كثير من أشجار النخيل والفاكهة، وآبارها عميقة، وبها قلعة كبيرة مخربة بناها المصريون في أوائل القرن التاسع عشر؛ ولكنها تداعت بعد ذلك. والقسم المنخفض من البلدة فيه كثير من المنازل المتداعية،

ترى كأنها أطلال، والطريق العام الشمالي إلى سدوس يمر بحريملة، ويبلغ سكان حريملة ٣٠٠٠ نفس.

ثادق:

بلدة صغيرة في الشمال الغربي من حريملة؛ تقع على جانب الوادي في الجهة الغربية من منحدرات طويق، يبلغ سكانها نحو ٢٠٠٠ نسمة، وكانت من المدن الشهيرة في العارض، وعدا عليها عادي الدهر.

العُيْنَةُ وَالْجُبَيْلَةُ:

وقد كانت الأولى زاهية زاهرة في أيام النهضة الأولى لآل سعود، وهنالك قصص كثيرة عن أسباب خرابها وهجر الناس لها، ليس هنا محل ذكرها، والجُبَيْلَةُ مشهورة بقبور كثير من الصحابة الذين اشتهروا في حرب مسيلمة الكذاب.

الخَرْج:

أشهر بلدان الخرج: الدِّلم؛ وهي العاصمة، منفوحة في الجنوب، نَعَجَان السِّلْمِيَّة، اليمامة، المناصف، الضَّبْعِيَّة البَدْع، فِرْزَان.

تقع هذه المقاطعة في الجنوب الغربي من العارض في وادي حنيفة، وتمتد من الضفة اليمنى للوادي قرب الرياض إلى الصحراء الكبرى الجنوبية، ومن حدود الحريق والحوطة في الجنوب الغربي إلى الصحراء الشرقية.

والمنطقة المسكونة من المقاطعة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ٨٠ ميلاً، ومن الغرب إلى الشرق ٥٠ ميلاً، والخرج من أغنى المقاطعات النجدية^(١) وأخصبها؛ فيها كثير من العيون الجارية والمناطق المزروعة.

وقد اعتاد آل سعود من قديم أن يُسيموا خيولهم وإبلهم في الخرج. وأشهر بلدان الخرج هي:

منفوحة:

تقع في أقصى الطرف الشمالي من وادي حنيفة، ومنازلها بعضها مبني بالطين والبعض الآخر بالحجر. وقد كان لمنفوحة شأن يذكر في نجد في الماضي لما كانت الرياض قرية، فقد كان سكان منفوحة أكثر من سكانها الحاليين؛ إذ كانوا يجاوزون الخمسة عشر ألفاً. أما الآن فمنفوحة لا يتجاوز سكانها عشرة آلاف، وبها كثير من أشجار النخيل التي تزيد عن ٤٠ ألف نخلة، وآبارها يبلغ عمقها من ٢٥-٧٠ قدماً حسب بعدها عن الوادي.

السَّلمية:

بلدة صغيرة على مجرى عين فِرْزَان الذي يفيض من الدِّلم على بعد ٥٠ ميلاً من الرياض، وهي في بقعة منخفضة كثيرة المياه، بها كثير من البساتين، ويبلغ سكانها نحو ألف نفس.

(١) انظر ياقوت.

اليمامة:

مدينة صغيرة أيضًا تقع على مجرى العين السابقة، وفي بقعة خصبة أيضًا، كثيرة المياه، بها كثير من البساتين، ويبلغ سكانها الآن نحو ١٢٠٠ نفس.

وقد كانت اليمامة قديمًا تطلق على منطقة واسعة.

الدلم:

هي المدينة الرئيسية للمقاطعة في الوقت الحاضر، وتقع على عين فرزان الشهيرة، ويبلغ سكانها نحو ٦٠٠٠ نفس يشتغلون بالزراعة، وأراضيها خصبة وعامرة بزراعة النخيل والحبوب والأرز، ويبلغ عمق الآبار من ٣٥-٥٠ قدمًا.

الحريق:

تقع منطقة الحريق غربي الخرج وجنوبي العارض، وتبعد عن الرياض بنحو خمسين ميلًا، وآبارها بعيدة الغور قد تبلغ نحو ١٠٠ قدم، ويبلغ سكانها نحو ٤٠٠٠ نفس، وقد اشتهرت الحريق بالثورة التي أثارها أبناء عم الملك عبد العزيز عليه سنة ٩١٠م في الوقت الذي كان شريف مكة يهدد إمارة نجد من جهة الحجاز.

الحوطة:

بلدة صغيرة في جنوبي الحريق، بها كثير من البساتين يبلغ سكانها ٤٣٠٠ نفس.

الأفلاج:

تقع منطقة الأفلاج غربي الخرج وشمال الحريق، وهي سهل واسع، وهي في الجغرافية القديمة قسم من اليمامة، كثيرة المياه والنخيل، عامرة بالسكان، وأشهر بلدانها هي:

لَيْلَى:

في القسم الشمالي من المنطقة، وهي الآن أعمر بلدان الأفلاج، ويبلغ سكانها وسكان القرى التابعة لها نحو ٥٠٠٠ نفس؛ منهم نحو ٤٠٠ من الأشراف.

البَدِيع:

في القسم الجنوبي من المقاطعة، ويبلغ سكانها نحو ٣٥٠٠ نفس.

الرَّوْضَة:

شمال البَدِيع، وتبعد عنها ١٠ أميال، وبها كثير من بساتين النخيل، والمنطقة كثيرة المياه، ويبلغ سكانها نحو ١٦٠٠ نفس.

وادي الدواسر

يمس الوادي حافة الرُّبْع الخالي عند نقطة تبعد نحو خمسين ميلاً من جنوب شرقي السُّلَيْل، وعلى بُعد خمسين ميلاً أيضاً من جنوب غربي المكان نفسه لطريق ومجرى الدواسر ينعدم شرقاً في الرمال. وإلى الغرب من هذا توجد سلسلة جبال

اليمن، ويوجد على منحدراتها الشرقية كثير من الواحات العامرة، ثم تنعدم هذه المنحدرات تدريجياً في الرمال، بينما وديان التلثيث وبيشة ورايا تتجه شمالاً في أعالي عسير، حيث اجتماعها في السهل يكون وادي الدواسر نفسه.

منطقة السُّلَيْل:

هذا الجزء واقع إلى الجنوب الشرقي لوادي الدواسر ومنخفضات المَقَرَن، وإلى جنوبه فيما وراء المرتفعات تمتد أطراف الصحراء.

واحة السليل:

يبلغ طول الواحة حوالي ميلين؛ في واد رملي مكوّن من التقاء الوديان في قلب أعالي الطويق^(١)، وأحد هذه الوديان هو وادي الدواسر الذي شق حاجز النجد إلى شطرين من الغرب إلى الشرق.

ومستعمرة السليل تتكون من أربع قرى مربعة الشكل، وكثير من الأكواخ المبعثرة هنا وهناك، وبضعة قصور منتشرة على حافة مزارع النخيل على الضفة اليسرى لوادي المَجْمَع. ومساحة المستعمرة ميل طوياً، وربع ميل عرضاً. وعند طرفها الشمالي الغربي تقع قرية «فَرْعَة»، وسكانها نحو ٣٠٠ نسمة. وعلى الطرف الآخر تقع قرى صَبْحَة أو المَحْمَد، ودَهْلَا، والحَنَش. والقرية الرابعة هي آل سُوَيْلَم، وسكانها نحو ٣٠٠ نسمة، وهي واقعة في منتصف الواحة.

(١) طويق: جبل في نجد الوسطى.

ومجموع سكان الواحة لا يزيد عن ألفي نسمة؛ بعضهم أرقاء تحرروا، وهذا التقدير لا يضم العرب الرحل الذين يفدون على الواحة زمن موسم التمر؛ لأخذ حاجتهم منها.

وما تنتجه الواحة من القمح والتمر يكفي سكانها مئونة العام، وعدا ذلك فتزرع فيها أغلب أنواع الفواكه، وفيها يزرع القطن أيضًا.

ومنطقة السليل بها فيها «حمّا» في الشمال، وواحة «تمّر» في الشرق هي جزء من إمارة الدواسر.

واحة الوادي:

تقع مزارع نخيل الشُرَافَة في مدخل الواحة من جهة الشرق، وهي غنية بشجر الأثل والكروم، وسكانها نحو خمسمائة نسمة من الدواسر، ثم يتلوها لحاف أو مَسْرَة، ويفصلها عن مزارع نخيل الشرافة حواجز رملية، يبلغ عرض الواحدة منها حوالي نصف ميل.

وتكثر مزارع النخيل في الجهة الشرقية من الواحة بدرجة كبيرة، وفيها توجد خمس قرى منها: «نَعِيمَة» و«الْقَيْظ»، وهما قريتان متلاصقتان، وواقعتان على ضفة الوادي اليمني، وسكانها معًا حوالي ثمانمائة نسمة.

وعلى بعد نحو ربع ميل من شمالي هاتين القريتين، وعلى سفح الضفة اليسرى للوادي تقع قرية «نَزْوا» وسكانها نحو ٣٠٠ نسمة.

يلي ذلك مستعمرة محَادِم ومُقْتَلَة، وهما غنيتان بمزارع النخيل، وسكانها نحو ألفي نسمة.

يتلو ذلك الدّام ومُشْرِف، وهما واقعتان على حافة الوادي القبلية، ويفصلهما عن بعضهما مسافات صغيرة.

وإلى الغرب تقع مزارع نخيل الفرعة وكرومها، وهي تكون الحد الغربي للواحة. ففي هذه الواحة يجري مجرى نهر الدواسر، ويجرى الوادي نفسه طيني التربة؛ ولكنه مغطى بطبقة خفيفة من الرمل.

وإلى الجنوب تمتد صحاري قاحلة لا نبات فيها، وبها تلال رملية تتلاشى رويدًا حتى تتلاشى في رمال الصحراء، وتتجه من جهة إلى الجنوب الشرقي حيث توجد النّوْج.

بلدان الوادي

دّام:

هي عاصمة الإقليم، وتقع على سفح المنحدر في الجهة اليمنى من الوادي. وهي على شكل مربع تقريبًا، ومبنية على مرتفع تقع على قمته أحسن البيوت والمساكن، وكانت محاطة بسور؛ ولكن أغلبه اليوم متهدم. وأحسن بناء فيها هو «قصر حسين» وهو على شبه قلعة يملكه أحد الشيوخ، وليس بالبلدة سوق عام، ولكن بضعة حوانيت ترى هنا وهناك.

وسكانها نحو ثلاثة آلاف نسمة من الرُّجَبَان، وهم قسم من الدواسر أشداء البطش والقوة، ويعنون كل العناية بنخيلهم وكرومهم.

وفي الفضاء الذي يفصل «دام» من نظيرتها «مُشرف» يقع «البرزان» وهو القلعة وقصر الحاكم العام.

مُشرف:

هي المركز التجاري العام للواحة، وهي تنافس «دام» في الأهمية والشهرة، ويبلغ سكانها نحو ١٥٠٠ نسمة، ويحيط بالبلدة سور في حالة أحسن من سور مدينة «دام».

وَلَامِين:

واقعة إلى الشمال الغربي من مشرف، وسكانها نحو ألف نسمة، ويفصلها عن مشرف حائط يسمى الفُريخ.

الجُويز:

في الجنوب الشرقي من دام، ويبلغ سكانها نحو ١٥٠٠ نسمة.

تَمَامِيَّة:

في شرق دام، ويبلغ سكانها نحو ٢٠٠٠ نسمة.

وفي الجهة الغربية من الواحة توجد مزارع نخيل واسعة النطاق، يتخللها بعض أشجار الأثل، وتسمى هذه الجهة «الفرعة»، وبها عدة قرى بعضها إلى جانب بعض، ويطلق عليها اسم «الحمراء»، وهي واقعة إلى الجهة اليمنى من الوادي.

ويبلغ مجموع سكان إقليم الدواسر زهاء ثلاثين ألفاً من حضر وبادية، ويمكن الوصول من وادي الدواسر إلى رَائيًا في خمسة أو ستة أيام بالإبل، ومنه إلى وادي بيشة في نحو أسبوعين.

الوُشم:

أشهر بلدان الوُشم: شَقْرَا (العاصمة)، تَرْمَدَا، وُشَيِّقَر، الْقَصَب، غَسَلَة، الْوَقْف، أُثَيْثَة (بلدة جرير الشاعر)، الفرعة، الحُرَيْفَة، الدَّاهِنَة.

يحده من الجنوب والشرق العارض وسُدَيْر، ومن الشمال القصيم، وأما من الجهة الغربية فليس هنالك شيء بارز يحدد نهايته، ويفصله من الجهة الجنوبية الحماة من صُرْمَة من العارض، ويبلغ امتداد هذا السهل من الشمال إلى الجنوب حوالي ١٠٠ ميل، ومن الشرق إلى الغرب نحو ٩٠ ميلاً - أما خط تقسيم المياه - فهو السهل الرملي الواطئ الذي يبلغ عرضه نحو ١٥ ميلاً.

وينتهي النفود إلى جنوب تَرْمَدَا حيث الحد الفاصل ما بين الوشم والعارض، والجنوب الشرقي من الوشم أهل بالقرى والسكان والمياه، وفيه تقع أكبر بلدين في الوشم: شَقْرَا العاصمة، وتَرْمَدَا. أما وسط الوشم وشماله فأرضه غير خصبة، ويبلغ عدد سكان الوشم نحو ١٥٠٠٠ نسمة ينتمون إلى بني تميم وعنزة، وهم يقطنون حوالي عشرين بلدة وقرية عدا القرى الصغيرة. وأشهر البلدان هي:

شَقْرَا:

في الجهة الجنوبية الشرقية، يبلغ سكانها سبعة آلاف، وسورها وأبراجها متهدمة منذ الحصار الذي أقامه عليها محمد الرشيد في سنة ١٨٩١ م، وبساتينها صغيرة

بالنسبة إلى مساحة المدينة، وآبارها عميقة: ٦٠-٧٠ قدمًا، ولكن ماءها لا ينضب حتى في أيام الجفاف الشديد.

وقد كان لشقرا في القرن الماضي مكانة تجارية عظيمة مع الهند وسوريا والعراق، ولا يزال أهلها يجوبون مختلف الأقطار في سبيل التجارة.

ثُمَّدَا:

في الجنوب الشرقي من شقرا، وهي تكاد تكون مخربة مما حلَّ بها في سنة ١٩٠٣، حيث انحازت إلى ابن الرشيد. يبلغ سكانها نحو ١٥٠٠ نفس، وبها قلعة وسوق، وكثير من البيوت الجميلة، وبها كثير من البساتين الواسعة، وهي تروى من آبار عمقها من ٦٠-٧٠ قدمًا.

وُشَيْقِر:

في الجهة الشرقية بين وسط حافة النفود وواجهة طويق، وهي على بعد بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من شقرا. بها مزارع تروى من آبار عمقها من ٥٠-٦٠ قدمًا.

الْمَذَنَب:

في منتصف الطريق بين شقراء والقصيم، وهي جملة قرى أهلة بالسكان منضم بعضها إلى بعض، يبلغ سكانها نحو ٢٥٠٠ نفس، وآبارها غير عذبة، وبها كثير من القصور، ولقربها من الوشم عُدت قسماً منه، وبعض النجديين يعتبرها قسماً قائماً بنفسه.

سُدِير:

هو القسم الواقع إلى شمال نجد الأصلية، وتقع القصيم إلى شمالها وشمالها الغربي، وخط الحدود يقع في الصحراء على بعد عشرين ميلاً من وادي الرُمة بين الزُّلفي والمذُنَّب، وإلى غربها تقع الوشم وخط الحدود، ويمكن تقدير أبعادها بباثة ميل من الشمال للجنوب، و ٩٠ ميلاً من الشرق إلى الغرب.

وسدير في الواقع هي الجزء الشمالي من «طويق» وتحتوي على أول السلسلة التي تتجه نحو الجنوب الشرقي، والجزء الرئيسي الذي يكون أغلب سدير هو السهل المرتفع الواقع في الشمال فوق السلسلة الممتدة إلى الجنوب الشرقي. والقسم المأهول بالسكان هو المنخفض من هذا السهل.

وهذه الوديان منفصلة بعضها عن بعض بحواجز صخرية، والقرى هي في الواقع واحات صغيرة منفصلة بعضها عن بعض، وغير ذلك توجد مزارع مأهولة خارج الحد الشرقي من المرتفع، وهي واقعة إلى شمالي وشرقي الزُّلفي والمجمعة، وأيضاً يوجد بعضها إلى الجنوب.

ولا يمكن تقدير عدد السكان بأكثر من خمسة وعشرين ألف نسمة، وكل البلاد ذات الأهمية واقعة على الطريق الرئيسي وأهمها:

المجمعة، الزُّلفي، العَاط، جَلَا جَل، التُّوَيْم، الدَّاخِلَة، الروضة، الحصون، حَوْطَة، سُدِير الجنوبية، العَطَّار، العُودَة، الحِطَّامَة، عُسَيْرَة، تَمِير.

المجمعة:

واقعة في الشمال، وهي في الجانب الجنوبي من وادٍ يجري في وادي المشجر، ويبلغ عدد سكانها نحو ٤٥٠٠ نفس، وهي مسورة، وفيها قلعة وأبراج، وعمق آبارها يختلف بين ٣٥-٧٠ قدمًا، وبها سوق فيه ٥٠ دكانًا، ويكثر فيها أشجار النخيل، ويقيم الأمير في بيت قريب من السور.

الزلفي:

واقعة في نهاية الطرف الشمالي في سهل واقع بين الطويق في الشمال الشرقي، وأعلى النفود غربًا، وتنقسم إلى بلدين يحيط بكل واحدة منهما سور؛ فالأولى واقعة في عراء السهل، والأخرى واقعة بين بساتين كبيرة واسعة على بُعد ميل من الأولى. ويبلغ ارتفاع السور المقام حولها نحو ١٦ قدمًا، وعليه ثلاثة أبراج يزيد ارتفاعها عن ارتفاع الحائط بنحو عشرة أقدام، والبوابة مرتفعة وواسعة بحيث تسمح لراكب الجمل أن يدخلها وهو راكب جملة.

والقسم الشمالي الشرقي منها دارس، وفي الجزء الباقي تمتد الشوارع من الشمال إلى الجنوب، والبيوت ذات الطبقتين قليلة، وبها مسجد واحد.

ومجموع سكان البلدين يبلغ نحو ٤٠٠٠ نسمة.

الغاط:

سكانها نحو ١٥٠٠ نفس، وفيها كثير من البساتين الكبيرة، وهي على مسافة مسير يوم جنوبًا من زلفي، ونحو يوم إلى شمال المجمعة.

جَلَا جِل:

تقع على بعد ١٨ ميلاً إلى جنوب المجمععة، وتعلو عنها نحو مائتي قدم، وهي مدينة مسورة، وبها قلعة، وبها بعض البيوت ذات الطبقتين، وبها بساتين كثيرة جداً فاقت بساتين التَّوَيْم التي تبعد عنها نحو خمسة أميال إلى الجنوب الشرقي، ويبلغ سكانها نحو ٣٠٠٠ نفس.

القَصِيم:

تقع الوشم في جنوبها الشرقي، ومنحدرات عُتَيَّة في الجنوب الغربي، ويحفظها جبل شمر من الغرب والشمال والصحراء الشمالية، وتبلغ أبعادها نحو تسعين ميلاً من الشمال إلى الجنوب، وستين ميلاً من الشرق إلى الغرب.

ويطلق على القسم الواقع في الشمال الشرقي القصيم العليا، وتتسرب المياه إلى آبارها من المرتفعات المحيطة بها، وبخاصة من جبل شمر، والقصيم ملأى بالقرى الآهلة بالسكان.

ومزارعها كثيرة جداً حتى أنها تشبه حديقة تحيط بها صحراء، وتجود في هذه الواحة المزروعات على اختلاف أصنافها، ويقدر عدد المقيمين فيها بصفة دائمة بسبعين ألف نسمة.

وتقع القصيم في طريق القوافل من مكة إلى بلاد ما بين النهرين، وسوقها التجارية نافقة، وتعتبر بلاد القصيم أكثر بلاد العرب الداخلية اتصالاً بالعالم الخارجي، وأهلها من أذكى أهل نجد، وأرقهم طباعاً، وأكرمهم خلقاً، وأسخاهم يداً، وأكثرهم أسفاراً للخارج، وأكثر التجار النجديين المعروفين في مصر وسوريا

والهند والعراق من أهل القصيم، وبها بعض المدارس التي تعني بالعلوم الدينية، وبها بعض العلماء المتبحرين في فنون الفقه والعربية.

ويبلغ عدد قرى القصيم نحو ٥٠ قرية، والمدينتان الرئيسيتان للقصيم هما: بريدة وعُنيْزة، وأغلب القرى تعتمد على بريدة، ولذا تسمى بأم القصيم.

بريدة:

تقع في الطرف الشمالي من القصيم العليا على الجانب الأيسر من وادي الرمة، وهي من أكبر المدن النجدية وأحسنها نظامًا ونظافةً، وطرقها أوسع من الرياض، ومن طرق أكثر البلدان النجدية ولكنها ملتوية، ومبانيها من اللبن، وهي كسائر البلدان العربية محاطة بسور يحمي البيوت والأسواق يبلغ ارتفاعه ١٥ قدمًا، وبساتينها خارج السور تمتد أكثر من ثلاثة أميال في اتجاه وادي الرمة إلى قرية الحُبْرَاء، والمياه فيها متوفرة وغزيرة؛ ولكنها ليست خالصة العذوبة، وعمق الآبار يتفاوت من ٢٠-٤٠ قدمًا، وتطفو الرمال من وقت لآخر على البساتين. ويقع سوقها في الجهة الجنوبية من البلدة، وبه نحو ٣٥٠ حانوتًا، وهو مقسم إلى أقسام حسب نوع البضاعة، وبها أيضًا سوق للجمال والغنم، وبها ستة مساجد. وبالشمال الشرقي القلعة الرئيسية للبلدة، يبلغ ارتفاع الجدار ٤٠ قدمًا، بنيت بناء هندسيًا جميلًا قبل ٦٠٠ سنة، ويسمونها القصر أيضًا، يسكن بها الأمير (العامل) ويسكن بها أيضًا الملك عبد العزيز وقت إقامته في بريدة. ويُرَبَّى في بريدة وما يليها الإبل والغنم، وهي تكوّن جزءًا من ثروة البلاد، ويصدرون للخارج الزائد عن الاستهلاك المحلي، وكذلك يعنى فيها بتربية الخيول، وتصدر إلى الشرق والشمال.

ويبلغ عدد سكانها ٣٠ ألفاً أكثرهم من بني تميم، وهم ليسوا كأهل عنيزة في الكرم ولين الجانب.

وتقع المدينة على مرتفع رملي؛ وهي صحيّة جدًّا، وأرضها خصبة، وبساتينها كثيرة وتروى بسهولة.

عنيزة:

تقع إلى يمين وادي الرمة على بعد ميلين منه، وتبعد عن بريدة نحو ١٢ ميلًا في مكان خصيب، يحفه النفود من الشمال، ويحيط بالقسم الأهل من السكان من البلدة حائط داخلي، وبه بساتين عامرة تمتد إلى الشمال نحو ميلين. وبيوت عنيزة أنظف وأحسن من بيوت بريدة.

وقد اشتهر أهل عنيزة بلين الجانب، وبشاشة الوجه، وحسن لقائهم للأجانب، وهم مشهورون بالشجاعة والاستعداد التجاري بفطرتهم. يبلغ عدد سكانها ٢٠ ألفًا.

اشتهرت عنيزة ببعض الصناعات المعدنية، وتجارها واسعة، وبها عدد غير قليل من الأجانب (غير نجدية).

وقد كانت عنيزة تنافس بريدة في الأولوية والأهمية؛ ولكن بريدة سبقت عنيزة الآن.

ومن أشهر مدن القصيم:

الرَّس:

تقع في القسم الجنوبي من القصيم على بعد ٥٠ ميلاً من بريدة في الجنوب الغربي منها، وعلى بعد ٤٠ ميلاً من عنيزة، وفي جنوب غربي عنيزة على الحافة اليمنى لوادي الرمة؛ تحيط بها البساتين من جميع جهاتها ما عدا الجهة الشرقية، ولها مزارع واسعة في بطن وادي الرمة وفي جهات أخرى.

ويبلغ سكانها نحو ٤٠٠٠ نفس، وقد قاومت إبراهيم باشا سنة ١٨١٧م مقاومة شديدة، وبقيت مدة طويلة تحت الحصار قبل التسليم.

الخَبْرَا:

تقع على الحافة اليسرى من وادي الرمة على بعد نحو تسعة أميال شمالاً من الرس، وهي بلدة مسورة نحو ٣٥٠٠ نفس، وبها سوق يعقد كل يوم جمعة، وبها ميدان كبير يجتمع به الناس في وسط المدينة، ويبلغ عمق آبارها حوالي ٥٠ قدماً.

العيون:

في القصيم العليا على بعد ٢٨ ميلاً من شمالي غربي بريدة، وهي واقعة في منخفض، وتمتد نحو نصف ميل من الشمال إلى الجنوب. يبلغ سكانها نحو ٥٠٠٠ نفس، وهي مكونة من قريتين متجاورتين، تجارتها واسعة؛ بها كثير من مزارع النخيل. تروى من آبار يبلغ عمقها ٣٠ قدماً.

قُصِيَّة:

تقع في الشمال الشرقي من القصيم العليا في مكان منخفض، وبها مياه غزيرة ولكنها تميل إلى الملوحة، وبها أيضًا عين حارّة، وبها كثير من البساتين الواسعة المساحة، وثمرها من أجود الأنواع في نجد. يبلغ عدد سكانها ٣٠٠ نفس يسكنون في أربع محلات متجاورة.

جبل شَمَر:

يطلق اسم جبل شمر على السهل الواسع الممتد بين جبلي أجأ وسلمى، والذي تسكنه قبائل شمر المشتغلة بالزراعة؛ ففي شعاب هذه الجبال توجد منابع عديدة للمياه، والأرض خصبة صالحة للزراعة، وفيها أشجار النخيل بكثرة حيث تنمو هنالك نموًا عظيمًا.

وفي السهل الكبير المنبسط بين هاتين السلسلتين، توجد منابع المياه بوفرة تحت طبقة الرمال والصخور، فتجعل الأرض صالحة لأنواع شتى من المزروعات، ولكنها في موسم الحر تحتاج إلى ريّها باستمرار.

وإمارة جبل شمر هي نجد يعلو عن سطح البحر ٢٢٠٠ قدم، وبه رءوس مرتفعات عالية أيضًا، والنجد منحدر من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، والمياه تنحدر في أغلب الأوقات إلى وادي الرمة. وأهم الظواهر في بلاد الإمارة هي سلسلة الجبلين المحاذيين لبعضهما: جبل أجأ وسلمى، وهما واقعتان في شمالي الإمارة، وتمتدان حتى طرف المقاطعة؛ أي أن اتجاههما من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وهما مكونان من حجر الجرانيت، وارتفاعهما شاهق؛ فإن جبل أجأ يعلو عن سطح

النجد نفسه بنحو ألف قدم. ويبلغ ارتفاعه الأعلى في أحد المواقع إلى ٥٥٠٠ قدم، وتبلغ مساحة السلسلة حوالي ١٠٠ ميل طولاً، وعشرين ميلاً عرضاً.

أمّا جبل سلمى فإنه لا يقل ارتفاعاً عن جبل أجاء، ولكن مساحته أقل، والمنطقة الجبلية تتجه غرباً إلى حدود النفود الجنوبية.

ويوجد في جبل أجاء كثير من الحيوانات الوحشية والطيور، والهواء في الإمارة معتدل وصحي، وتنزل أمطار غزيرة على أعالي الجبال، وبذا توجد المراعي الخصبة الكثيرة. وينزل أوائل المطر في شهر نوفمبر، ودرجة الحرارة في فصل الشتاء منخفضة.

السكان

هم خليط من الحضر والبدو يبلغون نحو ٤٢ ألفاً. ويبلغ عدد الحضر منهم نحو اثنين وعشرين ألفاً، والبدو نحو عشرين ألف نفس، والسكان كأهل القصيم يميلون إلى التأنق، ويغلب على طباعهم لين الجانب وإكرام الأجانب.

المحصولات والتجارة

لا ينتج الجبل من المحاصيل الزراعية ما يكفي لقوت سكانه، بالرغم من أن أكثر سكانه يشتغلون بالزراعة وتربية الماشية.

وتصدر الولاية عددًا كبيرًا من الخيول الجيدة، والجمال، والغنم التي تنتج نوعًا جيدًا من الصوف.

ويزرع في الجبل النخيل وبعض أصناف أخرى من الفواكه.

البلاد المشهورة

هي -كما سبق- الجزء الواقع بين جبلي أجا وسلمى، وفيه تقع العاصمة «حاييل» وعلى قرب منها إلى الجنوب الغربي تقع «قفار»، وهي قرية قديمة مشهورة واقعة على المنحدر الجنوبي لجبل أجا، وبالقرب من جبل سلمى تقع مجموعة قرى منها: «فيد» العاصمة القديمة. وفي شمال جبل أجا -بينها وبين النفود- توجد بعض واحات متفرقة ولكنها غير مهمة. وتوجد أجزاء كثيرة في المنطقة الجبلية؛ ولكنها لا تسكن إلا وقت موسم الزراعة، ولا توجد منطقة مأهولة باستمرار في الجبال إلا منطقة واحدة في جبل أجا تسمى «عُقدة»، وهو واد به جملة قرى، ومزارع النخيل فيها كثيرة.

حاييل:

تقع إلى الشمال الغربي من الوادي بين جبلي أجا وسلمى عند طرفه الشمالي، والقسم الرئيسي من حاييل يحيط به حائط من الطين ارتفاعه من ١٥-٢٠ قدمًا، عليه أبراج ذات شكل مستدير، وقد بناه الأمير عبد العزيز الرشيد، ويبلغ طول محيطه نحو ٣ أو ٤ أميال، ولكن جزءًا كبيرًا من الأراضي التي تقع داخل السور مزروعة قمحًا ومغروسة تينًا، بينما يوجد جزء آخر ليس مزروعًا ولا مقامًا عليه أي بناء، ولهذا السور خمسة أبواب.

وعلى بعد نصف ميل إلى شرق حايل وميلين أو ثلاثة من الجنوب، تحت جبل أجاء، توجد بعض بساتين النخيل والقمح مسورة. وعدا النخيل يزرع الرُّمَّان، والليمون الحلوى، والنانج، والبرتقال، والبرقوق والتفاح.

والمياه اللازمة للبساتين أو للاستعمال تستخرج من آبار عمقها حوالي ٩٠ قدمًا بوساطة الجمال. وفي شمال المدينة حيث توجد مزارع النخيل تميل مياه الآبار إلى الملوحة قليلًا، وليس للمدينة مصدر آخر غير الآبار للحصول على المياه.

ويبلغ عدد السكان نحو ٥٠٠٠ نفس، ويجلب الأرز باقي الجنوب، إما من الهند أو من العراق.

فيد:

تقع على بعد ٤٥ ميلًا من شرق جنوب شرقي حايل على طريق بريدة، وهي واقعة على منحدر جبل سلمى الجنوبي الشرقي، وتمتد مزارع النخيل إلى ميلين أو ثلاثة، وتزرع الحبوب بكثرة، وسكانها نحو ١٥٠٠ نفس خليط من بني تميم وشمر.

قفار:

وهي ثاني مدينة في الأهمية في جبل شمر، وهي مساوية لحايل في عدد السكان، وواقعة في البطن إلى الجنوب الغربي من العاصمة تحت منحدرات جبل أجاء. والواحة كبيرة، وشجر النخيل فيها كثير جدًا حتى إنه يفوق نخيل حايل نفسها، وهي مأهولة ببني تميم، وهي واقعة على طريق تيماء.

عُقْدَة:

مجموعة قرى منتشرة في مزارع النخيل في وادٍ واقع إلى الجنوب الغربي من حایل، يبلغ سكانها ١٨٠٠ نفس.

مُوقَق: بها نحو ١٢٠ بيتًا مُسْتَجَدَّة: بها نحو ١٢٠ بيتًا

سَيْفَان: بها نحو ٧٠ بيتًا الغزالة: بها نحو ٦٠ بيتًا

الجُفْنَة: بها نحو ٥٠ بيتًا الروضة: بها نحو ٦٠ بيتًا

تِيَاء:

بلدة صغيرة في وسط (واحة) باسمها واقعة إلى الجنوب الغربي من الثُفُود على بعد ٦٥ ميلًا من شمالي العَلَا، وهي واقعة في منخفض من السهل المرتفع الذي يبلغ ارتفاعه ٣٤٠٠ قدم. والواحة مسورة بحائط من الطين، وبها أبراج للدفاع مبنية من اللبن. وبالواحة أشهر عَيْن ماء في بلاد العرب؛ إذ يبلغ اتساع فُوهَتها أكثر من خمسين قدمًا، ومركب عليها سَوَاني من جميع الجوانب، ومياها غزيرة.

وأرض تِيَاء خصبة وصالحة للزراعة، ولزراعة النخيل، ويزرع فيها القمح والشعير والأذرة والفواكه على اختلاف أصنافها، وتثمر تِيَاء جيد، ويعتبر من أجود أصناف التمر.

عدد سكانها نحو ٢٥٠٠ نسمة، وأغلبهم من ولد سُلَيْمَان، وبها بعض الموالي وبعض التجار من جبل شمر، وبعضهم يحضرون لتصريف تجارتهم التي يجلبونها من

بغداد وساحل الخليج، والأهالي يبيعون محاصيلهم للبندو الرحل، والهواء في تيماء جيّد جدًّا وصحي.

الجَوْف^(١):

هي المدينة الرئيسية وسط منطقة زراعية كبيرة واقعة إلى شمال النفود، على رأس وادي السَّرْحان، والواحة واقعة في منخفض يقع نحو ٥٠٠ قدم تحت سطح الصحراء المحيطة بها.

وتوجد واحات صغيرة أخرى تابعة لواحة الجوف، واقعة إلى الشمال الشرقي منها فهي: سكاكه، وقادة، والطَّويز، وجاوه؛ وسكاكه هي الأكبر، ومزارع النخيل فيها تكثر جدًّا حتى أنها تفوق تلك التي في الجوف نفسها.

ويبلغ طول واحة الجوف نحو ٣ أميال في نصف ميل عرضًا، وهي تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وكلها حدائق وبساتين، وبينها نحو ١٢ قرية وبها نحو ٤٠٠ منزل، وليس بالقرية شوارع ولا أسواق.

ومن مظاهر القرى هنا أن بعض بيوتها يقام إلى جانبه برج، يبلغ ارتفاعه حوالي ٤٠-٥٠ قدمًا، و١٢ قدمًا عرض حائطه، وله مدخل صغير وبه منافذ صغيرة، وفي بعض البيوت يكون البرج جزءًا من البيت نفسه.

وموقع الجوف الجغرافي مهم جدًّا؛ لأنه يقع على الطريق المباشر ما بين سوريا ووسط بلاد العرب، وهي منفصلة إذ تقع في المنتصف ما بين الفرات وطريق الحجاز

(١) الجوف: هو المسمى قديمًا دومة الجندل.

الحديدي، وبين جبل شمر وجبل الدروز، وعلى بعد نحو ٣٠٠ ميل من كل من هذه المواقع، وهي الواحة الوحيدة الواقعة ما بين العقبة وبغداد.

الأحساء (١)

كانت هذه المنطقة تسمى قديماً البحرين وهجر، وكانت تطلق على المنطقة الممتدة من البصرة إلى عُمان. أما اليوم فتطلق الأحساء على المنطقة الممتدة على الساحل الغربي من خليج فارس، من حدود الكويت الجنوبية إلى حدود قطر وعُمان وصحراء الجافورة، حيث يحدها من الغرب الصُّبَّان.



مطر المياه والتخيل في الأحساء



سوق الخيل في الأحساء

(١) هذه المنطقة مشهورة بعيونها الفوارة (ارتوازية طبيعية، وقليل وجود أمثالها في العالم).

الوصف الطبيعي

القسم الأكبر من الأحساء سهل صحراوي، يرتفع في الجهة الغربية عن ساحل البحر، حيث تتشابه البلاد مع تهامة. ويوجد كثير من التلال غير المتصلة بعضها ببعض تستخدم كحدود للمناطق، وترتفع الأرض في القسم الداخلي إلى غربي المنطقة عن باقي السهل.

ويوجد خط من التلال على طول وادي المياه وجبل الطف، ممتدة إلى الجنوب، ويمتد مرتفع الصّمان الصخري موازياً لساحل الخليج الفارسي، متوسطاً بين الأحساء وبين الدّهنّا حيث يفصل هذا القسم عن نجد.

وأهم أودية إقليم الأحساء هو وادي فُرُوق في الجنوب الغربي، وهو قسم من وادي المياه.

والمنطقة الساحلية سبخة على العموم، ويوجد بها عدد عظيم من الآبار ماؤها قريب من سطح البحر، والمراعي وافرة أيضاً، والأقسام الصحراوية من المنطقة أهلة بالبدو، وأغنى بقاع المنطقة واحتا الأحساء، والقَطِيف في الجنوب حيث تكثر المياه من آبار وعيون وأنهار صغيرة تشبه البحيرات.

جو الأحساء

يشبه جو المناطق المنخفضة، والقسم الشرقي من الأحساء يشبه جو تهامة، وتزداد الحرارة في بعض المناطق كالقطيف منها في بعض المناطق الأخرى، وتتراوح درجة الحرارة في منطقة الأحساء ما بين (٤٠° إلى ١١٠° ف). وتبدأ الحرارة في

الارتفاع من إبريل حتى تصل نهايتها في شهري يوليو وأغسطس، وتهبط ابتداء من سبتمبر، وموسم البرد ما بين نوفمبر ومارس.

والقسم الأكبر من هذه المنطقة غير مزروع، والقسم الخصب المأهول بالسكان المشغول بالزراعة، يبلغ امتداده نحو ١٢ ميلاً إلى شرق الهفوف والمبرز؛ غير أن هنالك مناطق أخرى مزروعة في الشمال غير متصلة بعضها ببعض محاطة بالعيون.

ومنطقة الأحساء مشهورة بمياهها الكثيرة في المناطق المزروعة وعيونها العديدة الدافئة والحارة، وجميع المنطقة تكاد تغص بالعيون، والأرض لا تكاد تشكو الظمأ من كثرة المياه، والطرق تمتد على شواطئ العيون، والأشجار والخضرة أينما سار الإنسان. وقد ساعدت كثرة المياه على زراعة الأرز وغيره من الحبوب.

أما المحصول الرئيسي في الأحساء فهو التمر: وهو أنواع كثيرة أفضلها النوع المعروف بالخلاص، ويزرع بها أيضاً الخنطة والشعير.

وأشهر فواكه الأحساء: الأترنج، والليمون، والخوخ، والمشمش، والرمان، والعنب، والتين. وفي الأحساء كثير من الخيل العربية، وأفضل الحمير والبقر، وفيها الإبل والغنم بكثرة. وفي الأحساء يطعمون البقر أنواع من الأسماك الصغيرة، كما يعلفون بعض الحيوانات التمر القديم. وأشهر بلدان الأحساء هي:

الهفوف:

وهي قاعدة المنطقة في الزاوية الجنوبية الشرقية من المنطقة المزروعة، وتنقسم البلدة إلى ثلاثة أقسام: الكوت في الشمال الشرقي، والرفعة في الشرق، والنعاثل في الجنوب والغرب.

والكُوت^(١) هو مقر الإمارة، محوط بسور عظيم يبلغ ارتفاعه ٢٤ قدمًا، مشيد عليه أبراج عديدة بناها إبراهيم باشا لحماية البلدة. وقد كان الكُوت مقرًا للحامية التركية حتى سنة (١٣٣٠هـ، سنة ١٩١٣م). ويبلغ عدد بيوت الكوت نحو ١٥٠٠ بيت وبيوت الرفعة نحو ٢٣٠٠ بيت، وهي أعلى منطقة وأصحها، ويسكن بها أهل الثراء والنبل من أهل الأحساء. أما النعائل التي فيها نحو ٢٠٠٠ بيت، فتحتوي على القسم الأكبر من الطبقات الفقيرة، وتضم أكبر مسجد للشيعة، وفي الجهة الشرقية من الكوت السوق وحوانيت التجارة، ويفصل الكوت عن النعائل من جهة الجنوب غابة من النخيل.

ويحيط بباقي البلدة سور آخر يبلغ ارتفاعه ١٢ قدمًا. وتبنى بيوت الأحساء في الغالب من الحجارة والجص ولكل بيت بثره، وحائطه المرتفع لحمايته، وطرق الأحساء ضيقة.

ويوجد خارج البلدة من جهة الشمال سوق الخميس، وهو مكان يجلب إليه أهل البلد والبدو حاصلاتهم ومصنوعاتهم حيث تعرض فيه يوم الخميس.

يبلغ سكان الهُفوف ٣٠٠٠٠ نفس، وهم ما عدا النجديين المقيمين في الأحساء مزيج من العرب، ومن أجناس أخرى فارسية وتركية وكردية، ويبلغ أهل السُّنة ثلاثة أرباع السكان والشيعة نحو الربع.

(١) الكوت: القلعة (كلمة برتغالية) كثر استعمالها بعد دخول البرتغاليين خليج فارس، واستيلائهم على بعض الأماكن.

٢- المبرز:

يقع المبرز على بعد ميلين من شمال الهفوف، مزروعة كلها من الغرب، ومحاطة بسور متهدم، له بابان من جهتي الشمال والجنوب. وتوجد خارج السور لجهة الغرب قلعة صاهور.

وتشتمل المبرز على خمسة أقسام: أكبرها العيون في الوسط، وفي الجنوب الغربي السوق والخوانيت التجارية، ومباني المبرز كمباني الهفوف من الحجارة في الغالب. ويبلغ عددها ١٨٠٠ بيت، يسكنها نحو ٩٥٠٠ نفس. والعمل الرئيسي لأهل المبرز هو الزراعة. وهناك سوق يقصده البدو المجاورون كل يوم جمعة لقضاء حوائجهم الضرورية.

واشتهرت الهفوف والمبرز بمركزهما العلمي والأدبي مدة طويلة؛ فكانتا مقصدًا لطلاب العلم من سائر أنحاء الخليج الفارسي، ولعلمائها مركز ممتاز في جميع بلدان الخليج الفارسي يقابلون بالإجلال والترحيب، ويكرمون بأحسن أنواع الإكرام أينما حلوا.

ومن العائلات التي اشتهرت بالعلم في تلك المنطقة عائلة آل مبارك، ولا يزال أفرادها يحافظون على تقاليد العائلة من دراسة العلوم الدينية والأدبية.

السكان

يبلغ سكان منطقة الأحساء نحو ٣٥٠ ألفًا ما بين حضر وبادية، ويبلغ البدو نحو ثلاثة أرباع، والمميز الرئيسي بين السكان هو المذهب، فالسكان ينتمون إلى

المذهب الشيعي، وإلى مذهب أهل السنة والجماعة حيث يكونون الأكثرية الساحقة في القطيف وتاروت، وحيث يبلغون النصف في الأحساء.

ولقد اختار بعض القبائل العربية الإقامة في بعض الأماكن بصفة مستديمة؛ فعدد من قبائل بني خالد يبلغ نحو ٦ آلاف يقيمون في جزائر المسلمية وجنة وتاروت وفي قصر الصبيح والكلاية والجشة في الأحساء، وفي أم الساهك في القطيف، وفي وادي المياه يقيم نحو ١٤٠٠ نفس من قبائل شتى، وأهم العشائر الضاربة في منطقة الأحساء:

العجمان:

ويقيم منهم في منطقة الأحساء نحو ٤٥٠٠٠، ويقيمون في جنوب المنطقة.

آل مرة ٨٠٠٠

بني خالد ١٢٠٠٠

بني هاجر ٦٠٠٠

العوازم: الرشيدة: وهؤلاء يقيمون في شمال المنطقة.

أما قبائل الدواسر: السهول، مطير، سبيح، عتيبة، قحطان، فإنهم ليسوا من قبائل الأحساء؛ بل يأتون إليها لأغراضهم الخاصة.

نبذة تاريخية

كان يسكن هذه المنطقة قبل الفتح الإسلامي خلق كثير؛ من عبد القيس، وبكر بن وائل، وقيم^(١)، وكانت إذ ذاك تحت حكم الفرس، فوجه إليها الرسول صلى الله عليه وسلم العلاء بن عبد الله الحضرمي حليف بني عبد شمس، ليدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية، فأسلم أهلها العرب وبعض المجوس، وصالحه الباقر بن علي الجزية.

وأول من عمّر الأحساء وجعلها قسبة هجر أبو طاهر القرمطي^(٢)، وبقيت الأحساء تتنازعها الأيدي الحاكمة، وتعبت بها أيدي البدو إلى أن فتحها آل سعود في دولتهم الأولى فساد الأمن وانقطع الفساد، وبقيت في حكمهم إلى أن انتزعها منهم المصريون بعد دخولهم الدرعية سنة ١٢٣٣، ثم استردها منهم الإمام فيصل، وبقيت في حكمه زمن ولايته، وصدر ولاية ولده عبد الله، ثم استولى عليها مدحت باشا في سنة ١٨٧١ م، وألحقها بولاية البصرة. وفي ٥ مايو سنة ١٩١٣ انقض عليها الملك عبد العزيز، واستولى عليها وطردها الحامية التركية منها؛ وباستيلائه عليها ساد الأمن، وانقطعت غارات البدو على القوافل والسكان.

٣- القطيف:

تقع واحة القطيف في الجهة الشمالية الشرقية من الأحساء، ويحدها شمالاً وغرباً صحراء بياض، وجنوباً برّ ظهران، ويبلغ طول هذه الواحة ١٨ ميلاً، ومتوسط

(١) ياقوت.

(٢) ياقوت.

عرضها ٣ أميال، وتقع مدينة القطيف في الوسط، ويرتفع سطحها بضع أقدام فقط عن سطح البحر.

القسم الأعظم من المساحة رملي مشيع بمياه العيون العديدة في المنطقة. أما القسم المزروع فينتهي بستة أميال جنوبي مدينة القطيف؛ غير أن هنالك مناطق أخرى مزروعة غير متصلة ببعضها، سيأتي الكلام عنها.

وهواء القطيف كثير الرطوبة غير صحي، وينتشر فيها حمى الملاريا، ولذا فإن العشائر التي تقصدها في الصيف تفر منها أول الخريف؛ لأنه فصل الحميات حسب تجاربهم.

يبلغ سكان القطيف نحو ٣٠٠٠٠ نسمة، وكلهم من الشيعة تقريباً، وهنالك بعض العرب من بني خالد يسكنون أم الساهك، وقليل من العرب الخلط - يطلق عليهم حوَّله - يسكنون في مدينة القطيف.

والزراعة - وبالأخص زراعة النخيل - هي العمل الرئيسي للسكان. والقسم الأعظم منه يصدر إلى عمان والبحرين والهند وفارس، وأشهر بلدان القطيف:

١ - مدينة القطيف:

وهي (Giparro) القديمة التي كانت مخزناً كبيراً مشهوراً للأفاوية والعطريات الواردة من تاروت (Taroot)^(١)؛ تقع مدينة القطيف على خليج يشمل أيضاً جزيرة تاروت، وتمتد المدينة على الساحل مسافة عشرة أميال، منها ميلان شرقي المدينة خاليان، وبها أطلال قلعة قديمة، وفي الشمال يوجد ثلاث قنوات متصلة بالبحر،

(١) مدينة صغيرة شرقي القطيف.

منها ممر يوصل إلى المدينة، والبحر غير عميق؛ ولذا فالسفن الكبيرة تلقى مراسيها بعيدًا عن الساحل.

ومن أقسام المدينة القلعة: وهو القسم المحصن من البلدة، ويبلغ سكان المدينة وضواحيها ١٢ ألف نفس، كلهم من الشيعة تقريبًا، وليس بها من أهل السنة إلا الأمير وحرسه، وموظفو الحكومة، وبعض التجار النجديين والأحسائيين.

وقد مر الرحالة ابن بطوطة بالقطيف^(١) سنة ٦٣٢ هـ، فوصفها بأنها مدينة كبيرة حسنة، ذات نخيل كثير، يسكنها طوائف من العرب، وهم رافضة غلاة.

٢- سيِّهَات:

على الساحل في الجنوب الشرقي من عَنَّاك، وهي كغيرها من المدن العربية، مسورة بسور ضخمة يضم نحو ٧٠٠ بيت، وبها كثير من العيون الغزيرة، وسكانها يعيشون على الزراعة.

٣- العُقَيْر:

ميناء في الجنوب الغربي من مدينة القطيف، تبعد عنها أربعة وستين ميلًا، وليس بالعقير بيوت ولا سكان، وكل ما فيها من المباني هو الجمرك، وبناء آخر (خان) لسكنى وكلاء التجار، ويعتبر العقير ميناء الأحساء ونجد الجنوبية، وأهم الواردات التي ترد إليه من طريق البحرين: الأرز، والسكر، والبن، والمنسوجات بأنواعها.

(١) ضبطها ابن بطوطة بالتصغير. أمَّا القاموس وياقوت فضبطاها بغير تصغير، كما يلفظها أهلها الآن.

والقبائل المجاورة للعقير هي: النّجّمان، آل مُرّة، بنو هاجر. وقد اشتهرت العقير في السنوات الأخيرة بالاجتماعات السياسية، التي كانت بين الملك عبد العزيز والسير برسي كوكس المندوب البريطاني.

٤ - جُبَيْل:

ميناء في شمال القطيف سكنه قبائل بُوعَيْنَيْن أصهار بني خالد سنة ١٩١٠ على إثر مهاجرتهم من قطر، ولم يكن لهذا الميناء شأن يذكر حتى سنة ١٩٢١ م، فإن الحرب الاقتصادية التي أعلنتها نجد على الكويت جعلت هذه الميناء تنمو نموّاً سريعاً، وكثرت مبانيها، وأضعفت شأن الكويت من الوجهة التجارية، ويبلغ سكانها ٢٠٠٠ نفس.

وبقرب جبيل جزيرة المسلمية على خليج بهذا الاسم، على بعد خمسة أميال من رأس البديع، بها نحو ٤٥٠ بيتاً، وسكانها من العنّات (فرع من بني خالد) وهم يعيشون على استخراج اللؤلؤ والاتجار به.

جزيرة جَنَّة:

جنوب المسلمية، وسكانها كسكان سابقتها من بني خالد، يعيشون على استخراج اللؤلؤ والاتجار به.

جزيرة بُوعَلِي:

في الجنوب الغربي من رأس البديع، وهي غير مأهولة بالسكان، تمتد ١٢ ميلاً من الشرق إلى الغرب، محاطة بمغاصات اللؤلؤ، ويطلق على الساحل الغربي من

الكويت إلى ظهران اسم عَدَان، كما يطلق اسم قَطَر على الساحل الممتد من العقير إلى أخوار بني ياس، كما يطلق أحياناً على القطيف اسم الخط.

أشهر قرى مستعمرة القطيف: عَنَك على الساحل، تبعد أربعة أميال عن جنوب شرقي مدينة القطيف، ونخيلها مملوك لبني خالد.

العَوَامِيَّة:

قرية محاطة بسور يضم نحو ٣٥٠ بيتاً في الشمال الغربي من مدينة القطيف، وفيها كثير من العيون الغزيرة المياه.

الجَشُّ:

جنوب مدينة القطيف، وتبعد عنها أربعة أميال، كما تبعد عن الساحل ثلاثة أميال، محاطة بسور يضم نحو ٣٠٠ بيت، وبها ثلاثة عيون تروي المنطقة.

صَفْوَة:

في الشمال الغربي من مدينة القطيف تبعد عنها ثمانية أميال، محاطة بسور يضم نحو ٤٥٠ بيتاً، وبها عين كبيرة تسمى دَارُوش يتفرع منها سبعة أنهر.

الدَّمَام:

على الساحل الجنوبي الشرقي، تبعد تسعة أميال عن مدينة القطيف، وقد خربت في القرن التاسع عشر، ولكن عاد إليها العمران مرة أخرى بعد هجرة الدواسر من البحرين سنة (١٣٤٠هـ - ١٩٢١م).

حاكم منطقة الأحساء العام: هو الأمير عبد الله بن جُلوي، ابن عم الملك عبد العزيز، وأحد صحبه المختارين الذين رافقوه في مخاطراته العديدة، ولا سيما في انتزاع الرياض من آل رشيد، وهو مشهور بالشدة والقسوة على المجرمين وأشرار البدو. ولقد كان إقليم الأحساء يضرب به المثل في اختلال الأمن وفساد الإدارة في أيام الحكم التركي، فأصبح بعد حكم آل سعود كسائر البلدان النجدية يسوده العدل والأمان.

الكويت

اشتهر اسم الكويت قبل الحرب العظمى بسنوات؛ بسبب النزاع السياسي بين بريطانيا وألمانيا على السكة الحديدية، التي كان الألمان يريدون أن تنتهي إلى الكويت، والبريطانيون يحاولون إحباط المشروع أو وقفه عند حدود ولاية البصرة؛ صيانة لنفوذهم في خليج فارس، ودفاعاً عن إحدى طرق الهند. وإن مركز الكويت التجاري الحربي، وقربها من مجرى الدجلة والفرات، واتصالها الوثيق بنجد؛ جعل لها مركزاً ممتازاً ذا أهمية خاصة.

حدود الإمارة

تُكوّن إمارة الكويت^(١) نصف دائرة على الساحل الغربي من رأس الخليج الفارسي، وتقع جنوبي مملكة العراق، وشالي مقاطعة الأحساء التابعة للدولة العربية السعودية، تمتد حدودها الشمالية من أم قصر إلى سَفَوَان، مارة قرب جبل سَنَام إلى الباطن. أما الحدود الغربية فتتبع الباطن إلى قرب الحُفَر، حيث تتصل بالحدود العراقية والنجدية، ومن هنالك تتجه إلى الجنوب الغربي حيث تتصل أيضاً بالحدود النجدية. يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ١٨٠ ميلاً، ومن الشرق للغرب نحو ٢٥ ميلاً.

(١) في بروتوكول العقير ١٩٢١، عيّنت حدود الكويت ونجد والمنطقة المحايدة بينهما.



منظر للكويت من الجو



منظر آخر للكويت من الجو

الوصف الطبيعي

تربة القسم الشمالي من خليج الكويت خصبة، وتربة القسم الجنوبي بعضها رملي وبعضها طيني، وهي على العموم مقفرة خالية من الزراعة، يوجد بها بعض التلال؛ مثل تلال واره في جنوب مدينة الكويت، وتبعد عنها نحو ٣٥ ميلاً، وتلال مَنَاقِيش في غرب مدينة الكويت، وتبعد عنها نحو ٢٥ ميلاً.

وليس بمنطقة الكويت ماء جار، ولكن بها آبار مبعثرة في الصحراء يبلغ عمقها ٢٠ قدمًا؛ ولكنها ضاربة إلى الملوحة، وربما كانت منطقة الجهرة هي أغزر المناطق مياهًا.

وأهم أشجار الكويت السدر والنخيل، وهناك أشجار متنوعة تستعمل للوقود ولمرعى الإبل، أما الأعشاب فتجود إذا جاد المطر.

وأما الحيوانات فقليلة في الكويت، ويوجد منها الذئب والثعلب والغزال والأرنب.

الجو

جو الكويت على العموم معتدل، يميل إلى البرودة إذا هبت الرياح الشمالية الغربية؛ أما الصيف فيخفف وطأته نسيم البحر وبرودة الصحراء المجاورة السريعة ليلاً، وأعظم درجة للحرارة هي ١١٤° ف، وأقل درجة هي ٣٥°، وتشتد الحرارة من مايو إلى نوفمبر، والبرودة من ديسمبر إلى فبراير.

أمّا المطر فقليل في الكويت، وقد يجود بعض السنين فتخضر الأرض، وينعم البدو، ويخرج الأهالي للبر استجمامًا للراحة واستمتاعًا بالخضرة.

السكان

يبلغ سكان الكويت الحضر ٣٧ ألفًا، يسكنون -عدا ألفين منهم- مدينة الكويت، ومنطقة الكويت التي تبلغ مساحتها نحو عشرين ألف ميل مربع قاحلة، يسكنها عدد قليل من السكان فيها وراء المدينة.

أما عشائر الكويت فقد كانوا قبل سنة ١٩٢١ يبلغون نحو ١٥ ألفًا، وقد التحق أكثرهم بنجد بعد بناء الهجر وذيوخ التعاليم الدينية. وتنتمي العشائر إلى قبائل العَوَازم والرَّشَايدة، وقليل من الصُّلَبة، وبني هاجر، والعجمان، وبني خالد، ومُطَير؛ وقد كان النجديون من حضرٍ وبدوٍ يقصدون الكويت لبيع الغنم والسمن والصوف وسائر الحاصلات النجدية، وشراء جميع حاجاتهم منها، ولكن الخلف دبَّ بين البلدين منذ سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٢ م) لأسباب اقتصادية جعلت ملك البلاد العربية السعودية يأمر رعاياه بمقاطعة الكويت، ولكن أعيدت العلاقات الاقتصادية والروابط الودية القديمة بين البلدين سنة ١٩٤٠ وهي الآن تحتل مكانا مرموقًا بعد اكتشاف الزيت في أراضيها، وقد تضاعف عدد سكانها بسبب كثرة الوافدين عليها حتى بلغ ١٨٠ ألفًا أو يزيد.

الصناعة والتجارة

البلاد الكويتية غير زراعية ماعدا الجهرة التي سيأتي وصفها فيما بعد، وأهم ما يشتغل به السكان هو صيد الأسماك، وأجود الأسماك ما يسمى بالزبيدي، وهو يصطاد بالشبك الطويل، وكثير من الأسماك أيضا تصطاد بوساطة ما يسمى بالخطور، وهو عبارة عن حواجز من القصب تنصب على الساحل، تدخلها الأسماك في وقت المد فإذا جاء الجزر استطاع الصيادون إمساكها بسهولة - وطريقة الخطور منتشرة على طول الساحل البحري.



مظر للكويت من البحر



منفى من مقاهي الكويت

وقد كان للكويت شأن يذكر في الغوص على اللؤلؤ حتى سنة ١٩٢٢، فقد بلغ عدد العمال ١٠.٠٠٠ في سنى الرخاء، كما بلغ عدد السفن التي تستعمل في الغوص نحو ٨٠٠، ولكن عدد السفن والعمال نقص كثيراً في عشر السنوات الأخيرة، بسبب التقاطع التجاري بين الكويت ونجد من جهة، وللكساد الذي حل بتجارة اللؤلؤ، ولا أظن عدد العمال الآن يبلغ ثلاثة آلاف.

وصناعة بناء السفن الشراعية من الصناعات التي اشتهرت بها الكويت، وقد نافستها البحرين في السنوات الأخيرة، والخشب والحبال اللازمة لبناء السفن تجلب كلها من الهند ولا سيما من إقليم مليبار. وأكثر السلع التجارية تنقل بالبواخر. غير أن السفن الشراعية لا تزال تقوم بقسط كبير من النقل بين الكويت والبصرة، وبينها وبين السواحل العربية الأخرى.

وأهم هذه السفن البَغْلَة (Buffalow) والبُوم والشُوعِي. وتحمل البغالة عادة نحو ٢٥٠٠ طرد بضاعة من التمر، أو من أكياس الأرز. وتحمل البوم عادة نحواً من (٥٠٠-٦٠٠) طرد أيضاً، وسفن الكويت الآن من هذا النوع. وقد بلغت قيمة تجارة الكويت قبل الحرب العظمى ٥٧٠٥٥٨ جنيهاً، منه مبلغ ٣٧٠٨١٧ جنيهاً للوارد والباقي للصادر، وللهند منه النصيب الأكبر، والباقي موزع على جهات مختلفة.

وأهم الواردات: المنسوجات القطنية والحريرية، والأفاويه، والسكر، والبن، والشاي، والحبال التي تستخدم في السفن، والزيوت، والدخان، والشعير، والماء، ويجلب إليها بالسفن الشراعية من شط العرب: التمر والأخشاب.

أما الصادرات فهي: اللؤلؤ، والسمن من البادية، والخيول، وقد قلّت الأنواع الأخيرة في السنوات الأخيرة: الجلود، والصوف والتمر.

وقد أسست الإدارة الجمركية في عهد الشيخ مبارك الصباح، فكانت موردًا للحكومة لم يكن موجودًا من قبل، وقد زاد هذا المورد زيادة عظيمة أثناء الحرب العالمية؛ غير أنه نقص في الخمس عشرة سنة الأخيرة بسبب المقاطعة التجارية التي وضعها ملك نجد على جارته الكويت.

وقد أسس في الكويت أثناء الحرب العالمية إدارة للبريد والتلغراف، فارتبطت الكويت بالعالم الخارجي، وأصبحت تجارتها تتبع الحركة التجارية العالمية صعودًا وهبوطًا.

مقاطعات الكويت

ليست المقاطعات التي سنذكرها فيما يلي أماكن مسكونة كما يتبادر إلى ذهن القارئ؛ بل هي صحاري مسكونة بالذئاب أحيانًا، وبالغزلان أحيانًا أخرى، ولولا أن الإفرنج عنوا بكتابة أسمائها على الخرائط المصورة ما اهتمنا بها. وأكثر هذه المقاطعات مراعٍ طيبة إذا جاء المطر، وأشهر هذه المقاطعات في الشمال: هي الباطن في الزواية الشمالية، وهي قسم من الوادي العظيم المسمى بهذا الاسم، وهي ملتقى الحدود العراقية والنجدية، والشَّق، والشَّقِيق، واليَّاح، وقرعة، والمزوء، والزَّجْلة. وهذه كلها مقاطعات قفراء.

والزَّور في الجهة الشمالية من خليج الكويت، وهي عبارة عن تلال تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي قرب الجُهرة.

وَكَبْد، قَرْعَة، قَارَه، الْعَدَان، الْهَرِيم، الدَّبْدَبَة، أَمَاكِن قَفْرَاء أَيْضًا، يَنْزِلُهَا الْبَدُو إِذَا جَاءَ الْمَطَرُ.

ولا نريد أن نطيل الكلام بذكر باقي المقاطعات أو الآبار التي يردّها البدو، والتي تعد من الكويت؛ لأن ذلك يسوقنا إلى التطويل، ونخرجنا عن الغرض الأصلي من الكتاب.

جزر الكويت

١- بُؤْيَان:

في الزاوية الشمالية الغربية، وهي جزيرة خالية من السكان، وقد كانت مثار نزاع بين شيخ الكويت والترك في سنة ١٩٠٢، ويسكنها في الصيف أفراد من القوازم لصيد الأسماك بالخطور.

٢- فَيْلَكَة:

وتنطق كافها شينًا شأن أهل الكويت في النطق بالكاف، في الجهة الشرقية من خليج الكويت، وتبعد عن مدينة الكويت نحو ١٥ ميلًا، والمسكون من الجزيرة هو الساحل الغربي، وباقي الجزيرة يكاد يكون خاليًا من السكان.

وسكان الجزيرة بعضهم عرب خلص، وأكثرهم يغلب عليهم العنصر الفارسي، وهم يشتغلون بصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ، ويزرع بالجزيرة الحنطة والشعير، والخضر، والماء كثير بالجزيرة، قريب من سطح الأرض.

٣- كُتَب:

جزيرة غير أهلة بالسكان، تبعد عن الساحل نحو ٢٠ ميلاً.

وبقرب الكويت بندر الشُوَيْخ، وهو أفضل مرتسئ للسفن في الكويت، وهناك جزر أخرى غير مسكونة تابعة للكويت لا أهمية لها.

بلدان الكويت

١- مدينة الكُويْت:

هي عاصمة الإمارة، على الساحل الجنوبي من خليج الكويت في الجنوب الشرقي من البصرة، وتبعد عنها نحو ٨٠ ميلاً، وفي الشمال الغربي من البحرين، وتبعد عنها ٢٨٠ ميلاً؛ تمتد على الساحل نحو ثلاثة أميال، مع عرض يختلف ما بين ربع ميل، وميل ونصف.

وأرض الكويت غير مزروعة، فلا ترى فيها ما تراه في الأحساء من البساتين والخضرة لقلة المياه، وبسبب نمو السكان في الخمسين سنة الأخيرة تُركت مياه الآبار التي كان يعتمد عليها السكان، وأخذ الناس ينقلون حاجتهم من الماء من شط العرب، ولشيخ الكويت آبار خاصة يستقي منها أحياناً.

ومباني مدينة الكويت كسائر المباني العربية، من الطين أو اللبن أو من الصخور البحرية. وأحسن المباني قصر الشيخ، وهو مبني من الآجر، ومقام على ساحل في وسط البلد تقريباً.

وسوق الكويت في منتصف البلد تقريبًا، وليس فيه ما يستلفت النظر من فن البناء أو جمال العمارة، وبالكويت مستشفى أسسه محسنو الأمريكان، ومؤسسة للتبشير. وقد أدى المستشفى للبلد وللبدو الضارين حول الكويت خدمات عظيمة، أما التبشير فإنه قد فشل فشلاً عظيماً لا في الكويت وحدها؛ بل في سائر الشرق الأدنى. وبها أيضاً مستوصف إنجليزي يؤدي مهمته الخيرية على أتم وجه، وبها مدرستان نظاميتان، وبضعة مدارس صغيرة تشبه الكتاتيب في طريقة للتعليم.

وبالكويت نحو خمسين مسجداً، وأهمها ثلاثة مساجد، وهي تميل إلى البساطة في بنائها وأثاثها، وليس لمساجدها منائر كمناثر القاهرة، أو بغداد، وأكثر السكان يسكنون في المدينة، وهم ينتمون إلى القبائل العربية الشهيرة، وبجانب هؤلاء يوجد ٨٠٠٠ من أصل فارسي، وعدد قليل من الموالي. وطرق الكويت ضيقة كثيرة التعاريج، وأهم الطرق هو الطريق الذي يبتدئ من قصر الشيخ على ساحل البحر؛ مخترقاً السوق إلى خارج البلدة، وقد أسست للبلدة بلدية من خمس سنوات لتنظيفها وتنظيمها وإنارتها، وقد أدت خدمات جليلة للبلدة في هذه المدة القصيرة.



في صفاة الكويت حيث ينزل البدو

٢- الجهرة:

قرية كبيرة على طراز البلدان العربية، قريبة من خليج الكويت، وتبعد عن مدينة الكويت بشمالية عشر ميلاً بالطريق الغربي، وهي أهم قرية زراعية بالأراضي الكويتية، وهي محطة للقوافل القاصدة البصرة ونجد من طريق الحفر، وموقعها مرتفع يطل على البحر، فترى جميع السفن التي تمخر خليج الكويت.

يبلغ عدد سكانها نحو ٦٠٠ نسمة يشتغلون جميعاً بالزراعة؛ غير أن العدد يزيد عادة في الصيف بما ينزل حولها من البدو.

وقد كانت الجهرة^(١) قبل الإسلام مأهولة بالسكان، خاصة بهم، ولا تزال أطلال البلاد القديمة موجودة تحت الأنقاض، وكثيراً ما يعثر على النقود القديمة، وبعض الآثار عند حفر الآبار. وهذه التلال القائمة على أنقاض البلاد القديمة تمتد إلى

(١) انظر: تقرير حكومة الهند سنة ١٨٥٤، ولع الشهاب النسخة الخطية بدار الكتب البريطانية.

مسافة فرسخين من الشمال للجنوب، وفرسخ ونصف من الشرق للغرب. وإلى الشمال الشرقي من الجهرة على بعد أربعة عشر فرسخًا في اتجاه البحر توجد الصُّيَّة، وكانت قديمًا أهلة بالسكان^(١)، كما تدل عليه خرائبها، ويشتق اسمها كما يقال من الصابئة، ويقال إنها إحدى مدنها التي بنيت بعد خراب بابل، ويقال أيضًا: إنها استمرت أهلة بالسكان والحضارة إلى زمن الخلفاء الأمويين، حيث تقهقرت منزلتها وهجرها سكانها، ويؤكد السكان أن بعض سكانها لا يزالون يعيشون في خورستان، ويقيم العرب في هذه المنطقة زمن الصيف هوائها العليل.

خلاصة تاريخية

ليس للكويت تاريخ قديم معروف، ويرجح أن تاريخه لا يتجاوز الثلاثمائة سنة. أما حكامها الحاليون آل صباح، فتاريخهم في سكنى الكويت لا يتجاوز سنة ١٧١٦م، وهي السنة التي تحالف فيها الشيخ سليمان بن أحمد رئيس آل صباح، وخليفة بن محمد رئيس آل خليفة، وجابر العتيبي رئيس الجَلَاهِمَة، فاستخلصوا الكويت من الفرس وسكنوها، وسيأتي في الفصل الخاص بالبحرين ذكر انفصال آل خليفة عن الحلف، واستقلالهم بالزُّبارة وحكم البحرين.

أما المكان الذي وفد منه هؤلاء الحلفاء، فيظن أنه كان قريبًا من شط العرب في أم قصر، حيث كانوا يعملون هنالك لِلْقَرْصَةِ ونهب السفن البحرية، فقد كان هذا العمل هو السائد في ذلك الوقت في خليج فارس، وهو يشبه غزو القبائل بعضهم لبعض في البر.

(١) لمع الشهاب.

وفي الخمسين سنة الأولى من تأسيسها نمت البلدة نموًا سريعًا في السكان وفي الثروة وفي الأهمية. وتمكن آل صباح وحلفاؤهم ومؤازروهم من القبائل المجاورة في تثبيت مركزهم، وتقويته ضد بني خالد الذين كانت لهم السيادة على جميع الشاطئ الشمالي الشرقي.

وقد زاد في تقدم الكويت وعمرانها استيلاء الفرس على البصرة سنة ١٧٧٦، فقد كان ذلك مدعاة لمهاجرة الكثيرين من السكان إلى الكويت، والزُّبارة، وفي أثناء الاحتلال الفارسي تحولت تجارة البصرة الهندية مع بغداد وحلب وأزمير والآستانة إلى الكويت، وما جاءت سنة ١٧٩٠م حتى أخذت الكويت تشارك باقي مواني الخليج الفارسي في التجارة، وقد ساعد على ذلك احتلال عرب بني عُتبة البحرين سنة ١٧٨٣م، فصارت البضائع ترد إلى الكويت من مسقط والهند والبحرين والقطيف.

وبعد استرداد الأتراك للبصرة انسحب عمال (الفابريكة البريطانية) فيها مؤقتًا إلى الكويت سنة ١٧٩٣م؛ لقيام بعض المشاكل مع الموظفين الأتراك.

وفي هذا الوقت حاول السعوديون غزو الكويت والاستيلاء عليها، ففشلوا في كل محاولاتهم.

وفي سنة ١٨٣١ زار السائح Stocqueler الكويت، وهو يقول: بأنه الأوربي الوحيد الذي زار هذه البقاع منذ أمد بعيد. ويقول: إن المدينة في زمنه كانت تمتد على الشاطئ نحو ميل، وتحوي نحو أربعة آلاف من السكان، وهو يظن أن الميناء ربما كانت استعملت أو اتخذت قاعدة للبرتغاليين، بالنسبة إلى مركز الميناء المطل على مصب نهر العرب. والتي يمكن اتخاذها قاعدة لمعاكسة التجارة التركية وتجارة فنييس

مع الهند. ويقول: إن المدينة في زمنه كانت تحكم بوساطة شيخ، وليس لديه أية قوة مسلحة، وكان يحصل ضريبة قدرها اثنان في المائة على جميع الواردات.

عندما وصل المصريون إلى شواطئ الخليج الفارسي في محاربتهم للسعوديين (١٨٣٨-٣٩) وضعوا مندوباً لهم في الكويت، وكانت وظيفته سياسية. وكان شيخ الكويت في ذلك الوقت هو الشيخ جابر، الذي كان على صلات طيبة مع الحكومة البريطانية، إلى أن توفي سنة ١٢٧٦، وقد خلفه ابنه الشيخ صباح، وفي أثناء حكمه قام الكولونيل «بلي (pelly)» سنة ١٨٦٥ برحلته الشهيرة من الكويت؛ ليقابل حاكم نجد في الرياض، وهو أول من لاحظ مستقبل الكويت التجاري. ويقول: إن الكويتيين يعتبرون أحسن وأقدر بحارة بلاد الخليج الفارسي، وهم محل ثقة في أخلاقهم ومعاملاتهم. ومنذ خمسين سنة لم تكن ميناؤهم ومدينتهم شيئاً مذكوراً؛ والآن أصبحت أهم مواني الخليج الشمالي، ورئيسها له سمعة طيبة في الداخل والخارج، وإليه يرجع الفضل في حسن الإدارة الداخلية، والسياسة الحكيمة. فالضرائب المخفضة على الواردات، والجو الصحي، والسكان المتآخون، وحسن الميناء، وطرق المواصلات وقربها؛ كل هذه العوامل حولت كثيراً من المتاجر إلى الكويت، مما كان يرد بوشهر والبصرة^(١). وبالنظر إلى موقعها وحالتها السياسية، كانت هذه الميناء هي المخرج البحري الوحيد للجبل شمر.

وقبل أن تمضي عدة سنوات أخذت شركة الملاحة البريطانية (British India Steam Navigation Company) تجعل ميناء الكويت إحدى مواني الخليج التي تعرج عليها بواخرها، فهذه الحركة أثارت غيرة السلطات التركية، وجددت مخاوفهم من أن يكون تقدم ميناء الكويت سبباً في إنقاص أهمية البصرة، وعليه فقد

(١) خطبة الكولونيل بلي في الجمعية الجغرافية.

عدلت الشركة عن جعل الكويت إحدى المواني التي تعرج عليها بواخرها، ولكن هذا العدول كان إلى حين؛ فقد علمت بريطانيا أن روسيا تنوي إنشاء محطة فحم هناك، والمسامي كانت تبذل لدى الباب العالي للحصول على امتياز باسم الكويت، كما سعت لبناء سكة حديدية من البحر الأبيض إلى الخليج الفارسي، وهو مشروع لو تم لجعل للروس حقوقاً في مياه الكويت الساحلية.

وإتقاء لما يسعى إليه الروس، عقدت بريطانيا سنة ١٨٩٩ م اتفاقاً مع الشيخ مبارك على منوال الاتفاق الذي عقده بريطانيا سنة ١٨٩١ م مع سلطان مسقط، فهذه الخطوة حركت عواهل الأتراك الذين اجتهدوا في أن يثبتوا سلطانهم في الكويت، ولكن الشيخ مبارك قاومهم، واستمر محافظاً على حسن علاقاته مع بريطانيا.

وقد تميزت سنة ١٩١٠ بوصول بعثة سكة حديد بغداد إلى الكويت؛ للبحث عن النقطة التي تنتهي إليها السكة الحديدية، ولولا معاهدة سنة ١٨٩٩ لكان لهذا الحادث تأثير كبير في تعريض مركز بريطانيا في الخليج الفارسي لخطر كبير.

وفي سنة (١٩٠٢-١٩٠٣) زار الكويت بعض الطرادات الروسية والفرنسية، ولكن هذه الزيارة لم تؤثر في الحالة المحلية، كما أنها لم تؤثر فيما بين بريطانيا والكويت من صلات.

وحكام الكويت الحاليون سلالة جابر بن عبد الله الملقب بجابر الكبير، الذي جاوز المائة، وهم أبناء صباح بن جابر بن عبد الله.

واشتهر في أوائل هذا القرن من هذه العائلة الشيخ مبارك الصباح، فقد تَسَنَّمَ هذا الأمير حكم الكويت على جثتي شقيقه (محمد وجراح) ٢٥ من ذي القعدة سنة

(١٣١٣هـ-١٨٩٦م) فأثار بذلك نزاعاً داخلياً استمر نحو تسع سنوات، وقد عظم شأن الكويت في أيامه، وزاد عدد سكانها زيادة عظيمة. وفي أيامه خرج الأمير عبد العزيز بن سعود، واستولى على الرياض، وغير مجرى تاريخ الجزيرة كما سيأتي في تاريخ آل سعود.

كان الشيخ مبارك طويل القامة، أسمر البشرة، قوي الذاكرة، صلب الإرادة، مستبداً، طموحاً إلى نشر سلطانه ونفوذه على البلاد المجاورة، ولكن الظروف لم تساعد. وقد اشتهر الشيخ مبارك بالتقلب وعدم الثبات على سياسة واحدة، فقد كان يساعد آل سعود لإضعاف نفوذ الرشيد وخضد شوكتهم، كما أنهم كان يعتمد أحياناً إلى تقوية صلاته بالرشيد؛ خوفاً من توسع آل سعود، وكان لا يعف عما في أيدي الناس؛ فقد كان يتوسل بأوهى الأسباب لفرض الضرائب على الناس وابتزاز أموالهم، ولكنه كان بجانب ذلك غيوراً على مصالح الكويت مدافعاً عنهم أينما حلوا، وقد خرج في أخريات أيامه على تقاليد العرب والدين، فكان يجاهر بالمعصية حتى في رمضان، مما جعل أهل الكويت يضجون منه.

لقد حاول الأتراك في سنة ١٨٩٧ أن يستولوا على الكويت، وينفوا الشيخ مباركاً إلى الآستانة، ولكنه أحبط هذا المشروع بما بذله من المال في البصرة وبغداد؛ غير أنه في سنة ١٨٩٨ أرسل إليه الأتراك وفدًا مؤلفاً من كبار الموظفين، وبعض أعيان البصرة على إحدى السفن الحربية القديمة؛ لنقله إلى الآستانة حيث عين عضواً في مجلس شورى الدولة، فالتجأ إلى الإنجليز فأنقذوه من الأتراك، وأعلنوا في تلك السنة حمايتهم على الكويت.

وقد أخبرني الشيخ مبارك والسيد رجب النقيب بهذه القصة، للدلالة على قصر نظر الأتراك، وسعيهم الدائم لإضعاف العرب، مما اضطر هؤلاء إلى الالتجاء إلى

الدول الأجنبية؛ غير أن بريطانيا اضطرت إلى إعلان الحماية إبعاداً لكل نفوذ أجنبي على الكويت، نظراً لظهور الروس في الميدان.

واجه الشيخ مبارك في أوائل حكمه كثيراً من الصعاب التي يقيمها في وجهه أبناء شقيقه الشيخ محمد بن صباح وجراح، والشيخ يوسف بن إبراهيم نصيرهما، فأوعز الأتراك إلى عبد العزيز بن الرشيد بمناوأة مبارك، فأخذ يغير على أطراف الكويت، كما أخذ مبارك نفسه يغير على أطراف البقاع التابعة لأمير حائل، ففي سنة ١٩٠٠ غزا مبارك بعض جهات تابعة لعبد العزيز آل رشيد، وسلبهم آلافاً من الجمال، وفي خريف هذه السنة حاول مبارك أن يقتنص قافلة كبيرة إلى العراق، كانت مكلفة بإحضار مواد غذائية، وملابس وذخيرة لفصل الشتاء من السماوة، ولكنه فشل في ذلك. وفي ذي القعدة سنة (١٣١٨هـ / ١٧ مارس سنة ١٩٠١م) كانت معركة الصّريف؛ التي انكسر فيها مبارك نفسه بعد أن قتل فيها أخوه وأحد أولاده، كما قتل فيها عدد كبير من أهل الكويت، وقد حاول ابن الرشيد في خريف هذه السنة أن يتقدم ويستولي على الكويت، ولكن الظروف الداخلية والخارجية لم تساعد على تنفيذ خطته، فالثورات الداخلية، وسياسة بريطانيا في الخليج قضت على هذه المحاولات. وقد استراح الشيخ مبارك بعد قتل عبد العزيز بن الرشيد سنة ١٩٠٥، وموت عدوه الألد الشيخ يوسف بن إبراهيم سنة ١٣٢٣ في السنة نفسها، فلم يعد له خصوم يؤبه لهم، وأصبح السيد المطاع في الكويت.

وفي سنة ١٩٠٣ زار الكويت اللورد كيرزون في رحلته إلى خليج فارس، وعلى إثر هذه الزيارة عينت الحكومة البريطانية وكيلاً سياسياً للكويت، فاحتج الأتراك على هذا التعيين المأهول بسيادتهم على الكويت، ولكن لم يكن له أي أثر.

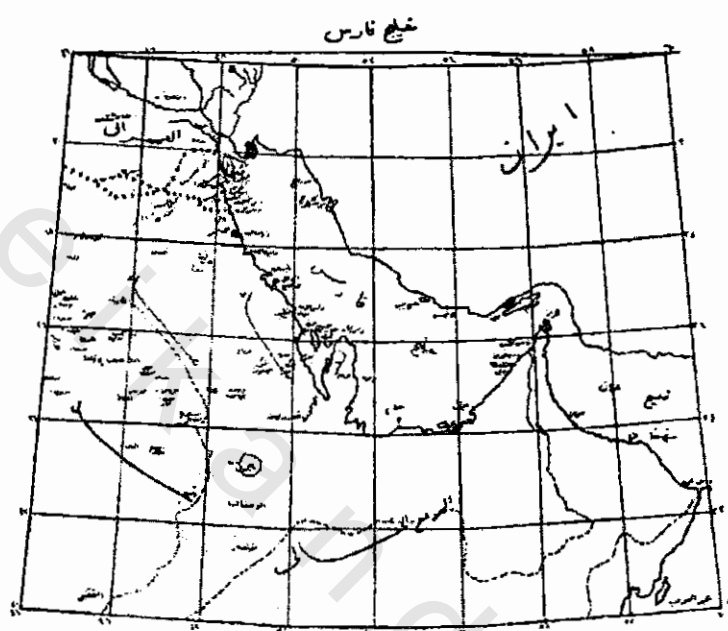
وقد توفي الشيخ مبارك في مساء الإثنين (٢٠ محرم سنة ١٣٣٤ / ٢٩ نوفمبر سنة ١٩١٥)، فتولى إمارة البلد بعده أكبر أبنائه الشيخ جابر بن مبارك الصباح، وقد اشتهر بطيبة القلب وحب الخير، والرفق بالناس، فخفف الضرائب، وأزال كثيراً منها مما فرضه أبوه، وحسّن صلاته بآبن سعود، وكان قد أصابها شيء من التصدع أواخر أيام مبارك.

وفي الخامس من فبراير سنة ١٩١٧ توفي الشيخ جابر بن مبارك، فأُسندت إمارة الكويت إلى أخيه الشيخ سالم بن مبارك.

كان الشيخ سالم شجاعاً، يجيد الرماية وركوب الخيل، ملماً بشيء من الفقه وبعض قواعد النحو، وكان طبعه يميل إلى العناد والشدة، ولم يكن موفقاً في سياسته مع ابن سعود، ولا مع الحكومة البريطانية؛ لظنه أنها كانت تمالئ ابن سعود عليه.

وقد اشتبك في معارك حربية مع الإخوان النجديين كانت الغلبة فيها للإخوان، ففي حَمَض هاجم الدَّوَيْش ومُطَيْر سنة (١٣٣٧هـ - ١٩١٩م) معسكر ابن صباح، واستولى على ما فيه من مال وذخيرة. سنة (١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م) هاجموا الجهرة وحاصروا الشيخ سالماً فيها، وكادوا يقبضون عليه، وفي السنة التالية توفي الشيخ سالم بن مبارك، فاختر الأهلالي ابن أخيه الشيخ أحمد جابر، وهو شاب في غاية الذكاء، يميل إلى الأناة والتبصر في أعماله، حتى اتهم بكثرة التردد، قابل الأهلالي بدء حكمه بحماسة وارتياح؛ لما جرته عليهم سياسة عمه من خوض غمار الحرب مع ابن سعود، وهو حليفهم، وصديقهم القديم، ويد الشيخ مبارك اليمنى في استتباب الأمن في جزيرة العرب، وفي نشاط الحركة التجارية.

ولذا فقد جعل همه الأول الميل إلى السلم وتنشيط الحركة التجارية، فنجح الشيخ سالم في الأولى، أما الثانية فإن النزاع مع الملك عبد العزيز أخذ طوراً اقتصادياً أدى إلى مقاطعة اقتصادية من جانب نجد للكويت، كان من ورائها إحياء المواني النجدية التي نافست الكويت، وقضت على شطر من تجارتها، وقد كان في إمكان شيخ الكويت أن يتفق مع جاره حسب الأصول الاقتصادية، وحسب العادات المتبعة بين الدول المتجاورة؛ ولكن عولج هذا الموضوع مراراً، فلم يوفق الفريقان لحل يرضيهما ويصون مصالحهما.



إمارة البحرين

يطلق اليوم اسم إمارة البحرين على مجموعة الجزر الواقعة في وسط الخليج الفارسي، منفصلة عن ساحل قطر والقطيف، وهي الجزر التي كانت تسمى قديماً (Tylos)، وهي جزيرة البحرين، وجزيرة المحرق، وأم نغسان وسيرة، مع عدد من جزر صغيرة صخرية لا أهمية لها.

الجو

جو البحرين قرب السواحل وفي المناطق المنزرعة حار رطب لا يكاد يحتمل، ولقد كانت البحرين حتى سنة ١٩٢١ موبوءة كالقطيف بالحميات، ولكن منذ السنة المذكورة قامت إدارة البلدية بمجهود كبير في ردم المستنقعات والبرك، فتحسنت حالها تحسناً محسوساً، وأقصى درجة الحرارة ١٠٤° في أغسطس، وتنخفض الحرارة في ديسمبر ويناير إلى ٤٨°، والجو من أكتوبر إلى إبريل مقبول نوعاً، فالحرارة تتراوح من (٦٠-٨٠° ف) وفي يناير وفبراير تهب الرياح الشمالية فيبرد الجو، ويستعمل الناس النار في منازلهم للوقاية من أذاه، وفي مايو ومنتصف يونيو يهب نسيم البحر، فيخفف من شدة الحر؛ أما من منتصف يونيو إلى آخر سبتمبر فإن الحرارة لا تكاد تنخفض عن ١٠٠°، وعندئذ تكاد الأنفاس تنقطع، ويكاد العرق لا يجف ليلاً ولا نهاراً، ولا يلطف الهواء إلا نسيم البر، ولكنه قليل، والأمطار قليلة في البحرين، وموسم المطر من منتصف أكتوبر إلى منتصف مايو.

والرياح التي تهب على البحرين، هي البارح؛ وهي رياح شمالية غربية، ومدتها أربعون يوماً، تبتدئ من الأسبوع الثاني من يونيو، وتكون شديدة هوجاء في الشتاء

حين تهب من الشمال، وهذه تهب على البحرين من وقت لآخر في غير شدة، ثم الرياح الجنوبية الغربية يسمونها القوس، وهي إذا هبت في الصيف اشتد الحر؛ ولا سيما في شهر أغسطس، وهي تهب بغير انتظام من ديسمبر إلى إبريل.

السكان

لم يعمل إحصاء دقيق لمدن وقرى البحرين، وربما بلغ سكانها نحو: ١٢٠٩١١ نسمة: منهم ٦٨٨٣٦ من أهل السنة، و٥١٨٢٠ من الشيعة. وأكثر الشيعة من القرويين، كما أن أغلب أهل السنة من أهل المدن. وأكثر أهل السنة من الحوالة الذين يسكنون في المنامة والمحرق والبديع والحد، وهم يشتغلون بالتجارة، وليس بينهم رابطة اتحاد أو نفوذ على غيرهم.

أما العُتُوب (بني عتبة) والسادة والدواسر فهم أكثر القبائل نفوذًا في البحرين، فبنو عتبة لهم بالعائلة الحاكمة صلة النسب، والسادة نفوذهم مستمد من اتصال نسبهم بالنبي الكريم، والدواسر نفوذهم مستمد من سلوكهم الحسن في الجزيرة، ومن ثروتهم التي اكتسبوها من التجارة. وهناك بعض قبائل أخرى تنتمي إلى بني خالد.

وأغلب السكان السنين يسكنون على السواحل، ومعيشتهم مرتبطة بالبحر أكثر من الزراعة، وهناك أيضًا عدد من الموالي لا يقل عن ٦٠٠٠ نفس، وجالية صغيرة من الإيرانيين والهنود.

والحياة في البحرين تختلف عنها في جزيرة العرب، فليس في البحرين كما في جزيرة العرب روح التعصب؛ لعدم مصاهرة غير العرب إلا في العائلة الحاكمة فقط،

وليس في البحرين كما في الجزيرة البعد عن الكماليات، وتجد في البحرين أثر الروح الفارسية والهندية في المأكّل والبناء، وفي الملابس وبعض العادات الأخرى.

الصناعات والتجارة

أهم الصناعات في البحرين هو الاشتغال باستخراج اللؤلؤ من البحر، والبحرين تلي عمان في الأهمية من حيث كثرة السفن وعدد الغواصين. والغواصون وإن كان منهم عدد غير قليل يفد من الأحساء ونجد، فإن التجار الذين يمدونهم بالمال من تجار البحرين.

لا يقل عدد المشتغلين باستخراج اللؤلؤ عن عشرين ألف نفس، ويبلغ عدد السفن نحو ٩٠٠ سفينة صغيرة وكبيرة، وموسم الغوص يتبدئ في مايو وينتهي في أكتوبر؛ حيث يبرد ماء البحر.

وقد تداخلت حكومة البحرين في عشر السنوات الأخيرة في عمل الغوص والتجارة؛ فبعد ما كانت التجارة حرة في السنين الطويلة، أوجبت الحكومة على التجار تنظيم دفاترهم كما حددت أرباح السلف، وكما حالت دون تحكم التجار في الغواصين الصغار؛ والحالة على العموم في البحرين خير منها في بعض السواحل الأخرى. وقد جهزت حكومة البحرين سفينة أعدها بكل المعدات الطبية لمساعدة المرضى وتخفيف آلام الفقراء من سكان البحرين، والمشتغلون باستخراج اللؤلؤ قد يشتغلون - في غير موسم الغوص - بصيد الأسماك؛ إما بالشبك أو بالحظرة.

ويشتغل عدد كبير بالزراعة، ولا سيما في السنوات الأخيرة؛ حيث أكثر الأغنياء من حفر الآبار الارتوازية.

وأهم حاصلات البحرين: التمر، الليمون، الأثرنج، التين، البطيخ، ويزرع بها بعض الخضراوات.

وأهم الصناعات اليدوية في البحرين: نسج الشُّرْع للسفن، والعباءات وبعض أنواع أخرى من الأقمشة، والحصر الذي يصنع من سمار الأحساء، وبناء السفن من الأخشاب التي تستحضر من الهند خاصة لذلك، وكثير من هذه السفن يصنع لقطر وعمان.

ولقد تقدمت التجارة في البحرين في الخمس عشرة سنة الأخيرة؛ بسبب بناء رصيف للسفن الشراعية ومستودعات للبضاعة. وقد أصبحت البحرين بالنظر إلى مركزها الجغرافي سوقاً هاماً لتجارة اللؤلؤ وغيره من أنواع المتاجر الأخرى. فتجار اللؤلؤ من الكويت وقطر والقطيف وسائر السواحل العربية، يبيعون فيها ما يجمع لديهم من اللؤلؤ، حيث يصدر بعد ذلك إلى الهند وأوروبا. وقد بلغت قيمة ما صدر منه في سني الرخاء مليونين من الجنيهات. وأما المتاجر الأخرى فترد للبحرين من الهند وأوروبا، ومنها يصدر قسم إلى القطيف وقطر والعقير، حيث يرسل للأحساء وجنوب نجد.

وأهم واردات البحرين: الأرز، والمنسوجات، والسمن، والبن، والتمر، والسكر، والشاي، والدخان، والأفاويه، والوقود، والأغنام للذبح.

وأهم الصادرات: اللؤلؤ، ولا يوجد صادر آخر ذو قيمة غيره، وتكاد الهند تستولي على أكثر من نصف الواردات، والبلاد الأخرى -فارس والعراق وأوروبا- تستولي على النصف الآخر.

وتنقل السلع التجارية من الهند بوساطة الشركة الإنجليزية الهندية، وهي تكاد تحتكر تجارة الخليج وتمر أسبوعياً بالبحرين في طريقها إلى البصرة، وفي رجوعها إلى بمباي، وقد أصبحت البحرين منذ سنين مركزاً من مراكز الطيران المدني، فأصبحت الطائرات تمر بها كل أسبوع في طريقها إلى الهند أو أوروبا، وأصبح في وسع المسافر أن يصل إليها في أربعة أيام من لندن، ويوم ونصف من الهند أو مصر.

جزيرة البحرين

أو (أوال) كما كان يسميها العرب^(١) أكبر جزر الإمارة وأهمها، كثيرة المياه، خصبة التربة، قابلة للنمو والتقدم، ويمكن زيادة المناطق القابلة للزراعة فيها إذا نظم الري، وجببت الضرائب بالعدل؛ وقد اتسعت المساحة الزراعية في العشرين سنة الأخيرة، وأكثر الناس من حفر الآبار الارتوازية. وازدادت حركة شراء الأراضي - سواء كان للبناء أو للزراعة - بعد أن نجحت شركة الزيت الأميركية في استنباط البترول من أراضيها.

يبلغ طول الجزيرة ٣٠ ميلاً، وهي على العموم مسطحة ومنخفضة؛ ولكنها ترتفع تدريجياً إلى نجد داخلي يبلغ ارتفاعه من (١٠٠-١١٠) قدماً.

ويزرع في الجزيرة ما عدا النخيل، الليمون، والرمان، والتوت، والتين، والبطيخ، والأترج، وأنواع الخضروات.

ويقال إنه كان بالبحرين ثلاثمائة قرية، وسواء كان هذا القول صحيحاً أم مبالغاً فيه، فإن قرى البحرين اليوم لا تتجاوز المائة، وهي أشبه بالأكواخ. ويوجد في بعض

(١) ياقوت. القاموس المحيط.

القرى المملوكة للعائلة الحاكمة، أو كبار التجار بيوت مبنية بالحجارة، ومنظمة تنظيمًا حسنًا، وهي معدة في الغالب لفصل الصيف.

وقد احتل البحرين البرتغاليون كما احتلوا القطيف، واحتكروا جزءًا كبيرًا من اللؤلؤ وتجارة الخليج الفارسي، ولا يزال في الجزيرة بقايا خزانات مما شيده البرتغاليون؛ ولكنها تداعت كلها كما تداعى بناء القلعة التي بنوها لحماية الميناء التي هجرت، واتخذت بدلًا منها المنامة.

ويوجد على الشاطئ الشرقي من الجزيرة خرائب مدينة كبيرة يقال لها جَوْ (Jow) كانت مقرًا للشيخ البحرين، ولكنها تركت سنة ١٨٠٠ لأن مرفأها غير أمين، ورحل سكانها إلى جزيرة المحرق.

بلدان البحرين

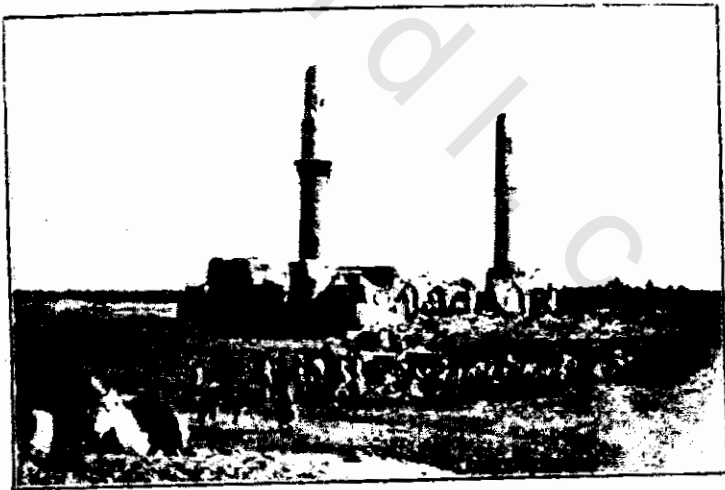
المنامة:

عاصمة البحرين التجارية على الساحل الشمالي الغربي من الجزيرة، ولكون البحر ضحلًا عند المنامة تقف البواخر على بعد أربعة أميال لتفرغ شحناتها في السفن الشراعية التي بدورها تنقلها للساحل، وفي وقت الجزر لا تستطيع السفن أن تقرب من الساحل، وقد أنشئ في الخمس عشرة سنة الأخيرة رصيف على ساحل البحر يمكن السفن أن ترسو بالقرب منه.

وقد أنشئ بالمنامة بلدية سنة ١٩٢٠م، فقامت في الخمس عشرة سنة الماضية بخدمات جُلّى للبلد، فشيدت طريقًا على ساحل البحر، وغرست الأشجار على

الطريق الخارجي، ووسعت الطرق الضيقة الملتوية، كما قامت بنصيب وافر في سبيل تنظيف البلد، وقد نجحت البلدية في إنارة البلدة بالكهرباء. وبالمنامة ما يزيد على ٥٠٠ دكان، وكثير من البيوت التجارية الأوربية والهندية. وبالبحرين أيضًا بعثة أمريكية، ومستشفى أمريكي قام بخدمات تذكر في سبيل الإنسانية.

يبلغ سكان المنامة ٢٥ ألفًا أكثرهم من أهل السنة، ونحو ١٢٠٠٠ من الشيعة. وبها أيضًا نحو ألف من غير المسلمين: هنود ونصارى شرقيين، وقليل من الأوربيين. ويستقي فقراء المنامة من بئر تسمى عين مُقْبِل ومن مستودع آخر للماء يسمى القفول في غرب البلدة. أما غير الفقراء فيشربون من ماء الرَّفَاع الشرقي أو الغربي حيث ينقل بوساطة الجمال؛ وأما الماء المستعمل للتنظيف، فكل بيت لا يخلو من بئر.



أبو زيدان في البحرين

البديع:

قرب الزاوية الشمالية الغربية من جزيرة البحرين تمتد ميلاً على السواحل، ويبلغ عدد سكانها نحو ٨ آلاف نفس أكثرهم من قبائل الدواسر، ويشغل أكثرهم بتجارة اللؤلؤ والعمل على استخراجها.

وقد وقع خلاف بين حكومة البحرين والدواسر في أواخر سنة ١٩٢٢م، فجلا الدواسر من البديع إلى الدمام، وبعد سنتين رجع قسم منهم إلى البحرين بعد استرضاء حكومتها لهم. وأهم قرى البحرين:

البلد القديم:

في الجنوب الغربي من قلعة المنامة على ميل ونصف منها، وسكانها من البحارنة^(١)، ويشغلون بالزراعة وتجارة اللؤلؤ والخياطة، وعدد سكانها نحو ٤٠٠، وأكثر بيوتها مبني بالطين، وفي الجهة الشمالية الغربية يوجد سوق الخميس نسبة لليوم الذي يقام فيه السوق، وعلى بعد نصف ميل من القرية في الجهة الغربية توجد عين أبو زيدان، وبجوارها مدرسة متهدمة بهذا الاسم ومنارة يهتدى بها، وبها عدد كبير من أشجار النخيل.

عسكر:

قرية على الشاطئ الشرقي تبعد عن جبل الدخان أربعة أميال ونصف، وسكانها من بوعيين.

(١) تطلق هذه الكلمة على سكان البحرين.

بوري:

في الجنوب الغربي من المنامة تبعد عنها سبعة أميال وسكانها من البحارنة، وبها عدد كبير من النخيل لا يقل عن ١١ ألف نخلة.

جَدَّ حَفَص:

في الجنوب الشرقي من القلعة البرتغالية المخربة (قلعة العجاج)، تبعد عن المنامة بثلاثة أميال ونصف، وهي من القرى الكبيرة في البحرين، وسكانها من البحارنة المشتغلين بغرس النخيل والتجارة وإحراق الجص وتجارة اللؤلؤ، وبها من النخيل ما يتجاوز ١٦ ألف نخلة، وبها أيضًا بساتين جميلة يغرس فيها الأترج والفواكه، وتزرع الخضار بأرضها كما يزرع (القت) البرسيم، وبقرىها قرية صغيرة تسمى عين الدار.

المَعَامِر:

على الساحل الشرقي، بعض بيوتها مبني بالحجارة، سكانها من البحارنة ويشغلون بالغوص.

رَفَاع الشرقي:

قرية كبيرة في جنوب المنامة على بعد سبعة أميال منها، وسكانها من العرب الذين يعيشون على بيع الماء المستخرج من آبارها المسمى بالحَيْنِ، ويقيم بها بعض أعضاء العائلة المالكة، وقد كان لهم شأن يذكر قبل النظام الحالي في البحرين، والرفاع تعتبر أصح منطقة في جزيرة البحرين.

رفاع الغربي:

مثل الرفاع الشرقي في موقعه ويبعد عنه ١.٢٥ ميل، وهو في الغرب الشمالي منه، وسكانها سنيون أكثرهم من قبيلة بني عُبَبة، وبعض أعضاء العائلة الحاكمة كانوا يسكنونها ويحكمونها كالرفاع الشرقي، والسكان يشتغلون بنقل الماء وبيعه في المنامة، والمنطقة غير منزرعة.

سنابس:

على الساحل الشمالي من الجزيرة بها مسجد، وسكانها من البحارة الذين يشتغلون ببناء السفن وصيد الأسماك وتجارة اللؤلؤ.

الزَّلَّاق:

على الساحل الغربي من الجزيرة أسفل البديع، وسكانها من الدواسر الذين يشتغلون بالغوص وبها قلعة مخربة.

جزيرة المحرق:

تقع جزيرة المحرق في الشمال الشرقي من جزيرة البحرين؛ حيث يفصل الجزيرتين مضيق صغير يبلغ طوله ميلاً ونصف ميل فقط يعبر بالسفن الصغيرة، وقد وصلت حكومة البحرين أخيراً في عمل جسر لربط الجزيرتين ببعضهما، والعمل لا يزال جارياً على ساق وقدم لإتمامه.

يبلغ محيط الجزيرة أربعة أميال، وساحل الجزيرة رملي منخفض، محاط بشعوب مرجانية، مما جعل الملاحة إلى البحرين محاطة بشيء من الأخطار؛ ولكن الملاحين من

العرب في غاية المهارة، ولذا فالسفن البخارية القادمة من الهند ترسو بعيدة عن الساحل نحو أربعة أميال.

وبالمحرق عدة ينابيع على الساحل تختفي تحت ماء البحر وقت المد وتظهر وقت الجزر، ويبلغ سكان المحرق ٢٠ ألفاً.

وبجزيرة المحرق ١٦ قرية صغيرة ملحقة بمدينة المحرق أهمها:

عرّاد:

على الساحل الجنوبي وسكانها بخّارنة، وبها قلعة متداعية قائمة على خليج عراد، وبها نحو ١٥ ألف نخلة.

بساتين:

على الساحل الغربي من جزيرة المحرق تبعد نحو ميل عن مدينة المحرق، وسكانها من أهل السنّة يشتغلون بالغوص، وبها قليل من النخيل.

الدّير:

على الجهة الشمالية الغربية من الساحل تبعد ميلين عن مدينة المحرق، وسكانها بخّارنة يشتغلون بالغوص وبها قليل من النخيل.

حالة أبو ماهر:

جزيرة صغيرة جنوبي بلدة المحرق تتصل بالجزيرة وقت الجزر، وسكانها من أهل السنة يشتغلون بالغوص، ونقل الماء إلى المحرق من عين تحت البحر، وبها قلعة صغيرة على نهاية الجزيرة للدفاع عن الماء.

قلاني:

في الجهة الشمالية الشرقية من الساحل، وسكانها من أهل السنة، وأكثرهم من قبائل المناذرة، يشتغلون بالغوص وصيد الأسماك.

مدينة المحرق:

مقر العائلة الحاكمة مدة ثمانية أشهر، واقعة على الجهة الغربية من الجزيرة، تبعد عن مدينة المنامة ميلين.

ويستقي أكثر سكان المحرق من عين أبو ماهر الواقعة جنوبي المدينة في جزيرة صغيرة تسمى بهذا الاسم، تبلغ مساحتها نحو ٨٠٠ ياردة، وتحاط مدينة المحرق بالماء وقت المد العالي من الجهة الشرقية والجنوبية والغربية، فيساعد ذلك على إزالة الأقدار وتنظيف الساحل.

يبلغ سكان المحرق ٢٠ ألفاً، نصفهم من الحوالة، وعرب المحرق ينتمون إلى بني عتبة وبني علي والزبانية؛ وبالمحرق عدد لا يذكر من البحارنة، ويشغل أهل المحرق بتجارة اللؤلؤ واستخراجه، وصيد الأسماك، والملاحة، وبعض المتاجر الأخرى،

وفي موسم الصيف يهجر القسم الأعظم من أهل المحرق مساكنهم، ويتشرون على سواحل جزيرة البحرين.

الحُد:

في الجنوب الشرقي من جزيرة المحرق، يبلغ سكانها نحو ٨٠٠٠ نسمة، وهم من السادة وقبائل بني ياس، وهم يشتغلون بتجارة اللؤلؤ والغوص، والحُد أكبر مركز للغوص.

سِترة:

جزيرة واقعة في شرقي البحرين، مفصولة عنها بقناة ضيقة؛ يبلغ طولها من الشمال للجنوب أربعة أميال ونصف، وعرضها ميل ونصف، وبها كثير من العيون والآبار، وسكانها في الشمال بحارنة، ويسكنون في سبع قرى صغيرة، وبها كثير من أشجار النخيل.

الجزيرة:

أو كما يسمونها -النبى صالح- هي جزيرة صغيرة قريبة من الساحل الشرقي من البحرين، تبلغ نصف ميل في كل ناحية، وهي من الأماكن العامرة بالنخيل، فيها نحو ١٤ ألف نخلة، وبها قريتان سكانهما من البحارنة، يشتغلون بالزراعة والغوص وصيد الأسماك.

أم نَعَسَان:

جزيرة صغيرة في الجهة الغربية من البحرين تبعد عنها نحو ميلين فقط، طولها من الشمال للجنوب أربعة أميال، ونحو ميلين ونصف عرضًا، وهي جزيرة غير مسكونة، وبها عين ماء عذبة قرب الساحل الغربي، ويرسل سكان البديع والزلاق من قرى جزيرة البحرين حيواناتهم في الصيف للرعي فيها.

نبذة تاريخية

لا يعرف شيء كثير عن تاريخ البحرين القديم، وما يُعرَف عن تاريخها لا يتجاوز سنة ٤٢٠ قبل الميلاد، حيث كانت البلدة تدار بواسطة رؤسائها الوطنيين الوثنيين، وفي سنة ٦١٥ بعد الميلاد غزا بهرام بلاد العرب وأقام بالجزيرة مندوبًا من قبله يدير شئونها، وقد بقي بها إلى زمن الفتح الإسلامي، وبعد الفتح الإسلامي بمدة قصيرة استرد الحكام المحليون استقلالهم، واستمروا في حكمهم حتى زمن هشام بن عبد الملك، حيث استرد الجزيرة مرة أخرى، وأقام من جانبه حاكمًا قرشيًا عام ٧٢٣م، وقد استمر حكم البحرين على هذا النحو حتى آخر حكم العباسيين في القرن الحادي عشر، فعاد حكم الوطنيين مرة أخرى، واستمر حتى القرن السادس عشر، وفي القرن السادس عشر استولى عليها الفرس، وعينوا من قبلهم حاكمًا عليها، ثم استولى عليها البرتغاليون كما استولوا على هرمز والقطيف سنة ١٥٠٧، واحتكروا جزءًا كبيرًا من تجارة اللؤلؤ وتجارة الخليج الفارسي. وقد طرد الفرس البرتغاليين سنة ١٦٢٢ بعد سقوط هرمز، كما أن الفرس بدورهم طردوا منها مرة أخرى، وما زالت الجزيرة يتقلب عليها الحكام من الفرس تارة ومن العرب مرة

أخرى؛ حتى تمكّن عرب بني عتبة من الاستيلاء عليها، وهم الحكام الذين تنحدر منهم العائلة الحالية.

آل خليفة

إن تاريخ آل خليفة أمراء البحرين يشمل ضمناً آل صباح أمراء الكويت، ولذا فإن البحث في تاريخ إحدى العائلتين لا يخلو من استعراض شيء عن العائلة الأخرى، للارتباط الوثيق بين العائلتين في الماضي.

قدمنا في الفصل الخاص بالكويت أنه في سنة ١١٢٩هـ (١٧١٦م) تحالفت ثلاث قبائل كبرى وهم: بنو صباح، والجلاهمة، وآل خليفة. واتخذوا الكويت موطناً لهم، واتفقوا فيما بينهم على أن يتولى آل صباح شئون الحكم، وآل خليفة التجارة، والجلاهمة العمل في البحر، على أن يقتسم الجميع الأرباح بينهم بالتساوي. وبعد مضي خمسين سنة من الحلف سنة ١٧٦٦ رأى ابن خليفة أن يفصل عن الحلف، فعرض على حلفائه مبلغ ما يصيبهم من الغنى إذا هم سمحوا له ولعشيرته بالانتقال إلى الجزء المجاور لمغاص اللؤلؤ، فيؤسس هنالك محلة تدر الشيء الكثير من الأرباح فيستغني الحلفاء، فاستولى جلال الفكرة عليهم وصرحوا للرئيس آل خليفة بترك الكويت مع بعض أفراد عشيرته، فتركها ونزل الزُّبارة قرب قَطَر والبحرين على الشاطئ العربي.

اكتشف ابن صباح -ولكن بعد فوات الفرصة- الأسباب الحقيقية التي دفعت بحليفهم ابن خليفة إلى مغادرة الكويت، وشعروا بعظم الخسارة المالية التي منوها بها بفقد عضو من أعضاء التحالف، ففكروا في اقتفاء أثر حليفهم ابن خليفة بالتخلص

من قيود الحلف مع الجلاهمة، فامتنعوا من مقاسمتهم الوارد، ثم انتهى الأمر إلى طردهم من الكويت ومينائها، فليجئوا إلى إخوانهم آل خليفة في الزبارة، فأجروا لهم من الرواتب ما يتناسب مع مركزهم، وبعد ذلك جرى بينهم وبين أهل الكويت من المعارك، ما كان سبباً للقضاء عليهم وعلى نفوذهم.

يسود الهدوء البحرين، ويسود الصفاء بين الشيخ محمد الحاكم وأخيه الشيخ علي آل خليفة، ويتعاونان على قمع الفتن وإنهاء حركة التجارة، ويستمر هذا التعاون حتى سنة ١٨٦٧، ثم يتنافس الأخوان على الحكم، فيتغلب الشيخ علي على أخيه وينفرد بالحكم، فيترك الشيخ محمد البحرين إلى الكويت مقر آبائه الأولين، فيسعى عبد الله بن صباح حاكم الكويت في الصلح بين الأخوين فلا يوفق، فتقوم الحرب بين الأخوين فيتغلب الشيخ محمد على البحرين بعد قتل أخيه الشيخ علي، فيحبسه أبناء الشيخ عبد الله بن طريف فيتدخل الإنجليز في الأمر، فيطلقون سراح الشيخ محمد ويحملونه مع بعض الرؤساء إلى سيلان، ويعينون الشيخ عيسى بن علي حاكماً على البحرين سنة ١٨٧٠، ويستمر حاكماً عليها حتى سنة ١٩٢٣، حيث تغل يده بالنظر إلى كبر سنه، ثم يتولى ولده الأكبر الشيخ محمد بن عيسى، وهو الحاكم الحالي. وقد توفي الشيخ عيسى بن علي في شعبان سنة ١٣٥١ هـ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م.

الحكومة البريطانية والبحرين

كانت سياسة الحكومة البريطانية في خليج فارس في أواخر القرن الثامن عشر، والقرن التاسع عشر قائمة على إيجاد عهد من السلم والأمان في تلك المنطقة، فأعلنت الحرب على القرصنة وحاربتها بشدة.

وقد أرسلت الحكومة البريطانية مستر بروس Bruce^(١) عام ١٨١٤ إلى البحرين لاستطلاع أحوالها، فوصل إليها في ١٩ يوليو واستقبله فيها الشيخ عبد الله بن أحمد استقبالا وديا. ويقول مستر بروس: إن زيارته للبحرين كانت موفقة ومفيدة جداً، فقد علم أن إمام^(٢) مسقط غرس في أذهان العرب أشياء كثيرة ضد الإنجليز: فقد أفهمهم أن بريطانيا ستصادر سفن البحرين التي تقصد الموانئ الإنجليزية، ولهذا السبب كانوا معتزمين مشاركة الجواسيس في القرصنة، وقد شرح الشيخ عبد الله أسباب الخصام بينه وبين إمام مسقط ونقض هذا الأخير المعاهدة التي عقدها معهم، وأنه هو نفسه وأفراد قبيلته مستعدون للارتباط مع مسقط؛ لأن مصلحته لا تعارض وهذا الاتفاق.

وقد أبان الشيخ عبد الله للمستر بروس أنه في الوقت الذي كان إمام مسقط يتظاهر بالتعاقد معهم، كتب سراً إلى إمام نجد يغريه بالبحرين لإقامة راحة بن جابر حاكماً عليها، وقد رفض شيخ بني ياس الانضمام للإمام في ذلك، كما رفض أمراء العرب المقيمون على الساحل الفارسي، وقد رحب شيخ البحرين بالسفن الإنجليزية والتجارة البريطانية، وصرح بأنه مستعد لدفع أي خطر عربي عن الجزيرة، وأنه لا يشغل باله غير الإنجليز، وأن الشيخ ينتظر أن تعامل بريطانيا سفنه بنفس المعاملة التي يعامل بها سفنها في البحرين، فطمأنه مستر بروس وأخبره -ولو أنه ليس لديه التفويض الكافي- بأنه مستعد أن يضع معاهدة تزيل مخاوف شيخ

(١) سنذكر في الجزء الثاني تفاصيل الانقلاب في البحرين وأثره في سائر البلاد العربية، ويلاحظ هنا أن خليج فارس في القرن السادس والسابع عشر كان عربياً من جميع الوجوه؛ غير أن هؤلاء الحكام كانوا معاً في تنازع وخصام دائم، حتى أضعفهم ذلك وجعلهم لقمة سائغة لكل فاتح قوي.

(٢) إمام: سلطان.

البحرين، فوعده الشيخ بأنه سيصدر أوامره الصارمة للتشديد على سفنه باحترام العلم البريطاني، حتى في أشد الأوقات حرجاً.

ازداد نفوذ آل خليفة في الزبارة وآل صباح بالكويت، ونمت ثروتهم ولا سيما بعد احتلال الفرس للبصرة سنة ١٧٧٥م، فقد انتقل بذلك جزء كبير من تجارة اللؤلؤ والتجارة الهندية إلى الزبارة والكويت، وقد انتهز عرب الزبارة وحاكمهم ابن خليفة فرصة موت كريم خان واشتعال الفتن في خليج فارس، فهاجم البحرين واستولى عليها سنة ١٧٨٢، ولكنه ترك الجزيرة بعد نهبها، وبعد معارك متعددة بين آل خليفة وأتباعهم، وبين غيرهم من رؤساء العرب المواليين لفارس، ثم تمكن آل خليفة بمعاونة حلفائهم آل صباح من أن يستولوا نهائياً على البحرين ويخضعوها لحكمهم، وقد ساعدتهم ما وقع في فارس من التقلبات على الاستقرار في الجزيرة والتفرغ للتوسع التجاري، وفي سنة ١٧٩٩م هاجم إمام مسقط جزيرة البحرين، وتمكن من الاستيلاء عليها سنة ١٨٠١م، وأرسل إلى مسقط نحو ٢٥ عائلة من كبار العائلات، ولم يفد عرب البحرين استنقاذهم بفارس أو تركيا؛ لأنه كان لدى الدولتين من المشاغل ما حال دون التداخل في حوادث البحرين.

وفي نفس سنة ١٨٠١م تمكن آل خليفة بمعاونة النجديين الذين انتشرت حركتهم، وامتد سلطانهم إلى الأحساء من التغلب على قوات إمام مسقط واسترداد البحرين. وفي سنة ١٨١٠م احتل النجديون البحرين والزبارة، وعين إمام نجد عبد الله بن عفيصان وكيلاً عليهما وعلى القطيف وقطر، ولكن شيوخ البحرين استمروا على إدارة الأحكام، واكتفى مندوب نجد باستلام الجزية، وإرسالها إلى مولاه في نجد.

وفي سنة ١٨١١م اضطر عبد الله بن سعود إلى سحب قواته من الخليج بعد غارة إبراهيم باشا؛ فانتهز إمام مسقط هذه الفرصة، وهاجم الزبارة وأحرقها، وقبض على وكيل عبد الله بن سعود وأرسله إلى مسقط، فاسترد آل خليفة شيئاً من سلطانهم، ولكن نفوذ النجديين رجع بعد ذلك بقليل، وفي سنة ١٨١٦م حاول إمام مسقط أن يستولي على البحرين، ويقضي قضاء تاماً على آل خليفة. وقد أوضح في كتاب له للحكومة البريطانية أن الذي دفعه إلى ذلك هو مساعدة عرب بني عتبة للقرصان، واعترافهم بسيادة الوهابيين، وقد وصل الإمام إلى الجزيرة، ونزلت الجنود في عَرَاد ونجحت الحملة بعض النجاح. ولكن عرب البحرين هزموه أخيراً هزيمة منكرة قضت على آماله في امتلاك الجزيرة، وقد اكتشف إمام مسقط بعد ذلك أن حكومة فارس التي كانت تحرضه في ذلك الوقت على امتلاك الجزيرة، إنما تعمل للغدر به وبباقي رؤساء العرب.

ومن سنة (١٨١٦-١٨٤٢م) أخذ النفوذ النجدي في الجزيرة في الظهور تارة، وفي الخفاء تارة، تبعاً لقوة الدول السعودية وضعفها. وفي سنة ١٨٤٤م ظاهر الإمام فيصل أصغر شيوخ البحرين محمد بن خليفة ضد عمه، وعَصَّده بإرسال قوة برية ضد الإمام؛ فاستولى عليها وأقام فيها.

وقد وصف مستر بروس عرب بني عتبة في البحرين بأنهم من أقوى وأكفأ الملاحين العرب في الخليج، وأنهم يملكون جانباً كبيراً من التجارة الهندية، وهم يفضلون التجارة عن حياة القرصنة. وتعتبر هذه السنة أول سنة وضع فيها أساس التفاهم بين الحكومة البريطانية، وبين رئيس بني عتبة حاكم البحرين. وفي سنة ١٨١٩ عقد معهم السير (W. G. Ren) معاهدة للتعاون ضد القرصنة؛ لأن الجزيرة كانت أكبر مركز لتصريف منهوبات القراصنة، وأخذ ما يلزمهم من

الحاجيات الضرورية. وفي نفس هذه السنة عقدوا معاهدة أخرى مع إمام مسقط، وتعهدوا له بدفع ضريبة سنوية قدرها تسعة آلاف ريال. وفي سنة ١٨٤٧م عقدت معاهدة لمنع الاتجار بالرقيق. وفي سنة ١٨٨٠م عقدت الحكومة البريطانية مع الشيخ عيسى بن علي حاكم البحرين معاهدة مثل المعاهدة التي عقدتها مع سلطان مسقط قبل ذلك، ثم مع شيخ الكويت بعد ذلك، وهي معاهدة حماية تنص على ألا يقبل الشيخ أي وكيل سياسي غير إنجليزي، وألا يتعاقد الشيخ أو يتنازل عن قطعة من أراضيه لحكومة أجنبية.

وفي سنة ١٨٩٣ أعطى للوكيل السياسي في البحرين حق الفصل في قضايا الأجانب، ثم توسع هذا الحق حتى شمل القضايا التي فيها صالح للأجانب.

لقد طال حكم الشيخ عيسى والد الحاكم الحالي حتى جاوز الخمسين، وفي عهده تقدمت البحرين تقدمًا عظيمًا: في التجارة، والثروة، واستتب فيها السلم بعد أن كانت لا تعرف السلام، وقد اشتهر الشيخ عيسى بالكرم والتقوى؛ ولكنه كان محافظًا على القديم، لا يحب التغيير ويكره كل جديد، ولذا فقد كان يتصادم دائمًا مع الوكيل السياسي عندما يراد القيام بأي عمل عمراني. وأخيرًا اتفقت الحكومة البريطانية مع أبنائه على أن يختم الشيخ حياته السياسية ويعتكف في بيته، ويستوب عنه ابنه الأكبر الشيخ حمد، فاحتج الشيخ على هذا العمل الذي لا يتفق مع روح الصداقة، وغضب على ولده نحو خمس سنوات، ثم رضي عنه بعد ذلك. وقد ترك عزل الشيخ عيسى من إمارة البحرين أسوأ الأثر في نفوس أمراء البحرين وأهلها، وقد أعقب هذا الانقلاب تغييرًا في الإدارة، فوضع بجانب الشيخ مستشار إنجليزي لمساعدته في الأمور الهامة، وأقيم على الجمارك أيضًا مدير بريطاني، ووضع للبحرين أيضًا موازنة لموازنة الدخل والخرج، وقد تأسس في آخر عهد الشيخ عيسى قفيع

(المصرف) الإيسترن. كما أسست إدارة للتعليم قامت بإنشاء مدرستين: واحدة في المنامة، وأخرى في المحرق.

العوائد والأخلاق

ذكرنا شيئاً من العوائد والأخلاق فيما كتبناه في فصل السكان، وسنذكر في هذا الفصل بعض الصفات الأخرى المشتركة بين البدو والحضر، أو التي يتميز بها البدو عن الحضر، أو الحضر عن البدو، مما لم يذكر في الفصل السابق.

الألقاب

الفريق الأكبر من سكان جزيرة العرب - ولا سيما البدو أو القبائل الرحّل - لا يعرفون الألقاب الشائعة في الأقطار الأخرى، فهم ديموقراطيون بفطرتهم، يدعون بعضهم بأسمائهم المجردة، ويخاطبون ملوكهم وأمراءهم بأسمائهم وألقابهم العادية، فأصغر البدو يخاطب الملك عبد العزيز بيا عبد العزيز، أو يا أبا تركي، أو يا طويل العمر، وإذا سأل عن مليكه فيقول الشيوخ أو الإمام، والملك نفسه قلماً يعبأ بالألقاب، فالألقاب تعرف فقط في الحواضر الكبرى مثل الحجاز.

المساواة

إذا استثنينا التفاضل في الأنساب والإمارة، فالناس فيما سوى ذلك يكادون يتساوون في جميع ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات، والناس جميعاً سواء في نظر الشريعة الإسلامية، لا فضل لشريف ولا لسيد ولا لحاكم. إذا تعدى أمير على رجل عادي فالحاكم الشرعي كفيل بإنصافه ورد الحق إليه، وأول الناس

خضوعاً للشريعة ابن السعود نفسه. على أن هذه المساواة لا تكاد تعرف إلا في نجد، أما في غيرها فالعدل يوزن بميزانين: الأعيان والأشراف، والمتسبون إلى العائلات الحاكمة لهم ميزان خاص، وسائر طبقات الشعب لهم ميزان آخر، وقلماً يجسر أحد من عامة الشعب على مطالبة أو مخاصمة أحد من الأشراف أو العائلة الحاكمة؛ لعلمه بأن حقه لا يصل إليه من هذا الطريق؛ بل لقد يصل الأمر ببعض أعضاء العائلات الحاكمة أن يجمي بعض المجرمين، ولا يرى الحاكم من واجبه أن يجبر ابن عمه على طرد اللاجئ.

وإن من له اتصال بالخليج الفارسي والحجاز ونجد يدرك بسهولة ما نعني، وربما كان من المفيد إيراد بعض الحوادث التي لا تزال تعلق بالذاكرة:

في سنة ١٩١٦ شكا إلى الأمير عبد الله بن جلوي أمير الأحساء رجل من فلاحي الأحساء تعدي بعض الخدم عليه وعلى أبنائه، فأحضر الأمير جميع خدمه كي يتعرفهم الشاكي، فلم يجد من بينهم المعتدي، فأدرك الأمير أن المعتدي قد يكون بعض أبنائه، فأمر بإحضارهم فتعرف الشاكي المعتدي، ولكنه لما علم أنه ابن الأمير تنازل عن الشكوى واعتذر بأنه لم يكن يعرف أنه ولده، فأنبه الأمير وقال له: لقد أخطأت، إذا لم تكن نحن مثال العدالة، فكيف نطلب من الناس احترام الشريعة؟ لقد هلك من قبلنا من بني إسرائيل وغيرهم بسبب هذه التفرقة، أما أنت أيها المجرم - يقصد ولده - فيجب أن تلقى جزاءك. وهنا قام الأمير من مجلسه وانهاه عليه بنفسه بالعصا وهو يقول: يجب أن نصلح أنفسنا قبل أن نصلح الناس.

وفي سنة ١٩٢٠ شكا أحد أهل الرياض إلى الملك عبد العزيز أن زوجته - وقد حكم عليها القاضي بالرجوع إلى بيت الطاعة - لا ذت بيت فلان من أقاربه، فأمر الملك تَوْأ من بلغ قريبه بإلزام المرأة الرجوع إلى زوجها تنفيذًا لأمر الشرع، وإذا

أخذت هؤلاء حمية الجاهلية فإنه سيدخل البيت بنفسه لتنفيذ أمر الشرع؛ إذا لم نحترم نحن الشرع، فكيف نكلف الناس باحترامه، يجب أن نكون قدوةً حسنةً للناس في كل شيء.

وفي جمادى الثانية سنة (١٣٤٣-١٩٢٢) كنت زائرًا للمرحوم خالد بن لؤي في بيت الإمارة بمكة، وكان إذ ذاك أميرها فرأيت أمام الشيخ ابن داود -وهو قاضي الحُرمة وقاضي مكة في أول عهد الاستيلاء النجدي- رجلين يتخاصمان أحدهما من الأشراف من سكان الطائف، والآخر من صناع الساعات، وكان هذا الشريف أعطى الساعاتي ناظرًا لإصلاحه، ولما أصلحه ادعى أن الإصلاح لم يكن طبق الشرط، والرجل الآخر يدعي بأنه طبق الشرط، ويطلب تحويل المسألة إلى رجل خبير.

أراد الشريف أن يجلس بجوار خالد بن لؤي، فنهره الشيخ وأمره أن يجلس أمامه مع خصمه، وأنها أمامه سواء، وبعد أن سمع الشيخ الدعوى حكم على الشريف بما يقدره صانع خبير. فقال الصانع: وإن لم يقبل الشريف ذلك، فأنا مستعد أن أرد إليه الناظر كما كان، ولا أريد أن أطالبه بشيء مطلقًا جزاء أتعابي. فقال الشيخ: وما تقول في هذا؟ فارتبك الشريف، فالتفت إليه الصانع وقال: الحمد لله، إن وقوفي معك جنبًا لجنب أمام القاضي، يساوي عندي الدنيا وما فيها، لقد مضى وقت الظلم، فقد كانوا يكلفوننا بعمل الأشياء ولا يعطوننا أجره؛ بل لا يتنازلون أن يكلمونا، بل كانوا يضرّبوننا في بعض الأحيان، الحمد لله. فقال الشيخ القاضي: إن الناس جميعًا أمام الشرع سواء، وإن الأشراف أولى الناس باتباع نبيهم صلى الله عليه وسلم الذي يقول: ((يا فاطمة بنت محمد، إني لا أملك لك من الله شيئًا)). والله يقول: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}، ويقول: {فإذا نُفخ في الصور فلا أنساب بينهم

يومئذ ولا يتساءلون}. وهنا أخذ خالد الناظور من الشريف، وقال: لا نسلمه لك حتى تسلم الأجرة التي يقدرها الخبير، فقبل الشريف ذلك مرغماً، وخرج وهو يطلب السلامة؛ لأنه كان محوطاً بالإخوان الذين كانوا يؤمنون على أقوال الشيخ، ويُسمعون الشريف همساً ما يكره من قوارص الكلم.



وفود البدو في دار الضيافة والرياض

الكرم

الكرم من الصفات المعروفة عند العرب في الجاهلية والإسلام، ولا يزال العرب إلى الآن يتفاخرون بها. وفي الحديث الشريف: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)). ولا يكاد يخلو بيت من بيوت العرب من مضيف (مكان يقابل فيه الضيوف) قد يكون حجرة واحدة، وقد يكون بيتاً من الشعر، وقد يكون بناءً مستقلاً.

واحترام الضيف وحمايته من المسائل المسلّم بها في بلاد العرب، وحق الحماية ثلاثة أيام، كما أن حقوق الضيافة ثلاثة أيام أيضًا. لقد كان ينزل القاتل في بيت المطالبين بالثأر فيتجاوزون عن كل شيء ما دام في ضيافتهم، والنساء هنّ هذا الحق مثل الرجال، وإذا أعطت كلمة للضيف اللائذ بالبيت قبلتها القبيلة كلها، غير أن أكثر هذه القواعد كاد يقضى عليها الآن بعد ما استتب الأمر للملك عبد العزيز، فسلطان الشرع فوق كل سلطان، ولا حق لأي إنسان في إيواء مجرم، وكلهم احترامًا للشرع يساعدون على القبض على المجرم وتقديمه للشرع.

لقد جرت العادة عند أمراء العرب أن يفتحوا بيوتهم لكل ضيف يقصدهم، ولكن بعد مضي ثلاثة أيام من إقامته يسأل عن حاجته.

وقد يبلغ ضيوف الملك عبد العزيز نحو عشرة آلاف، فتمتلى بهم بيوت الرياض وبطحاؤها، وربما كان عدد الضيوف الدائمين لا يقل عن ٥٠٠ كل يوم.

ومن العيوب في قَطَر أن يأكل الرجل وبيته مغلق؛ فإن إغلاق البيت من أمارات البخل، كما أن من العيوب عندهم شراء اللحم من السوق بالرطل، فالأربعة أو الخمسة يشتركون في شاة يشترونها ويقسمونها بينهم.

والسيد ينادي خادمه: يا ولد، أو: يا وُلَيْد، ولا سيما إذا كان لديه خدم كثيرون، وإذا كان يريد القهوة فإنه يقول: هاتِ قهوة. فباقي الخدم يصيح: هاتِ قهوة، حتى يصل الصوت إلى عامل القهوة فيحضرها، وهذه العادة لا تزال تستعمل في سائر البلدان العربية. والملك ابن سعود يستعمل الأجراس الكهربائية في قصره بدلًا من النداء القديم، ولكنه يرجع إلى العادة القديمة إذا كان في الصحراء، أو في أحد الأماكن الأخرى التي ليس فيها أجراس.

وإذا كان الملك في الصحراء للصيد، ونزل للراحة وأراد بعض خدمه، أو أحد أفراد حاشيته، فليس هنالك وسيلة إلا النداء بأعلى الصوت، وكل خادم يسمع النداء ينادي بدوره حتى يدوي الصوت في المعسكر ويسمع الشخص المطلوب، فيقول: جاك؛ أي: جاءك. والخادم ينادي سيده: عمي، وسيدته: عمتي.

وإذا حضر الطعام وجلسوا جميعاً حول المائدة، نادى الخادم بأعلى صوته: سم؛ أي: باسم الله ابتدئوا.

والقهوة تقدم لكل ضيف مهما صغر مقامه؛ ولكن إذا سما مقامه فإن القهوة تحضر له جديدة، ولا يصح الاعتذار عن قبول القهوة.

وقد كانوا من عهد غير بعيد يعطون للضيوف بعد القهوة: إما مغلي الزعفران، أو مغلي الليمون، أو القرفة، أو شيئاً من الحليب محلى بالسكر، ولكن في العشرين سنة الأخيرة انتشرت عادة الشاي في البادية والحاضرة، ويستعملونه غالباً غير ممزوج باللبن، والبادية تستعمله غليظاً مريّر الطعم من كثرة غليه على النار. وأهل عمان يقدمون شيئاً من الحلوى أو البسكوت يدعونه الفؤالة.

ومن حق القادم من سفر أن أصدقاءه ومعارفه يزورونه في بيته، ويقولون لأقرب الناس إليه: قرت عينك (أي: سررت بحضور فلان) فيقول: قرت عينك ببنيك، وعند لقائهم يقبل الأصغر أنف أو جبهة الأكبر أو كتفه، وعادة الكتف في البحرين والكويت، والأنف والجبهة في نجد والبادية؛ أما تقبيل اليد فغير معروف إلا في الحجاز، وقد استنكرها الإخوان والعلماء النجديون عند أول دخولهم الحجاز؛ ولكنهم بعد بضع سنوات تسامحوا فيها، فأهل الحجاز الآن يقبلون يد الملك والقضاة

ولا يرون في ذلك شيئاً، وقد كان الأشراف في مكة يترفعون عن مد أيديهم للناس للتقبل، فيكتفي الناس بلثم طرف الثوب.

والغالب أن يدعو أصدقاء القادم صديقهم إلى دعوة عشاء أو غداء أو على القهوة بعد المغرب، مع جمع من أصدقائه، وعادة الدعوة للقهوة نجدها بكثرة عند أهل نجد أينما حلوا في الكويت أو البحرين أو الهند.

ومن عادة الأمراء زيارة العائلات الكبيرة في رمضان، وقد كانت العادة في الكويت والبحرين حضور الشيخ أو أحد أبنائه المقدمين على رأس الأهالي عند إتمام بناء السفينة الكبيرة وإنزالها إلى البحر. كما يجري أمثال ذلك في أوربا وأمريكا، وقد ماتت هذه العادة من البحرين والكويت، وأصبحت مقتصرة على الأهالي؛ يعين بعضهم بعضاً عند إنزال السفينة إلى البحر.

ومن طرق إكرام الضيف تقديم القهوة، والعادة في نجد أن يُصَبَّ للضيف بضع قطرات من القهوة، ثم يتكرر الصب مرة أخرى حتى يهز الضيف يده مكتفياً. أما في البحرين والكويت والحجاز فيصب نصف الفنجان تقريباً للضيف، والقهوة في جميع البلاد العربية تحضر بلا سكر، والقهوة من أمارات الكرم تحضر أمام الضيف في نجد والبادية، وفي بعض البيوت الكويتية التي تمت بنسب إلى نجد، كما جرت العادة أن يتناول الفنجان الأول صاحب البيت إن كان هو المتولي لخدمة ضيوفه، أو الخادم المتولي للصب؛ فهل هذا للتحقق من أن القهوة محضرة تحضيراً لا عيب فيه من حرق، أو لا يزال ينقصها شيء من حب الهال أو الزعفران، أو أن ذلك من بقايا العوائد القديمة؛ عوائد الاغتياال؟ إني أرجح الاحتمال الأول؛ فإن العرب معروفون باحترام الضيف ومراعاته والدفاع عنه.

والغالب في الضيافات أن يُرْس الضيوف بهاء الورد والبخور من قبيل زيادة الإكرام، وإذا أحضر للضيف ماء الورد وبخور العود، فلا يجوز المكث بعد ذلك، فمن قبيل الأمثال الدارجة على ألسنتهم: ما بعد العود من قعود، ويطلقون على المِرْس: قُمُقم (تركية أو فارسية) إشارة للضيف: قم ولا تجلس؛ ولذا فإن أكثر المضيفين يؤخرون الورد والبخور حتى يهم الضيف بالانصراف من قبل نفسه، وفي بعض الأحيان يقدمون الورد والبخور قبل الأكل؛ ليتركوا للضيف حرية البقاء أو الانصراف بعد الفراغ من الطعام، ومن العادات الإسلامية التي لا يزال النجديون محافظين عليها الانصراف بعد الأكل بقليل: {فإذا طعمتم فانتشروا}.

والدعوة على شرب القهوة كالدعوة على شرب الشاي في البلاد المتقدمة، ولا شيء ينال من إحساس العربي أكثر من إهانة الضيف. ولقد رأيت الملك عبد العزيز -المعروف بسعة الصدر والحلم- ينقلب إلى رجل آخر عندما علم أن ضيوفه قد أهينوا من رجاله المتنوط بهم إسكان الضيوف وخدمتهم وتوفير أسباب الراحة لهم، ولطرافتها نورد بعضها:

في صيف سنة (١٣٤٤هـ - أغسطس ١٩٢٥م) كنت جالسًا في حضرة السلطان عبد العزيز (الملك عبد العزيز) في مكة في قصره في المعابدة (المعروف ببيت السَّقاف)، وكان من عادته أن يجلس على شرفة داخل البيت، ويشرف على الطريق بواسطة نافذة كبيرة ليرى الغادي والرائح، فمر رجل بدوي حاول أن يتكلم معه فنهره، فقال الرجل: لعلي لم أذنب يا محفوظ، لعلي لم أخطئ، لقد بت من غير عشاء، فنالت هذه الكلمة الجهة الحساسة منه، فناداه: ما بالك أيها الرجل! أدخلوه. فلما حضر الماء عظمت قصته بالتفصيل: من أنه وصل إلى مكة بعد الغروب بساعتين، ثم طلب ولو تمرًا يدفع به غائلة الجوع، فلم يسعفه أحد؛ فنادى عظمة

السلطان القائمين بأمر المضيف والمشرفين عليه - وهما: إبراهيم بن جُمَيْعَة، وابن إدريس - وثارت ثائرتة حينما رآهما، ثم أخذ يوسعهما ضرباً بنفسه حتى كادا يهلكان، ثم أوقفهما عن الخدمة بضعة أيام، ردهما بعدها إلى الخدمة بعد توسط بعض المقربين.

وفي شتاء سنة (١٣٥١هـ - ١٩٣٢م) كان جلالتة في الصيد، وكنت معه، فما راعنا بعد الغروب إلا زئير جلالتة وأمره بضرب الطباخ نَصَّار، والشُّوَيْعِر المشرّف على المضيف والمطبخ، فسألت عن جلية الخبر، فإذا بعض الضيوف يشكو من قلة الطعام، وأنه أرز من غير سمن ولا لحم، فسألت ماذا يضر هؤلاء لو أكثروا للضيوف الأرز واللحم! إن الخير كثير. فقال لي صاحبي: ليست هذه أول فعلة لنصار وزميله؛ لأن العادة الجارية أن ما يبقى من الزاد - قلّ أو كثر - بعد انتهاء الصيد سيكون من نصيبهما، فمن مصلحتهما التقدير على الضيوف، ليكون لهما النصيب الأوفر.

ولما حضرنا إلى مجلس الملك، وكان ولي عهده الأمير سعود هو رئيس الركب، أخذ جلالة الملك يعطيه درساً من أنفس الدروس في المراقبة والملاحظة، وعدم الاعتماد على الخدم، ثم أخذ يقص علينا درساً تاريخياً فيما أصاب أعمامه من تركهم الحبل على الغارب للخدم، الذين لم يكونوا يراعون مراكز الناس ومشايخ القبائل، حتى انفض الناس من حولهم.

وقد اقترح إلغاء هذه العادة ورد ما بقي من الزاد إلى المخزن، وبذلك نستأصل شأفة العلة، ولكن العادات غالبات ليس من السهل إلغاؤها.

الأكل

والعادة في الأكل أن تقدم قصعة واحدة أو عدة قصعات إذا كان العدد كبيراً، ويحيط عدد قليل أو كثير بالقصعة بدون تفاوت في منازلهم، فالملك والشيخ والوزير والخادم يأكلون جميعاً بأيديهم من قصعة واحدة، ولا يرى الملك غضاضة في أن يكون بجواره من هو أدنى منه؛ لأن الجميع من آدم، وآدم من تراب. والعادة أن الإنسان إذا شبع يكف عن الأكل، ولا يقوم حتى يقوم الجميع مرة واحدة، فإذا قام واحد خطأ قام الجميع، ويعدون بقاء البعض بعد قيام بعض الآكلين من الشره، وقد أبطل الملك عبد العزيز هذه العادة، فأتاح لمن شبع أن يقوم إذا أراد، ولكن لا يزال للعادة أثرها في كثير من أنحاء نجد.

والنساء في العادة لا يأكلن مع الرجال؛ بل يأكلن على حدة، ومن العيوب العظيمة أن تأكل المرأة مع زوجها، أو الأم مع أولادها الذكور الكبار، أما الأطفال الصغار فيأكلون مع أبيهم أو أمهم، ولكن إذا كبرت البنات انفصلن في الأكل عن أبيهن وصرن يأكلن مع أمهن فقط، وهذه العادة ليست خاصة بنجد؛ بل الكويت والبحرين وعمان وبادية الحجاز مثل نجد في ذلك، أما المدن الحجازية فإنها لا تتمسك بهذه العادة إلا في البيوت التي يمت أهلها بصلة إلى نجد.

والعادة في الأكل أن لا يجهز بكمية تناسب الآكلين، فاليبيت الذي يضم ثلاثة أنفار يحضر الطعام فيه خمسة أو ستة احتياطاً للطوارئ، فإذا لم يحضر ضيف أعطي الطعام للفقراء، أو ألقى للحيوانات.

وطريقة تحضير الطعام تختلف في نجد والحجاز وسواحل الخليج الفارسي، فكل جهة تقتبس من الجهات القريبة منها طريقة تحضير الطبخ: ففي القصيم تجد أثر الطبخ السوري ولا سيما الحلويات، في الكويت ترى طريقة الطبخ البصري، وفي البحرين أثر الطبخ الهندي والفارسي، وفي الرياض أثر الطبخ الكويتي، وفي الحجاز أثر الطبخ الشرقي على اختلاف أنواعه؛ على أن لكل بلد أصنافاً خاصة تفضلها عن سواها.

والطعام الغالب في البادية التمر والأرز واللحم في بعض أيام من الأسبوع، أما في المدن فالطعام الرئيسي الأرز واللحم والسمك والرؤبيان في الجهات الساحلية، وفي أواسط بلاد العرب يستعمل الجريش (البُرغل) بجانب الأرز.

المرأة في بلاد العرب

المرأة على العموم في بلاد العرب غير متعلمة التعليم المعروف في البلاد الأوربية وبعض البلاد الشرقية؛ ولكنهن في الغالب يتعلمن في صغرهن قراءة القرآن وشئون المنزل، أما الكتابة فلا تعرف إلا نادراً، وتعد من العيوب النسائية في بلاد العرب. ولقد قامت قيامة أهل الزبير وبعض البصريين حينما اعترمت حكومة العراق فتح مدرسة للبنات في البصرة، فعدوا ذلك من أعظم المنكرات، ولكن الحكومة العراقية مضت في سبيلها ولم تأبه لشأن المعارضين. ويذكرنا ذلك بالحملة الشديدة التي قام بها المصريون ضد قاسم بك أمين عند ما نشر كتابه تحرير المرأة. والمرأة في الحاضرة تمتاز عن امرأة البادية بالحجاب الكثيف، فالنساء يمدحن بملازمتهن البيوت وقلة خروجهن منها إلا لضرورة قصوى؛ كزيارة الأقارب وعيادة المرضى، ولا يكون ذلك غالباً إلا في الليل، ومن المفاهر عندهم أن المرأة بعد زواجها لا تخرج من بيت زوجها إلا للقبر. أما البادية فليس هنالك إلا أثر ضعيف للحجاب، والبدوية تشارك الرجل في كل شيء حتى الغزو؛ فهي تقوم بقسط وافر من العمل، وتجهد البدوي يصحب نساءه ويتأبطهن في الحاضرة كما يفعل الغربيون؛ فتجد البدوي والبدوية في أسواق الكويت والحجاز يشتركان في الشراء، وفي البيع، وفي المشي، بدون أن يكون عنده أدنى اكتراث؛ بخلاف الحضري فإنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، والمرأة في بعض حواضر عمان تشتغل بالبيع، وتقابل الضيوف إذا كان زوجها غائباً، ولكن سائر العرب يعيرون ذلك على أهل عمان. والمرأة في الحاضرة لا يكاد يكون لها رأي حتى في الزواج، فأهلها يوافقون على الزوج وهي تختبر به على سبيل الإخبار فقط، وليس لها حق الاعتراض، وإن اعترضت فلا يسمع لها رأي.



زى من أزياء النساء في مكة

والغالب في الزواج التبكير في الرجل والمرأة؛ تتزوج البنت إذا بلغت (١٣-
 ١٤)، والولد في (١٥-١٦). ومن أنواع الزواج الشائعة إجبار بنت العم على الزواج
 بابن عمها، وليس لها أن تتزوج بأجنبي إلا إذا أذن ابن العم لها بذلك، وقد يحدث

النزاع بين أبناء العم أيهم أولى بالزواج. ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن برؤية الزوجة قبل الزواج؛ فإن هذا الإذن لا يعرف مطلقاً في بلاد العرب، فالزواج يتم بدون أن يرى الزوج زوجته إلا ليلة الزفاف.

أما في البادية فالأغلب أن الزوج يكون له سابق معرفة بالزوجة؛ لأن الحجاب في البادية رقيق وشأنه ليس كشأن الحاضرة.

والعادة في الزواج بعد قبول ولي الزوجة الزوج أن يرسل الزوج مبلغاً من النقود - قد يكون مائتي ريال أو أكثر - وبضعة ثياب غير مخيطة إلى بيت الزوجة، ويسمى عندهم (بالدَّزَّة) أي الدمغة أو المقدمة، وهذه الدَّزَّة تعرض في بيت الزوجة ليراها أقاربها وأصدقاءها، ويتفاخرون بها إن كانت تستحق الافتخار، وهذه العادة معروفة في نجد وسواحل خليج فارس وبادية الحجاز، ثم بعد ذلك يتفق على يوم الدخول، فيعقد العقد قبل يوم الدخول، فإذا كان اليوم المتفق عليه، أعلن الزوج ذلك ودعا أصحابه وأصدقاءه إلى بيته أو بيت أحد أصدقائه أو المسجد، ومن هنالك يذهب الجميع - الزوج يحيط به أصدقاؤه - إلى بيت الزوجة حيث تعد هنالك حجرة فرشت بوثير الفراش، وزينت أرضها بالزرايب الفاخرة، فيدخلون بيت الزوجة في وسط صفوف من النساء يحمين الزوج ومن معه بالهلالييل^(١)، (وقد يكون بعض المغنيات؛ وهذا في غير نجد). وبعد بضع دقائق من إقامتهم في الحجرة يطاف عليهم بهاء الورد وبخور العود والند، ثم ينصرفون، ويبقى الزوج وحده في الحجرة، وبعد بضع دقائق تحضر الزوجة محطوطة بأقاربها وتقدم إلى الزوج.

وفي ثاني يوم يقدم الزوج للزوجة هدية من الهدايا تقودًا أو غيرها، ويمكث الزوج في بيت الزوجة سبعة أيام إن كانت بكرًا، وثلاثًا إن كانت ثيبًا، ثم تنتقل الزوجة إلى بيت الزوج حيث يكون قد أعد فرشه وتحضيره.

ولا يكاد يختلف الزواج في البادية عن الحاضرة إلا في المهور؛ فالمهر الذي يتفاخر به في البادية هو: قطعة أو قطعتان من السجاد، وجرل أسجج (أبيض)، ومائة أو مائتان من الريالات، وهذا أفخر مهر في البادية.

وقد حدد جلالة الملك عبد العزيز المهر في نجد بمائة ريال حتى يسهل الزواج للناس، وإذا كان الزوج غنيًا استطاع أن يهدي زوجته ما يشاء.

أما في الحجاز: ففي المدينة إذا رغب فتى في الاقتران بفتاة اتفق أهله مع أهلها، ثم تذهب أسرة الزوج إلى منزل آل العروس، فيقوم خطيب من قبل الأولين بخطب خطبًا نثريةً وشعريةً يعدد فيها مفاخر الزوجة، ويعرض فيها باسمها، ثم يقوم خطيب من قبل المخطوبة، فيعدد مآثر الزوج ومفاخر أسرته، ثم يقبض المهر الذي يستحضر في صندوق من فضة به ورقة، كتب فيها مقدار المهر وقيمة الجارية التي يشتريها والد الزوج لتخدم الزوجة، ويقدم مع المهر ملابس حريرية للزوجة مشغولة بالفضة والتلّ، قد تتجاوز قيمتها مائة جنيه، وقد يبالغون في التكة (حزام اللباس) حتى لقد يساوي ثمنها عشرين جنيهًا، والغالب ألا يكون يوم الدخول قبل سنة من هذه الحفلة، ويشترط بعض الزوجات في المهر شيشة مرصعة بالفضة والذهب، وتقام وليمة في منزل الزوج يوم نقل الجهاز يدعى إليها أقارب العروسين والأصحاب، ويستكثرون من الأشخاص الذين يحملون الجهاز، وتزف العروس وقت السحر إلى منزل زوجها، وحين تصل تُزَف مع زوجها داخل المنزل بحضور جمع من النساء سافرات يحملن الشموع، ثم يدخل بها المخدع، فإذا ما أشرقت

الشمس خرج الزوج إلى منزل العروس ليتغذى فيه، ثم يرجع إلى زوجته، ولا يباح للزوجة أن تخرج من المنزل إلا بعد سنة، وربما تساهلوا إلى ستة أشهر، وتقام ولائم للرجال وللنساء ليلة الزفاف وليلتين قبلها وليلة بعدها، وقد أبطلت بعض هذه العوائد في السنوات الأخيرة.

وتعدد الزوجات والتسري منتشر كثيرًا في بلاد العرب بين الأغنياء والأمرء؛ أما الفقراء فحالتهم لا تساعد على تعدد الزوجات ولا على تغيير الزوجة؛ ولذا فإن الخصومات العائلية لا يكاد يكون لها أثر في بيوت الفقراء، والزوجة تقوم بنصيبتها من الخدمة المنزلية، وإذا سألت زوجة الفقير عما تتمناه في حياتها قالت: أن يبقى زوجي فقيرًا كما هو حتى نعيش سُعداء؛ لأنه إذا استغنى فأول ما يفكر فيه هو الزواج؛ والغالب أن يختصم المتزوج بأكثر من واحدة لكل واحدة بيتًا، ويساوي بينهم في جميع الحقوق، فيبيت عند كل واحدة ليلة، ويكسوهن في موسم واحد، إلى غير ذلك من الواجبات المنزلية، والمرأة قلما تعترض على هذا الزوج، وإن كانت تحقد على ذلك بطبيعة فطرتها؛ ولكنها تفهم أن هذا حق من حقوق الزوج يستعمله.

والطلاق كثير الانتشار في البلاد العربية بين الأمرء والأغنياء فقط؛ أما الفقراء فأكثرهم يحافظ على زوجة واحدة يقنع بها ويعيشان معًا في ظل السعادة والهناء. وقد يطلق الرجل امرأته فتتزوج من أخيه، وقد يطلقها هذا فترجع إلى زوجها الأول، وأمرء العرب وشيوخ البادية على العموم كثيرون الزواج، سريعو الطلاق.

ويجب أن نذكر هنا بمزيد الإكبار والإجلال أولئك النسوة اللاتي اشتهرن بالعقل والحكمة وسداد الرأي، وكان لهنَّ دور عظيم في بناء الملك وسياسة الدولة؛ فمن أولئك: زوجة الإمام محمد بن سعود مؤسس دولة آل سعود، فهي التي كان لها الفضل الأول في التقارب بين الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وبين الإمام «محمد بن

سعود» وتحبيب الدعوة الدينية إليه، وإليها يرجع الفضل أيضًا في تثبيت محمد بن سعود وتقوية عزيمته عند اشتداد الكروب وتألب الخصوم والأعداء، وتذكرنا هذه السيدة بأمثالها من نساء العصر الأول؛ في إحياء العزائم، وإذكاء النشاط والحماسة.

وإن شأن المرأة في نجد خير منه في الكويت والبحرين؛ فقد بلغ الاتمهان بالمرأة في هاتين البلديتين أنه إذا ورد ذكرها في الحديث قالوا: أكرمك الله، أو: يكرم من سمع، كما لو تحدثوا عن حيوان، وقد يبلغ الجهل ببعضهم فيقول: أمي أكرمك الله؛ كأن أمه شيء خبيث؛ على أن هذه العادة قد أخذت تتلاشي، فالأولاد المتعلمون لا يستعملون هذه الألفاظ.

والمرأة في بلاد العرب على العموم إذا أنس أهلها خللاً في سيرتها، فلا يصلح هذا الخلل إلا التخلص من حياتها، والحاكم لا يرى من حقه التحقيق في هذا الموضوع؛ بل يفرض دائماً أن الأقارب محقون في عملهم، أما الولد فلا يصيبه شيء من الجزاء؛ غير أن الشريعة كفيلة بجزاء المخطئ في الحالتين في البلاد التي يسودها سلطان الملك عبد العزيز.

ويجب أن نقرر هنا أن ما يجري في البلاد العربية من معاملة النساء في الزواج، والطلاق، والميراث أكثره متأثر بالعوائد، أكثر من تأثر الدين؛ فالدين الإسلامي قد أعلى شأن المرأة وجعلها مساوية للرجل في كثير من الحقوق، في الوقت الذي حرمت فيه المرأة من كثير من حقوقها في الديانات الأخرى. ولقد نقل إلينا كثير من أحكام الدين؛ كما نقل كثير من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخلاقه المنزلية بوساطة زوجاته. ولقد نبغ كثير من النساء في القرون الأولى والمتوسطة في البلاد الإسلامية الشرقية والبلاد الأندلسية، ولكن لما أصاب الانحلال الخلقي والديني المسلمين، سرى هذا الانحلال إلى المرأة أيضًا، وإلى حقوقها المقررة في الشريعة.



زِيَّاءُ مِنَ الْأَرْيَاءِ فِي مَكَّةَ

الطب في بلاد العرب

لا يزال الاعتماد في بلاد العرب وسواحل خليج فارس العربية على الطب القديم وتجارب المجربين، ويرجع الفضل في إيجاد الأطباء الحديثين في بلاد العرب إلى الأمريكان، والإنجليز في البصرة وخليج فارس، وإلى الأتراك في الحجاز واليمن والأحساء، وللملك عبد العزيز في نجد، كما يرجع الفضل للحكومة البريطانية والتركية في إيجاد نظام الكورنثينات في جميع السواحل العربية؛ لوقاية السكان من الأمراض الفتاكة، وحصر المرض في دائرة ضيقة، ومع ذلك فالعرب على العموم لم يقبلوا على التطبيب الحديث إلا في الجراحة فقط، وهذا من نحو عشرين سنة فقط. أما في الأمراض الباطنية فلا يكادون يعترفون بفضل الطب الحديث، ولا يزال القسم الأكبر منهم يعتمد على الأعشاب، وعلى معالجات ابن سينا وتلاميذه.

وقد كان ولا يزال كثيرون يحترفون التطبيب العربي، وكان منهم رجال مشهورون بإخراج العظام المكسورة، وتركيب عظام غيرها بدون استعمال البنج بالطبع، وهم يستعملون الكي^(١) في كثير من الأمراض، ولا سيما الكلب، وفي الإصابة بالرماح يستعملون نوعاً خاصاً من الكي، وهو أن تحفر حفرة صغيرة، ثم تشعل فيها النار، حتى إذا خفت حرارة النار وضعوا العضو المصاب داخل الحفرة بطريقة خاصة؛ وهي وإن كانت من العمليات الشاقة؛ إلا أنها في الغالب يعقبها الشفاء.

وهناك نوع خاص من تطبيب الحيوانات في البادية: فأولها العزل، وهو يستعمل في الخيل والجمال، فإذا أصيبت ببعض الأمراض القتالة المعدية عزلوا

(١) غير أنهم يفرطون في استعماله، فهم يكادون يستعملونه في كل مرض؛ وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم الإباحة والنهي عنه. فينهي عنه إذا أمكن التداوي بغيره، وإذا لم يمكن التداوي فيباح.

السليم إلى أماكن بعيدة، وهذا نوع من الكُرْتِينَة الفطرية، وهنالك مرض يصيب الغنم يسمونه (أبو رُمح) يسعل الحيوان ثم يموت سريعاً، فالبدو يذبحون الحيوان الميت ويحفظون رثتيه، ثم يأخذون من الرئة المجففة قطعة صغيرة، ويشرطون بالشرط أذن الحيوانات السليمة، ثم يضعون قطعة مما أخذوه فوق الأذن، فتسلم الحيوانات من العدوى، هذا معروف في كل البادية تقريباً، وهنالك مرض فتاك يسمى (الفاقوش) يصيب الخيول ولا دواء لها إلا عزل الخيول الصحيحة في أماكن بعيدة، أما التلقيح ضد الجدري فقد انتشر كثيراً في البحرين والكويت والأحساء، وقد أخذ ينتشر في السنين الأخيرة في نجد والحجاز، ويرجع الفضل في انتشاره في داخلية نجد للمجهودات التي يبذلها الملك عبد العزيز، وقد كان للعلماء مباحث طويلة فيه، وفي أنواع التلقيح ضد الطاعون والكوليرا وغيرها، هل هي جائزة أو غير جائزة؟ ولا يفهم من هذا أن هذه المباحث كانت من علماء نجد فقط؛ بل إن علماء البحرين والأحساء ومصر كان لهم محاولات طويلة في هذا الموضوع، ولم يقبل أهل عمان وضع كُرْتِينَة عندهم وقاية من القادمين من البصرة حين انتشار الكوليرا، ولم يقبل أكثرهم التطعيم من الجدري وقت انتشاره، ولا تزال هذه الأمراض تفتك بالسكان الجهلاء من وقت لآخر.

ومن البداهة في بلاد واسعة كجزيرة العرب، لم ينتشر فيها ذبوع الطب الحديث أن يسود سوق التجارب، وفيها المفيد النافع والضار الذي لا تؤمن مغبته، فمن الأدوية الشائعة للأمراض المستعصية، ولا سيما الأمراض العصبية كتابة سورة من القرآن في صحن، ثم محو الكتابة بهاء الورد، ثم سقيها للمريض. وفي البحرين والكويت يتخذ بعض الأفاقيين هذا النوع من التداوي تجارة رابحة، ومن الأدوية الشائعة فيها لكثير من الأمراض حتى للقروح المستعصية: أن يذهب أحد أقرباء المريض ومعه فنجان مملوء بالماء أو السمن، ثم يقف على باب المسجد لينفث فيه كل

المصلين عند خروجهم من المسجد، فمنهم من ينفث بلا قراءة، ومنهم من يتفث بعد قراءة ما يريد من قرآن أو دعاء. وقد كانوا ولا يزالون ينهون عن تنظيف العين المصابة بالرمد الصديدي، الذي يسمى «أبو طَبَّيق»، ويكتفون بمنع الطفل المريض من بعض المأكّل، وقد كانت النتيجة إصابة الكثير بالعمى أو غيره من الأمراض.

وربما كان لأول مرة وصفتُ لأحد المرضى بالكويت سنة ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م) الغسل المتكرر بالبوريك، فكانت النتيجة شفاء الطفل بعد أيام قليلة، فكثرت استعمال البوريك بعد هذه الحادثة في الكويت. على أن للبعثات الأمريكية والإنجليزية في البحرين والكويت والبصرة وسائر السواحل العربية فضلاً كثيراً في تحبيب الطب الحديث إلى الناس؛ ولكن هذه البعثات بما يحيط بأعمالها من أغراض دينية، جعل الناس يتعدون عنها، وجعل فريقاً من الناس يهتمونهم بالغش للعداوة الدينية المتأصلة، ويدأون مرضى الأطفال بالحصبة بحجزهم في حُجَر مظلمة لا تدخلها الشمس وحمة الأطفال حمية تامة عن جميع المأكّل. ويدأون اليرقان الذي يسمونه «أبو صُفَيْر» بالكى في أصابع اليد والرجل. ومن العقائد الشائعة في البلاد العربية أن الجروح تشم أو تتأثر بالروائح العطرية، فتنتفخ وتؤذي المريض، ولذا قال الجرّاح يضعون قطعة من الحِلْتِيت في خرقة يسدون بها أنوفهم، حتى لا يشموا أو حتى لا يتأثر الجرح بالروائح الطيبة.

ومن الشائع أيضاً أن لحم بقر الوحش يخرج الرصاص من الجروح، فإذا أصيب أحد برصاصة في حرب واستعصى عليه إخراجها، أكل قطعة من لحم بقر الوحش؛ اعتقاداً منه بأنها هي الدواء الوحيد لإخراج الرصاص من الجرح، ولذا فمن أقبح الهدايا أن تقدم بقرة وحش - وما أقلها في بلاد العرب - مقددة إلى أحد الأمراء؛ لأن ذلك يقوم مقام مستشفى كبير للجراحة.

ومن الأدوية الشائعة المعروفة عندهم أن أكل المرارة سبعة أيام على الريق يشفي من الدمامل، وفي بلاد العرب استعمال المعاجين لاكتساب الشيخ نشاط الشباب؛ ولذا فإذا ما قدم أحد من الهند أو من السواحل، أو قدم أحد الأطباء لزيارة السواحل العربية؛ كان أكثر ما يلقي عليه من الأسئلة، وما ينهال عليه من الطلبات هو هذا الدواء.

ومما يناسب ذكره في هذا الموضع قصتان وقعتا على شخص الملك ابن السعود: الأولى في أواخر سنة (١٣٤٢-١٩٢٢)، والثانية بعد الأولى ببضعة أشهر: أصيب الملك ابن السعود بدمل صغير في شفته، ولما أهملت العناية بهذا الجرح الصغير؛ حصل تقيح شديد في الجرح، وسبب حمى شديدة كادت تؤدي بحياة الرجل، فاستعملوا له كل أنواع العلاج المستعملة في نجد من كي وغيره، فكانت الحالة تزداد كل يوم خطراً، فدُعي الطبيب الأمريكي من البحرين الدكتور (ديم) فعمل له عملية جراحية بسيطة شفي بعدها بعد أسبوعين، فكان هذا خير شاهد لفضل الطب الحديث.

الحادثة الثانية: أصيب جلالتة برمد حاد، فبعد أن طال علاجه على يد الطبيب، اقتنع بالعلاج المحلي الذي كانت عاقبته ظهور قرحة في العين؛ غير أن الطب الحديث أصلح ما أفسد العلاج المحلي^(١)، فعاد للعين شيء من قوتها ونورها.

وبعض أمراء العرب وشيوخهم لهم إلمام بالطب الباطني القديم، فلكل واحد منهم مستحضرات خاصة يستعملها لنفسه ويشير بها على أصدقائه ومحبيه. وقد كان المرحوم الإمام عبد الرحمن والد الملك عبد العزيز ملماً بكثير من المعارف الطبية

(١) ويجب أن نذكر بمزيد الافتخار المهارة التي أبدتها أحد الأطباء المصريين؛ المرحوم الدكتور سالم هندواوي بك، فلمهارته الفضل الأكبر في نجاح العملية.

المستمدة من قانون ابن سينا وتذكرة داود وأشباهها، وقد كان يُرجع إليه في بعض الأمراض فيصف لها ما يعرفه من الدواء، وقد ورث عنه المرحوم جلالة الملك عبد العزيز بعض هذه المعارف، كما ورث عنه بعض هذه الصفات، فهناك وصفة يستعملها الملك عبد العزيز على الريق حضراً وسفراً، وهي مزيج من خشب العود والصبر والمصطكا تُمزج بالتساوي.

ومن لطائف الطب التجريبي القصة التالية الشائعة في البحرين، ولعلها مختلفة للدلالة على بساطة أهل البحرين: كان يسكن جزيرة المُحرَّق رجل مُسن مصاب بالدوستاريا المزمنة، حتى يش منه أهله وبنوه، ولم يفكروا في عرضه على الطبيب؛ لأنهم ممن لا يؤمنون بفائدة الطب ولا بعلاج الطبيب. طلب هذا الشيخ من ولده وقد كان ملاحاً أن يصحبه في سفينته ليستنشق الهواء ويودع هذا العالم، وصلت السفينة المَنامة، وهناك ترك الولد السفينة وفيها والده لقضاء حاجة في السوق، وفي أثناء غيابه حضر عبد من عبيد شيوخ البحرين المعينين للسخرة، فسأل الشيخ المسن عن البحار لأن لديه قَتاً (برسيماً) فأخبره الوالد بأن صاحب السفينة في السوق، فاستكثر العبد هذا الجواب، فنزل عليه بالعصا بدون رحمة ولا شفقة، فقفز الرجل من شدة الألم إلى البحر، وبقي في البحر حتى جاء ابنه الذي نقل البرسيم في سفينته إلى الجزيرة الثانية، ونقل والده أيضاً إلى البيت، فأما الوالد فقد شفي بعد هذه العملية من مرضه، فاعتقد أن ظروف الحادثة هي التي شفته من مرضه المستعصي، وصار يصف لكل مريض مصاب بالدوستاريا أن يذهب في السفينة، ويجري عليه ما جرى عليه.

وقد أخبرني علي الفهد الخالد من كبار أهل الكويت: أن رجله أصيبت بقرحه استعصت على الدكتور «بنيت» الطبيب الأمريكي بالبصرة، وأشار عليه بقطعها،

فذهب إلى مزرعته بالبصرة يسوده الحزن والغم على هذه المصيبة، فلما رآته إحدى الفلاحات استكشفت أمره وهي تعهده مرحًا فرحًا، فأخبرها بأمره وبأمر الطبيب وبأن حياته في خطر، فقالت: لا تحزن، لقد جربت الطبيب نحو شهرين، أفلا تجرب دوائي أسبوعًا، فبعد تردد قبل، فأحضرت له مرهمًا من مختلف الأعشاب، وكم كانت دهشته حين شفي تمامًا بعد أسبوعين، وقد عرض أمره على الدكتور بنيت فوجد القرحة قد زالت تمامًا، ولم يبق أي أثر للتقيح، وأخبرني المذكور أن الدكتور حاول أن يتعرف الأعشاب المذكورة ليختبرها علميًا، وعرض جائزة كبيرة على المرأة؛ فلم تبح له بسرها.

وهناك نوع من الطب له صفة التقديس؛ وهو ما يسمى بالطب النبوي، فقد ورد في البخاري وغيره من كتب الحديث بعض الأدوية التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعملها أو يوصي باستعمالها، فأخذت هذه الوصفات صفة التقديس، وكثير من هذه الوصفات لا تنكر فائدتها، ولا يزال الطب الحديث يأخذ بقسم منها. ولقد تكلم العلامة ابن خلدون على الطب النبوي في مقدمته فقال: وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة مقصورة على بعض الأشخاص، متوارثًا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على فائده طبعي ولا على موافقة المزاج، وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون: مثل الحارث بن كلدة وغيره، والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل، وليس عن الوحي في شيء، وإنما هو أمر كان عاديًا عند العرب؛ فإنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث لتعليمنا الشرائع، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العادات، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال: ((أنتم أعلم بأموار دنياكم)). فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة

على أنه مشروع، فليس هنالك ما يدل عليه؛ اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك، فيكون له أثر عظيم في النفع، فيكون من آثار الإيمان، وليس من الطب المزاجي.

ورأى ابن خلدون وإن كان يجد له أنصاراً ممن ضربوا بسهم في العلوم الطبية الحديثة؛ فإن أنصاره قليلون في جزيرة العرب.

وإن سنة (١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م) تعتبر فتحاً جديداً للطب الحديث في جزيرة العرب؛ ففي هذه السنة عين الملك عبد العزيز أحد الأطباء السوريين طبيباً خاصاً له ولل قصر أيضاً، ولما تم لجلالته فتح الحجاز سنة (١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م) نظم الإدارة الطبية فيها على أحدث الطرق، وجعل شعباً في نجد والأحساء وعسير؛ فضلاً عن مدن الحجاز المهمة، وهي تقوم بمهمتها خير قيام، حسب ما تسمح به موارد البلاد المادية، وإذا كنا نأسف لانحطاط المستوى العلمي الطبي في البلاد العربية، فلا يجب أن ننسى فضل العرب وما قدموه للعالم في فنّ الطب والعلاج، وما أسسوه من مستشفيات لمختلف الأمراض في بغداد والشام والقاهرة والأندلس، فلقد كانت جامعاتهم في أهم المدن العربية مرجع الطلاب الأجانب، كما هي حال جامعات الغرب اليوم، ولقد ظل الطب العربي مرجعاً للعالم مدة غير قصيرة، إلى أن حلت النظريات والتجارب الحديثة محل النظريات القديمة.

وإذا نهض العرب مرة أخرى، وأخذوا بقسطهم العلمي في الطب وسائر العلوم المادية، فإنهم لا يأتون ببدعة، بل يعتبرون كمُحْيِينَ لعهد أجدادهم الذين ملكوا ناصية العلم حقبة من الزمن، وقدموا للإنسانية خدماً لا تنكر. إن ذلك دين في عنق العالم العربي يجب عليه وفاؤه. إن النشاط العربي والتطورات السريعة التي نراها في البلاد العربية تجعلنا متفائلين خيراً من المستقبل، فاللهم حقق الآمال.

العلوم والمعارف في جزيرة العرب

إذا استثنينا بيوت بعض علماء نجد والأحساء، فإننا نستطيع أن نقول: إن بلاد العرب كانت خلوا من المدارس بمعناها المعروف؛ فالأترك لم يتركوا أثرا يذكر أثناء حكمهم في بلاد العرب من هذه الناحية، فكل مجهوداتهم انحصرت في إنشاء بعض مدارس ابتدائية صغيرة لم يكن الإقبال عليها يذكر، لما كان يحوطها من الشبهات؛ ففي إقليم الأحساء الواسع لم يؤسس إلا مدرسة صغيرة بعد إعلان الدستور العثماني. وكذلك الحال في اليمن والحجاز؛ ولذا فالأمية تكاد تكون سائدة في جزيرة العرب، وربما كانت أول محاولة لتثقيف العقول والقضاء على شيء من الأمية، كانت من جانب السيد محمد علي زينل رضا في الحجاز؛ فإنه في سنة ١٣٢٦ هـ وما بعدها قام بإنشاء مدرستين: إحداهما في جدة والأخرى في مكة، ومع ما وضع في طريقه من العقبات، وما أحيط بمشروعه من الشكوك من الأتراك والأشراف، فإن هذه المدارس قد قامت بنصيب وافر في الحجاز، وربما كانت الشبية الموجودة في الحجاز اليوم هي من غرس هذه المدارس.

وهذه المدارس وإن كانت تسير في التعليم على الطريقة القديمة العتيقة، التي تركز على الحفظ لا على التفكير؛ فإنها كانت المدارس الوحيدة في الحجاز. على أننا لا ننسى هنا بعض المعاهد التي أسسها الهنود في مكة والمدينة، فإنها قامت أيضًا بنصيب يذكر، وكل ما كان في الحجاز هو حلقات الدروس في المسجد الحرام على نظام التدريس في الأزهر قديمًا، ولم يكن العلماء يلمون إلا ببعض العلوم الشرعية واللغوية.

وفي سنة ١٣٣٠ هـ أسس أهل الكويت مدرسة سموها المدرسة المباركية؛ لأنها أسست في عهد الشيخ مبارك الصباح، وفي السنين الأخيرة أسست بعض مدارس أخرى؛ ولكن فوائده هذه المدارس انحصرت في تقليل الأمية فقط.

وفي سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) أسس أهل البحرين مدرستين: إحداهما في جزيرة المحرق، والأخرى في جزيرة المنامة، وهذه المدارس كلها لا تخرج عن تعليم القراءة والكتابة، ومبادئ النحو والحساب والجغرافيا. ولقد أراد المصلحون في الكويت والبحرين والحجاز إحداث انقلاب في التعليم يرمي إلى إيجاد شبّان مفكرين متورّين يصلحون أن يكونوا نواة صالحة للمستقبل، ولكن العقبات كانت كثيرة، وأكثرها قائم من الجامدين الذين يعتقدون أن كل جديد بدعة، وكل بدعة ضلالة.

لقد قام في الكويت والبحرين ونجد ضجة عظيمة من جانب العلماء على القول بكروية الأرض وحركتها، وتعليم اللغات الأجنبية، مما يذكرنا بحوادث العصور الأولى، ولولا أن السلطة تنقص هؤلاء لأوقعوا من العقوبات بخصومهم ما لا يقل عما وقع في القرون الوسطى في أوروبا.

إن الحالة في الحجاز في أيام الشريف حسين، لم تكن تختلف كثيرًا عنها في أيام الأتراك، فمع أنه وضعت أسماء كبيرة مثل: المدرسة الراقية والزراعية والحربية وغيرها من المدارس، فإنها كانت أسماء لا تطابق الحقيقة، وما هي إلا طلاء لا يحوي من ورائه شيئًا.

في أيام الملك ابن السعود قامت حركة لا بأس بها في التعليم؛ ولكنها أقل بكثير مما كان يتظره الناس من رجل عظيم مثله، على أن هذه المدارس التي أسست

بالحجاز لا يشمل برنامجها أكثر من برنامج المدارس الابتدائية الأخرى، والتعليم فيها سائر على الطرق القديمة البالية من الاعتماد على الحفظ دون التفكير.

وإننا نسوق القصة التالية لتعلم مقدار الصعوبة التي يعانيتها الملك ابن السعود، ويعانيتها أي مصلح يريد النهوض بالتعليم:

في أوائل شهر يونيو سنة (١٣٤٩ - ١٩٣٠م) قامت ضجة بين علماء الدين النجديين، واجتمعوا في مكة؛ وبعد التشاور فيما بينهم وضعوا قرارًا يحتاجون فيه على إدارة المعارف في مكة؛ لأنها قررت في برنامج التعليم أو لا تعليم الرسم، وثانيًا تعليم اللغة الأجنبية، وثالثًا تعليم الجغرافيا التي منها دوران الأرض وكرويتها.

ولما كان لي شيء من الإشراف على إدارة المعارف، فقد تذاكرت مع جلالة الملك في الموضوع، فرأى من الحكمة أن أجمع بكبار المشايخ وأبحث معهم الموضوع، فاجتمعت معهم ودار الحديث على الصورة الآتية:

حافظ: لقد أمرني جلالة الملك أن أحضر عندكم لأشرح لكم حقيقة المسائل التي رأيتم إلغاءها من برنامج التعليم، إنكم تعلمون مبلغ حبي لكم لأنكم من أنصار السنة، الآخذين بالاجتهاد، الرادين كل قول يخالف القرآن أو السنة الصريحة، ولقد مضى الزمن الذي كان قول العالم مهما كان حجة، ولا أعتقد أنكم تريدون منا أن نقبل كل ما تقررون بدون مناقشة؛ فإن ذلك لا يتفق مع الروح التي تدعون إليها، ولا معنى لأن نعيب على الناس اتباعهم لعلمائهم من غير حجة أو دليل، وهنا نسير على نفس النسق.

أحد المشايخ: إن ما قلته حق وصحيح، ولكن لقد بينا للإمام عبد العزيز الأدلة والمفاسد التي تترتب على تقرير هذه العلوم؛ أما الرسم فهو التصوير وهو محرم

قطعاً. وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار وعلومهم الفاسدة، وفي ذلك ما فيه من الخطر على عقائدنا وعلى أخلاق أبنائنا، وأما الجغرافيا ففيها كروية الأرض ودورانها، والكلام على النجوم والكواكب مما أخذ به علماء اليونان، وأنكره علماء السلف.

حافظ: أما الرسم فليس هو التصوير؛ لأن المقرر في المدارس الرسم أي التخطيط، وهي معلومات أولية، الغرض منها تعليم الأولاد الدقة ومعرفة المسافات على الخرائط ومواقع البلدان، وهذا أمر لا شيء فيه، وقد اشتغل به كثير من علماء السلف، ولم يبلغ الأولاد درجة تمكنهم من التصوير؛ لأن علم التصوير هو من العلوم العالية التي تحتاج ممارستها إلى وقت طويل ودراسة واسعة. أما اللغات الأجنبية فقد كان كثير من الصحابة يعرفون لغات عصرهم، ونحن في هذا العصر أجبرت الحياة على مخالطة الأجانب، فبدلاً من أن نتخذ لنا مترجمين لا نثق بهم، نعتمد على أولادنا ونعلمهم اللغات، أما علوم الإفرنج: فمنها ما هو صالح يصح أن نأخذ به ونتعلمه، ومنها ما لا يتفق مع ما نعتقد فنفرضه، وعلوم الإفرنج التي تقولون عنها قد ترجم كثير منها إلى اللغة العربية في مصر وسوريا والعراق، فالجهل باللغات لا يمنع الناس الاطلاع على ما كتب وترجم إلى اللغة العربية. وإن الخوف على العقيدة الإسلامية هو رمي لها بالضعف؛ لأن العقائد يجب أن تكون كالبنيان المتين، لا تقوى عاديّات الزمن على زلزلتها، ونحن نعتقد أن العقيدة الإسلامية الصحيحة إذا امتزجت بالدم، وتملكت مشاعر النفس، فلن يقوى أي شيء على زعزعتها.

أما الجغرافيا فإننا لا نعلم الأولاد منها إلا ما يتعلق بوصف البلدان ومواقعها وحاصلاتها، وما يهمنا منها من الوجهة التجارية والعلمية، وما عدا ذلك من

المسائل، فإنه لا يعلم في المدارس على أنه عقيدة دينية يجب الأخذ بها؛ بل على أنه نظرية مقررة.

وهنا يحسن قبل أن أختم كلمتي أن أقول لحضراتكم: إن مسألة سد الذريعة قد وسعت بدرجة قصت على كل معنى مقصود منها، فحضراتكم كلما أردتم منع شيء قلتم سدًا للذريعة، فما قولكم في العنب والتمر يستخرج الخمر منها، والحكومة قد ضبظت في بلد الله الحرام من يصنع الخمر من هاتين الفاكهتين، وقد وقع مثله في عصر الصحابة، ولم يقل أحد بقطع أشجار الكروم والنخيل.

فلما رأى حضرات المشايخ أن البحث طال قالوا: لقد قررنا ما نعتقد ورفعناه إلى الإمام، ولسنا في حاجة إلى الجدل المنهي عنه شرعًا، فإن قبل الإمام ما رأينا فالحمد لله، وإن خالفنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها.

لقد وقف جلالة الملك ابن السعود على هذه المناقشة، واقتنع بثاقب فكره أن ليس لدى العلماء دليل ديني يصح الاعتماد عليه، فلم يوافقهم على رأيهم، واستمر تعليم اللغات والرسم والجغرافيا كما كان.

ومع شيوع الأمية في بلاد العرب، فإن بعضهم يتفنن في طريقة ضبط معاملاته أو حساباته، بما يدل على ذكاء كامن أو بساطة في التفكير.

لقد شاهدت في الكويت رجلًا من أهلها الأميين يصور عملاءه (زبائنه) بصور مختلفة: يصور أحدهم جملاً، والآخر حمارًا، والثالث فرسًا، وهو في ذلك لا يكاد يخطئ، وهو لو صرف بعض وقته في تعلم القراءة والكتابة لوفر على نفسه مثونة الاختراع. أما الآخر -وهو يمت إلى العائلة الحاكمة بالكويت- فقد كان مشهورًا بالبخل والحرص، ولكي يكون أمينًا على نقوده من اختلاس أبنائه كان يضع في

زاوية من زوايا بيته عددًا من الخوص يساوي عدد النقود المخبأة، ويزيد وينقص بقدر ما ينقص أو يزيد من النقود، فلما اكتشف أحد أبنائه هذه الحيلة، أصبح يأخذ ما يحتاج من الدراهم مع رفع عدد من الخوص مساو لها، وقد لبث على هذه الحال مدة إلى أن ضبطه والده يأخذ النقود، فأخفى الخوص من الركن إلى مكان آخر؛ كي يأمن شر ابنه.

وقد كان علماء الأحساء والبحرين ينكرون على المدارس تعليم الجغرافيا والقول بكروية الأرض؛ بل وينكرون على بعض المتعلمين قراءة الصحف السيارة؛ غير أن تقارب الأمم واختلاطها قد قضى على نفوذ هؤلاء في البحرين والكويت.

علماء الدين في جزيرة العرب

ليس في جزيرة العرب علماء بالمعنى المعروف في أوروبا؛ وإنما يطلق لفظ العلماء على الدارسين لعلم الدين الملمين بمسائل الفقه الإسلامي.

وفي جزيرة العرب على العموم تُطلق هذه الطبقة على نفسها طلبة العلم من باب التواضع، ويراد بالعلم في جزيرة العرب: التفسير، الحديث، الفقه، أصول الدين، علم العربية، التاريخ الإسلامي. وعلماء الدين في نجد أكثر اطلاعًا في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية من غيرهم من علماء الكويت والبحرين وعمان، وسيرتهم في القضاء والإفتاء تشبه سيرة العلماء المتقدمين، كما أن حياتهم الشخصية في الورع والزهد يشبه سيرة علماء السلف المسلمين، لا تأخذهم في الحق لومة لائم. وعلماء نجد أشجع علماء جزيرة العرب، ولا يبالون في سبيل الحق، ول بعضهم وقوف تام على أحوال البلاد المجاورة لنجد. وهم يكادون يصرفون أعمارهم في سبيل العقيدة

الإسلامية، والرد على مخالفهم من الطوائف التي لا تنهج نهجهم؛ غير أنهم في بعض الأحيان يعنون كثيرًا بالرد على بعض الفرق التي انقرضت، ولم يبق لها أثر إلا في كتب العقائد.

وشأن علماء نجد شأن غيرهم في هذا القرن، ليسوا كطبقة الشيخ ابن عبد الوهاب في علمهم وتبصرهم؛ بل شأنهم كغيرهم من علماء الدين في البلدان الأخرى يعتمدون في حياتهم العلمية على من سبقهم من المؤلفين؛ ولذا فإن مؤلفاتهم ورسائلهم ليست كرسائل الشيخ محمد وبنيه، في متانة الأسلوب، وحسن التصرف، وكثرة المصادر التي كان يرجع إليها، وهم لا يدعون الاجتهاد المطلق، فهم مقلدون للإمام أحمد وللإمام ابن تيمية وتلاميذه كابن القيم وغيره. ولعلماء الجزيرة على العموم المقام الأول عند الأمراء، والنفوذ العظيم في نفوس العامة، ومع أن أكثر العلماء في جزيرة العرب أميل بطبعهم إلى الهدوء والبعد عن مظاهر الدنيا، فإن بعضهم قد يغلو في حب الدنيا؛ بل وقد يستعمل مركزه للثراء.

وعلماء الرياض أشد علماء نجد بغضًا ومقتًا للكفار.

في سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م) كنت مع الشيخ عبد الله بن حسن، كبير علماء نجد ورئيس القضاء الآن في زيارة للتفتيش في المدينة المنورة، فنزلنا على ماء في وسط الطريق يدعى آبار بن حَصَّاني، وهنالك التقينا بمستر فلبّي (قبل إسلامه) وكان آتياً من ينبع، فبعد التحية دعوته للأكل معنا، فعندما جلس معنا على المائدة سأل الشيخ: من هذا الرجل؟ فقلت له: هذا فلبّي. فقال: أهو نصراني؟ قلت له: نعم. فقال: أعوذ بالله؛ أتقوم للنصراني وتصافحه، وتهش في وجهه وتدعوه للأكل معنا؟! إن هذا كثير. فلما سمع مستر فلبّي ذلك قام منعاً للمشاحنة، ثم أخذ الشيخ يؤنبني على عملي.

فقلت: أيها الشيخ مهلاً؛ إننا نطمح في إسلام الرجل، ونريد أن نستميل قلبه ولا نفره من الدين، وإن الرسول صلى الله عليه وسلم جذب الناس إليه بخلقه الحسن ولين جانبه: {ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك} وإن الملك عبد العزيز كثيراً ما يقوم له ولغيره؛ تأليفاً لهم ودفعاً لشُرِّهم، وكثيراً ما يدعوهم إلى مائدته. فقال: أما القسم الأول فحسن، وأما الثاني فالملك قد يفعل الشيء لمصلحة يراها، وهو غير حجة في عمله وتصرفاته، وكثيراً ما أنكرنا عليه هذا وأمثاله.

على أني أرى من الواجب عليّ أن أذكر أن هذا الرجل كان لي نعم الرفيق المواسي أثناء مرضي في المدينة؛ لقد كان لا يرضى إلا أن يسقيني الدواء بنفسه، كما أنه كان يصرف قسطاً من وقته في تخفيف آلامي وأسقامي مما يدل على ما فطر عليه هؤلاء من الإخلاص وطيب القلب، لا يحملون حقداً لأحد، ولا يغضبون إلا حيث يعتقدون أن منكراً اقترِف، أو أن حقاً من حقوق الله قد ضيع أو أهمل.

وعلماء نجد يحرمون التصوير ودروس المنطق والفلسفة، ولا يوجد لديهم من يعرف هذه العلوم، وقليل من علماء نجد من يحيط بأسرار اللغة العربية وآدابها إحاطة تامة، وقليل جداً من يعرف علوم البيان والاشتقاق أو أسرار البلاغة، وقليل منهم المحيط بحوادث التاريخ الإسلامي أو التاريخ القديم، فمعلوماتهم التاريخية لا تتجاوز السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين، والتاريخ القديم لا يعدو علمهم فيه الطبري وابن الأثير، أما الاكتشافات الحديثة وما غير معالم التاريخ القديم، فلا يكاد يعرف في جزيرة العرب كلها؛ على أن هنالك روحاً جديدة في الأسرة المالكة في أبناء الملك، وبعض أشقائه في اقتناء الكتب الحديثة، وحب الاطلاع على المؤلفات الحديثة في التاريخ والقانون وآداب اللغة العربية.

ونرى واجباً علينا أن نقول: إن الملك عبد العزيز لولا ما يحيط به من الصعوبات من جهة استعداد شعبه، لسار ببلاده خطوات واسعة في سبيل نشر الثقافة وتعميم التعليم، وهو يفضل السير التدريجي على قدر استعداد الأمة، وهذه الاعتبارات فإن الحالة العلمية في الحجاز ونجد، أقل مما يجب أن يكون، ويتنظر من ملك حكيم كالملك عبد العزيز، ومع هذا فإن حالة العلم في الحجاز ونجد أفضل من حالة البلاد المجاورة؛ كالكويت والبحرين وعمان واليمن. وعلماء نجد محافظون على القديم جداً؛ ولا سيما ما يتعلق بالدين، فهم يرون بقاء العقيدة سليمة كما وردت في الكتاب والسنة من غير حاجة إلى تأويل، ويقولون: ليسعنا ما وسع عصر النبوة وخير القرون، وترى كتبهم ووسائلهم مشحونة بالرد على الفرق التي تنجح إلى التأويل، أو تطبيق النظريات الفلسفية في العقائد.

ومع أن للعلم والعلماء منزلة في نفوس شيوخ العرب وعامة العرب، فإن الشيوخ قلما يعنون بتعليم أبنائهم وتثقيفهم، وقلما يعنون بغير الرماية والفروسية والصيد والقتل، وبعضهم يرى طلب العلم عيباً؛ لأن ذلك قرين الجمود والخمود وانتظار الصدقات، أما الإمارة فقريئة الحركة والنشاط والتفكير.

والقصة التالية تروي في الكويت عن جابر الكبير -جد الشيخ مبارك الصباح-: فإنه حينما رأى أحد أبنائه يحضر مجالس العلم وصفه باختلال العقل؛ لأن الإمارة لا تجتمع مع طلب العلم، ولكن هذا الفتى الذي اشتهر أول أمره بالتقوى وحب العلماء تغير سلوكه، فاستبدل بحلقات الدروس مجالس الأتس والطرب، وبالعلماء أهل الخلاعة، فسر والده من هذا التبدل وقال: إن دم الصباح قد تغلب عليه، فصغيرهم للكلاب وكبيرهم لل... قد تكون هذه القصة موضوعاً على جابر؛

ولكنها تعبر أصدق تعبير عن خلق كثير من أبناء الشيوخ: صغارهم مولعون بتربية الكلاب، وكبارهم مولعون بالقنص والبطالة، وقديماً قال الشاعر:

<sh1>إن الشباب والفراغ والجده

<sh2>مفسدة للمرء أي مفسدة

على أن من بين شيوخ العرب قديماً وحديثاً من شذ عن هذا السبيل؛ فاشتغل بالعلم والأدب وقرض الشعر وبرع في فنون الشرع حتى بذ علماء عصره، ويسرنا أن ننوه هنا بما بدا في السنين الأخيرة من اهتمام بعض الشيوخ بالعناية بتعليم أولادهم. لقد أرسل بعض شيوخ الكويت والبحرين أولادهم إلى بيروت والإسكندرية للتعلم في الكلية الأمريكية وكلية فكتوريا، كما أن جلالة الملك عبد العزيز ما زال من وقت لآخر يبدي مزيد العناية بهذا الموضوع، ويستعين برأي الخبراء في أمر التربية والتعليم.

الصناعات في بلاد العرب

هي الصياغة، والنجارة، والحدادة، والحياكة، والقصابة، وإصلاح التنادق، والبيطرة، وبعض أنواع الطبابة: كالخجامة والفصد والكي وغير ذلك.

والصناعات على اختلافها معدودة من المهن الخسيسة التي تحط بقدر صاحبها؛ ولذا فالذين يحترفون هذه الصناعات، إما من غير العرب، أو من العرب الذين لا يتمون إلى أصول مشهورة أو غير قبيل. ومما يدل على احتقار الصناعات ألفاظ السباب المعروفة عند العرب (يا ابن الصانع) إذا أرادوا تحقير إنسان وسبه بكلمة

تكون مجمع السباب، وبهذه المناسبة نذكر أن الملك ابن السعود في مجمع كبير (وكان حائقًا على آل عايض حكام أبها السابقين لما تكرر من خيانتهم له) قال لأحدهم هذه الكلمة، فعندما انصرفوا وذهبوا إلى بيوتهم، ابتدرته زوجته وقالت له: لا يمكن أن أعاشرك بعد الآن؛ لأنك من أبناء الصنّاع؛ لا من أبناء القبائل، وابن السعود لا يكذب. ولولا أن أفهمت فيما بعد أن ذلك كان عن بادرة غضب، ما أمكن أن تقتنع بالرجوع إلى بيتها.

ولقد فتك عبد الكريم السعدون بعبد الله بك الصانع مدير الداخلية العراقية؛ لأن عبد الله بك -وهو من ذرية الصنّاع- تجاسر على الزواج بابنة أحد أبناء السعدون الأشراف؛ ولقد عطف جلالة الملك عبد العزيز على موقف عائلة السعدون، ولو استطاع لغير موقف القضاء في هذا الموضوع الذي هَزَّ أحسن ناحية في جلالته. وبهذه المناسبة أيضًا عند مذاكرتي في هذا الموضوع أخبرني المرحوم السيد رجب النقيب (نقيب أشراف البصرة) أنه في إحدى سياحاته إلى بغداد أوصى أحد أصدقائه بأن يتوسط له في الزواج بابنة أحد الأشراف، فكان ذلك الصديق يذكر له سيدة من بنات الأشراف المشهورين ببغداد؛ كبيت باشجي وجادجي وغيرهم، فكان السيد يمتنع من القبول ويقول: أريد الأشراف. وما كان صديقه ليفطن لما يريده السيد، وأخيرًا قال له صديقه: لقد عرضت عليك كل أشراف بغداد، فمن تريد بعد ذلك؟ قال: أريد الأشراف، قال: لا يوجد أشرف من هؤلاء هنا. قال: لا، أنت ذكرت لي أسماء الصنّاع، وأنا أريد أصحاب الأنساب. قال: ها! لو أخبرتني بذلك لأتيتك كل يوم بأسماء عشرين بدويًا من أقذر البدو، لقد اخترت لك أهل النظافة والمدنية واللطافة والكياسة، أنا لا أتوسط في هذا الموضوع، اذهب إلى السماوة أو غيرها من البادية واختر لنفسك ما تشاء... وإن من له اتصال ببلاد العرب يقف على كثير من القصص التي يمتنع فيها فقراء البدو عن الزواج بأغنياء

الحضر احتجاجاً بالنسب؛ فقد رفضت إحدى البدويات التزوج بابن المشرى حاكم الزبير في أيام الأتراك؛ لأنه من أبناء العبيد.

ولا تزال التجارة في البحرين من الحرف التي لا يصح اشتغال العربي الأصل بها، ولذا كانت الأيدي غير العربية هي القابضة على زمام التجارة في البحرين. ومن الغريب أن العربي لا يزال يفضل رعاية الإبل والغنم والخدمة وراء الحمير، على البيع والشراء والصناعة، أو فتح متجر للبيع والشراء.

ومن الصناعات المشهورة والتي يحترفها كثير من البدو والحضر غواصة اللؤلؤ، وغواصة اللؤلؤ لها نظام خاص في غاية الغرابة: ليس هناك أجور معينة للعمل، ولكن العمال يشاركون صاحب السفينة فيما يحصل، فالذي يغوص له سهمان، والذي يخرج الغواص - وهو ما يسمونه سيباً - له سهم، وذلك بعد ما يخرجون خمس الحاصل للسفينة وثمان المأكّل والمشرب، ولا يمكن أن يقبل أي عامل أجراً معيناً؛ لأنه يريد أن يجرب حظه مع صاحب السفينة، إن كان قليلاً فقليل، وإن كان كثيراً فكثير. وصناعة الغوص من الصناعات الشاقة، وهي تجري حسب الطرق القديمة، ولا تستخدم الآلات الحديثة، ولا يقل عدد من يشتغل بهذه الصناعة عن مائتي ألف عامل من العرب والإيرانيين لمدة خمسة أشهر. وموسم اللؤلؤ من أحسن المواسم وأجملها، وفيه تنشط الحركة التجارية، ولذا لا يمكن أن يتصور مقدار ضيق أهل هذه الصناعة في الأزمات الحالية لأن أكثرهم فقراء، وليس لهم نقابات وشركات تعاونية مثل ما هو في جميع البلاد المتقدمة.

والطريقة المتبعة الآن في غواصة اللؤلؤ هي طريقة الحجر: يربط حجر كبير بطرف الحبل، فإذا أراد الغائص أن ينزل إلى الماء تمسك بالحجر، ونزل إلى قاع البحر بكل سرعة، وإذا ضاق نفسه هزّ الحبل بيده، ثم صعد بمساعدة رفيقه الآخر الموجود

بأعلى السفينة والمتيقظ لكل حركة يأتيها الغائص. والغوص يشبه من جميع الوجوه بالمرعى، فتجد في جهة مئات السفن، بينما ترى بعض الجهات الأخرى ليس فيها سفينة واحدة؛ وصاحب السفينة ينتقل من جهة إلى جهة وراء البحار واللؤلؤ، وهناك في البحر تجدد التجار الذين يدعون «بالطواویش» ينتقلون من سفينة إلى سفينة لشراء ما يستحصل من اللؤلؤ.

الحكومات العربية

نريد هنا أن نستعرض أمام القارئ النظام الحكومي للإمارات والسلطات العربية، والطريقة التي يدار بها الحكم في بلاد العرب، وهي صورة مستمدة مما يفهمه العربي العادي من الحكومة، وهي الصورة التي لا يفهم سواها شيوخ العرب، وسأذكر فيما يلي قصتين يتجلى فيهما كل ما هو واقع من الحقائق:

في شتاء سنة ١٣٣٣ (١٩١٥) كنت في حديث مع المرحوم الشيخ جابر الصباح، أخي الشيخ مبارك شيخ الكويت: كنت أنكر فيه على الشيخ مبارك فداحة الضرائب وطريقة صرفها، فإن الشيخ مباركاً في أخريات أيامه خرج على كل مألوف من التقاليد الدينية والعربية، وأخذ يستهتر بكل شيء، كما أنه وضع ضرائب على البيوت تقضي بدفع ثلث قيمة كل بيت يباع مما لم يعرف من قبل في بلاد العرب، وكنت أشرح للشيخ جابر حديث: ((كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته))، وإني في نفس الوقت لم أنس أن أذكر بعض الصفات الطيبة التي امتاز بها الشيخ مبارك، من غيرته على الكويت وأهلها، ودفاعه عن مصالح أهلها والعمل، لاستقرار الأمن وزيادة حركة التجارة فيها.

فقال الشيخ جابر:

إن كلامك كلام مُطَاوَعَة (أهل الدين) ما هي ميزة الأمير على الباعة وأصحاب الدكاكين يا شيخ حافظ؟ خذها كلمة جامعة! الرعية مثل الغنم، كلما طال صوفها جَدَّدْنَاه. فقلت له: ولكن الغنم يا حضرة الشيخ تحتاج إلى من يعنى بها كي يتكاثر

نسلها، وأنتم لا تكتفون بالصوف، فإن المقص كثيرًا ما يصيب الجلد، فقال: إن الحاكم يجب أن تكون يده مطلقة في كل شيء؛ في المال وفي الأرواح، والرعية إذا استغنت وكثر مالها طغت على الحاكم، وربما أفلتت من يده. فقلت له: أيها الشيخ! إن الرعية والراعي متضامنان في حب الخير للبلد، وليس أحدهما خصمًا للآخر، والحاكم والد الجميع، ولا يولد الحزازات والضغائن سوى الجبروت. فقال: أيها الشيخ! ليست هنالك فائدة من المناقشة، فنحن لا نفهم من الحكم إلا ما أسلفناه لك، وكلام أهل الدين قد سمعناه كثيرًا في دروس الوعظ وخطب الجمع، ولسنا في حاجة إلى المزيد.

أما القصة الأخرى فقد حدثت في نجد بعد ١٩ عامًا من القصة الأولى:

في شعبان سنة (١٣٥١ - ديسمبر ١٩٣٢) زارني أحد مشايخ البدو، وأخذ يسألني عن أوربا وما فيها من جمال ورجال ومسلمين وعشب وأمطار وغير ذلك، ثم قال: هل عليهم شيخ مثل ابن سعود؟ فأجبت: إن عليهم ملوكًا، منهم الملوك الصغار، ومنهم ملك بريطانيا الذي لا تغرب الشمس عن ملكه. فقال: وهل تفد عليه وفود؟ وهل يجزل العطاء لوفوده؟ فقلت: إنه لا يعطي دراهم لأحد، ولا يفد عليه إلا الملوك وكبار الرجال، ولا يمنح إلا النياشين؛ أما جنوده ورؤساء الجنود فلهم مرتبات خاصة يتقاضونها.

لا بد أن يكون هذا الملك غنيًا ما دام ملكه لا تغيب عنه الشمس، لا بد أن تكون قصوره مملوءة بالذهب والجواهر الكريمة. فأجبت: إن الملك له ولعائلته مرتب خاص لا يتجاوزه، والخزانة العامة تحت أمر وزير المالية وهو مراقب من مجلس الأمة، فالخزانة يصرف منها أولًا على الموظفين الملكيين والعسكريين، ثم على

الأسطول، ثم على سائر المعدات الحربية، ثم التعليم والأشغال العامة والصحة وغير ذلك، كل شيء من هذه الأشياء لها مبالغ مرصودة لا يمكن تجاوزها.

- هل يقتل الملك الناس؟ فأجبت: إن ملك إنجلترا كسائر ملوك أوروبا الآن لا يباشرون الأعمال بأنفسهم، فالمحكمة إذا حكمت بالقتل فالملك يأمر بالتنفيذ، وقد يعفو عن القتل فيستبدل الحكم بالأشغال لمدة معينة، أما الملك بدون محكمة فلا يستطيع أن يأمر بقتل أحد، وليس بين الملوك وبين الناس خصومة حتى يأمرؤا بقتلهم.

- ليسوا هؤلاء ملوكًا، إن من لم تطلق يده على الخزانة، ومن تكف يده بهذا الشكل فليس بملك.

هذه هي الروح السائدة، ومن هذه الروح تتكون الحكومة العربية، ولا يستثنى من ذلك إلا البلاد التي كان يسودها النفوذ التركي، فطريقة الحكم في الكويت والبحرين ونجد وقطر وعمان متشابهة، وهي بسيطة ليس فيها من التعقيد ما في البلاد المتمدينة، ولكن ضمان العدل يرجع إلى شخصية الحاكم وسهره وميله إلى العدل والإنصاف.

والشيخ أو السلطان أو الأمير هو الحاكم المطلق مصدر السلطات كلها، إليه ترفع الدعاوى، وهو يحولها بدوره إلى الشرع وما يحكم به الشرع ينفذ، وفي المسائل التجارية يستأنس برأي التجار، فتحول القضية إلى واحد أو اثنين أو ثلاثة من التجار حسب أهمية القضية، والشيخ بعد ذلك يأمر بتنفيذ الحكم، وفي بعض المسائل الهامة يجمع الشيخ كبار الجماعة لأخذ رأيهم، وكثيرًا ما يأخذ برأيهم هذا في الكويت وعمان.

أما في نجد فإن جميع القضايا تحول إلى الشرع فقط، والقضاة أنفسهم قد يستأنسون بالعرف التجاري في البلد. كذلك كان الحال في البحرين إلى سنة ١٩٢٠، ومنذ هذه السنة قد وضع للبلد نظام للتقاضي خاص، كما وضع لها نظام إداري جديد. وعلى كل حال فالشرع لا يزال ينفذ على الوطنيين ما عدا الحدود الشرعية.

والبلدة إن كانت صغيرة مثل الكويت يعين الحاكم لها أميراً للسوق للفصل في القضايا الصغيرة، ولا سيما قضايا البادية، ووظيفة هذا الأمير تشبه وظيفة مدير البوليس، وإن كانت متسعة الأطراف يعين لكل ناحية أمير من قبل الملك ابن السعود، وهو يحدد سلطته، وسلطته لا تتعدى تنفيذ الأوامر الشرعية.

وربما كان الأميران ابن مساعد وابن جلولى هما أكبر الأمراء سلطةً ونفوذاً؛ فإن ابن مساعد يتعدى نفوذه حایل إلى القصيم والجوف وما حولها من البادية، والأمير عبد الله بن جلولى يمتد نفوذه على مقاطعة الأحساء والقطيف والبادية المحيطة بها، وهما يفرضان العقوبات البدنية والمالية حسبما يريان، والغالب عليهما الصرامة في العقوبة.

وليس من حقوق الأمراء التداخل في الوظائف المالية، ولا التعرض لبيت المال بأي شكل من الأشكال، ولكنهم إذا رأوا شيئاً من الغبن على الحكومة أو الأهالي، فإنهم يرفعون الشكاوى إلى الملك وهو يبحثها ويأمر بما يراه، ولم تكن لهذه الحكومات إيرادات تذكر إلا ما يرد من زكاة الزرع وما يؤخذ من البادية، وربما كانت أقل البلاد إيراداً للحكام الكويت حتى سنة (١٣١٤-١٨٩٧) أي: قبل تسلم الشيخ مبارك كرسي الحكم بعد اغتيال أخويه محمد وجراح، فقد كان شيوخ الكويت في ذلك يتقاضون أشياء ضئيلة على التجارة لم يفرضها الحاكم على الأهالي؛ بل فرضها الأهالي أنفسهم مساعدة للشيخ الذي ليست له موارد تقوم بحاجاته

وحاجات عائلته، وكان شيوخ الكويت يعيشون مع الأهالي كإخوان لهم، وكان مفروضًا على الدكاكين ضريبة ضئيلة أيضًا، للقيام بنفقات الحرس في الليل.

وكانت البحرين كالكويت في أكثر هذه التدابير، ولكن حكام البحرين كانوا أغنى وأحسن حالًا من شيوخ الكويت؛ لكثرة أملاكهم في البحرين، ولأن سكان البحرين أكثر وأغنى من الكويت.

أما حكام نجد السابقون والحاليون فواردات الحكومة عندهم من الزكاة على الزرع والحيوانات، وما كان يوضع على الحجاج من الضرائب، وما يدخل بيت المال من خمس الجهاد، وما يدخل خزانة الحاكم يصرف منه على حاجاته الشخصية، وعلى الأعطيات التي يجود بها على الوافدين. أما المدارس والصحة ووسائل تنظيف البلد وتجميلها، فإنه مع استثناء الحجاز ونجد؛ نجد الأهالي والحكام مشتركين في عدم الشعور بالحاجة إليها.

أذكر أن أول مدرسة نظامية أسست في الكويت سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢) كانت من تبرعات الأهالي وإحسان بيت آل إبراهيم، ولم يدفع الشيخ مبارك شيئًا لمساعدة أول مشروع علمي في بلاده، وقد تبدل الحال كثيرًا في السنوات الأخيرة؛ لاسيما في الكويت والبحرين.

ليس في البلاد العربية ما عدا الحجاز ونجدًا جيوش لحمايته من الطوارئ، وكل ما هنالك خمسون أو مائة نفر (لحماية الشيخ) ويقومون في البلد بوظيفة البوليس، وهذا العدد ينقص أو يزيد تبعًا لما يحس به الشيخ من الضعف أو القوة في البلد، وما يحس به من أبناء عمومته نحوه. أما إذا أصبحت البلاد في حالة حرب، فإن الشيخ

يضع على أهالي البلد نفقات وهم يوزعونها على البلد، كل بقدر ما يستطيع، والشيخ يوزع عليهم ما ينقص من السلاح والذخيرة.

وفي البلاد التي لم يعتد أهلها الحرب والطعان مثل الأحساء والقطيف وبعض بلدان الحجاز، يفرض عليها ضريبة تسمى إعانة الجهاد.

وبالنظر إلى قلة الواردات التي تستوفي باسم الحاكم، فإن بعضهم لا يرى غضاضة من الاشتغال بالتجارة: مثل شيوخ عمان وقطر وبعض شيوخ البحرين الآن. أما شيوخ الكويت والبحرين قبل سنة ١٩٢٠ وأمرأء نجد، فلم يسمع أن أحداً اشتغل بالتجارة، وهم يعدونها عيباً.

لقد كان المعروف في أكثر البلاد العربية أن كل من ينتمي إلى عائلة الشيخ، يمكن أن ترفع إليه الدعاوى وهو يحولها إلى الشرع، وخدمه يقومون بالتنفيذ، وقلما كان الشيخ لا يعترض على هذا التصرف إرضاءً لبني عمومته، وفي الحقيقة كان هذا الضرب مبعثاً للفوضى ومضيقاً للمسئولية. على أن بعض الحكام يأنس من نفسه القوة، فيقبض بكلتا يديه على البلد، ويمنع أي شخص سواه وسوى من يعينه لمباشرة الأحكام.

فالشيخ مبارك الصباح كان هو الشخص الوحيد في الكويت المرجع في الشكاوى، وأحياناً كان يكل بعض المسائل إلى أحد ولديه الشيخ جابر أو الشيخ سالم. والملك ابن السعود أشد من الشيخ مبارك في هذا، لا يسمح لإخوته أو لأولاده أن يتصرفوا في أمر من الأمور بدون مراجعته، ولقد عين الآن النجل الأكبر الأمير سعود نائباً عنه في نجد، والولد الثاني الأمير فيصل للحجاز، وله الإشراف العام.

ولقد كانت حماية الأفراد معروفة في بلاد العرب؛ فالشخص الذي يريد الفرار من الحكم أو التخلص مما عليه من التبعة يلحق بخدمة أحد الشيوخ، أو يحتمي بظله، أو يلتجئ إلى بيته، كانت هذه الحماية معروفة في البادية على أكمل مظاهرها، كما هي معروفة في المدن، وكان الحامي يرى من واجبه حماية من التجأ إليه ما دام يأنس في نفسه القوة والمنعة، فإذا رأى أن ذلك يجبر عليه مشاكل، تركه إلى حيث يجد السلامة، أما تسليمه إلى من يطلبه فذلك معدود من العيوب التي لا تغتفر، فإذا كان رجل مديناً لأحد وأراد المدين أن يتخلص من المطالبة، فما عليه إلا الاحتباء بأحد الشيوخ، وذلك يخلصه من المطالبة، ولكن هنالك من الشيوخ من لا يرضى بهذا العمل المزري، فيأمر تابعه بتسليم ما عليه من الدين أو يطرده من خدمته.

والقاتل إذا التجأ إلى بيت من البيوت الكبيرة، فإنها لا تسلمه إلى المطالبين بالدم، وهم يحمونه أو يطلقون سبيله إلى حيث يجد السلامة. وربما كان منشأ هذه الحماية الاعتزاز بالعصية، والحماية وإن قضي عليها في نجد والحجاز، فلا يزال لها أثر عظيم في بادية عمان.

قلنا: إنه حتى سنة ١٨٩٧ لم تكن على سواحل البلاد العربية في الخليج الفارسي جمارك بالمعنى المعروف، وكانت هناك ضرائب على البضائع لا تتجاوز ٣٪. ولكن كان لكل كبير الحق في جلب ما يحتاجه من أرز وقمح وقهوة وسكر وملابس، بدون دفع رسوم جمركية، وكان أهل السفينة حين رجوعهم من الهند يحضرون حاجاتهم الضرورية معهم، بدون دفع رسوم جمركية، ما دامت لا تستعمل في التجارة، ويكفي أن يُخبر مدير الجمر بكقدوم السفينة أو الشيء المطلوب السماح عنه، وربما كان الشيخ مبارك أول أمراء العرب على الشاطئ الشرقي الذين غلوا في زيادة الجمارك، فقد زادت الجمارك حتى ١٠٪ على بعض الأصناف.

وقد اشتغل أحد أولاده بالتجارة، وهو الشيخ ناصر المبارك، وكانت تجارته معفاة من الضرائب، فكان يصرفها في السوق بربح الجمرك فأثرى في مدة قصيرة، ولكن والده بعد احتجاج التجار أمره بالامتناع عن المتاجرة، أو يحصل منه الجمرك أسوة بسائر التجار.

ومن المسلم به عند العرب عموماً أن فرض الضرائب على التجارة حرام، وهم يطلقون اسم المظالم على كل نوع من الضرائب غير الزكاة، ولذا فإن الشيخ عندما يعين يرى إرضاء لشعبه تخفيف هذه الضرائب.

فالشيخ جابر الصباح بن الشيخ مبارك عندما تولى الحكم، ألغى بعض الضرائب التي أحدثها والده، والتي لم تعرف في غير عهد الشيخ مبارك، والشيخ سالم بن الشيخ مبارك بعدما تولى الحكم بعد أخيه، خفف بعض الضرائب أيضاً.

والبحرين إلى سنة ١٩٢١م كانت مسلمة بالضمان لأحد الهندوس، والأمير ابن سعود لم يكن يعرف قبل احتلال الأحساء الجمارك؛ ولكنه بعدما استولى على الأحساء والقطيف وضع الجمارك على البضائع الواردة إلى نجد والأحساء، وكانت الضريبة لا تتجاوز ٥٪ وكان الجمرك التزاماً، وفي أثناء الحرب العالمية نظم الجمارك النجدية الشيخ عبد اللطيف المنديل، فزاد الإيراد من خمسة آلاف جنيه في السنة إلى ٢٠ ألفاً، ثم أخذها بالضمان مرة أخرى أحد أغنياء القطيف بأربعين ألف جنيه، وفي سنة ١٩٢٠ أخذها بالضمان بمبلغ ٧٢ ألف جنيه، على شرط منع المتاجرة مع الكويت، فأجيب إلى طلبه، ثم نظمت الجمارك بعد ذلك وألغى الضمان.

وهناك ضرائب أخرى في السوق العام؛ كأن يؤخذ شيء معين على ما يرد من البادية: من السمن والغنم والجمال، وعلى كل حال فإن بلاد العرب أقل بلاد العالم ضرائب، وهي بلاد فقيرة لا تحتل ما يفرض على غيرها في البلاد الأخرى.

ونظام نجد في تحصيل الضرائب لا يختلف عما يجري في البلاد العربية المجاورة لها، وإن كانت نجد تأخذ من الضرائب الجمركية، أكثر من غيرها بالنظر لما عليها من التبعات.

أما في الحجاز، فالحالة تختلف كل الاختلاف عن باقي البلاد المجاورة، لقد كان النظام التركي في الجمارك والإدارة مطبقاً في الحجاز، ولكن وجود الأمير أو الشريف في مكة بجانب الوالي جعل للشريف شخصية أخرى، ونفوذاً آخر بجانب الوالي.

كان الشريف يتداخل في كل شيء في مكة؛ ولكنه من طريق غير مباشر، فكان أمر البادية راجعاً إليه، يفصل في خصومات البادية، وكان يضع الضرائب على المطوفين والحجاج والجمالة، ويختص بها أو يتقاسمها مع الوالي التركي، وكان الأشراف يمنحون حق التطويق لمن يريدونه من أهل مكة: إما مقابل خدمة قام بها الشخص لهم، أو مقابل مبلغ من المال. وهذا يفسر لنا الثروة التي جمعها الأشراف أثناء حكمهم في الحجاز، وبالطبع كان الناس في طريق معاملتهم للحجاج يتبعون الخطة التي يرسمها الشريف، وربما كان الشريف حسين في السنين الأولى من حكمه أفضل الأشراف خلقاً، وأعلاهم نفساً، وأنزههم كفاً.

أمّا علاقة الناس بالحكام في سائر البلاد العربية، فعلاقة قائمة على الصداقة والولاء للحكام، والحكام أنفسهم لا يترفعون عن مخالطة الأهالي؛ غير أن الأشراف كانوا يترفعون عن مخالطة الناس، وبكبرهم يضرب المثل في سائر الجزيرة العربية.

ولقد قضت الثورة العربية على الملك حسين أن يغير الوضع الإداري الذي كان سائداً في الحجاز، بوضع آخر يتفق مع روح الثورة وما يتطلبه العرب منه، فأمر في أوائل سنة (١٣٣٥ هـ - ١٩١٧ م) بتأليف وزارة، كما أمر بإحداث مجلس شيوخ معين من قبله لوضع القوانين والنظم الإدارية؛ غير أن الباحث في سجلات الحكومة الهاشمية يرى أن الملك حسيناً كان المتصرف في كل صغيرة وكبيرة، وأن الوزراء والمجلس لم يكونا إلا طلاء، كما أنه لم يكن هناك نظام لتوزيع العمل والمسئوليات، فأقل المسائل أهمية تأخذ سلسلة طويلة من التحويل من وزارة إلى أخرى، حتى تنتهي إلى الملك الذي يأمر فيقطاع. وبجانب هذه التشكيلات الإدارية قد وضع الملك حسين موظفين خاصين للفصل في منازعات البدو؛ لأنها تحتاج إلى السرعة.

أما الحكومة الحالية فإن الملك عبد العزيز قد ألغى أولاً النظام الذي أسسه الملك حسين؛ لأنه لم يرق في نظره؛ فألغى الوزارة وجعل السلطة التنفيذية في يده، وعين بضعة مديرين للدوائر الهامة: بعضهم مرتبط مع جلالته رأساً، وبعضهم مرتبط بسمو نائبه العام، وسلطة هؤلاء المديرين تضيق وتتسع باعتبار شخصياتهم ورضا الملك عنهم، وبجانب النائب العام كان مجلس صغير معين من بضعة أشخاص ومستشارين معينين لمساعدة سموه، وقد تغير هذا النظام تدريجياً، فبدلاً من مجلس الإدارة أسس مجلس الشورى من نخبة المتعلمين وأعيان البلاد، وبدلاً من المديرين عين بضعة وزراء للخارجية والداخلية والمالية والدفاع؛ غير أنه لأن لم يوضع نظام لتوزيع الأعمال وتحديد المسئوليات، فالأعمال كانت ترجع إلى سمو النائب العام، الذي بدوره يحول أكثرها إلى جلالة الملك تخلصاً من المسئولية، كما أن مجلس الشورى ليس له حدود معينة، فكثير من المسائل الصغيرة تحول إليه في الوقت الذي يفصل دونه في مسائل عظيمة الأهمية.

وبالإجمال فإن أمراء العرب اعتادوا الاعتماد على أنفسهم فقط، ومباشرة صغار الأمور وكبارها، وليس فيها نظام لتوزيع الأعمال؛ على أن نظاماً كهذا يفتقر إلى موظفين يحوزون ثقة الملك ورضاءه الدائم، ويعملون لصالحه وصالح بلاده بكل نزاهة، ومهما كانت عيوب النظام الإداري فإن شخصية الملك عبد العزيز وحبّه للعدل، وحرصه على صالح شعبه، وسهره الدائم على مصالح رعيته، ومواصلته الليل بالنهار في مراقبة صغير الأمور وجليلها؛ جعل أكثر الأعمال تسير في طريق مرضي بفضل شخصيته وشخصية أنجاله المباشرين للأعمال.

السياسة الخارجية

لم يكن لأمراء العرب اهتمام بالسياسة الخارجية؛ لأن بعض أمراء هذه البلاد تمنعه المعاهدات المعقودة بينه وبين إنجلترا من تخايرة أي دولة أجنبية، مثل الكويت والبحرين وعمان، وبعضها كنجدة والحجاز كان معدوداً دولياً من الإمبراطورية العثمانية، على أن كثيراً من شيوخ العرب لا يفهمون السياسة الخارجية على وجهها الصحيح.

لقد سألتني قبل أربع سنوات أحد شيوخ البحرين، عن حقيقة ما أشيع من أن جلالة الملك سيقبل تعيين أحد القناصل في القطيف أو في الأحساء، فقلت له: إن الإشاعة غير صحيحة، ولكن ماذا يمنع من ذلك إذا كانت هنالك مصالح للرعايا الإنجليز مثل الهنود وغيرهم توجب تعيين قنصل؟ فقال: إذا قبل الملك ذلك فعلى بلاده السلام؛ إن الراية الإنجليزية ما رفعت على بلد إلا وأعقبها الاستيلاء عليه. فقلت له: إن هذا غلط عظيم، فما دامت لا تترك بابك مفتوحاً، فلا الإنجليز ولا غيرهم يدخلون، وإن رفع الراية على القنصلية ليس معناه أن البلد تابع للإنجليز،

فنحن يمكننا أن نرفع رايتنا في بلادهم وفي الهند. فقال: لقد رأيت ما صنعوا في البحرين، إنهم في خمسين سنة قضوا على كل نفوذ لشيوخ البحرين. فأجبت أنه أعتقد لو أن شيوخ البحرين كانوا ساهرين على مصالح رعاياهم، ومصالح الساكنين في جزيرة البحرين ما تدخل الإنجليز في شئون البحرين، ولكن كيف يقف الإنجليز مكتوفي الأيدي وأموال رعاياهم ورعايا غيرهم من الدول في خطر، ولست في حاجة إلى بحث الحوادث الكثيرة التي تقلبت فيها البحرين من جهة اختلال الإدارة، فإن ذلك معروف. فقال الشيخ: مهما كان الأمر فقد كان يجب النصح والإرشاد فقط، وعلى كل حال فأرجو أن يعتبر الملك عبد العزيز بجيرانه، ولا يقبل تعيين قنصل في بلاده.

وهذا الشيخ في الواقع يعبر أحسن تعبير عن العقلية السائدة في جزيرة العرب؛ بل لقد امتنع أهل دُبِّي من ساحل عمان من وضع كرنتينة في بلادهم سنة ١٩٢٨ وقت حدوث الكوليرا في العراق، وقالوا: لا تمر البواخر ببلادنا حتى تصبح حالة البصرة الصحية مرضية، ولا داعي لإقامة محجر صحي في بلادنا، وامتنعوا أيضًا عن قبول إنشاء محطة للطيران في بلادهم، كل هذا ابتعادًا عما يمكن أن يقع لبلادهم مثل ما وقع في البحرين.

أشراف مكة

كانت مكة حتى سنة ١٣٥٨هـ إمارة تابعة لبغداد، شأنها في الإدارة شأن سائر الإمارات التابعة للخليفة.

ولما استولى الفاطميون على مصر واقتطعوها مع بعض البلدان الأخرى من بلاد الخليفة العباسي، استقل الأشراف الحسينيون بمكة، وأولهم جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد الثائر، وهؤلاء الأشراف أربع طبقات: الموسويون أو بنو موسى، والسليمانيون، والهاشم، وهذه الطبقات الثلاث حكمت مكة من سنة ٣٥٨ إلى سنة ٥٩٨هـ أي ٢٤٠ سنة.

والطبقة الرابعة قتادة وبنوه، وهؤلاء حكموا من ٥٩٨هـ إلى سنة ١٣٤٤هـ، وهي السنة التي أجلى فيها الملك علي بن الحسين عن جدة.

والواقف على تاريخ الأشراف في الحجاز يرى أنه تاريخ مملوء بالدماء والفظائع، فالشريف منهم في سبيل الإمارة لم يكن يتورع عن قتل أخيه، وأبناء عمومته في سبيل الحكم، ولقد بلغت ببعضهم القسوة أن قتل أخاه وطبخ لحمه، ودعا إخوانه الباقين لوليمة قدم لهم فيها لحم أخيه!

لقد كان الأشراف في سبيل الإمارة يستعينون بكل من يمكن الاستعانة به من أمراء الحج المصري أو الشامي، كما أن النفوذ المصري في الحجاز كان يظهر تارة ويختفي أخرى، كان تارة مباشرًا وأخرى غير مباشر إلى أن فتح الأتراك مصر سنة ٩٢٢هـ، فقدم شريف مكة طاعته للسلطان سليم الذي بوع بالخلافة، ولقب بخادم الحرمين الشريفين، وكان نفوذ الأتراك والمصريين يظهر تارة ويختفي أخرى، وكلما أنس الأشراف ضعفًا من الأتراك والمصريين، وسعوا نفوذهم إلى الجهات المجاورة. ولما ضعف الأتراك في القرنين الماضيين وساد الاضطراب مصر، أصبح الأشراف ذوي الكلمة المسموعة في الحجاز والنفوذ الفعلي، ولو أنهم ما زالوا يتظاهرون بأنهم خدام السلطان، ويخطبون باسمه في المساجد. وإلى القرن الثامن عشر كان حق انتخاب شريف مكة محصورًا في بني بركات (نسبة إلى الشريف بركات بن السيد

حسن الجعلان، الذي خلف أباه سنة ٨٢٩هـ، وهو من جهة أمه ينتسب إلى الهواشم الذين خلعوا من حكم مكة سنة ٥٩٨هـ).

وبعد حروب بين بني بركات ومنافسيهم من القبائل، غلبوا على أمرهم، وتسلم الإمارة ذوو زيد ولم يكن فيهم منصب شريف مكة وراثيًا؛ ولكنه على كل حال بقي في هذه القبيلة حتى غلبت على أمرها، فكان بمجرد موت الشريف يعلو إلى المنصب أقوى العائلة سلطانًا وأكثرهم أنصارًا، وربما كان أقوى الأشراف في القرن الثامن عشر الشريف سرور (١١٨٦هـ - ١٢٠٣هـ)، فإنه أول من أذل الأشراف وكسر شوكتهم وسلطانهم، وأسس حكمًا عادلًا في مكة.

لقد كانت عادة الأشراف أن يكون في بيت كل شريف (٣٠-٤٠) عبدًا مسلحًا عدا الخدم والأقارب، ومن يمت إليه بصلة القرابة من البدو الذين يعيشون بتربية الغنم والإبل وعطايا الحجاج، وكان الأشراف قبل حكم الشريف سرور كلهم حكامًا في مكة، قلما يخضعون لأوامر شريف مكة، وكان همهم جمع المال بكل الوسائل الممكنة، فكانوا كثيرًا ما يغتالون الحجاج ويقطعون عليهم الطريق بين جدة ومكة، أو مكة والمدينة، بل كثيرًا ما كانوا يغتالون الحجاج في بيتهم مما تأباه شيمة العربي الكريم.

فبعد جهاد طويل تمكن الشريف سرور من إخضاع الأشراف، فجعل سكان مكة يحبونه من كل قلوبهم، وكان هو نفسه خير قدوة للطبقة الوسطى في بساطة حياته، وتواضعه، وكرمه لأهله وعشيرته، مع اشتغاره بالشجاعة النادرة والذكاء المتوقع.

أما ما رواه «بركّهزّت» من أن الشريف سرورًا اكتفى بنفي المتآمرين عليه، فإنه يخالف ما رواه السيد دحلان من أن الشريف صلب رئيس العصاة، ومثل ببعض العبيد وقتل البعض الآخر.

وبلي سرورًا في الشهرة الشريف غالب؛ وإن كان دونه في حب العدل. وفي أيام غالب غزا السعوديون الحجاز، كما أنه في أيامه أيضًا كان غزوة المصريين للحجاز ونجد، وقد قبض عليه محمد علي باشا ونفاه إلى سلاطيك حيث مات هنالك.

وبعد استرداد مكة بأيدي القوات المصرية قوي النفوذ التركي والمصري، وأصبح الأشراف خاضعين تمام الخضوع لأوامر الباب العالي. وقد أراد المصريون أن يكون نفوذهم فعليًا، فعينوا الشريف محمد بن عون، وجعلوا إلى جانبه محافظًا في مكة ومحافظًا في جدة، كما أنهم وضعوا لأول مرة حامية أجنبية في مكة، لتضمن لهم السيطرة والسلطان وتحول دون انتقاض الأشراف عليهم.

ولما انسحبت الحاميات المصرية سنة (١٢٥٦ هـ) حسب الصلح الذي تمّ بين السلطان عبد المجيد ومحمد علي استبدل بالولاة المصريين الولاة الأتراك، كما استبدلت بالحاميات المصرية الحاميات التركية في مكة والمدينة والطائف وجدة، وأصبح الأشراف يعينون ويعزلون حسب أوامر الباب العالي المطلقة؛ غير أن هذا لم يمنع الأشراف من إرهاب الحجاج وظلم السكان.

كان الباب العالي يرسل رئيس القضاة إلى مكة كل مدة معينة لضمان العدل، وحتى يكون القضاء مستقلًا عن الحكم، فلا يكون للأشراف نفوذ أو تأثير في قضاء القاضي، ولكن هذا الغرض لم يحصل إلا نادرًا، وكان أكثر القضاة آلة في يد الشريف مكة، وفي الغالب لا يحكم في الدعوى قبل أن تقدم الهدايا للقاضي.

وكان سكان مكة معفين من جميع الضرائب الشخصية والعقارية؛ غير أن الأشراف كانوا يضعون ضرائب صغيرة على الأغنام والمواشي، كما كانوا يضعون ضرائب على الحجاج وقوافلهم.

وفي سنة (١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م) رشح كامل باشا الصدر الأعظم الشريف حسين بن علي أميراً على مكة، بعد وفاة ابن عمه الأمير عبد الإله في طريقه إلى مكة، وكان قد اختير شريفاً لمكة خلفاً للأمير علي باشا الذي خلع من الإمارة، وأبعد مع عائلته إلى مصر.

ولد الشريف حسين بن علي سنة ١٢٧٠هـ (١٨٥٣م) بالآستانة، وبقي مع والده مدة فيها، ثم ذهب إلى مكة بمعية والده الذي عين أميراً للمكة، وبقي بها إلى أن تولى إمارة مكة عمه الشريف عون الرفيق سنة ١٢٩٩هـ، فطلب إبعاده عن مكة؛ لأنه خطر على الأمن فأبعد إلى الآستانة، وبقي بها حتى أسندت إليه إمارة مكة، وقد اختير الشريف حسين للعمل على نشر السلم في بلاد العرب، وتقوية نفوذ الأتراك فيها بعد أن كاد نفوذهم يتصدع، وقد عمل الشريف مكة في هذا السبيل بكل ما أوتى من قوة؛ لأنها تتفق مع الخطة التي كان يضرها في نفسه من تقوية نفوذه، وبسط يده على بلاد العرب.

لقد سافر سنة (١٣٢٧هـ - ١٩١٠م) على رأس الحملة التي أعدت لتأديب الإدريسي الشاق عصا الطاعة على الأتراك، فدحر قوات الإدريسي ودخل أهلها دخول الفاتح الظافر، وفي السنة نفسها سافر على رأس قوة وصلت للشعر^(١)؛ لإجبار حاكم نجد على الاعتراف بتبعية عتية للحجاز.

(١) الشعر: أول قرى نجد من ناحية الحجاز.

وإذا كان الأشراف قد سلكوا في الناس مسلك الكبر والجبروت والترف عن الناس وعدم مخالطتهم، فإن الشريف حسيناً قد امتازت أيام إمارته الأولى بالتواضع والعدل والغيرة على أهل مكة والدفاع عن مصالحهم، كما أنه اشتهر أيضاً بالشجاعة وعلو النفس ونقاء الذيل.

لقد وقف الشريف حسين في وجه جميع الإصلاحات، التي كان يريد الأتراك الاتحاديون القيام بها في الحجاز؛ لأنه رأى من خلالها تقوية نفوذ الأتراك وشل يده عن العمل في الحجاز، فعرقل مد سكة حديد (جدة-مكة) كما عرقل مد طريق مكة إلى الطائف من جهة جبل كرى.

لقد سمعنا ونحن في الآستانة سنة ١٩١٢ م ما يهيجس به الأتراك نحو شريف مكة، ومن سوء ظنهم به وبخديوي مصر السابق وعزمهم على التخلص منه؛ ولكن الشريف تمكن من التغلب عليهم من التخلص من مؤامراتهم، واستعد سراً للتخلص من سيادتهم ونفوذهم على الحجاز، فاختر الوقت المناسب لهم، فأعلن الثورة عليهم، وتغلب على حامياتهم الواحدة بعد الأخرى حتى دانت له الحجاز كلها.

العرب والترك

في القرن العاشر الهجري بسط الأتراك نفوذهم على سائر البلاد العربية: الحجاز واليمن وسواحل الخليج الفارسي، وأصبح القسم الأكبر منها جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، وبقيت معتبرة جزءاً منها في العرف الدولي حتى إعلان الصلح مع تركيا.

كانت الثورات تقوم من وقت لآخر في بلاد العرب بين الحكومة التركية، وبين الأمراء المحليين سعيًا وراء الاستقلال الداخلي، مرة في اليمن وأخرى في عسير، وآونة في نجد، وطورًا في سوريا، فكانت هذه الثورات نتيجة للعسف التركي، أو لجهل الأتراك عادات وتقاليد العرب.

إنَّ الواقع الذي لا ينكر أن الأتراك كانوا رجال فتح وحرب، ولم يكونوا رجال تعمير وتمدين؛ فالبلاد التركية والبلاد العربية التي خضعت للسيادة التركية مدة طويلة كانت في التقهقر والتأخر سواء، لذلك انضم أحرار العرب ومتعلموهم من ضباط، وغيرهم إلى أحرار الأتراك، وعملوا معهم في الجمعيات السرية، واشتركوا معهم في جميع الأعمال الثورية التي أسقطت السلطان عبد الحميد، ونجحت في إعلان الدستور العثماني في تركيا.

كان متعلمو العرب يأملون أن بلادهم في ظل الدستور سيشملها الإصلاح الذي هي في أشد الحاجة إليه، ولكن الأمل خاب، فإن شبان الأتراك أخذوا ينظرون إلى الشعب العربي عامة وإلى زملائهم خاصة، لا نظر الأخ إلى أخيه؛ بل نظر الحاكم الغشوم إلى المحكوم، فلم يكن بُد لقادة العرب المتعلمين من النظر في أمرهم وأمر بلادهم، ووضع حد لغلو الأتراك، فألفوا الجمعيات السرية في الجيش، كما ألفوا الأحزاب السياسية للدفاع عن حقوق العرب، ولإصلاح البلاد العربية، وأهم هذه الجمعيات:

الجمعية القحطانية

تشكلت في الآستانة سنة ١٩٠٩ من قبل وزير الأوقاف خليل حمادة باشا، والسيد عبد الحميد الزهراوي، وسليم بك الجزائري وزملائهم.

جمعية العهد

شعبة من الجمعية القحطانية، أسسها عزيز علي بك المصري بعد عودته من طرابلس الغرب سنة ١٩١٣م وحصرها في ضباط العرب.

حزب اللامركزية

تألف في مصر سنة ١٩١٢م من السيد الزهراوي ورفيق بك العظيم، والسيد رشيد رضا، وحقي بك العظم وزملائهم، وغايته الوصول بكل الوسائل المشروعة إلى تأسيس حكومة لا مركزية في جميع الولايات العثمانية.

كانت جميع هذه الجمعيات على اختلاف منازعها تواصل مساعيها في بث الدعوة القومية، وإنهاض الروح العربية، فأنشأت الفروع والشعب في معظم المدن العربية: بغداد ودمشق وحلب وحمص وحماة وبغروت.

وفي سنتي ١٩١٢ و ١٩١٣م أخذت الصحف العربية والتركية، تناقش بعضها بعضاً مناقشات كانت حادة في كثير من الأحيان، وأخذ متطرفو الأتراك يؤلفون

الكتب في الطعن في العرب وكل ما له علاقة بالعرب، واتهموا القائمين بالحركة الإصلاحية بأنه يعملون لحساب الأجانب، وأن الأيدي الأجنبية هي التي تدير هذه الجمعيات.

لم يكن حزب من الأحزاب العربية يرمي إلى الانفصال عن الترك؛ بل كل ما كان يرمي إليه الجميع هو الإصلاح العربي، وإحياء القومية العربية، وبقاء العرب بجانب الأتراك كإخوة وحلفاء، لا كسيّد ومُسود.

المؤتمر العربي بباريس

فكر متعلمو العرب المقيمون في باريس في عقد مؤتمر عربي، فخابروا الجمعية اللامركزية في مصر بفكرتهم، وحددت المسائل التي ستكون مدار البحث، وهي:

(١) الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.

(٢) حقوق العرب في المملكة العثمانية.

(٣) ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية.

(٤) المهاجرة من سوريا وإليها.

فوافقت اللجنة العليا على الاقتراح، وقررت إرسال مندوبين من قبلها، فانعقد المؤتمر العربي في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية في باريس من ١٨ يونيو سنة ١٩١٣م إلى ٢٣ منه، وقد قال السيد عبد الحميد الزهراوي في خطبة افتتاح المؤتمر:

«إنَّ العرب كانوا أَلْفُوا التُّرك، وهؤلاء قد أَلْفوا العرب منذ عشرة قرون، ولكن كما مزجت بينهم السياسة فرقت بينهم السياسة أيضًا، ولم يبق من ذلك الامتزاج القديم إلا رابطة بين البعض، وهذه الرابطة لا تزال تعدُّ ثمينة عند التُّرك والعرب معًا؛ ولكنها مع عزتها قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت من قبل، ومعلوم أنَّ السياسة في هذه المملكة بيد التُّرك؛ ولذلك تعرفها أوربا أنها تركية، فلما رأى العرب الآن ما وصلت إليه هذه المملكة بتلك السياسة التي مضى العمل عليها حتى الآن، وكانوا حريصين على البقية الباقية من تلك الرابطة، تنبهوا إلى واجب عظيم كان التُّرك والعرب جميعًا غير مهتمين به كما ينبغي، وهو اشتراك الفريقين في سياسة البلاد، فإنه قد تبين واضحًا أنه لا العرب انتفعوا ببراءتهم من ذنب إضاعة البلاد، ولا التُّرك انتفعوا بتحملهم وحدهم تبعة ذلك العبء الثقيل، وبدهي أن هذا الاشتراك لا ينافي الإخاء؛ بل الذي ينافيه هو عدم هذا الاشتراك».

قلقت جمعية الاتحاد والترقي لهذه الحركة، فأيقنت أنها إن لم تعالج الموضوع بحكمة وعقل، فإن بلاد العرب قد تفلت من أيديهم، وأيد هذا الاعتقاد في نظرهم اغتيال قومندان البصرة بيد أعوان السيد طالب النقيب، وانتزاع الأحساء والقطيف من أيديهم بيد الأمير ابن السعود، وهم كما قدمنا يعتقدون أن الحركة العربية وليدة تحريضات الأجانب؛ لا الشعور بالحاجة إلى الإصلاح.

بدأت الحكومة العثمانية تستعمل الشدة في أول الأمر، فألقت القبض على عدة من أعضاء الجمعية الإصلاحية في بيروت، فأغلقت المدينة دكاكينها أيامًا، فأخرجهم الوالي من السجن، وأخيرًا رأت أن تعالج المشكلة بالطرق السياسية، وأرسلت جمعية الاتحاد والترقي مدحت شكري بك سكرتيرها إلى باريس ليتفاوض مع أحرار العرب، ويتفق معهم على خير الطرق التي تعيد إلى الأمتين العربية والتركية الثقة

المتبادلة، والصداقة الوطيدة القديمة التي ربطت بين الشعبين قرونًا طويلة، فاتفق الفريقان على أكثر المسائل المختلف عليها.

وأصدرت الحكومة العثمانية في أوائل أغسطس سنة ١٩١٣م القرار الرسمي التالي:

إنه بالنظر للضرورات واختلاف الأمزجة في الولايات العثمانية إلى وجوب ترقية البلاد، وإسعاد أهلها وزيادة رفاهيتهم؛ تقرر بعد الاتكال على الله، ومفاوضة الولايات:

(١) أن يعهد في إدارة الأوقاف الموقوفة على أعمال الخير المحلية، إلى المجالس المحلية في الولايات حسب قانون ينشر قريباً.

(٢) أن تكون الخدمة العسكرية في زمن السلم في دائرة التفتيش؛ إلا إذا رأت الحكومة أن هنالك من الأسباب ما يدعو إلى حشد الجنود في جهة من الجهات، فترسل الجنود على الطريق النسبية.

(٣) يكون التدريس باللغة العربية في الجهات التي يتكلم أكثر سكانها اللغة العربية، ويبدأ بذلك في المكاتب الرشيدية والإعدادية، والاستعداد لتوفير الأسباب في التعليم العالي.

(٤) يختار الموظفون من الآن من الواقفين على اللغة العربية علاوة على اللغة التركية، ويعين الموظفون الثانويون من الولاية رأساً حسب قانون الولايات.

وعلى إثر ذلك تبادل العرب والترك الزيارات، وأظهروا رضاهم وولاءهم للأتراك، وفي الوقت نفسه عمل الأتراك على إيقاع الشقاق بين قادة العرب، فعينوا

السيد الزهراوي رئيس مؤتمر باريس عضوًا في مجلس الأعيان، وعينوا بعض شبان العرب في بعض الوظائف الهامة، فاشتد غضب الشبيبة العربية على هؤلاء الذين قبلوا الوظائف، ورموهم بخيانة الأمانة التي أوثمنوا عليها.

أمّا الإصلاحات فبقيت جبرًا على ورق، وأراد الأتراك أن ينالوا من العرب بالتسويق والمطل، ويضربوا زعماء الحركة الواحد تلو الآخر؛ غير أن ذلك لم يطل كثيرًا؛ فإن الحرب العامة قد استعرت لهيبها، وأظهر الأتراك ميلهم إلى الألمان، وأخيرًا انضموا إليهم.

الثورة العربية

كان الشائع في الدوائر التركية العليا أن شريف مكة يعمل في الخفاء على الانفصال من الأتراك، وأن أولاده أثناء مرورهم بمصر يمهّدون الطريق لذلك بواسطة اللورد كتشنر، وأن شريف مكة لا يحاول الانفصال فقط من الأتراك، بل يعمل أيضًا لاستعادة الخلافة منهم، وكان يقوي هذه الإشاعات عند الأتراك مقاومة الشريف لكل عمل إصلاحي يراد إدخاله إلى الحجاز، فصمّموا على التخلص منه، فعينوا وهيب بك واليًا للحجاز للقيام بهذه المهمة، ولكن شريف مكة كان عالمًا بكل ما كان يدبره الأتراك له في الخفاء، وكان يطلع على جميع المخابرات التي بين الوالي ووزارة الداخلية والحربية في الآستانة، ولذا كان يعمل لإحباط المساعي من جانب وهيب بك، والحذر من الوقوع في الفخ، وهو يعلم أنه ليس أول شريف خلعه الأتراك من إمارة مكة.

أعلن الأتراك الجهاد على الحلفاء، ووزعوا المنشورات في سائر الولايات التركية، كما أرسلوها سرّاً إلى بعض الجهات الخاضعة للحلفاء، وظنوا أن المسلمين سيتبعونهم، وكانوا جاهلين تمام الجهل حالة الإسلام والمسلمين المعنوية والمادية، وغرهم بعض الزعماء بأن أي حركة يقوم بها الأتراك ضد إنجلترا أو فرنسا، لا تلبث أن توقد النار في المستعمرات البريطانية الفرنسية، ولكن الحوادث كشفت خطأ الأتراك فيما تخيلوه، ولسنا ننكر ما حدث من الأثر بسبب دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء، ولكن الأثر لم يكن عظيماً، فإن ما أخذه الحلفاء من الاحتياطات، وما بثوه من الدعايات في كل مكان قد أحبط مساعي الأتراك والألمان.

دخل البريطانيون في مفاوضات مع الشريف حسين، لوصل ما انقطع من المفاوضات مع اللورد كيتشنر، واتفق الإنجليز وشريف مكة على خطة العمل. وإننا هنا لا نريد أن ننقل رأي الترك في حركة الملك حسين، ولا أن نعيد ما نشره بعد الثورة العربية، ولا نريد كذلك أن نعيد ما نشره الملك حسين؛ لتبرير ما قام به من الثورة ضد الأتراك الذين أجلسوه على إمارة مكة، ولكن الشيء الذي لا يمكن أن يدفع، والذي أدمى قلوب العرب هو تلك المأساة التي قام بها جمال باشا في الشام؛ من قتل وتغريب ومصادرة؛ مما جعل شريف مكة يتعجل الثورة قبل أن يصل إليه الدور، فقد قاموا يتآمرون على خلعه والانتقام منه ومن أولاده، فأحبط مساعيهم، وأبطل خططهم بعد أخذ ما تمكن منه من مالههم وسلاحهم، وقد أوقفت الثورة العربية طغيان جمال باشا، وأبدلت شدته ليناً، ولكن الجرح الذي أحدثه في قلوب العرب لم يتندمل.

مقررات النهضة

يسمّي الملك حسين الكتب المتبادلة بينه وبين الإنجليز مقررات النهضة؛ أي الأسس التي قامت عليها الثورة العربية.

والمخابرات التي كانت دائرة بين الملك حسين والحكومة البريطانية، حتى إعلان الثورة ضد الأتراك كانت سرية شخصية، لم يشترك فيها أحد من أمراء العرب أو قادتهم، حتى أبناء الملك حسين لم يكونوا محيطين بهذه المخابرات، كما كان يجب أن يكون، وقد صرح المرحوم الملك فيصل لأحد مراسلي الصحف العربية: بأن الحجج التي يجب أن يتذرع بها لم يكن يملكها؛ لأن والده لم يرسل إليه وهو في باريس الكتب الرسمية التي تعهد فيها الإنجليز بتكوين المملكة العربية.

ونرى لزماً علينا أن ننشر الكتب الأربعة، ونعقبها برأي الملك حسين في الإمبراطورية العربية، ثم رأي الجانب البريطاني وما يدلي به من الحجج للرد على ما يتمسك به الملك حسين، تاركين الحكم للقارئ، فليس من غرضنا إصدار الحكم على هذا الفريق أو ذاك؛ بل الغرض الأسمى هو نشر ما لدينا من الوثائق لخدمة التاريخ العربي.

الكتاب الأول

إلى السيد الحسيب النسيب، سلالة الأشراف وتاج الفخار، وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأهدية، صاحب المقام الرفيع، والمكانة السامية، السيد

الشریف ابن الشریف، السید الجلیل المبجل، دولتلو الشریف حسین سید الجمیع،
أمیر مكة المكرمة، قبة العالمین، ومحط رحال المؤمنین الطائفین، عمت برکتہ الناس
أجمعین.

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة، والتسلييات القلبية الخالصة من كل
شائبة، نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص،
وشريف الشعور والإحساسات نحو الإنجليز، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم
أن سيادتكم ورجالكم على رأي واحد، وأن مصالح العرب هي نفس مصالح
الإنجليز، والعكس بالعكس، ولهذه النية فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد
كتشنر التي وصلت سيادتكم عن يد علي أفندي، وهي التي كان موضعًا بها رغبتنا
في استقلال بلاد العرب وسكانها، مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها، وإننا
نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى
يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة المباركة. وأما من خصوص مسألة الحدود
والتخوم، فالمفاوضة فيها يظهر أنها سابقة لأوانها، وصرف للأوقات سدى في مثل
هذه التفاصيل، في حالة أن الحروب دائمة راحها، ولأن الأتراك أيضًا لا يزالون
محتلين لأغلب تلك الجهات احتلالًا فعليًا، وعلى الأخص ما علمناه وهو ما يدهش
ويحزن، أن فريقًا من العرب القاطنين بتلك الجهات نفسها قد غفل وأهمل هذه
الفرصة الثمينة التي ليس أعظم منها، وبدل إقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد
مد يد المساعدة إلى الألمان والأتراك. نعم مد يد المساعدة لذلك النهاب السلاب
الجديد وهو الألمان، وذلك الظالم العسوف وهو الأتراك.

ومع ذلك فإننا على كمال الاستعداد؛ لأن نرسل إلى ساحة دولة السيد الجليل ما
تحتاجه البلاد العربية المقدسة، والعرب الكرام من الجبوب والصدقات المتوفرة في

البلاد المصرية، وستصل بمجرد إشارة سيادتكم، وفي المكان الذي تعينونه، وقد عملنا الترتيبات اللازمة بمساعدة رسولكم في جميع سفرائه إلينا، ونحن على الدوام معكم قلباً وقالباً، مستنشقين رائحة مودتكم الزكية، ومستوثقين بعري محبتكم الخالصة، سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا.

وفي الختام أرفع إلى تلك السدة العليا كامل تحياتي وسلامي، وفائق احترامي.

المخلص
السير آرثر مكماهون
نائب جلالة الملك

تحريراً في ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ هـ - ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٥ م.

الكتاب الثاني
بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فرع الدوحة المحمدية، وسلالة النسب النبوي، الحسيب النسيب، دولة صاحب المقام الرفيع، الأمير العظيم السيد الشريف ابن الشريف، أمير مكة المكرمة، صاحب السدة العليا، جعله الله حرزاً منيعاً للإسلام والمسلمين بعونه تعالى آمين. وهو دولة الأمير الجليل الشريف حسين بن علي، أعلى الله مقامه.

قد تلقيت بيد الاحتفاء والسرور رقيمكم الكريم، المؤرخ بتاريخ ١٩ شوال سنة ١٣٣٣، وبه من عباراتكم الودية المحضنة وإخلاصكم ما أورثه رضاء وحبوراً.

إني متأسف أنكم استتجتم من عبارة كتابي السابق أي قابلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والفتور، فإن ذلك لم يكن القصد من كتابي؛ ولكنني رأيت حيثشذ أن الفرصة لم تكن حانت للبحث بعد في ذلك الموضوع بصورة نهائية.

ومع ذلك فقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل الهامة الحيوية المستعجلة، فلذلك قد أسرع في إبلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم، وإني بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية، التي لا شك في أنكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول.

إن ولايتي مرسين وإسكندرونة، وأجزاء بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام، وحمص، وحماة، وحلب، لا يمكن أن يقال عنها: إنها عربية خالصة، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة، مع هذا التعديل، وبدون توخ للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب، نحن نقبل تلك الحدود.

وأما من حيث الأقاليم التي تضمها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف، بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا، فإني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم الموائيق الآتية، وأجيب على كتابكم بما يأتي:

(١) إنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه، فبريطانيا العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب، وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الأقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة.

(٢) إن بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي، وتعترف بوجود منع التعدي عليها.

(٣) وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها، وتساعدوا على إيجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الأقاليم المختلفة.

(٤) هذا وإن المفهوم أن العرب قد قرروا طلب نصائح وإرشادات بريطانيا العظمى وحدها، وأن المستشارين والموظفين الأوربيين اللازمين، لتشكيل هيئة إدارية قديمة يكونون من الإنجليز.

(٥) أما من خصوص ولايتي بغداد والبصرة، فإن العرب تعترف بأن مصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك، تستلزم اتخاذ تدابير إدارية مخصوصة؛ لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي، وزيادة خير سكانها، وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة.

وإني متيقن بأن هذا التصريح يؤكد لدولتكم بدون أقل ارتياب، ميل بريطانيا العظمى نحو رغائب أصحابها العرب، وتنتهي بعقد محالفة دائمة ثابتة معهم، ويكون من نتائجها المستعجلة طرد الأتراك من بلاد العرب، وتحرير الشعوب العربية من نير الأتراك الذي أثقل كاهلهم السنين الطوال.

ولقد اقتصر في كتابي هذا على المسائل الحيوية ذات الأهمية الكبرى، وإن كان هناك مسائل في خطاباتكم لم تذكر هنا، فسنعود إلى البحث فيها في وقت مناسب في المستقبل. ولقد تلقيت بمزيد السرور والرضى خبر وصول الكسوة الشريفة، وما معها من الصدقات بالسلامة، وأنها بفضل إرشاداتكم السامية وتدابيركم المحكمة، قد أنزلت إلى البر بلا تعب ولا ضرر، رغماً عن الأخطار والمصاعب التي سببتها هذه الحرب المحزنة، ونرجو الحق سبحانه وتعالى أن يعجل بالصلح الدائم والحرية لأهل العالم. إني مرسل خطابي هذا مع رسولكم النبيل الأمين الشيخ محمد بن عارف بن

عارفان، وسيعرض على مسامعكم بعض المسائل المفيدة، التي هي في الدرجة الثانية من الأهمية، ولم أذكرها في كتابي هذا. وفي الختام أبث دولة الشريف ذا الحسب المنيف، والأمير الجليل كامل تحيتي وخالص مودتي، وأعرب عن محبتي له ولجميع أفراد أسرته الكريمة، راجيًا من ذي الجلال أن يوفقنا جميعًا لما فيه خير العالم وصالح الشعوب، فبيده مفاتيح الأمر والغيب يحركها كيف يشاء، ونسأله تعالى حسن الختام والسلام.

نائب جلالة الملك
السير آرثر مكماهون

تحريراً في يوم الإثنين ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣ - ٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٥ م.

الكتاب الثالث
بسم الله الرحمن الرحيم

إلى ساحة ذلك المقام الرفيع، ذي الحسب الطاهر والنسب الفاخر، قبله الإسلام والمسلمين، معدن الشرف، وطيد المحتد، سلالة مهبط الوحي المحمدي، الشريف ابن الشريف، صاحب الدولة، السيد الشريف حسين بن علي أمير مكة المعظم، زاده الله رفعة وعلاء آمين. بعد ما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحترام، وتقدير خالص التحية والسلام، وشرح عوامل الألفة وحسن التفاهم، والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية، أرفع إلى دولة الأمير المعظم أننا تلقينا رقيمكم المؤرخ ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ من يد رسولكم الأمين، وقد سررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوونها، وإنها لموافقة في الأحوال الحاضرة، وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تصادق عليها. وقد يسرني أن أخبركم بأن حكومة جلالة الملك قد

صادقت على جميع مطالبكم، وأن كل شيء رغبتكم الإسراع فيه وفي إرساله، فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا، والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة، وتبقى في بورت سودان تحت أمركم لحين ابتداء الحركة. وإبلاغنا إياها بصورة رسمية (كما ذكرتم)، وبالمواقع التي يقتضي سوقها إليها، والوسائط التي سيكونون حاملين الوثائق لتسليمها إياهم.

إن كل التعليقات التي وردت في محرركم، قد أعلمنا بها محافظ بورت سودان وهو سيجريها حسب رغبتكم، وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لإرسال رسولكم حامل خطابكم الأخير إلى جيزان، حتى يؤدي مأموريته، التي نسأل الله أن يكملها بالنجاح وحسن النتائج، وسيعود إلى بورت سودان، وبعدها يصلكم بحراسة الله ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله.

وننتهز الفرصة لنوضح لدولتكم في خطابنا هذا ما ربما لم يكن واضحاً لديكم، وما عساه ينتج سوء تفاهم؛ ألا وهو أنه يوجد بعض المراكز، أو النقاط العسكرية فيها بعض العساكر التركية، على سواحل بلاد العرب، يقال: إنهم يجاهدون بالعداء لنا، والذين هم يعملون على ضرر مصالحنا البحرية في البحر الأحمر، وعليه نرى من الضروري أن نأخذ التدابير الفعالة ضدهم؛ ولكننا قد أصدرنا الأوامر القطعية أنه يجب على جميع بوارجنا أن تفرق بين عساكر الأتراك الذين يبدأون بالعداء، وبين العرب الأبرياء الذين يسكنون تلك الجهات؛ لأننا لا نقدم للعرب أجمع إلا كل عاطفة ودية.

وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكون على بينة من الأمر، إذا بلغكم خبر مكذوب عن الأسباب التي تضطرننا إلى أي عمل من هذا القبيل. وقد بلغتنا إشاعات مؤداها أن أعداءنا الألداء باذلون جهدهم في أعمال السفن؛ ليشوا بها الأثغام في البحر

الأحرار، ولإلحاق الأضرار بمصالحنا في ذلك البحر، وإننا نرجوكم سرعة إخبارنا إذا تحقق ذلك اليوم لديكم، وقد بلغنا أن ابن الرشيد قد باع للأتراك عددًا عظيمًا من الجمال، وقد أرسلت إلى دمشق الشام، ونؤمل أن تستعملوا كل ما لكم من التأثير عليه حتى يكف عن ذلك، وإذا صمم على ما هو عليه أمكنكم عمل الترتيب مع العربان الساكنين بينه وبين سوريا، أن يقبضوا على الجمال حال سيرها، ولا شك أن في ذلك صالحًا لمصلحتنا المتبادلة.

وقد يسرني أن أبلغ دولتكم أن العربان الذين ضلوا السبيل، تحت قيادة السيد أحمد السنوسي، وهم الذين أصبحوا ضحية دسائس الألمان والأتراك، قد ابتدءوا يعرفون خطأهم، وهم يأتون إلينا وحدانًا وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد إلينا، والحمد لله قد هزمت القوات التي جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا. قد أخذت العرب تبصر الغش والخديعة التي حاقت بهم، وإن لسقوط أرض روم من يد الأتراك، وكثرة انهزاماتهم في بلاد القوقاز تأثيرًا عظيمًا، وهو في مصلحتنا المتبادلة، وخطوة عظيمة في سبيل الأمر الذي نعمل له وتعملون له.

ونسأل الله عزَّ وجلَّ أن يكلل مساعيكم بتاج النجاح والفلاح، وأن يمهد لكم في كامل أعمالكم أحسن السبل والمناهج. وفي الختام أقدم لدولتكم ولكامل أفراد أسرتكم الشريفة عظيم الاحترامات، وكامل ضروب المودة والإخلاص، مع المحبة التي لا يزعها كر العصور ومرور الأيام.

كتبه المخلص
السير أرثر هنري مكماهون
نائب جلالة الملك بمصر

تحريرًا في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤ - الموافق ١٠ مارس سنة ١٩١٦ م.

الكتاب الرابع

من السير مكماهون إلى الشريف حسين بن علي.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى صاحب الإحسان والرفعة وشرف المحتد، سلالة بيت النبوة والحسب الطاهر والنسب الفاخر، دولة الشريف العظيم، السيد حسين بن علي أمير مكة المكرمة، قبله الإسلام والمسلمين، أدامه الله في رفعة وعلاء، وبعد:

فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ الحجة سنة ١٣٣٢، وسرني ما رأيته فيه من قبولكم إخراج ولايتي مرسين وأطنه من حدود البلاد العربية.

وقد تلقيت أيضًا بمزيد السرور والرضاء تأكيدكم: أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وغيره من السادة الخلفاء الأولين - التعاليم التي تضمن حقوق الأديان وامتيازاتها على السواء.

هذا وفي قولكم: إن العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهدتنا مع رؤساء العرب الآخرين، يعلم منه طبعًا أن هذا يشمل جميع البلاد الداخلة في حدود الحكومة العربية؛ لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء. أما بشأن ولايتي حلب وبيروت، فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها، ودونت ذلك عندها بعناية تامة، ولكن لما كانت مصالح حليفها فرنسا داخلة فيها، فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق، وسنخبركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب.

إنَّ حكومة بريطانيا العظمى مستعدة لأن تعطي كل الضمانات والمساعدات، التي في وسعها إلى المملكة العربية، ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة كما رسمتم، على أن صيانة هذه المصالح كما يجب تستلزم نظرًا أدق وأتم، مما تسمح به الحالة الحاضرة، والسرعة التي تجري بها هذه المفاوضات، وإننا نستصوب تمامًا رغبتكم في اتخاذ الحذر، ولسنا نريد أن نلفتكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم، ولكننا في الوقت نفسه نرى من الضروري جدًّا أن تبذلوا مجهوداتكم في جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة، وأن تحثوهم على أن لا يمدوا يد المساعدة لأعدائنا بأي وجه كان، فإنه على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية، التي يمكن أن يتخذوها لإسعاف غرضنا عند ما يجيء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته.

وفي هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا قد فوضت لي، أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان، إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية، وخلصها من سلطة الأتراك والألمان.

هذا وعربونًا على صدق نيتنا، ولأجل مساعدتكم في مجهوداتكم في غايتنا المشتركة، فلني مرسل مع رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه، وأقدم في الختام عاطر التحيات القلبية، وخالص التسليمات الودية مع مراسم الإجلال والتعظيم، المشمولين بروابط الألفة والمودة الصرفة لمقام دولتكم السامي، ولأفراد أسرتكم المكرمة، مع فائق الاحترام.

المخلص

نائب جلالة الملك بمصر
السير آرثر هنري مكماهون

تحريرًا في ٨ صفر ١٣٣٣ - ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٥ م.

وقد فهم الملك حسين من هذه الكتب، ومن أحاديثه مع المندوبين البريطانيين: أن الحكومة البريطانية توافق على إنشاء مملكة عربية على الأسس الآتية:

(١) تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة، بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها، وتكون حدودها شرقاً بحر خليج فارس، ومن الغرب بحر القلزم، والحدود المصرية والبحر الأبيض، وشمالاً حدود ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات، ومجموعة مع الدجلة إلى مصبها في بحر فارس؛ ما عدا مستعمرة عدن، فإنها خارجة عن هذه الحدود، وتتعهد هذه الحركة برعاية المعاهدات والمقاولات التي أجرتها بريطانيا العظمى مع أي شخص كان من العرب، في داخل هذه الحدود بأنها تحمل محلها في رعاية وصيانة حقوق تلك الاتفاقيات مع أربابها؛ أميراً كان أو من الأفراد.

(٢) تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة، وصيانتها من أي مداخلة كانت بأي صورة كانت في داخليتها، وسلامة حدودها البرية والبحرية من أي تعد بأي شكل يكون، حتى ولو وقع قيام داخلي من دسائس الأعداء، أو من حسد بعض الأمراء فيه، تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع ذلك القيام لحين اندفاعه، وهذه المساعدة في القيامات والثورات الداخلية تكون مدتها محدودة؛ أي حين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها المادية.

(٣) تكون البصرة تحت إشغال^(١) العظمة البريطانية، حينما يتم للحكومة الجديدة المذكورة تشكيلاتها المادية، ويعين من جانب تلك العظمة مبلغاً من النقود يراعى فيه حالة احتياج الحكومة العربية؛ التي هي حكمها قاصرة في حصن بريطانيا، وتلك المبالغ تكون في مقابل الإشغال.

(١) احتلال، وهذا تعبير الملك حسين.

(٤) تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاجه ربيبتها الحكومة العربية؛ من الأسلحة ومهماتا، والذخائر والنقود مدة الحرب.

(٥) تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين، أو ما هو مناسب من النقط في تلك المنطقة؛ لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها.

هذه هي الحكومة العربية التي كان يتخيلها الملك حسين، ويسعى لها بمختلف الوسائل، وسواء كانت هذه الحكومة بهذا الشكل تتفق مع آمال أحرار العرب أم لم تتفق؛ فالملك حسين كان يرى أن حكومة عربية يكون هو على رأسها تسندها بريطانيا بما لها وسلاحها، ستكون مقدمة لحكومة عربية مستقلة استقلالاً من جميع الوجوه.

بدأ ينفذ خطته بإعلان نفسه ملكاً على العرب في أوائل سنة ١٣٣٥ - ٢٩ أكتوبر سنة ١٩١٦ م، فكان هذا الإعلان الذي لم يسبقه تفاهم مع أمراء العرب، ولا مع الحلفاء مثيراً لشكوك أمراء العرب، كما أنه لم يقابل بالارتياح من قبل الإنجليز والفرنسيين.

فالملك ابن سعود يقول: إنه احتج على إعلان الملك حسين نفسه ملكاً على العرب، فإنه حين كتب إليه عقب هذا الإعلان يطلب الدخول في مفاوضات؛ لتحديد حدود نجد والحجاز والقبائل التابعة لكلا البلدين، أجابه الملك حسين: أي حدود تطلب؟! إنك إما مجنون أو سكران. فلم يسع أمير نجد إلا الاحتجاج على هذه الإهانة، وأُذِرَ إنجلترا بأن الحالة ستضطره للدخول في قتال ضد الملك حسين؛ لأن الرجل يضمّر الشر لنجد وأمير نجد، فتدخل الإنجليز في الأمر مؤقتاً وحالوا

دون وقوع الحرب بين الفريقين، وبذلك سكنت الزوبعة، وفي الوقت نفسه اضطروا الملك حسيناً إلى إلغاء اللقب الجديد، مكتفياً بملكية الحجاز.

فكان هذا أول قنبلة أصابت آمال الملك حسين، كما أنها دلت على أن الإنجليز والفرنسيين لا يشاركون الملك حسيناً في فهمه للمملكة العربية.

ولكن الملك حسيناً كان كله آمالاً أن جميع العُقد ستحل بعد انتهاء الحرب لصالحه، وأن المستقبل سيكون في مصلحته، وأن إنجلترا ستعمل كل ما يمكن لإرضائه وإرضاء أمانى العرب، الذين ثاروا ضد الأتراك في صف الحلفاء.

وماذا كان يسع الملك حسيناً عمله بعد إعلان الثورة، وطرد الأتراك من بعض المدن الحجازية؟

وقد صرف الملك حسين كل همه لإخراج الترك من الحجاز وسائر المدن العربية، مذكراً إنجلترا كلما سنحت الفرصة بالمملكة العربية وآمال العرب فيها، وكان قواد إنجلترا في بعض المناسبات يضربون على هذا الوتر الحساس؛ مثل منشور الجنرال مود بعد فتح بغداد، وغيره من سياسي الحلفاء.

وبما أن القضية العربية أخذت شكلها الجدي، بعد أن وضعت الحرب أوزارها وعلى مائدة مؤتمرات الصلح، نرى لزماً علينا أن نعالجها بشيء من التفصيل، مستعينين بضوء الوثائق؛ لا سيما التي لم يسبق نشرها من قبل.

مؤتمرات الصلح

قبل أن نعالج موضوع القضية العربية في مؤتمرات الصلح، يجب علينا أن نرجع قليلاً إلى البلاد العربية قبل الحرب وتسرب نفوذ الأجانب إليها، فإن ذلك سيساعدنا كثيراً على تفهم الحالة من كل وجوها.

كان احتلال تركيا الفعلي موجوداً فقط في العراق، وسوريا وفلسطين، ومكة، والمدينة، ومدن الحجاز الساحلية، وشاطئ عسير، واليمن، ولكن النفوذ الأجنبي القوي كان يتسرب إلى هذه البلاد، فلم يبق للحكومة كبير احترام في نفوس رعاياها، أما الجزء الشرقي الجنوبي من بلاد العرب من الكويت إلى عدن، فلم يكن للأتراك سلطة يعتد بها؛ بل كان النفوذ الإنجليزي متغلباً، ولو أنه لم يكن مباشراً إلا في عدن.

لقد كان النفوذ الإنجليزي سائداً في بغداد والبصرة وسواحل ما بين النهرين، كما أن المصالح الإنجليزية كانت متشعبة هناك، ولكنه كان ضعيفاً في سوريا وفلسطين، والنفوذ الأجنبي الآخر الذي كان يعمل بنشاط هو النفوذ الفرنسي والألماني، والفرنسيون الذين يعتبرون أنفسهم حماة المسيحية في الشرق، قد أسسوا نفوذاً قوياً على شواطئ سوريا بما أسسوه من المعاهد، وبما عملوه لنشر ثقافتهم ولغتهم في تلك البلاد. وفي السنوات التي سبقت الحرب جاء الألمان ينافسون الفرنسيين، ولكن قصر المدة لم يمكنهم من إيجاد أي أثر في سوريا وآسيا الصغرى، وإن كان إنشاء السكة الحديدية (الآستانة-بغداد) قد جعل للألمان نفوذاً لا يستهان به.

أمّا في فلسطين فإن النفوذ الأجنبي كان دينياً في الأكثر؛ إذ يعتبر مسيحيو العالم القدس أرضاً مقدسة، وقد تأسست بعثات مسيحية أهمها الألمانية، كما أسس غيرها من المنشآت الأجنبية الدينية والعلمية. وبيت المقدس محترم أيضاً عند المسلمين، ولهم فيه آثار دينية من أقدم العصور. وقد وضع اليهود أساس حركتهم لإنشاء مملكة يهودية في فلسطين، تلك الفكرة التي لا يزال اليهود يحملون بها منذ كارثتهم الكبرى.

وزيادة على ذلك فإن سلطة الأتراك في آسيا الصغرى لم تكن قوية، نتيجة ما لبعض الحكومات الأوربية من سلطة الامتيازات الأجنبية في المسائل التجارية والقضائية.

هذه حالة تركيا قبل الحرب الكبرى، أما بعد مغامرتها في ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٤، فقد كانت تركيا حريصة على أن لا تفقد شيئاً من أطرافها؛ لا سيما البلاد المقدسة، فإن فقدانها يضرب الخلافة ضربة قاضية، ووراء تركيا ألمانيا التي تحلم في تأسيس إمبراطورية الشرق الأوسط الألماني، تدفعها وتمدها بجميع المساعدات المادية والأدبية ضد الحلفاء. هذا من جانب، ومن جهة أخرى ففرنسا تريد بسط نفوذها، وتوطيد سلطتها في الشرق الأدنى؛ لأنها حامية المسيحية، ولكنها عاجزة عن إثارة حرب أخرى خارج بلادها، واليهود يحاولون تحقيق أحلامهم القديمة، والعرب يتطلعون إلى استرداد حريتهم واستقلالهم بعد انكسار تركيا. ويحيى بعد هؤلاء الإنجليز، وهم ليسوا بأقل من هؤلاء بالنظر إلى مصالحهم العديدة في خليج فارس والبلاد العربية، تلك المصالح التي من أجلها جعلوا لهم السيادة في خليج فارس كما قال: The Duke of Argyll في سنة ١٨٧٠، والتي من أجلها أيضاً صرح اللورد لانسداي سنة ١٩٠٣ بأن بريطانيا تعتبر إنشاء قاعدة بحرية، أو تحصين

أي ميناء على خليج فارس، كتهديد لمصالحها التي يجب حمايتها بكل ما يؤديه معنى الحماية من معان.

لذا فقد كانت السياسة الحربية البريطانية في الشرق الأدنى، ترمي إلى غايتين رئيسيتين: الأولى: أن تحتل رأس الخليج الفارسي فتحمي منابع الزيت، وتمنع العدو من تأسيس مراكز بحرية تهدد المواصلات البريطانية مع الهند، والثاني: أن تحتفظ بهذه المواصلات مع الهند، مفتوحة عن طريق قنال السويس والبحر الأحمر.

هذه هي الحالة التي كانت تسود بلاد العرب، والتي على أساسها تم الاتفاق والتفاهم بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩١٦، على تحديد نفوذ كل دولة منهما، وعليها أيضًا كان اتجاه مؤتمر الصلح.

ولكن العرب الذين خاضوا غمار الحرب، كانوا يجهلون كل ما تم في الخفاء، أو كانوا لا يعترفون به؛ لأنه مناقض لشروط ويلسن التي اختارها الحلفاء لإعلان الهدنة وأساسًا للصلح.

موقف الملك حسين من مؤتمر الصلح

يجب علينا أن نذكر هنا الحقائق الآتية؛ خدمةً للتاريخ:

(١) إن الملك حسينًا كان يثق ببريطانيا ثقة لا حد لها، وكان يعتقد اعتقادًا لا يشوبه أدنى شك أن بريطانيا، التي قادت العالم ضد ألمانيا ستسعى بكل الوسائل الممكنة لتكوين المملكة العربية كما يفهمها، وأن الأتراك حاولوا في أثناء الحرب التأثير في هذه العلاقة، بإيجاد جو من الشكوك في نفوس العرب فلم يفلحوا.

لقد كتب جمال باشا إلى الأمير فيصل يخبره بما نشره الروس من وثائق، تثبت ما اعتزمه الحلفاء من تقسيم البلاد العربية^(١)، واستعداد الأتراك لعقد صلح مع العرب، أساسه استقلال البلاد العربية؛ ولكن الملك حسين الذي لا يشك في نيات بريطانيا رفض اليد التي قدمها جمال باشا بعد تأكيدات بريطانيا^(٢).

(٢) إن الملك حسيناً لثقته ببريطانيا، كان يعتقد من كل قلبه أنه لا فائدة من المؤتمرات، وأن إرادة بريطانيا ويدها فوق المؤتمرات وفوق كل شيء.

وترى هذا واضحاً تمام الوضوح في كتاب الملك حسين، إلى نائب الملك بمصر (٢١ أغسطس سنة ١٩١٨ - ٢١ ذي القعدة سنة ١٣٣٦) حيث يقول^(٣): «أما عطف الأمر وتعليقه على مؤتمر الصلح، فالجواب عليه من الآن بأن لا علاقة لنا به، ولا مناسبة بيننا وإياه حتى نتظر منه سلباً أو إيجاباً، ولو قرر المؤتمر المذكور إضعاف مقرراتنا، وكان ذلك من غير وساطتكم وقبلناها، فنكون من المطرودين من رحمة الباري جل شأنه الرقيب على قولي هذا، الذي أتوسل إليه أن يتولانا جميعاً بعنايات رأفته الأبدية».

وضعت الحرب أوزارها، وقبل الأتراك شروط الهدنة، وانسحبوا تماماً من البلاد العربية التي أشغلت بالقوات الإنجليزية الصرفة، فيما بين الموصل والبصرة وفلسطين، والقوات الإنجليزية والعربية وبعض القوات الفرنسية في الجبهة السورية.

(١) يشير إلى معاهدة سايكس - بيكو.

(٢) في الذيل نص الكتاب.

(٣) نص الكتاب المذكور في الذيل.

اعتقد الملك حسين ومن التف حوله، أنه ما دام الإنجليز هم الشاغلين للبلاد العربية، فسيقومون بتشديد المملكة العربية المتحدة؛ غير أن هنالك اعتبارات خطيرة أمام الحكومة البريطانية ستحول دون هذه الأمنية، ولها محلها الأول في نظرهم؛ هنالك معاهدة (سايكس-بيكو) التي عقدت بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩١٦، وأفشى أمرها الروس، وهنالك العهد الذي قطعه الإنجليز للصهيونيين سنة ١٩١٧، وفرنسا دولة عظيمة لها نفوذها الدولي وقوتها الحربية، واليهود لهم مكائبتهم المالية ونفوذهم المعنوي، وجانبهم أقوى من جانب العرب. غير أن العرب الذين خاضوا غمار الحرب بغية الوصول إلى نعيم الاستقلال، لم يبالوا بما أمامهم من المشاكل، واستسهلوا كل صعب في سبيل غايتهم المقدسة، وبالفعل فإنهم ساروا في الطريق الذي كانوا يعتقدون أنه متفق تمام الاتفاق مع ما كانوا يعتقدون أنه حق لهم، ومع ما كانوا يفهمونه من تصريحات قواد الحلفاء، فبمجرد أن دخل الأمير فيصل (المرحوم الملك فيصل) فاتحاً إلى دمشق في أوائل أكتوبر سنة ١٩١٨ أرسل الجنرال شكري باشا الأيوبي حاكماً عسكرياً على بيروت، فذهب المومي إليه وجلس في سراي الحكومة، بدلاً من الوالي التركي الذي انسحب من هنالك.

وفي أواخر أكتوبر احتل العرب اللاذقية، وأنطاكية، وبيلان، والأسكندرونة، فثار الفرنسيون واعتبروا هذا العمل خرقاً لمعاهدة (سايكس-بيكو) واضطروا الإنجليز أن يأمرؤ العرب بإخلاء الأماكن الساحلية، فكان ذلك أول ضربة أصابت آمال العرب وأمانيتهم.

أشارت المملكة البريطانية المتحدة على الملك حسين، أن يرسل من قبله مندوباً إلى مؤتمر الصلح، فقبل الإشارة وعين ولده الأمير فيصلًا مندوباً عنه، وزوده بالتلغراف الآتي الذي يدل على مبلغ آمال الملك حسين في بريطانيا:

«حليفنا الوفية بريطانيا العظمى ترغب حضورك نائباً عن مصالح العرب، وكل ما يكون أساساً لحياتهم، سواء ما يتعلق بالحدود أو الإدارة مما هو معلوم لديك، في مجتمع سيعقد في باريس في ٢٤ نوفمبر الجاري، فإنفاذاً لرأي عظمتها توجه بكل سرعة ممكنة لباريس، بعد مذاكرتك لفخامة القائد العام في كيفية سفرك وطريقته، وبعد تقرير ما ترونه لحالات البلاد وإدارتها في مدة غيابك الذي لا يتجاوز تقريباً شهراً، وحيث إن رابطنا الوحيدة هي العظمة البريطانية، ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها في أساساتنا السياسية، فكل ملاحظاتك وما تراه في الموضوع تبديه لتوابها وعظماؤها الأماجد، إن كانوا زملاءك في المجتمع أو معتمديها السياسيين، وما يكلفونك به من قول أو عمل، إن كان في المجتمع أو في سواه تعمل به، وتجتنب كل ما سوى ذلك، هذه درجة مأذونيتك عما يختص بالمجتمع، وخير الأهالي بالمصلحة والقصد والله يتولاك».

الأمير فيصل بباريس

لقد قام الأمير فيصل بما يجب عليه من الدفاع عن قومه، فبسط لمؤتمر السلام القضية العربية، وعود الحلفاء لوأله، وآمال العرب في عدل الحلفاء^(١)، فكان أول جواب عمل لسموه مذكرة مستر لويد جورج، المؤرخة في ١٣ سبتمبر، إلى كل من الأمير فيصل والحكومة الفرنسية، وتقضي هذه المذكرة:

(١) انسحاب الجيوش الإنجليزية من سوريا وعليلية في أول نوفمبر سنة

١٩١٩.

(١) راجع نص المذكرة في الذيل.

(٢) محل الحاميات البريطانية جنود فرنسية في غرب الخط المعبر، في معاهدة سايكس بيكو، وفي كليكية.

(٣) المقاطعات التي تبقى فيها الجنود الإنجليزية هي العراق وفلسطين، وهذا الاحتلال مطابق للاتفاق المعقود في ديسمبر سنة ١٩١٨، بين المسيو كلمنصور والمستر لويد جورج.

كانت هذه المذكرة أول ضربة لأماني الأشراف وآمال العرب، ولذا فإن الأمير فيصل أجاب على هذه المذكرة بمذكرة أخرى بتاريخ ٢١ سبتمبر، تشتمل على النقاط الآتية:

(١) إجحاف هذا القرار بقانون العدل، وما كان يتوقعه العرب من الحلفاء، وقد تلقى الملك حسين ما يؤيد هذا من وزارة الخارجية البريطانية عندما أذاع جمال باشا ما عثر عليه البولشفيك من أمر هذه الاتفاقية وغيرها.

(٢) إنه ما دام هذا التغيير مؤقتاً، فما هي الضرورة الملجئة لهذا التغيير؟ ولماذا لا يبقى الاحتلال البريطاني كما هو، إلى أن يتم الصلح مع تركيا؟

(٣) الاحتجاج بشدة على تعيين الحدود؛ لأنه مقدمة لتجزئة البلاد.

(٤) إذا كان لا بد من انسحاب الجيش البريطاني من سورية، فيجب أن تنسحب أيضاً سائر الجيوش الأوربية، وتترك المسؤولية للجيش العربي.

(٥) رفض العرب لتجزئة بلادهم، وإنكارهم لكل اتفاق لم يكن لهم علم به.

وفي ٢٣ سبتمبر أرسل الأمير فيصل كتاباً^(١) إضافياً إلى رئيس الوزارة البريطانية، يشرح فيه رفضه للبحث مع القائد العام للجيش المتحالفة في سورية في مسألة الاحتلال، ويطلب إعادة السواحل إلى الجيوش العربية، كما كانت عليه الحال في أوائل الاحتلال، وهي تتولى مسئولية الأمن وحماية البلاد، أو إبقاء الحالة على ما هي عليه الآن، لحين إبرام الصلح مع تركيا.

الأمير فيصل في لندن

رأى الأمير أن يؤم لندن لعله يجد له مساعداً هنالك لحل المسائل، التي تعقدت وكادت تخيب آمال العرب.

فكان باكورة أعماله إرساله مذكرة إلى رئيس الوزراء بتاريخ ٩ أكتوبر^(٢):

(١) إنكار اتفاق باريس والإصرار على مضمون المذكرة المؤرخة في ٢١ و ٢٣ سبتمبر.

(٢) التأكيد بأن انسحاب الجيوش البريطانية سيحدث أسوأ الأثر في سوريا، ويؤدي إلى كارثة عظيمة.

وقد ختم سموه المذكرة بالطلبات الآتية:

(١) إلغاء القرار الباريسي، أو على الأقل إرجاء العمل به.

(١) راجع نص الكتاب في الذيل.

(٢) راجع نص المذكرة في الذيل.

(٢) عرض المسألة كلها على مؤتمر السلام؛ لتسويتها النهائية بدون تأجيل، والنظر فيها من المؤتمر بأجمعه، أو من لجنة فرعية مؤلفة من أعضاء بريطانيين وفرنسيين وعرب، تحت رئاسة أحد الأمريكان، للبحث في هذه المسألة الخطرة، وتقديم تقرير عنها إلى مؤتمر السلام. فتلقي سموه جواباً مطولاً من وزارة الخارجية بتاريخ ٩ أكتوبر^(١) يتضمن:

(١) وصول الملاحظات الابتدائية على مذكرة رئيس الوزراء (التي أرسل منها نسخاً أيضاً إلى كل من المستر فولك مندوب الولايات المتحدة، وإلى السنيور تيتوني مندوب المملكة الإيطالية).

(٢) أن المذكرة المذكورة لا تعبر عن اتفاق سابق بين الحكومتين؛ بل تشمل مقترحات قدمتها الحكومة البريطانية من تلقاء نفسها عن الاحتلال العسكري في الولايات، التي كانت تابعة لتركيا إلى أن يقرر مؤتمر السلام مستقبلها نهائياً.

(٣) أن المقترحات التي تتمسك بها الحكومة البريطانية، لم تضعها إلا بعد أن قررت أنه يستحيل عليها أن تستمر على احتلال سوريا بالجيش البريطاني.

(٤) أن الحكومة البريطانية لا ترى أن هذا القرار مغاير للعهود التي عقدتها حكومة جلالة الملك مع الملك حسين.

(٥) رفض الطلبات التي اقترحها الأمير فيصل؛ لأن الشعب السوري عاجز عن القيام بشئون نفسه في الوقت الحاضر، ولأن تجربة هذا الحل -الذي أشار به سمو الأمير- يكون مضرّاً لترقي الشعب السوري سريعاً، وبالنتيجة لاستقلال الشعوب السورية والعربية.

(١) راجع نص الكتاب في الذيل.

(٦) أن تعهدات الحكومة البريطانية للحكومة الفرنسية، قد بينتها الحكومة البريطانية للملك حسين قبل دخوله الحرب.

(٧) أن الحكومة البريطانية لم تستطع إلا بعد صعوبة أن توطد لسموكم تأسيس مملكة عربية مستقلة في ذلك القسم من سورية المشتمل على دمشق، وحماة، وحمص وحلب.

(٨) نصح الحكومة البريطانية للأمير فيصل بقبول التدبير المؤقت الذي أشارت إليه المذكرة، والبحث - حالاً - في هذه التدابير مع الحكومة الفرنسية.

وبعد هذه المذكرة اجتمع سمو الأمير فيصل، ومعه الجنرال حداد باشا، والشيخ فؤاد الخطيب في وزارة الخارجية البريطانية باللورد كرزون، ومعه الكولونيل كورنواليس نائب المعتمد البريطاني بدمشق، والكولونيل سترلنج، ودار البحث تفصيلاً في الموضوع، وقد أخبر اللورد كرزون الوفد العربي بأن الفرنسيين يرون أن محل البحث هو باريس لا لندن. ثانيًا: لا يرون ضرورة لاشتراك عضو أمريكي في الموضوع؛ إلا إذا رغبت أمريكا نفسها في ذلك الاشتراك.

وقد أشار اللورد كرزون على الأمير فيصل بالسفر حالاً إلى باريس والاتصال بالفرنسيين، فإن ذلك يكون أنجح لقصده، وأن الفرنسيين قد لا يرتاحون للمفاوضات الجارية في لندن، فلم يسع الأمير إلا قبول النصيحة الذي أسدى إليه، وسافر إلى باريس مرة أخرى.

الأمير فيصل في باريس للمرة الثانية

بمجرد وصول الأمير فيصل إلى باريس أرسل مذكرة^(١)، بتاريخ ٢٥ أكتوبر إلى رئيس المؤتمر مسيو كليمنصو تتضمن:

(١) علم الأمير فيصل رأي الحكومة الفرنسية في مذكرة المستر لويد جورج، المؤرخة في ١٣ سبتمبر القاضي برد جميع الاقتراحات؛ ما عدا انسحاب الجيوش البريطانية من كليكليّة وسوريا.

(٢) اعتراض الأمير فيصل على هذا الانسحاب، وتحذير فرنسا من السير في الموضوع؛ حيث إنه سيقضي على السلم في البلاد العربية، التي سيعتقد أهلها أن الحلفاء لا يزالون يريدون تقسيم بلادهم.

فرد مسيو كليمنصو على كتاب الأمير بكتاب^(٢) مؤرخ في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٩، وأخبره:

(أولاً): بوصول كتابه، والاضطراب الذي أحدثه في نفس الأمير قرار المؤتمر الصادر في ١٥ سبتمبر، بشأن انسحاب الجيوش البريطانية من سورية وكليكليّة، واستبدالها بجيوش فرنسية.

(١) راجع نص المذكرة في الذيل.

(٢) راجع نص الكتاب في الذيل.

(ثانيًا): اقترح سمو الأمير بتأليف لجنة يعهد إليها درس طرق انسحاب الجيوش البريطانية، وإيجاد إدارة مؤقتة تصون وحدة البلاد، وتحفظ النظام في المناطق المختلفة المحتلة.

(ثالثًا): التأكيد لسمو الأمير بأن الحكومة الفرنسية، لم تنزل ترغب بكل إخلاص في توطيد دعائم الحكم المؤدي إلى الحرية، والرقى والنظام في سوريا والعراق، وسائر بلاد الشرق المحررة بفضل انتصارات الحلفاء، عملاً بمبادئ سياستها الحرة التي هي نفس المبادئ لمؤتمر السلام، وأن الثقة المعنوية المؤسسة بين العرب وحلفائهم في أيام الحرب، ستساعد على توطيد علاقاتهم.

(رابعًا): رفض اقترح تعيين اللجنة؛ لأنه فضلاً عن أنه مشوش للحالة الحاضرة، فإنه مخالفٌ لقرار المجلس الأعلى، ففي ١٥ سبتمبر أعلن المستر لويدي جورج للمؤتمر بأن الجنود الإنجليزية ستسحب من كليكلي وسوريا، وقد طلب استبدالها بجيوش فرنسية، وقد وافقه المجلس الأعلى.

(خامسًا): أن المسيو كليمنصو مقتنع بأن رؤساء الجيوش الفرنسية قادرون على تطمين الأهالي، وحفظ النظام في جميع المناطق التي ستحتلها الجيوش الفرنسية بدلاً من الجيوش الإنجليزية، وعلى الأمير بما لديه من السلطة أن يفعل ذلك في الشام وحلب.

(سادسًا): أن الحكومة الفرنسية مستعدة لتلبية أول طلب يصدر من سمو الأمير بمساعدته على صون النظام، فيما إذا اختل بأغراض المحرضين، الذين لا يقدر على غير إلحاق الضرر بمنافع العرب.

(سابعاً): استعداد الحكومة الفرنسية للنظر مع سمو الأمير في جميع الشئون الخاصة بالمصالح المشتركة.

لقد كان لهذا الرد أثر عميق في نفس الأمير فيصل؛ ولذا فإنه أرسل كتاباً آخر بتاريخ ٥ نوفمبر للرد على المذكرة الفرنسية، وقد تضمن الكتاب النقاط التالية^(١):

(١) شكر الحكومة الفرنسية على مودتها التي ما زالت تظهرها نحو الأمة العربية، ورغبتها الخالصة في تأييد حكم يتضمن الحرية والنظام والرفق في سوريا والعراق، وسائر البلاد العربية المحررة.

(٢) حرصاً على توطيد عرى الثقة بين العرب والحلفاء، قد ألح سمو الأمير في كتابه المؤرخ ٢٥ الشهر الماضي بوجوب تأليف لجنة تبحث في انسحاب الجيوش، وتأسيس إدارة مؤقتة في سوريا تكفل وحدتها وفقاً لرغائب الشعب.

(٣) أن مذكرة مستر لويد جورج التي كانت مشار البحث، والتي لم توافق الحكومة الفرنسية على مجمل ما احتوته، تشف عن تنفيذ معاهدة (سايكس-بيكو) السرية، فليس القصد من هذا التبديل الجديد سحب الجند فقط؛ بل تحديد مناطق سياسية واقتصادية، وتقرير مصير بلادنا وفقاً لمصالح لا تتفق مع مصالحها، ولهذا فقد لفت نظرة الحكومة البريطانية إلى هذا الأمر، وبعد المناقشات العديدة والاجتماعات المتوالية، قبلت مبدئياً تأليف لجنة للنظر في هذا الشأن.

(٤) أن الخوف على مستقبل البلاد قد أوجد اضطراباً في الأمة العربية، وهذا الاضطراب لا يسكن إلا إذا أزيل الأثر السيئ الذي ولدته التدابير الأخيرة، وأن

(١) راجع نص الكتاب في الذيل.

الشعب السوري لا يمكن أن يتلاعب به المحرضون بقصد إخلال الراحة والأمن فقط، وأن هذا الشعب لا يحجم عن أن يهب مرة أخرى للدفاع عن حريته وكيانه.

(٥) ذكر في المذكرة الفرنسية أن الحكومة الفرنسية على يقين من إخماد كل حركة قد تنور في الجهات التي احتلتها، والحقيقة أن الحركة التي ستثور في كل البلاد لا تنشأ عن أعمال المحرضين؛ بل حركة وطنية عامة، ولا يستطيع سمو الأمير أن يستعين بجنود أجنبية؛ لإخماد حركة وطنية نمت واختمرت تحت بيانات الحلفاء الرسمية وتأثيرها.

(٦) اندهاش سمو الأمير من قرار مؤتمر الصلح بدون دعوته، لسماع ما لديه من الملاحظات.

(٧) إلحاح الأمير في العدول عن مسألة إخلال الجنود الفرنسية محل الجنود البريطانية، ورغبته الصادقة في الوصول إلى اتفاق نهائي يضمن للأمة العربية التقدم والرفي مع الحرية والاستقلال.

غير أن الحكومة الفرنسية أصرت على نظريتها، ولم تصغ إلى مقترحات الأمير؛ ولذا فإن الأمير رجع إلى الإنجليز مرة أخرى لعلهم يساعدونه في حل هذا المشكل، وهو يعتقد أن أمثال هذه المشاكل لا يستعصى عليهم حلها.

كتب الأمير مذكرة^(١) لمستر لويد جورج بباريس، بتاريخ ٦ نوفمبر سنة ١٩١٩ يشرح فيها ما لقيته مفاوضاته مع الفرنسيين، ورفضهم تشكيل اللجنة التي كان الإنجليز قبلوها، وأن الفرنسيين لم يقصدوا بدعوته إلا اجتماعه مع الجنرال غورو؛ الذي صرح للأمير بأنه سيضطر إلى تنفيذ كل الأوامر التي يتلقاها، وأنه مع كرهه

(١) راجع نص المذكرة في الدليل.

لسفك الدماء لا يحجم عنه إذا دعت الأوامر. والتمس الأمير في آخر كتابه مساعدة رئيس الوزارة الإنكليزية، وفي ٢١ نوفمبر أرسل مذكرة^(١) إلى رئيس الحكومة البريطانية، يحتج فيها باسم والده على ما يراد من احتلال بعض الأراضي السورية، وبطلت مساعدتها ويذكرها بمعاهداتها مع الملك حسين. ويظهر لنا من البرقية التي أرسلها سمو الأمير لوالده في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٩، التي فيها يصرح بأن الحكومة الفرنسية مصرة على إشغال أقسام مهمة من مقاطعات دمشق وحلب، تمسكاً بمذكرة مستر لويد جورج، وأن الأمور كانت سائرة في اتجاه مضاد لما كان يريد الأمير ويسعى إليه؛ ولكن يظهر أن توسط بريطانيا قد أثمر، ففي ٢٦ نوفمبر - أي بعد إرسال البرقية الأولى بأربعة أيام - قد أرسل^(٢) الأمير فيصل إلى شقيقه الأمير زيد نائبه في سوريا، وأرسل وزير الخارجية الفرنسية إلى الجنرال غورو - الاتفاق المؤقت الذي تم بين سموه، وبين وزارة الخارجية الفرنسية؛ ليقوم الطرفان بتنفيذه، ويقضي هذا الاتفاق:

(١) تأليف لجنة من فرنسي وإنجليزي وعربي؛ لأجل تسوية المشاكل التي قد تحدث بين المناطق.

(٢) انسحاب الجنود العربية من البقاع، مع بقاء الدرك العربي فيها لحفظ النظام والأمن تحت أوامر القائممقام.

(٣) لا تحتل الجنود الفرنسية البقاع، ولا محلاً آخر من المناطق الحاضرة؟

(١) راجع نص المذكرة في الذيل.

(٢) تجد نص البرقيتين في الذيل.

(٤) تشكيل لجنة من ثلاثة ضباط فرنسيين وثلاثة عرب؛ لملاحظة حسن تنفيذ وظائف الشرطة والدرك في تلك الجهة، ورفع تقريرها إلى القائمقام.

وفي نوفمبر سنة ١٩١٩ أرسل مسيو برتلو السكرتير العام لوزارة الخارجية الفرنسية كتاباً^(١) للأمير فيصل، يعبر فيه عن سرور مجلس الوزراء بالاتفاق على اللجنة العسكرية؛ الذي كان نتيجة لروح التآلف المتبادل، غير أن مسيو برتلو صرح الأمير فيصلاً أن ما تم الاتفاق عليه، هو تنازل مؤقت من الحكومة الفرنسية عن حقها الذي صادق عليه المؤتمر، وأنه إذا لم يؤكد هذا الاتفاق باتفاق مرضي وقاطع إلى ثلاثة أشهر، فليكن معلوماً أن الفريقين يستأنفان حرية العمل.

غير أن هذا الاتفاق لم يمض على تنفيذه وقت طويل، فإن السلطة العسكرية الفرنسية رأت أن تقمع الثورة الوطنية التي بدت في الأحزاب العربية والشباب العربي، وأن أي سعة صدر أو تهاون، قد يجعل مركزها في سوريا حرجاً، وفي ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٩ حدث اعتداء على ضابط الارتباط الفرنسي؛ فقتل وجرح جاويشه، فأرسلت القيادة الفرنسية قوة من الجند فاحتلت بعلبك، فاحتج الأمير فيصل على هذا الاحتلال المخالف لروح الاتفاقية بكتاب مؤرخ في ١٩ ديسمبر، وأعاد الاحتجاج بكتاب آخر مؤرخ في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩١٩^(٢)؛ غير أن الاحتجاجات لم يكن لها أثر يذكر.

(١) راجع نص الكتاب في الذيل.

(٢) راجع نص الكتابين في الذيل.

رجوع الأمير فيصل إلى سوريا وإعلان الملكية في دمشق

سبقت الأمير فيصلًا إلى سوريا إشاعات كثيرة منها: أنه عقد اتفاقًا أوليًا مع الفرنسيين في باريس في ٦ ديسمبر يتضمن الاعتراف بالانتداب على سوريا، وطلب المستشارين اللازمين لتنظيم الإدارات الملكية والعدلية، والأشغال العمومية من الحكومة الفرنسية وحدها، ومدرين للدرك والشرطة، كما أن الاتفاقية أعطت للأمير فيصل حق تعيين مندوب مفوض في وزارة الخارجية للدفاع عن الشؤون السورية، كما أن الممثلين السياسيين والقناصل الفرنسيين في الخارج يقومون بتمثيل المصالح الخارجية للدولة السورية.

وشاع أيضًا في سوريا أن الاتفاق الأول عُدِّل في ١٦ ديسمبر، باتفاق آخر في ١٢ مادة لا يخرج في جوهره عن الاتفاق الأول، وإن كان فيه شيء من التفصيل فيما يختص بعمل المستشار المالي، وإعطاء حق الأولوية التامة للفرنسيين في المشروعات والقروض المحلية، واعتبار اللغة الفرنسية لغة إضافية إجبارية بعد اللغة العربية.

وقد قضت الاتفاقية الأولى والثانية على كتمان هذا العهد من الفريقين، إلى وقت الإمضاء النهائي.

لقد نشرت الصحف هاتين الاتفاقيتين في وقتها، كما نشرهما بعض المؤلفين العرب، بدون أن يخبرونا عن المصادر الوثيقة التي استقوا منها هذه المعلومات.

وإننا لم نعر فيها لدينا من الأوراق على شيء يتعلق بهذا الاتفاق؛ غير أنه في الكتاب المؤرخ في ٢٦ نوفمبر المرسل من سمو الأمير فيصل إلى المسيو برتلو

السكرتير العام للأمور السياسية الذي يشكره فيه على الحل الموفق الخاص بسحب الجنود الإنجليزية، وتعيين لجنة مشتركة إلخ، جاء في الكتاب المذكور الجملة الآتية:

«وإني لم أزل منذ وصولي إلى باريس أصر كما هو معلوم لديكم على هذه النقطة، وهي أن قصدي كان الوصول إلى عقد ائتلاف مع الحكومة الفرنسية التي مع قبولي ما يضمن للشعب السوري سيادته الوطنية، ستمنح للبلاد بطلب مني معونتها المالية، ومستشارين بقصد التعاون الودي مع الحكومة العربية الوطنية المؤسسة من قبل الأهليين».

وسواء كان الاتفاق المشار إليه صحيحًا أو غير صحيح، فإن الأمير فيصلاً كان يود من كل قلبه الاتفاق مع الفرنسيين، والاستعانة بهم على تسيير دفة الحكومة العربية؛ غير أن سموه حينما وصل دمشق لم يجد جوها السياسي ملائمًا لما كان يريد؛ فهبت الأحزاب في وجهه لا ترضى بغير الاستقلال التام بديلاً، وأقلت زمام الأمور من يد القادة، ووجد الشباب السوري - والشباب في كل بلد - قوة بريئة تندفع إلى ما تعتقده الحق بدون أن تفكر في النتائج التي قد تنتج؛ كثرت العصابات في البلاد، وقامت المنازعات الطائفية مرة أخرى، وهذا بالطبع لم يكن برضاء أو إيعاز الحكومة الوطنية السورية؛ بل الظروف التي أحاطت بالبلاد هي التي حركت المنازعات من جديد.

وأخيراً دعى المؤتمر السوري مرة ثانية للبت في قضية الاستقلال، وإعلان الأمير فيصل ملكاً على سوريا، وأعلنت الأحزاب على اختلاف نزاعاتها رفض الانتداب الفرنسي على سوريا، كما رفضوا الانتداب البريطاني على فلسطين، فاجتمع المؤتمر السوري العام، وقرر في ١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٣٨ - ٧ مارس سنة ١٩٢٠ بإجماع الآراء استقلال البلاد السورية بحدودها الطبيعية، ومنها فلسطين استقلالاً تاماً، لا

شائبة فيه على الأساس المدني النيابي، وحفظ حقوق الأقلية، ورفض مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطنًا قوميًا لليهود أو دار هجرة لهم، واختاروا سمو الأمير فيصل بن الحسين ملكًا دستوريًا على سوريا، وأعلن انتهاء الحكومات الاحتلالية العسكرية الحاضرة في المناطق الثلاث. وقد حذا العراقيون المقيمون في سوريا حذو إخوانهم السوريين، فاختاروا قاداتهم الموجودين في سوريا الذين شكلوا المؤتمر العراقي، الذي انعقد بجانب المؤتمر السوري، وأعلن استقلال العراق وانتخاب الأمير عبد الله ملكًا له.

وفي يوم الإثنين الموافق ١٧ جمادى الثانية سنة ١٣٣٨هـ - ٨ مارس سنة ١٩٢٠ بوبع الملك فيصل ملكًا على سوريا، كما بوبع شقيقه ملكًا على العراق، وتألفت بعد ذلك الوزارة السورية الثانية برئاسة هاشم بك الأتاسي.

لم يقابل البريطانيون والفرنسيون هذه الحركة بالرضا واعتبروها تحديًا لهم، وبالطبع فإنهما لم يعترفا بالتغيرات التي وقعت في المنطقة السورية، ولقد جرت حوادث احتكاك كثيرة بين السلطات العربية والحكومة الفرنسية، جعلت سوء التفاهم يزداد بين الفريقين، فالجانب السوري ينظر إلى الفرنسيين نظر المستعمر الذي يريد استعباد الشعب والتحكم فيه، والفرنسيون ينظرون إلى السوريين نظر المحرض الكاره لهم، العامل على خلق المتاعب في سبيلهم، وبالرغم مما كان يبذله العقلاء لتسكين الخواطر الثائرة، وإحلال الوئام مقام الخصام، فإن جميع المساعي التي بذلت ذهبت سدى، حتى أنه كان يتهم بالخيانة كل من كان يشير بالاعتدال، وأخيرًا أرسل الجنرال غورو إنذاره النهائي في ١٤ يوليو سنة ١٩٢٠ باسم الحكومة الفرنسية، وقد تضمن البلاغ المذكور:

(١) تحمل حكومة سوريا كل تبعة إزاء سكان سوريا، الذين عهد مؤتمر الصلح إلى فرنسا أن تمتعهم بحسنات إدارة مؤسسة على الاستقلال والنظام والرخاء.

(٢) أن سمو الأمير قد أجاب على ما أظهرته فرنسا من تأييدها رغبة السكان الذين يتكلمون العربية، على اختلاف مذاهبهم لحكم أنفسهم بأنفسهم، بأن لسكان سوريا مصلحة كبيرة في طلب المشورة والمساعدة من دولة كبيرة؛ لتحقيق وحدتهم وتنظيم شئون الأمة؛ نظرًا لما أصاب البلاد من الإرهاق التركي، وأن سمو الأمير دعا فرنسا إلى القيام بهذه المهمة باسم الأمة السورية.

(٣) ذكر حوادث متعددة نسبت إلى الحكومة العربية.

(٤) سياسة حكومة دمشق العدائية بإدخالها بعض العناصر المشهورة بعداء فرنسا في الحكومة، وانتخاب الوزارة من تلك الفئة التي لا تقتصر خطتها على إهانة فرنسا ورفض مساعدتها؛ بل تتناول المجلس الأعلى الذي منح فرنسا الانتداب في سوريا.

(٥) التدابير الإدارية ضد فرنسا بمنع جميع المعاملات التجارية والمالية، مع فرع بنك سوريا في المنطقة الشرقية، ورفض التعامل بالورق النقدي السوري.

(٦) اجتياز السلطة الشرفية حدود المنطقة الشرقية، وتقديمها داخل المنطقة لتظهر أنها توسعت توسعًا به إخراجنا.

(٧) الاعتداء على الحقوق الدولية التي توجب على قائد جيش الحجاز المحتل قطرًا سوريًا أن يظل عثمانياً، حتى تقضي المعاهدة بتغييره، وألا يحاول تغيير الحالة الراهنة التي هو حارس عليها، ولكنه تصرف عكس هذا متخذًا صفة السيادة العليا،

وقد قرر التجنيد الإجباري، ونفذ مع أن البلاد تزال أجنبية، وهذا العبث قد أكره عليه الشعب حتى في المناطق التي لها شكل خاص كالبقاع، وإعلان المجلس الملقب بالمؤتمر السوري، الذي تألف واجتمع بصورة غير قانونية بسن القوانين، وتشكيل حكومة غير معترف بها؛ فضلاً عن أنه قدم اللقب الملكي لسموكم بدون حق ولا وكالة.

وطلب الجنرال غورو باسم الحكومة المطالب الآتية، كضمانات لسلامة جنوده وسلامة السكان؛ والضمانات هي:

(١) التصرف بسكة «رياق-حلب» الحديدية؛ لإجراء جميع النقلات بمراقبة مفوضين فرنسيين.

(٢) قبول الانتداب الفرنسي الذي يحترم استقلال سوريا، ولا يتضمن سوى المعاونة بين الدولة المنتدبة، دون أن يتخذ شكل استعمار.

(٣) قبول الورق السوري.

(٤) تأديب المجرمين الذين كانوا أشد عداءً لفرنسا.

وقد أعطيت مهلة أربعة أيام للإجابة، تبتدئ من نصف ليل ١٥ يوليو سنة ١٩٢٠، على أن الحكومة الفرنسية ستكون مطلقة اليد في العمل، إذا لم يصلها إشعار بقبول هذه الشروط في الوقت المعين.

ثم أعقب هذا الإنذار منشورًا من الجنرال غورو على سكان سوريا، ببيان موقف حكومة فرنسا تجاه الحكومة العربية في دمشق.

لقد كان لهذا الإنذار أسوأ أثر في سوريا، كما أنه أوقع الحيرة في نفوس المسؤولين، أيسرون إلى النهاية في خطتهم ويتظرون ما يحكم به القدر، أم ينزلون على إرادة الجنرال غورو ويقبلون مطالبته بلا قيد ولا شرط؟

بعد محاورات كثيرة بين رؤساء الجيش وبين جلالة الملك، وبين الملك وبين المؤتمر السوري الذي كان يصر على خطة الدفاع عن حقوق البلاد مهما كانت النتيجة، سلمت الوزارة لجلالة الملك الرد الذي وضعت على الإنذار الفرنسي، ويتلخص في إنكار التهم التي نسبت إلى الحكومة العربية بتأليف العصابات، وإيجاد جو مضاد لفرنسا، وأن الحركة العربية هي في الحقيقة حركة طبيعية ضد الاستعمار، وختمت المذكرة بما يأتي:

(١) السماح بالورق السوري بالدخول إلى المنطقة السورية.

(٢) إجراء التحقيقات القانونية في قضية المشتركين في الجرائم، ومعاقبة كل من تثبت إدانته حسب القانون.

(٣) الاكتفاء بالعدد اللازم لحفظ الأمن الداخلي فقط.

(٤) قبول قرار مؤتمر سان ريمو، على أن يعين شكله الصريح بواسطة الوفد الذي سيرسل إلى أوروبا لهذه الغاية.

(٥) الموافقة على وضع الخط الحديدي من رياق إلى حلب تحت أمر السلطة العسكرية المشتركة من الجيوش السورية والفرنسية، واتخاذ مدينة حلب قاعدة حرية، على شرط أن يشترك الجيش السوري مع الجيش الفرنسي في تحديد حدود سوريا الشمالية.

ثم استعفت الوزارة الأتاسية عقب ذلك، ويقول الذين كانوا في سوريا في هذا الحين: إن الرد لم يرسل، وهو في الحقيقة كان أساس قبول الملك فيصل شروط الجنرال غورو بلا قيد ولا شرط، فقد أرسل جلالته في ١٧ يوليو سنة ١٩٢٠ برقية يخبره فيها بذلك، فتلقى جواباً من الجنرال يقول فيه: إني أشكرك على تحكيم العقل في هذه الأمور، وإنما أرغب إليك أن يكون جوابك على الوجه الآتي: أخذت إنذارك المتضمن الشروط الآتية، وقد قبلتها برمتها، وقد كانت هذه البرقية سبباً في مد مدة الإنذار أربعة وعشرين ساعة أخرى، ثم أربعة وعشرين ساعة أخرى، حيث انتهت مدة الإنذار في الساعة الثانية عشرة من يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٠؛ غير أن جواب الملك فيصل قد تأخر وصوله إلى الجنرال غورو لأسباب لا تزال مجهولة، قد تكون من بعض الموظفين الذين لا يروقه أن يروا الصفاء سائداً بين الفرنسيين والعرب، وقد تكون الأسباب انقطاع الأسلاك البرقية، وقد تكون غير ذلك. ولكن المهم أن الجنرال غورو قد عرف رأي الملك فيصل في الموضوع، ومع ذلك فقد تذرّع بتأخير التلغراف، وأمر الجيش الفرنسي بالزحف فهزم الجيش العربي بعد قتال لم يستمر أكثر من بضع ساعات، ودخل دمشق في ٢٥ يوليو، وأبلغ رئيس البعثة الفرنسية الملك فيصل أن يغادر دمشق عملاً بقرار حكومة الجمهورية، ولم يحن يوم ٢٨ يوليو حتى وضعت فرنسا يدها على المدن الأربع، وقضت القضاء الأخير على الحكومة العربية السورية.

ولقد احتج الملك حسين أشد احتجاج على ما أتته فرنسا في سوريا؛ ولكن الاحتجاجات لا تعدل من خطة القوي.

لقد كان ما أصاب سوريا أكبر ضربة أصابت آمال الملك، وهدمت صرح أحلامه في إنشاء الإمبراطورية العربية. وفي الواقع لم تكن ضربة لآمال الملك حسين؛

بل ضربة لآمال متعلمي العرب وشبانهم الذين طالما عارضوا الأتراك في أساليب حكمهم، واستبدادهم بشئون البلاد العربية.

على أن الملك فيصلًا في أثناء الحرب وأثناء إقامته في أوروبا، ترك أحسن الأثر في نفوس عارفيه ومن اتصل به من البريطانيين، فرشح لعرش العراق واختير في سنة ١٩٢١ ملكًا على العراق، ومنذ ذلك الوقت وجلالته يدأب على السهر في مصالح العراق، حتى تمكن بكياسته ومساعدة قادة العراق إلى إلغاء الانتداب على العراق، واستخلاص استقلال العراق والاعتراف به بشكل دولي محترم، وجعل للعراق منزلة تحسدها عليه سوريا.

إن تطورات الحوادث وسعي ملوك العرب في التفاهم، وترك الخصام والعداء الشخصي القديم مما ييشر بخير عظيم للأمة العربية، وكل ما نرجوه أن تجتمع كلمة زعماء العرب قادتهم، ويجعلوا صالح الشعب العربي مقدمًا على كل ما سواه، ويسلكوا الطرق العملية للوصول إلى غرضهم، فإن ذلك كفيل بمستقبل حسن للعرب. وإن من ينظر إلى الروح العربية قبيل الحرب في سائر البلاد العربية، ويقارنها بالروح الحالية؛ يشعر بتقدم عظيم في الشعور القومي.

أثر الثورة العربية في الحرب العامة

لا يصح أن نبالغ كثيرًا في تأثير الثورة العربية في الحرب العامة؛ فإن الحجاز كانت مفتقرة إلى الحلفاء في كل شيء؛ في السلاح والذخيرة، والمثونة والغذاء، والقوات الفنية؛ ولكننا من جهة أخرى لا يصح أن نقلل من أهمية الثورة وتأثيرها في موقف الأتراك في الشرق.

واللورد سسل وزير الحصار - وهو أخبر من غيره بمدى هذا التأثير - قد وصف الأعمال العسكرية بعد إعلان الثورة في مجلس اللوردات في خطبته الآتية:

«إني بإذن مجلس الندوة أصف بقدر ما يمكن من الإيجاز أدوار الأعمال الحربية، التي جرت منذ إعلان الاستقلال العربي في مكة في شهر يوليو سنة ١٩١٦. كان للترك في ذلك الوقت في الأقطار الحجازية جيش نظامي، مؤلف من عشرين ألف جندي مزودًا بالمدفعية المتناسبة، وكل لوازم النقلات والمواد الغذائية والمهمات الحربية، علاوة على السكة الحديدية العسكرية التي تصل الجيش المذكور مباشرة مع مراكزه الشمالية. إن العرب الذين انضموا تحت لواء الحرية والاستقلال لم يكونوا منظمين، ولا مزودين بالأسلحة الحديثة، وبالرغم من ذلك فقد تسنى لهم منذ أول الحركة الاستيلاء على جدة، ومكة، والطائف، وينبع، والوجه، والعقبة وتيما؛ وعلى إثر ذلك انضم كثير من القبائل العربية إلى جانب جلالة ملك الحجاز، وتطوع كثير من الضباط والجنود العرب الموجودين عندنا في الأسر في الجيش العربي، فشكل جلالته منهم قوة متمرنة مستديمة؛ ليحفظ بها ما استولى عليه، ويوسع نطاق الاستقلال العربي، ولقد كانت نتيجة المجهود الذي بذله هذا الجيش القومي بقيادة أصحاب السمو: الشريف علي، وعبد الله، وفيصل، وزيد، أن سواحل البحر الأحمر طُهرت من الأتراك على مسافة ٨٠٠ ميل، كما أن مواصلات السكة الحديدية العسكرية انقطعت مرارًا عديدة، وألحقت خسائر جسيمة في أدوات السكة الحديدية وعرباتها ومستودعاتها، والمدينة المنورة نفسها محصورة منذ سنة. وقد تقدم الشريف فيصل بجبهة جيشه من مكة أي من شمال الطُّفيلة، على شواطئ البحر الميت؛ يعني على مسافة ٨٠٠ ميل. وقد كانت نتيجة الغارة التي قام بها فريق من الجيش البريطاني على عمارة، أنها ساعدت الجيش العربي على الاحتفاظ بمراكزه، والخسائر التي ألحقت بالأتراك حتى الآن جسيمة جدًا، ويمكننا أن نقول بكل اطمئنان: إن القوات

العربية منذ الاستقلال العربي حتى الآن قد حصرت وأسرت وأشغلت ٤٠٠٠ جندي تركي، وغنمت أكثر من مائة مدفع، وبالرغم من انهماك الحكومة الحجازية في الجهاد في سبيل الحرية والاستقلال، فقد تسنى لها افتتاح عصر جديد من النظام والترتيب لم تعرفهما الأقطار الحجازية منذ دخلت تحت سلطة الأتراك، وقد نجحت الحكومة العربية باتخاذ التدابير اللازمة لتسهيل الحج في السنتين الأخيرتين، ولقي الحاج من ضروب الرفاهية والعناية الطبية ما لم يسبق لهم التمتع به من قبل، وكان الحج في كلتا السنتين سالماً من الأوبئة والتعديلات العادية والاضطرابات. وفي القسم الشرقي من جزيرة العرب قد برهن الأمير ابن سعود أنه حليف متين، وقد أسس استقلال القسم الأعظم من نجد، وما زال أمير حایل شخصياً تحت حكم الأتراك، وقد مضى عليه سنة وهو متغيب عن عاصمته.

وقد أطرى اللورد اللنبي شجاعة الجيش العربي وإبلاءه البلاء الحسن في إقصاء الأتراك عن البلاد العربية، كما أطرى المساعدات العظيمة التي أسدوها، والأثر الحربي الذي لا ينكر في ميدان فلسطين، وأن العرب بانضمامهم للحلفاء لم يفيدوهم فقط فائدة مادية؛ بل إن الملك حسيناً بذل نفوذه المعنوي في سائر الجهات التي كان دعاة الأتراك يثنون فيها دعوتهم ضد الحلفاء.

أرسل الملك حسين الشيخ (عباس مالكي) من علماء الحجاز إلى الحبشة حسب طلب الإنجليز، فنشر الدعوة للشرية، أو بعبارة أخرى للحلفاء؛ لأن غاية الجميع واحدة، وأجبطت بعثة الشريف حسين مساعي رسل الأتراك، وأعادت السكون إلى تلك الأطراف. كما هيا الشيخ سليمان أزهر لإرساله إلى بلاد التركستان؛ ولكن الانقلاب الروسي حال دون سفره.

نعم إن الجيش العربي كان يستمد من الحلفاء لا سيما الإنجليز كل شيء: المال والذخيرة والغذاء والسلاح، ولكن العرب لم يرضوا بشيء في سبيل استخلاص بلادهم من الأتراك؛ بل بذلوا نفوسهم وهي أعز شيء بذل السباح، ولقد أمد الحلفاء بعضهم البعض بالسلاح والرجال وغيرهم، كما أمد الألمان الأتراك بالسلاح والمال ورجال الفن.

ومهما قيل، فإن ما أسداه العرب للحلفاء من الأعمال العسكرية، وما خففوا به الضغط عنهم، أثنى من الذهب الذي تدفق مرة ثانية إلى الخارج بما اشتراه العرب من الضروريات.

لقد بالغ الناس كثيرًا في هذه الإعانات، ولم نر كتابًا من الكتب التي نشرت أخيرًا، أزال الستار عن هذا وأوضح لنا هذا الغموض؛ ولذا فإننا نحاول باختصار أن نذكر شيئًا هنا من الأوراق التي تحت أيدينا خدمة للتاريخ العربي، والحقيقة التي ينشدها المنصفون.

في كتاب بتاريخ^(١) ٢٩ مارس سنة ١٩١٧ من دار الاعتماد البريطاني للملك حسين أن الإعانات كانت توزع كالآتي:

٤٠ ألف جنيه لسمو الأمير فيصل

٣٠ ، ، ، ، عبد الله

٢٠ ، ، ، ، علي

٢٠ ، ، ، ، زيد

١٥ ، ، ، ، لجة

١٢٥ ألف جنيه

(١) راجع نص الكتاب في الذيل.

وإنه من ذلك التاريخ سيزاد ١٠ آلاف على ما يدفع لسمو الأمير فيصل، ومثلها لسمو الأمير عبد الله، فيصبح ما يتناوله الأول ٥٠ ألفاً، وما يتناوله الثاني ٤٠ ألف جنيه؛ أي أن المبلغ الشهري كان أولاً ١٢٥ ألف جنيه، فأصبح ١٤٥ ألف جنيه؛ على أن هذا المبلغ قد زاد حتى وصل إلى ٢٠٠ ألف جنيه.

وفي كتاب^(١) لدار الاعتماد البريطاني بجدة بتاريخ ١٣ إبريل سنة ١٩١٩ أن الحكومة البريطانية خفضت الإعانة التي تدفع إلى الحجاز إلى ١٢٠ ألفاً؛ منها ٨٠ ألفاً للحكومة دمشق، أو بعبارة أخرى للأمير فيصل؛ ولكنها زادت بعد ذلك ١٥٠ ألفاً، ثم خفضت إلى ١٢٠ ألفاً مرة ثانية، ثم إلى ١٠٠ ألف، وأن في النية تخفيضها إلى ٨٠ ألفاً؛ غير أن الحكومة البريطانية استمرت تدفع ١٠٠ ألف للحجاز حتى شهر يوليو سنة ١٩١٩.

وفي كتاب^(٢) آخر من دار الاعتماد البريطانية للملك حسين بتاريخ مايو سنة ١٩٢٠: أن المبلغ الذي وصل إليه من الخزنة البريطانية عن المدة ما بين إبريل سنة ١٩١٨ لغاية ٣١ مارس، هو مبلغ ٢٤٧٥٠٠٠ باعتماد ٢٠٠ ألف جنيه كل شهر، مع إضافة ٢٥ ألف جنيه علاوة على كل من ثلاثة الأشهر؛ إبريل ومايو ويونيو.

وفي كتابين بتاريخ ١٤ فبراير سنة ١٩٢٢، وأول فبراير سنة ١٩٢٣: أن المبلغ الذي وصل إليه من أول إبريل سنة ١٩١٩، إلى ٣١ مارس سنة ١٩٢٠ كان ٩٢٥٧٥٠٠ جنيهًا و٧ شلنات، و٥ بنسات، وفي أثناء سنة ١٩٢٠ المتداخلة في ١٩٢١ وصل إليه ٢٧٢٥٣ جنيهًا و١٥ شلنًا و٦ بنسات.

(١) راجع نص الكتاب في الذيل.

(٢) راجع نص الكتاب في الذيل.

هذا ما يختص بالنقود التي كانت ترسل من الجانب البريطاني لمساعدة الثورة العربية، أما الأغذية فيكفي أن نقول: إن الحجاز ليس بلدًا زراعيًا يمكن أن يقوم بحاجات سكانه، وما فيه من الأودية المزروعة لا يكفي بحاجات السكان؛ ولذا فقد كان الحجاز دائمًا محل عطف ورعاية من سائر ملوك المسلمين، وفي أثناء الثورة العربية كانت إنجلترا تقوم بتقديم كل ما يحتاج إليه الجيش العربي في سائر الميادين، كما أنها كانت ترسل إلى مكة مقادير غير قليلة للأهالي الذين كانوا في أشد حاجة لهذه المساعدة، ربما كان من المفيد أن ننشر قائمة بما أرسل من الأغذية في سبتمبر من سنة ١٩١٧؛ ليكون لدى القارئ صورة صحيحة مما كان يقوم به البريطانيون أثناء الحرب لتموين الثورة العربية.

شهر سبتمبر

ما أرسل في هذا الشهر	يرسل على	يرسل على	ما يقبل بمعدل وصول
الأرنبوزا	الحب	باخرة الدخيرة الثانية	من الهند
دقيق ١٠٠٠	٣٠٠٠	٣٠٠٠	٥٠٠٠
أرز ١٠٠٠	٣٢٠٠	٥٠٠٠	٣٠٠٠
بن ٦٠	—	٢٥٠	—
سكر ٣٠	—	١٨٠	—
شعير ٥٠٠	٥٠	٢٠٠	—
دقيق ١٦٠٠	—	٣٠٠٠	—
أرز ٤٠٠٠	—	٥٠٠٠	—
بن ٢٥٠	٢٥٠	—	—
سكر ٢٥٠	٢٥٠	—	—
شعير —	—	—	—
دقيق ١٢٠٠	—	—	—
أرز ١٢٠٠	—	—	—
بن ٥٠	—	—	—
سكر ٥٠	—	—	—

ملاحظة:

١- كل الأعداد معتبرة بأكياس صغيرة؛ بخلاف الشعر فمحتسب بأكياس كبيرة.

٢- البن معتبر بالصناديق.

أمّا الأسلحة والذخيرة فالثورة كلها كانت مسلحة بأسلحة إنجليزية، وقليل من الأسلحة الفرنسية، ولكن الشيء الذي يجب أن نذكره هنا: أن الحكومة البريطانية كانت دائماً تتجنب كل ما من شأنه أن يثير شبهة تدخلها في الحجاز، فلم ترسل طياراتها أو رجالها الفنيين، إلا إلى الأماكن البعيدة عن مكة والمدينة، ولعلمها أن جيش الشريف ينقصه الشيء الكثير من الضباط المدربين والعسكر النظاميين، فقد أمدت جيشه بعدد من ضباط الجيش المصري وجنوده في الطائف ومكة والوجه، كما أن الفرنسيين أيضاً أمدوا الجيش العربي ببعض الضباط، ولكن أثرهم كان ضعيفاً بالمقارنة إلى المساعدات البريطانية.

ويظهر أن هذه المساعدات كانت دون حاجة الجيش، فإن الملك حسيناً كان كثير الشكوى، ويطلب من وقت لآخر المزيد، كما أنه كان يتهدد البريطانيين بالاستقالة إذا لم تحب طلباته، ولكن البريطانيين كانوا يعالجون الأمر بالحكمة والصبر والأناة، شأنهم في معالجة سائر الأمور حتى انتهت الحرب كما يشتهون من انتصاراتهم، وانتصار حلفائهم على ألمانيا وشرائها.

المعاهدة البريطانية مع الملك حسين

لا شك أن آمال الملك حسين قد أصابها شيء من التصدع بعد حوادث سوريا، ولكن الآمال انتعشت قليلاً بعد أن تبوأ ولده المرحوم الملك فيصل عرش العراق؛ غير أن الملك حسيناً ما زال من وقت لآخر يلح على البريطانيين بالوفاء بعهودهم المقطوعة له، والبريطانيون كما يتبين من أحاديثهم مع الملك فيصل شرحوا موقفهم جلياً، وأنهم لا يتفقون مع ما يفهمه الملك حسين من العهود، ولكنهم من جهة أخرى كانوا يعترفون بمساعدات الملك حسين لهم في الحرب العامة، فكانوا يودون أن يصفوا الحساب بينهم وبينه بمعاهدة سياسية، فأوفدوا لهذا الغرض الكولونيل لورانس سنة ١٩٢١، فتفاوض مع الأمير علي، والشيخ فؤاد الخطيب، ودار البحث بين الطرفين على الحدود الحجازية النجدية المختلف عليها، والحدود اليمنية والاتحاد العربي، ثم على مشروع معاهدة بين الطرفين^(١)، ويظهر أن الاتفاق كان تاماً؛ لأنه ليس من المعقول أن يتم أي شيء بين الأمير علي وبين الكولونيل لورانس بدون موافقة الملك حسين، ولكن الملك حسيناً رفض المعاهدة؛ لأنه لم يجدها متفقة مع أمانيه، لا سيما ما يتعلق منها بالبلاد المجاورة للحجاز وخاصة ابن سعود.

ولقد أراد سمو الأمير عبد الله حينما كان في لندن في خريف سنة ١٩٢١ أن يتدخل في الموضوع بإنهاء موضوع المعاهدة، لا سيما وقد سبق له البحث مع الكولونيل لورانس أيضاً في جدة، وبالفعل فقد استخبرت دار الاعتماد الإنجليزي في جدة في ١٢ نوفمبر ١٩٢١ عما إذا كان الملك حسين يرغب في أن يعيد سمو الأمير

(١) في ذيل الكتاب نص مشروع المعاهدة، وخلاصة المباحث التي دارت بين الكولونيل لورانس والأمير علي.

عبد الله فتح المفاوضات وإمضاء المعاهدة بالنيابة عن جلالة الملك، فأجاب جلالته بكتاب صدره بالشكوى والعتاب، وأنه أمضى المعاهدة وأرسلها للأمير عبد الله بناء على مذاكرة الكولونيل لورانس بعد تعديل بعض المواد، وأنا وإن لم نقف على التعديلات التي أدخلها الملك حسين؛ غير أن تداخل سمو الأمير عبد الله لم يقدم الموضوع خطوة، وأن التعديلات التي أدخلها على النص الموضوع لم يقبلها الجانب البريطاني.

ولقد أوفد الملك حسين الدكتور ناجي الأصيل عدة مرات إلى البلاد الإنجليزية؛ لحل معضلة المعاهدة والقضية العربية على الوضع الذي يريده. أما ما يتعلق بالقضية العربية والعهود التي قطعت للملك حسين. فالدكتور ناجي الأصيل لم يكن له من النفوذ والشخصية التي كان للملك فيصل والأمير عبد الله، ولذا فإنه لم يكن ينتظر له الفوز من هذه الناحية.

أما من جهة المعاهدة فإن الحكومة الإنجليزية قد استفهمت من الحكومة الهاشمية بكتاب سري مؤرخ في ٢٨ يناير سنة ١٩٢٢ عما إذا كان الملك حسين مستعداً لقبول بعض إصلاحات في المعاهدة، التي يحملها الدكتور ناجي الأصيل، فإن معتمد وقنصل بريطانيا في جدة مستعد للبحث والتوقيع على المعاهدة؛ والإصلاحات المشار إليها قد ذكرت في كتاب سري آخر مؤرخ في أول فبراير سنة ١٩٢٣، وهي:

١- يحذف ما يتعلق بالإعانة؛ لأن الإعانات كان قد تقرر قطعها.

٢- حذف ما يتعلق بالتمثيل القنصلي بمصر؛ لأن مركز مصر قد تغير عن سنة

٣- إضافة مادة جديدة كالآتي: إن جلالة الملك حسين يعترف بالمركز الخاص لصاحب الجلالة البريطانية في العراق وفلسطين.

وإضافة مادة أخرى بترجيح النص الإنجليزي في حالة وقوع خلاف في فهم إحدى المواد، فأجاب الملك حسين على هذه التصحيحات بكتاب مؤرخ^(١) ١٩٢١/٦/١٧ بأنه قد تحقق ظنه الآن بأن الغيظ والغضب علينا من بريطانيا العظمى بشأن المعاهدة، هو من جهة المواد المتعلقة بابن سعود، وهذه المسألة لا نقول عنها إلا شيئاً واحداً، هو أن عظمتها ترجح ابن سعود علينا، فهل من يقول إذا لم تروا أننا نكون معه على ما كان الآباء والأجداد في المادة والمعنى، خذوا البلاد كلها وسلموها إليه، ولا تبقى عليه مؤاخذه أو معاتبة، وهل من موجب بعد هذا على مشاركة بريطانيا له على ما يسفك من الدماء، وما ينهب من الأموال ويسحق ويمحق من الديار؛ لإعانتها له بالمال والسلاح، وإني لم أزل ولن أزال على هذه الفكرة.

أمّا إدخال المادة الخامسة عشرة (وهي الخاصة بالعراق وفلسطين) فحيث إننا معتقدون وجازمون بأن كافة البلاد العربية المحدودة في الوعود والعهود، هي معنى قائمة بما يراد بقولكم في العراق وفلسطين؛ فلا نرى لهذا إلا التشويش والاضطراب على شخص جلالته خاصة والبلاد عامة، وأشرنا إلى ذلك في كتابنا إلى مندوبنا الأصيل، وفي برقيتنا إلى دار الاعتماد في ١٩ رجب سنة ١٣٣٧، وهو طلب ما تقرر أساساً من جهة حدود الشام والعراق والبصرة، وجعلت الإعانة الشهرية في مقابلة إشغالها للبصرة، وأن أول شرط في مقرراتي المذكورة جعل بلادنا المحدودة بتلك الحدود والمعلومة في تلك المقررات تحت حماية بريطانيا من كل تعدٍّ إلخ.

(١) قد اخترنا من الكتاب العبارات التي استعملها الملك حسين بدون أي تغيير.

وهكذا فشلت هذه المحاولة كما فشلت المحاولات التي سبقتها، وقد ارتطمت المعاهدة بصخرة قضية فلسطين وموقف بريطانيا من ابن سعود، وقد أتاحت هذه الخلافات الفرصة لابن السعود أن يغير على الحجاز، ويضع آخر حد للخلاف مع الملك حسين.

المسألة الفلسطينية

لا نريد هنا أن نأتي على تاريخ محاولة اليهود إنشاء مملكة يهودية في فلسطين، فقد أفردت لهذا الغرض مؤلفات خاصة، ولكن الذي يهمنا أن نقرره هنا أن الحركة الصهيونية التي ظهرت بعد الحرب، واتخذت شكلاً أزعج العرب لم تكن جديدة، فالحكومة التركية كانت تعلم خطر هذه الحركة فوضعت في سنة ١٩٠٠م تعليمات تقضي بمنع مهاجري اليهود من الإقامة في فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر، وقد احتجت إيطاليا وأميركا على هذا الحجر، ولكن الحكومة التركية لم تصنع إلى ذلك، وقد بذل هرثشل أكبر القائمين بالدعوة مجهودات عظيمة في الآستانة، ولكنه فشل في حمل الباب العالي على الموافقة على إنشاء حكومة يهودية في فلسطين، غير أن المساعي اليهودية لم تعرف اليأس بل سارت في أعمالها الاقتصادية والزراعية بكل تكتم، كما أنها نشطت في عقد المؤتمرات المتعددة لإثارة حماسة اليهود، وتوحيد مساعيهم، والتفاهم في الوسائل الممكنة.

قد أرادت الحكومة الاتحادية بيع نحو ثلاثة ملايين فداناً من الأراضي في فلسطين وسوريا، ولكن الشهيد شكري بك العسلي هاجم المشروع في المجلس النيابي التركي، وبين المضار والأخطار التي تصيب البلاد من أجله؛ فحيطت المساعي المبذولة وطوي المشروع، غير أن الصهيونيين لم يعدموا الوسائل التي

يتملكون بها الأرض، والدراهم تسخر كل شيء. دخلت تركيا الحرب في صف ألمانيا وحلفائها؛ فانتعشت آمال اليهود يوم صرح مستر اسكويث رئيس الوزارة الإنجليزية بأن جرس جنازة تركيا قد دق، لا في أوروبا فقط بل في آسيا أيضًا، فاستبشروا بأن تأسيس دولة يهودية في فلسطين أصبح ممكنًا ومعقولًا، وبرز الدكتور ويزمن الأستاذ في جامعة مانشستر، واندفع حتى أصبح قائد الحركة الصهيونية العامة، وهو الذي اعتبر دخول تركيا في الحرب عهدًا جديدًا لفلسطين، وفرصة نادرة يجب الاستفادة منها.

قابل الدكتور ويزمن مستر لويد جورج، وكان يومئذ وزير المالية، وبسط له آراءه وآماله بجعل فلسطين بلادًا يهودية، فارتاح إلى هذا الطلب، ثم عمل على الاجتماع مع مستر بلفور، فأنس منه كل تشجيع. لقد بحث الحلفاء (فرنسا وبريطانيا) في تقسيم تركة الرجل المريض (تركيا)، وأمضى اتفاق (سايكس-بيكو) في ربيع سنة ١٩١٦، ولم يخطر ببال الحلفاء إذ ذاك مسألة اليهود؛ غير أن اليهود الأقوياء الأذكياء استطاعوا أن يصلوا إلى غرضهم بإقناع الإنجليز بأهمية ما يرمون إليه.

وفي ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٧ - أي بعد تصريح بلفور بأسبوعين - أرسل السير مارك سايكس كتابًا^(١) دوريًا إلى زعماء العرب يوجه نظرهم فيه إلى أن الاهتمام بالقضية العربية يجب أن لا يوجه فقط إلى نجاحها في ميدان الحرب؛ بل يجب أن يوجه أيضًا إلى بقائها سائرة بالاتفاق مع سياسة العالم والنهضة العصرية؛ لأن النهضة العربية إذا صادفت نجاحًا في ميدان الحرب فقط، ولم تكن موافقة لآراء

(١) راجع نص الكتاب في الذيل.

الحكومات وعناصر العالم المختلفة، فإنها لا تنال التأييد السيلسي اللازم لحفظ كيائها والضامن لحياتها بعد الحرب.

ووجه نظر قادة العرب أيضًا إلى أن العرب، مع اتحادهم في اللغة والجنس، منقسمون انقسامًا عظيمًا جغرافيًا وتهديبيًا، علاوة على الاختلاف الناشئ عن تأثير الظالم مدة سنين طويلة، وقد أسدى النصيحة الآتية:

إن الحكومة البريطانية قد اعترفت بالصهيونية، والصهيونيون أعظم قوة يهودية، واليهودية منتشرة في العالم أجمع، فإن اتحدت قوة الصهيونية والعرب فإن تحرير العرب محقق، وأما إذا انشقت هاتان القوتان، فإن ذلك لا يفضي إلى الارتياح فقط، بل يؤدي إلى الفوضى التامة، وينحل العرب إذ ذاك إلى عناصرهم المختلفة من بدوي وحضري، ومسلم ومسيحي، ويستحيل ضمهم وجمع كلمتهم؛ والصهيونيون الآن مستعدون لأن يتحدوا مع العرب في تحرير سوريا وغيرها من البلاد الباقية تحت نير تركيا في اتفاق تام مع الأرمن؛ وغاية ما يبغيه الصهيونيون أن ينالوا حق الاستعمار في فلسطين، وأن يعيشوا في مستعمراتهم عيشتهم القومية الخاصة، وقد طلب السير مارك سايكس من حكومة الحجاز أن ترسل مندوبًا في اللجنة المؤلفة من الدكتور ويزمن رئيس الصهيونيين البريطانيين، والمستر ملكولم مندوب الأرمن في لندن، وهذه اللجنة تحت رئاسة السير مارك سايكس لمراقبة الاتفاق العربي الأرمني الصهيوني، ونشر دعوته في العالم، ومنع حدوث ما يضر به، وحفظ الاتفاق بين النهضات الثلاث، وضبط الأركان على الدوام؛ غير أن الملك حسينًا لم يرسل مندوبًا من قبله للاشتراك في أعمال اللجنة المذكورة، كما أنه لم يبد رأيًا خاصًا في هذا الموضوع الخطير، إما لعدم علمه بالقضية الصهيونية ومخاطرها، وإما لثقلته التامة بالبريطانيين، وأنهم بعد انتهاء الحرب العامة وانسحاب الأتراك من البلاد العربية سيسلمونها إليه

كلها، وهو يديرها بمساعدة الحكومة البريطانية، توطدت العلاقات بين الصهيونيين والحكومة الإنجليزية، وحازت رضا كل من فرنسا وإيطاليا.

أخذت الصهيونية تدخل في دور دولي جديد، بسماع مجلس الحلفاء الأعلى سنة ١٩١٩ لوزير من ومستر سكولوف بالحضور أمامه لتمثيل اليهود وشرح مطالبهم، وقد سمع المجلس المذكور في ٢٧ فبراير سنة ١٩١٩ اقتراحاتهم وهي:

(١) وجوب اعتراف الدول بحق اليهود التاريخي في فلسطين، وشد أزهم لإعادة بناء وطنهم القومي.

(٢) أن تسلم سلطة الحكم العليا في فلسطين إلى جمعية الأمم، وأن يعهد إلى إنجلترا بالوصاية عليها، وتكون مسئولة أمام جمعية الأمم.

(٣) أن يضاف إلى صك الانتداب لحكومة فلسطين الشروط الآتية:

(١) أن توضع فلسطين في أحوال إدارية وسياسية واقتصادية، يضمن معها تأسيس الوطن القومي اليهودي، وأن يتول ذلك في النهاية إلى إيجاد حكومة مستقلة، بشرط أن لا يعمل شيء يعيث بحقوق غير اليهود (العرب) في فلسطين، أو بحقوق اليهود التي يتمتعون بها خارج فلسطين.

(٢) للوصول إلى هذه الغاية تقوم الدولة الوصية:

أ- بتشجيع الهجرة اليهودية وإسكان اليهود في الأرض الفلسطينية، مع المحافظة على حقوق السكان الحاليين من غير اليهود.

ب- وتعزيد وكالة يهودية في فلسطين وفي العالم، للإشراف على بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين.

ج- وبعد الاقتناع بأن قانون هذه الوكالة لا يتضمن جلب الربح الخاص، يجب أن يفضل على غيره بإعطاء المشروعات الاقتصادية وتمنح له الأولوية في كل امتياز في الأعمال العامة، أو في تجميع الثروة الطبيعية التي تجدد الحكومة من الضرورة إعطاءها لها.

ومع أن مجلس الحلفاء لم يبد جوابًا حاسمًا لمندوبي اليهود؛ إلا أن اليهود كانت ثقتهم عظيمة ببريطانيا، وأنهم بواسطتها سيصلون إلى الغاية التي يتوخونها.

وفي سنة ١٩٢٠ بحث الحلفاء مرة أخرى في مسألة فلسطين، فاعترفوا بمطالب الصهيونيين ووعد بلفور، وقد تقرر أيضًا في سان ريمو بناءً على أماني الصهيونيين أن تكون الحكومة الإنجليزية هي الحكومة الوصية على فلسطين، فأبدلت الحكومة البريطانية الإدارة العسكرية بحكومة مدنية، وعهدت برياستها إلى السير هربرت صمويل.

العرب واليهود

لم يكن من الطبيعي موافقة العرب على جعل فلسطين وطنًا قوميًا لليهود، ولا موافقتهم على فتح باب الهجرة لليهود بلا قيد ولا شرط؛ لأن أراضي البلاد الزراعية محدودة، وقدرتها على قبول السكان محدودة أيضًا، وفتح باب الهجرة لليهود فقط معناه إيجاد مزاحمين جدد للسكان.

لذلك فإنهم قد هبوا في وجه تصريح بلفور، واحتجوا على السياسة الجديدة التي أدخلت على فلسطين، وأرسلوا الوفود إلى كل من مكة ولندن، فأما وفد لندن فإنه لم يصادف نجاحًا كبيرًا؛ لقوة اليهود المادية والأدبية، وعظم نفوذهم في مختلف الأحزاب الإنجليزية، أما وفد مكة فإنه أثار الملك حسينًا وحكومة مكة، ووجد صدرًا رحبًا من جريدة القبلة، فنشر كل ما يريد نشره، كما أنه أثار حماسة الحجاج المسلمين.

لم يسع الإنجليز السكوت على الحملات الموجهة إليهم قبل اليهود؛ لأنهم هم المسئولون عن إدارة البلاد، فكتبوا كتابًا طويلًا للملك حسين بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٩٢٢ هاجموا فيه الوفد الفلسطيني واتهموه بسوء النية، وكذبوا كثيرًا من دعاويه التي نشرها في الحجاز، كما أنهم لاموا حكومة الحجاز والقائمين بتحرير القبلة؛ على تركهم البيانات بدون تعليق، وأردفوا الكتاب ببيان من وزير المستعمرات عن سياسة الحكومة البريطانية في فلسطين، فرد الملك حسين على هذا الكتاب المطول مدافعًا عن الوفد تارة، ومعتذرًا تارة أخرى، وقال:

«وحيث إن هذه المباحث كلها مخالفة لمقررات جلالة الملك مع بريطانيا وتعهداتها لذلك، لا يمكن البحث في الموضوع». ثم أنحى باللائمة على مشروع رتنبرج وتسليح اليهود، ثم على وعد بلفور مما لا نرى ضرورة لتفصيله هنا.

وقد استمر الملك حسين على موقفه في فلسطين تحت تأثير الأحزاب العربية حتى آخر لحظة من حكمه، وكان موقفه في فلسطين وتصريحاته المتعددة من أهم المسائل التي عرقلت المفاوضات بينه وبين الإنجليز، وقد كانت عقيدة الملك حسين أن فلسطين هي جزء من المملكة العربية التي وعد بتشكيلها، وأن وعد بلفور باطل لمخالفته للعهد والوعود المقطوعة له من بريطانيا.

ولقد رأى الملك حسين أخيراً أن يوجه خطاباً للشعب البريطاني في نوفمبر سنة ١٩٢٣ يشكو فيه ما أصابه هو وقومه من خيبة الأمل، وما أصاب البلاد العربية من التقسيم بالرغم من العهود والاتفاقات، واستنهض همه الشعب البريطاني المعروف بتقاليده في إنصاف الشعوب المظلومة ... فلم تطمئن الحكومة البريطانية إلى موقف الملك حسين الجديد، وتشجيعه للأحزاب العربية، فصرفوا النظر عنه وتركوه لخصمه ابن السعود يحل مشاكله معه بنفسه، فتغلب عليه وأقصاه عن الحجاز.

الملك حسين وجيرانه

قلنا من قبل: إن جلالة الملك حسين كانت كل آماله موجهة إلى إنشاء إمبراطورية عربية^(١) يرأسها، وسواء كانت هذه الفكرة سهلة المنال أو مستحيلة، فإنه ما زال حتى آخر لحظة يدعو إليها ويدافع عنها، حتى فقد ملكه في سبيل تحقيقها، ونقول هنا أيضاً: إن أنجاله كانوا يوافقونه على هذه الفكرة، ويسعون إليها بالرغم من أن الحلفاء عارضوا في لقب ملك العرب؛ لأنه سيثير شكوك حكام العرب الآخرين.

لقد كان جلالة الملك فيصل من المعتقدين بهذه الفكرة، فقد كتب إلى والده في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٩ يخبره بمساعيه في فرنسا، وتمنى لو يرفع العلم العربي على كافة أنحاء الجزيرة كاليمين وعسير وغيرهما، وإعلان انضمامهم له لكي يبلغ ذلك للدول، ويتخلصون من كلمة ملك الحجاز ويقولون ملك العرب. والأمير عبد الله في كتابه المؤرخ ٢٨ إبريل سنة ١٩٢٠، إلى نائب الملك بمصر الذي يطالب فيه الحكومة البريطانية بالإمبراطورية العربية التي وعدتهم بإنشائها، يقول في آخره:

(١) راجع في الذيل مشروع الوحدة العربية، الذي وضعه الملك حسين.

وخلاصة المقال أن جلالته يبحث عن أمرين:

الأول: عن المسألة العربية الكبرى.

الثاني: في المسائل البدوية لمشايخ العربان، الذين كانت لهم صلات بالحكومة البريطانية، منذ الحكم العثماني على سواحل خليج فارس والمحيط الهندي، كابن الصباح وابن سعود وغيرهما، ولا سيما الأخير الذي يدعي أن العهد البريطاني الذي بيده يسوغ له أن يفعل ما فعله من الحركات المعلومة التي شرع فيها إبان الحرب.

ولقد كتب الملك حسين - بعد وفاة السيد محمد الإدريسي - كتاباً لرؤساء قبائل عسير يجب إليهم الانضمام إلى الحجاز، ولكن هذه المحاولة لم تنجح، كما حاول الاتفاق مع الإمام يحيى. أما ابن سعود فالخصومة بينه وبين الملك حسين، كانت أشد وأعنف، ولذا فإننا سنوفيهما حقهما من التفصيل.

ابن سعود والملك حسين

إن النزاع بين الأشراف وآل سعود يرجع عهده إلى حركة الإصلاح الديني التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بمساعدة آل سعود، فهذه الحركة صاحبها حركة فتح وبسط نفوذ في سائر جزيرة العرب، وأصبحت الحجاز مهددة في ذلك الوقت، ومكة والمدينة كانتا كالقاهرة من حيث المركز العلمي، كما أن الأشراف كانوا يرون في أنفسهم الامتياز بالنسب وحكم البلاد المقدسة، وكان شأنهم كشأن حكام جزيرة العرب من حيث الاتصال بالبادية والاشتغال بالغزو أيضاً، فكان من الطبيعي أن يقوم بينهم وبين آل سعود ما وقع من الخلاف:

أولاً: بسبب الدعوة الدينية، وأساسها قائم على إنكار البدع والخرافات والقبور والعاكفين عليها.

ثانياً: النزاع على السيادة؛ فالأشراف يرون أن مركزهم الديني بالقرابة وبإمارة مكة، جعلهم في مركز لا يصح أن يقارن بمركز أي أمير آخر، والنجديون طبعاً يخالفونهم في هذا.

وفي سنة ١١٨٥هـ أرسل الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب هدايا إلى أمير مكة الشريف أحمد بن سعيد، مع الشيخ عبد العزيز الحصيني، الذي أوفد إلى مكة بطلب من الشريف ليشرح ما عليه أهل نجد، وبيان وجهة نظرهم الجديدة. وقد وصل المذكور إلى مكة، وتباحث مع علماء مكة في بعض المسائل. ويقول ابن غنام المؤرخ النجدي: إنهم أحضروا كتب الخنابلة، فاقتنعوا بأن ما عليه أهل نجد من هدم القباب، ومنع دعوة الصالحين، وطلب الشفاعة منهم حق، وأن هذا مذهب الإمام الأعظم، وأن الشيخ عبد العزيز انصرف مبجلاً مكرماً.

وفي سنة ١٢٠٤هـ أوفد الأمير عبد العزيز والشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الشريف غالب، الشيخ عبد العزيز الحصيني مرة أخرى إلى مكة، حسب رغبة الشريف غالب، ولكن علماء مكة في هذه المرة لم يقبلوا مناظرة الشيخ عبد العزيز، ويقول ابن غنام: إن الشريف غالباً قبل دعوة أهل نجد، وقد يكون الشريف غالب تظاهر بذلك ليخفي ما كان يديره سراً من غزو نجد، والقضاء على الدعوة الجديدة في عقر دارها؛ إذ ليس من المحتمل أن يكون الشريف مكة أراد أن يخدع أمير نجد حتى ينصرف لتسكين الأحوال الداخلية في مكة؛ لا سيما مؤامرات بني عمه ضده، فإن الدعوة الدينية وقوة أمير نجد لم تبلغ من القوة التي يخشى على مكة منها.

ويقول السيد دحلان: إن أمير نجد قبل اتساع أمره أراد الحج إلى البيت الحرام في أيام الشريف مسعود بن سعيد، فأرسل يستأذن في الحج، وكان أرسل قبل ذلك ثلاثين من علمائهم، وطلب من الشريف مسعود أن يناظر علماء الحرمين العلماء النجديين، فأمر الشريف مسعود قاضي الشرع أن يكتب حجة بكفرهم، وأمر بسجنهم ووضعهم في السلاسل والأغلال، وفي أيام الشريف مساعد أخي الشريف مسعود أرسل يستأذن في الحج، فأبى وامتنع من الإذن له، ولما تقلد الأمر الشريف أحمد بن سعيد أرسل أمير الدرعية جماعة من علماء نجد للمناظرة مع علماء الحرمين، فأبى الشريف بعد ذلك أن يأذن لهم بسبب الاختلاف الواقع بين الفريقين، وفي أيام الشريف سرور أرسل إليه يستأذن في الحج، فأجابته: إن أردت الوصول فإني آخذ منك مثل ما آخذ من الأعجام، وآخذ منك مائة من الجياد فلم يقبل. وفي أيام الشريف غالب أرسل أيضًا يستأذنه في الحج، فمنعه وتهده بالزحف عليه.

ومهما كان الفرق بين رواية النجديين والسيد دحلان، فمما لا شك فيه أن أشراف الحجاز كانوا يعتبرون أنفسهم ملاك البيت، يسمحون لمن يريدون، ويمنعون من يريدون، ولا شك أنهم كانوا يضعون العراقيل في سبيل الحجاج النجديين؛ بسبب الدعوة الدينية التي قامت في نجد.

وفي سنة ١٢٠٥ هـ جهز الشريف غالب حملة كبيرة لغزو نجد، والقضاء على الدعوة الدينية واجتثاث أصلها، وثل عرش آل سعود، وسار الشريف بنفسه إلى الشُّعْراء؛ ولكن هذه الحملة وما تبعها من حملات رجعت تجر وراءها الخيبة والفشل كما كانت فاتحة شر بين آل سعود والأشراف، فإن آل سعود لم يقبلوا تحكيم الأشراف في البيت الحرام ومنعهم من الحج، كما رأوا في الأشراف قوة أخرى لا تزال تهدده من وقت لآخر، وهي موئل للرجعية وللتعصب للقبور، ولذا فإنهم بعد أن استتب

لهم الأمر في الجزيرة، وقضوا على الإمارات الصغيرة واحدة تلو الأخرى، ولم يبق لهم منازع في نجد وجهوا نظرهم شطر الحجاز، ففتحوه وحكموه من سنة ١٢١٩ هـ إلى سنة ١٢٢٧ هـ، ولولا الأغلاط التي ارتكبوها ضد الأتراك والمصريين، ما اعترض حكمهم أحد في الحجاز، فإنهم يفضلون الأشراف بقوتهم وقدرتهم على بسط الأمن والضرب على أيدي قطاع الطرق، والطامعين في الحجاج من البدو.

وفي سنة ١٢٦٣ هـ تولى الشريف محمد بن عون جد الشريف حسين قيادة حملة تركية؛ للقضاء على سلطة الإمام فيصل جد الملك عبد العزيز، فوصلت هذه الحملة إلى القصيم؛ غير أن الإمام الداهية البعيد النظر أحبط هذه المؤامرة بالاتفاق مع الأتراك، على أن يكون مستقلاً في بلاده خاضعاً لسيادتهم، ويدفع لهم مقابل ذلك مبلغاً سنوياً قدره عشرة آلاف ريال. ولقد كنّا نظن أن مرور الأيام طوت صحائف العداوة والحقد بين هاتين العائلتين، ولكن الزمن بدد هذا الظن، وظهر أن الأشراف لا تزال قلوبهم ملأى بالحقد على آل سعود بالرغم من أن آل سعود، لم يكن لهم قبل ربع قرن من الزمن من القوة والنفوذ ما يؤبه له، ولقد سمعت من كثير من النجديين لا سيما من كانوا في بطانة آل رشيد، وقد أكد هذه الرواية الملك عبد العزيز أن الشريف علياً باشا أمير مكة الأسبق، كانت باكورة أعماله في إمارة مكة بعد الشريف عون إهداءه أسلحةً ورماحاً إلى الأمير عبد العزيز الرشيد، خصم الأمير عبد العزيز آل سعود، والقارئ يعرف أثر هذه الهدية في نفس الأمير عبد العزيز آل سعود (الملك عبد العزيز الآن).

ولما تولى الشريف حسين إمارة مكة بعد الدستور العثماني، ظننا أن عهداً جديداً سيكون للبلاد العربية؛ لأن الشريف ذاق من ظلم الأتراك بإبعادهم له من مكة، كما ذاق طعم الحرية بعد عصر الحرية، ولكنه أبى إلا أن يكون آلة في يد الأتراك لضرب

العرب، فقد سار هو وأولاده في الحملة التي سيرها الأتراك لضرب الإدريسي في عسير، وهذا كله ليبرهن للأتراك إخلاصه التام. أما الأمير عبد العزيز بن سعود فقد كان له من مشاكله في نجد ما يغنيه عن خلق مشاكل جديدة بينه وبين الشريف حسين؛ ولكن الشريف حسيناً بحجة المطالبة بعُتَيْبَة خرج من الحجاز حتى الشَّعْرَاء، أول قرى نجد، واعتقل سعد بن عبد الرحمن شقيق أمير نجد كرهينة، ولكن أمير نجد تفاهم مع الشريف حسين وجاراه في أغراضه، وأعلن أنه لم يكن من مصلحته إلا إخلاصه للدولة التركية وللأشراف، فإن النزاع بينه وبين أبناء عمه، وبينه وبين خصمه الألد ابن الرشيد كان على أشده؛ بل إن مصلحته تقضي بخط ود شريف مكة ومحاسنته، وهذا ما كان.

وبعد هذا التفاهم أرسل أمير نجد في رمضان سنة ١٣٢٨ هـ أحد أبناء عمه إلى مكة، مع هدية من جياد الخيل، وقال في كتابه^(١): «إننا حاسبون^(٢) أنفسنا من خواصكم وإلا هديتنا رءوسنا وما تحت أيدينا، وحررنا هذا الكتاب لموجب التعرض لخدمتكم وما يبدو من اللازم، وإلا أمركم علينا تام على كل حال، وما تفعلون معنا ومخطون أنظاركم علينا، تجدون إن شاء الله مضاعفاً بالخدمات والسمع والطاعة».

وفي كتاب آخر مؤرخ ٢٢ ربيع أول سنة ١٣٣٠ يقول: «اطلعنا على تحرير عطوفتكم لحضرة سيدي الوالد المحرر في ٢١ صفر سنة ١٣٣٠، وقد سرر سلامتكم وبها أشرتم من اجتناب كل ما يخالف مرضي سماحتكم العادلة، فالله المطلع أنني أسعى إليها، وإني حريص لاستجلاب مرضيكم؛ لأن من أخص آماله

(١) راجع نص الكتب التي أرسلها الأمير عبد العزيز إلى الشريف حسين في الذيل.

(٢) هذه لغة الكتب ننشرها كما هي طبق الأصل.

وأقصى مرامنا رضاكم، وبالعكس نحن محرومون من التفاتكم حتى نال منا الأشقياء
المفسدون الذين لا غاية لهم إلا النهب والسلب، وإقلاق الراحة وإحداث الفتن،
فاعتقدوا أننا لم نخالف مرضيكم ولم نقصر في إبراز الصداقة والمحبة والمحسوبة
لحضرانكم في جميع مساعينا، ونرجو من لطفكم بأن لا تكونوا من فكر من جهتنا
أبدًا، وألا تخرجوا من دائرة المحبة والصداقة، ولنا أمل بالله أن تكونوا واسطة قوية
بيننا وبين متبوعنا الحكومة السورية، وتعرضوا إخلاصنا وخدماتنا الصادرة في
مرضاة دولتنا الدستورية، وتروني حاضراً استعداداً مع عموم أهل نجد لكل ما
تكلفوننا وتأمروننا به، أفدي السدة العثمانية بعزیز روعي».

فابن السعود في كتبه كان يعترف للأشراف بما لهم من المنزلة والرياسة، وذلك
على شرط أن لا يتدخل الأشراف في الشؤون النجدية المحضة.

بعد اشتعال نار الحرب أوجس الأتراك بشيء مما سيحاوله شريف مكة،
فعرضوا على أمير نجد إمارة مكة؛ غير أن ابن السعود رفض هذا العرض؛ لأنه
سيجر عليه مشاكل لا قبل له بها، ولأن قبول هذا العرض سيجعله في موقف عداء
مع الإنجليز، وابن سعود يحرص على مصلحتهم ومصادقتهم.

وفي سنة ١٩١٦م خلع الشريف حسين نير الأتراك، أعلن الثورة العربية،
واستقلال البلاد العربية وانفصالها نهائياً من الحكم التركي.

رحب أمير نجد بالحركة العربية، وتبادل هو وشريف مكة الكتب الودية
والهدايا، مما جعلنا نعتقد أن العرب سيدخلون في عصر جديد من التفاهم والاتحاد.
غير أن إعلان الشريف حسين نفسه ملكاً باسم ملك العرب، أثار شكوك أمير نجد،
فاحتج، فلم يسع الإنجليز إلا الاعتراض على لقب ملك العرب.

لقد كان من آثار تجديد الدعوة الدينية في نجد دخول العشائر المتاخمة للحجاز من سبيع وعتيبة في دين الله، تلك العشائر التي اشتركت مع الملك حسين في إعلان الثورة، وكان لها أثر يذكر في فتح الطائف وجدة، والتغلب على الحاميات التركية، فكان من آثار ذلك ازدياد الجفاء بين الملك حسين والأمير ابن سعود، وبالرغم من سعي الحكومة البريطانية للتوفيق بين الفريقين، فإن هذا السعي لم يثمر الثمرة المطلوبة وإن قلل حدة الخلاف. لقد دخل كثير من العشائر التي كانت موالية للملك حسين في الدعوة الدينية، وأصبحوا بمقتضى هذه الدعوة يرون أن ملك الحجاز ليس من حماة الدين؛ بل بالعكس حامى البدع، وأخذت زيارة شيوخ القبائل لأمير نجد تثير سخط الملك حسين، واعتبر هذا خيانة عظيمة له.

أرسل الملك حسين بعض قوات تأديبية لتأديب أولئك الخارجين وأدبهم بالفعل، فعاد ابن السعود هذا التهديد موجهاً إليه؛ اختل الأمن على حدود الحجاز بالغزو المستمر، ووصلت الكتب التي يرسلها أمير نجد إلى شيوخ القبائل يدعوهم إلى التمسك بأهداب الدين، وأن أهل نجد لا يقصدون إلا إعلاء كلمة الله. فثارت نائرة الشريف حسين على ابن سعود، ومن ابن سعود هذا؟ أليس هو بأمير صغير؟ كيف يتناول على مقامنا ويتجاوز حدوده؟ كانت نفس الملك حسين تجيش بهذه الكلمات طبعاً، إذن يجب تأديبه أو إقصاؤه عن ملكه حتى يقف غيره عند حده.

قام الملك حسين بالتجهيزات العسكرية في الطائف وتربة، وجهاز كل قواته بالمدافع والرشاشات، إن عشائر الحُرمة لا تحتاج إلى كل هذا؛ فإلى أين هذه القوات؟ إلى الإحساء أي إلى الساحل الغربي على خليج فارس، هذا كان يقوله قواد الملك حسين، وماذا في نجد؟ ألم تكن لكم عظة بمن حاول هذه المحاولات قبلكم من الأشراف والأتراك، ألم تبتلعهم رمال نجد؟ إلى نجد! نحن لا نكلفكم مئونة

الذهاب إليها، إن دون نجد أهلها ورجالها. هذا جواب أمير نجد عبد العزيز بن سعود.

سار أمير نجد بجنوده حتى أصبح قريباً من تربة، والجند الشريف لا يزال فيها، غير أن عثية وبعضاً من سبع أعنوا ابن السعود مئونة الوصول إلى تربة، فصبحوا جيش الشريف على غرة، وانقضوا عليه من كل جانب، وقتلوا كل من أوقعه القدر في أيديهم، والسعيد من وجد سبيلاً للفرار، ولم يجد هذا السبيل إلا نفر قليل، بينهم القائد العام الأمير عبد الله؛ أمير شرق الأردن الآن.

هل يتقدم ابن السعود إلى الأمام؟ لقد وصل إلى تربة وأقام حولها يحصي الغنائم ويقسم الأسلاب، وليس هنالك ما يمنع من دخوله الطائف، وهو على بضع ساعات منها، بل لا شيء يمنعه من دخول مكة إذا أسرع إليها، فإن القوات التي يعتمد عليها الملك قد فنيت في وادي تربة؛ فزع الشريف حسين إلى الإنجليز أن انظروا إلى ابن السعود يريد الاستيلاء على الحجاز، والإنجليز لا يمكن أن يتركوا حليفهم فريسة لأمير نجد؛ أيدخل الأمير فيصل دمشق ليؤسس دولة عربية هنالك، ويخرج والده من الحجاز؟ إن هذا غير معقول طبعاً.

أرسلت الحكومة البريطانية إنذاراً لأمير نجد في ٤ يونيو سنة ١٩١٩م - ٥ رمضان سنة ١٣٣٧هـ، وحذرته مغبة تقدمه في الأراضي الحجازية، لم يسع الأمير عبد العزيز إلا الرجوع إلى نجد؛ لأنه وهو الرجل العاقل البعيد النظر لم ير من مصلحته الدخول في محاصرة مع الحكومة البريطانية.

ثم سعت الحكومة البريطانية من جانبها لإزالة سوء التفاهم؛ ولكن الملك حسيناً ليس سهل القياد، فقد سعت الحكومة البريطانية بين أمير نجد وملك

الحجاز؛ لتبادل كتب مودة وصداقة، لعل تلك الوسيلة تكون سبيلاً لإزالة سوء التفاهم المستحكم بين الفريقين، على أن الملك حسيناً لم يرسل كتاباً إلى أمير نجد، كما أنه رفض استلام كتاب أمير نجد، فكتب إليه نائب الملك بمصر كتاباً مطوياً بتاريخ ٥ نوفمبر جاء فيه:

«إن حكومة جلالة ملك بريطانيا، نظراً إلى عنايتها بمصالح العرب الجوهرية، تقف إزاء اشتعال الحرب في جزيرة العرب موقف القلق المضطرب، خصوصاً لكون حدوث ذلك يؤثر على القرارات السياسية التي سيتفق عليها قريباً.

ثم إنه لا يجب أن يخامر جلالتم أقل ريب في وفاء الحكومة البريطانية نحوكم، التي يتحتم عليها عدم اتخاذ جانب ابن سعود أو غيره فيما يضر بمصالح جلالتم، غير أن جلالتم لا تجهلون شروط المعاهدة الحالية بين الحكومة البريطانية وابن سعود الضامنة حقوقه داخل حدود بلاده، إلا أنها بلغته بصفة رسمية أنها تنظر إلى كل عمل يأتي به خارج بلاده بعين السخط؛ بل رفضت طلبه زيادة الذخائر والمهمات الحربية، زد على هذا أنها طلبت منه إيقاف الحركات العدائية ضد ابن الرشيد صديق الأتراك، التي كان قد شرع بها بناء على طلب الحكومة البريطانية نفسها.

إنني لا أذكر هذا إلا لغرض إيقاف جلالتم على حقيقة الحال، ولكي تقدروا حق التقدير البواعث التي حملت الحكومة البريطانية على الإشارة لجلالته بالوقوف عند حد معلوم فيما يتعلق بمسألة الخربة وغيرها من شئون القبائل، ونظراً إلى ما سبق ذكره، وما تكرر وروده في كتب جلالتم يصعب عليّ تصديق الخبر الذي جاءني؛ وهو أن جلالتم رغبتم في قطع العلاقات الودية مع ابن سعود، مما يكتنى عنه بإرجاعكم رسوله ورفضكم كتابه.

إنني أرجوكم أعظم الرجاء أن تجتهدوا لمنع كل البواعث الجوهرية التي تؤدي إلى سوء التفاهم مع الأمير المشار إليه بشأن سياستكم نحوه، فإنه وإن كان أقل درجة من جلالته وأضعف مواردًا، لا ينكر أنه ذو تأثير وأهمية في السياسة العربية».

ساد السكون الحدود الحجازية بقية سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٠ تقريبًا، وتبوءت الكتب الودية بين الفريقين، فالأمير عبد الله في كتاب له مؤرخ ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٣٨ - ١٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ يقول:

«إنني قبل كل شيء أحمد الله الذي ألهمكم وأفهمكم على إركاب الأخ أحمد إلى هذا الجنب، لحسم ما هو واقع من الأمور المحزنة والحوادث المفجعة التي لا سبب لها سوى غلطات متتابعة؛ إذ إنني على يقين من أن والدي وشخصكم لا يريدون لبعض ما يريده العدو لعدوه، وأن لكل منكم متسعًا فيما هو لآبائه، كما أن فطنتكم الذاتية وحنكتكم السياسية لا شك أنها أوحى إليكم، كما هي أوحى إلينا مفروضة تغير الشكل الحاضر، ولزوم التفاهم في كل وارد وصادر».

إن تبادل الكتب بين الفريقين لم يمنع من وقوع حوادث بعد ذلك على الحدود، وهذا بالطبع للاختلاف في النزاعات الدينية بين القبائل الخاضعة للحجاز، والقبائل الخاضعة لنجد.

ولذا فإن الملك حسين رأى أن يمنع النجديين من الحج في عام ١٣٣٨ - ١٩٢١. غير أن الحكومة البريطانية أغلظت الكتابة لابن سعود؛ لكي يعمل على إسكان الحالة في حدود الحجاز، وتداخلت مع الملك حسين للإذن للنجديين بالحج أسوة بسائر المسلمين.

وفي سنة (١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م) أذن للنجديين أن يحجوا، فحجوا تحت إمارة مساعد بن سويلم، وقد عثرنا على كتاب من سلطان نجد (كان الأمير عبد العزيز أعلن نفسه سلطاناً على نجد سنة ١٩٢١) للأمير علي أكبر أنجال الملك حسين يقول فيه:

«لما رأيت تفضل صاحب الجلالة الوالد المعظم ببذل عنايته بالرخصة وبالسماح لأهالي نجد لأداء فريضة الحج؛ حيث برهن على حسن عواطفه وإظهار فضيلته، أحببنا أن نرخص لبعض رعايانا لزيارة بيت الله الحرام بصحبة خادمتكم مساعد بن سويلم، فاتخذت هذه خير وسيلة وأعظم فرصة لأهدي حضرتهم جزيل السلام، ولأعبر لسموكم عن عظيم اشتياقي وخالص نواياي لتجديد عهد الصداقة، وتمكين الصلات الحسنة والمناسبات الودية المشتركة التي تربط القطرين الإسلاميين، غير ملتفتين إلى ما قدر الله رغم إرادتنا أن يقع فيما مضى بين الطرفين من الحوادث التي طالما أوجبت لتأسفاتي وكدري... إلخ».

غير أن الخلاف قد عاد مرة أخرى بطريقة أشد، فإن الملك حسيناً أبى أن يسمح للحجاج النجديين مرة أخرى، والحكومة البريطانية تتوسط بين الجانبين فيتهمها الملك حسين بمحاباة ابن السعود وترجيحها إياه.

إن الواقف على المراسلات التي كانت تدور بين الملك حسين، وبين الحكومة البريطانية^(١) في هذا الموضوع لا يرى موقفاً أشرف من موقفها للتوفيق بين الجارين المسلمين العربيين، للسماح بفتح أبواب الحجاز للحجاج النجديين أسوة بسائر المسلمين، وإزالة أسباب النزاع والخصام بين الفريقين؛ كي يسود السلام جزيرة العرب.

(١) اخترنا نشر كتابين في هذا الموضوع في الذيل.

ولقد كان جلاله الملك حسين مرة يرفض السماح للحجاج النجديين خشية إخلالهم بالأمن، وتارة يتنازل بقبول عدد قليل منهم، كما أنه في بعض الأحيان يشترط قدومهم بالبحر كسائر الحجاج.

وفي ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢ كتب سلطان نجد إلى المندوب السامي بالعراق، يخبره أن ليس في إمكانه تحديد عدد الحجاج النجديين لعام ١٩٢٣. كما فعل في العام السابق، ولم تر الحكومة البريطانية سبباً مشروعاً لتغيير موقفه، فأرسلت الحكومة البريطانية التعليمات لممثلها بجدة، فكتب بدوره للحكومة الهاشمية بتاريخ ٢٨ يناير يخبرها بموقف سلطان نجد ورأي الحكومة البريطانية، واقترح الدخول في مفاوضة مع سلطان نجد؛ لعقد معاهدة على نسق المعاهدة التي عقدت حديثاً بين سلطان نجد والملك فيصل.

وفي ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣ كتب سلطان نجد للحكومة البريطانية يخبرها أن عدداً كبيراً من رعاياه يرغبون في أداء فريضة الحج، وأنه لا يقدر أن يحدد العدد، كما فعل في حج سنة ١٩٢٢، وأن الحكومة البريطانية لا ترى أي مانع لفتح باب الحج لكل من يريده من النجديين ما دام الحج في العام الماضي، كان على خير ما يرام، وقد اقترحت الحكومة البريطانية بمناسبة الوقت للمفاوضة في معاهدة حدود مع ابن سعود على طريقة المعاهدة التي تمت حديثاً بين سلطان نجد والملك فيصل، فكان جواب الملك حسين أن لا يقبل حجهم في هذه السنة إلا إذا أخلوا الجوف وسائر الجهات التي اغتصبوها من البلاد كثرانية، وبيشة، وتربة، ونواحي خيبر وما شاكلها. وأما المعاهدة مع ابن سعود على طريقة معاهدته مع العراق، فإن هذا البحث مفروغ منه؛ لأننا كلفناه المرة بعد الأخرى كما هو معلومكم بأننا مستعدون لذلك على أساس الشروط التي أخبرناكم بها، وهي إما أن يعود ابن سعود إلى ما كان عليه في

زمن الآباء والأجداد من جهتنا وجهته، وإما أن يأتي ويستلم البلاد جميعها؛ لأن الأساس المقصود هو خدمة البلاد.

وما زالت الحكومة البريطانية جادة في تقريب مسافة الخلف بين سلطان نجد وملك الحجاز، حتى هيأت الجو لمؤتمر الكويت، فجعلت بين جبهة الأشراف - الحجاز. العراق. شرق الأردن - وبين سلطان نجد في يناير سنة ١٩٢٣، ولكن هذا المؤتمر قد فشل. وقد أحسَّ الملك حسين بما بينه وبين البريطانيين من الخلف، فكتب وزير خارجيته كتابًا إلى رئيس المعتمدين البريطانيين في شرق الأردن، يظهر فيه رغبته في التقارب بين البلدين؛ غير أن فشل مؤتمر الكويت وتتابع الحوادث في الحجاز التي انتهت بسقوط الملك حسين، حالت دون نجاح هذه الرغبة الأخيرة.

سياسة الملك حسين الداخلية

لا نريد أن نأتي هنا على تاريخ الأشراف ونفوذهم في الحجاز، فقد أوردنا فصلًا خاصًا في هذا الموضوع، كما أننا أوردنا أشياء كثيرة في ثنايا الكتاب تبين ما كان لهم من النفوذ والسلطان في الحجاز، لا سيما إذا كان شريف مكة على اتفاق تام مع الوالي.

عندما أعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك ظننا أن البلاد العربية ستدخل في دور جديد من الإصلاح والتقدم، وكاد هذا الظن يكون يقينًا عندما رأينا كثيرًا من شبان العرب، وهم القائمون أولاً بالحركة العربية في تركيا، التفوا حوله وأسندت إلى بعضهم إدارة بعض الأعمال.

لقد قام الملك حسين في أول سنة من القيام بالحركة، بتأسيس الوزارات ومجلس الأعيان، كما أنه همَّ بفتح بعض المدارس في مكة والمدينة.

ولكن يظهر أن جلالة الملك حسين وما يغلب عليه من سوء الظن وسرعة تأثره بالوشايات، جعل بعض هؤلاء الشبان يفضل ترك العمل بالمرّة، وبعضهم يفضل الاشتغال مع أولاده، لا سيما الأمير فيصل والأمير عبد الله؛ لأن العمل مع الملك حسين لا يجدي ولا يثمر، على أنه ما كادت الحرب تضع أوزارها حتى رأينا ميدان الحجاز قد خلا من الشبان العرب النزيهين، ولم نر حول الملك حسين إلا أولئك الضعفاء الذين لا يهمهم إلا ضمان مصالحهم الشخصية، غرقت السفينة أو سلمت.

إن بلاد الحجاز في حالتها الحاضرة أشبه بحالة البلاد الإسلامية الأخرى قبل مائتي سنة، ولكن الزمن الآن قد تغير كثيراً، والحجاج يأتون من كل ناحية، ولا يجدون في الحجاز التقدم الذي حدث في بلادهم، لا يجدون طرقاً ولا وسائل مواصلات، كالتي يشاهدونها في بلادهم، وكذلك وسائل الإنارة والشرب والصحة والتعليم، وغير ذلك من وسائل العمران الضرورية.

والحجاز - وإن كان من البلاد الفقيرة التي لا تكفي مواردها للقيام بهذه الإصلاحات - إلا أنه بمركزه الديني يجذب شتى المساعدات من الأمراء المسلمين، ومن أغنياء المسلمين إذا رأوا عزماً صادقاً من الحكومة المهيمنة على شئونه.

لقد كنا نظن أن الملك حسيناً بحكم ما له من النسب الكريم والمنزلة الرفيعة في نفوس المسلمين، وأنه - وهو الرجل الذي وقف على وسائل الحضارة في الآستانة - سيضرب للناس أفضل الأمثلة بمقدرة العرب على الإدارة والتنظيم، ولكن الأيام خيبت هذا الظن؛ فالملك حسين في هذه الناحية كان كغيره من الأشراف لا يفهم ما يجري في العالم، كما أنه لم يقدّر بالواجب المنتظر منه للبلاد المقدسة، ولقد حاولت الحكومة البريطانية أن تساعد الملك حسيناً على تنظيم مالية الحجاز في سنة (١٩١٩) - (١٩٢٠) لأنها في ذلك الوقت كانت لا تزال تدفع إعانة للملك حسين - وميزانية

الدولة هي أساس الإدارة في المملكة فلم توفق، حاولت كذلك إصلاح إدارة الكرنيتية والصحة، وهي أهم شيء في الحجاز لأنها هي الركن الأول لسلامة الحج فلم توفق أيضًا، حاولت أيضًا أن تساعد الحجاز ببعثات طبية ترسل من الهند؛ لأن إدارة الصحة في الحجاز غير منظمة من جهة، ولأنه في زمن الحج حيث يكثُر الوافدون لا تكفي الاحتياطات التي تقوم بها حكومة الحجاز، ولا عدد الأطباء الموظفين، وهذه مهمة إنسانية لا غضاضة فيها على حكومة الحجاز، ولكن الملك حسيناً رفض هذا الطلب من بريطانيا، كما رفضه من مصر أيضًا، معتقداً أن ذلك يحط من شأن حكومته ويمس استقلاله، ولم يجد توسط الأمير فيصل (المرحوم الملك فيصل) في هذه الأمور ولا غيره.

أما السياسة المالية فلم تكن تمتاز عما كان معروفًا في أيام غيره من الأشراف (العبد وما ملكت يده لسيده).

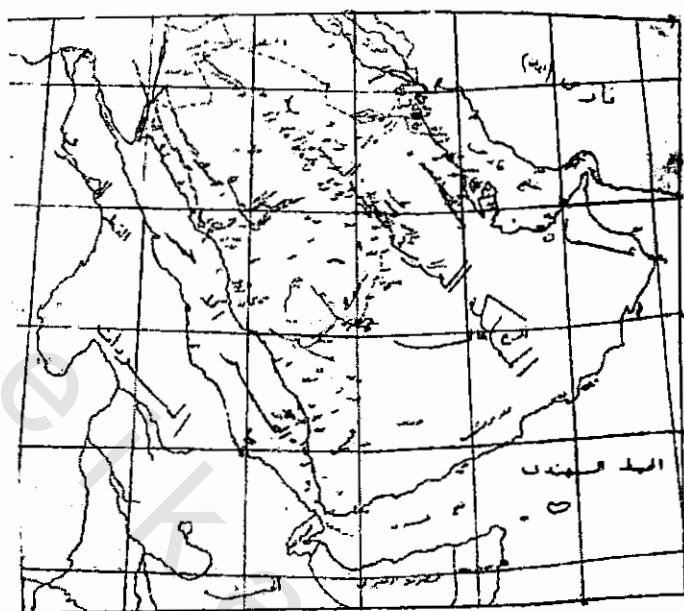
فالضرائب تؤخذ بغير انتظام حسب إرادة الملك ويرهق بها الناس. وهكذا يخرج الملك حسين من الحجاز، ولا يترك أثرًا من آثار الإصلاح فيه، كما أنه لم يستطع أن يبسط الأمن في جميع أنحاء المملكة؛ فما عدا المدن الحجازية كانت سيوف العشائر مصلته على رقاب الحجاج، لا يتركونهم يسافرون إلى المدينة إلا بعد أن يأخذوا منهم ما يرضونه عليهم من النقود. وفي سنة ١٩٢٤ رجعت قوافل الحجاج من «رابغ» لأن العشائر رفضوا أن يدفعوا ثمانية جنيهاً للملك حسين من أربعة عشر، وهي الأجرة المفروضة للجمل، وبالطبع قد ضاع ما دفعه الحجاج بين الملك حسين وبين العشائر.

على أنه مهما كانت أغلاط الملك حسين السياسية، فإن الرجل كان أفضل الأشراف المتأخرين وأقلهم ظلمًا، وأعلاهم جميعًا نفسًا وأعظمهم شخصية، فهو بلا

شك أفضل من الشريف عون الذي ضج من ظلمه كل من زار أو سكن الحجاز، وأفضل من ابن عمه الشريف علي في كثير من الصفات الشخصية، ويجب هنا أن لا نغبط الرجل حقه؛ فهو أول عربي جعل للبلاد العربية شخصية دولية وشأنًا لا ينكر في أوروبا.

والآن وقد وصلنا إلى الصراع بين العاهلين الكبيرين في الجزيرة العربية: الملك حسين والملك عبد العزيز بن سعود، وانتصار أحدهما على الآخر بعد معارك حربية وسياسية دامت سبعة عشر عامًا، نرى من الواجب علينا أن نأتي بخلاصة تاريخية وافية لحياة الملك عبد العزيز، والدور الذي لعبه في السياسة العربية؛ ولا سيما في الخمسة عشر سنة الماضية (١٩١٥-١٩٣٠).

ويجمل بنا قبل أن نأتي على حياة الملك عبد العزيز أن نذكر فصلًا تاريخيًا عن عائلة آل سعود ودورهم التاريخي، وأثرهم في الانقلاب العظيم الذي كان في القرن الثامن عشر؛ لقرب الشبه بين ما تم في عهد آل سعود وعبد العزيز الحالي.



آل سعود

آل سعود من قبيلة عنزة من فخذ المسالين، ويوجد هذا الفخذ الآن قرب حمص، وعنزة من أكثر العشائر العربية أفخاداً وبطوناً وأكبرهم عدداً، فهم منتشرون في العراق وسوريا ونجد، وهم لا يزالون يفتخرون بالملك عبد العزيز، كما أن الملك عبد العزيز يكرم الوافدين عليه منهم؛ ولا سيما من كان من المسالين، وعنزة من ربيعة.

في سنة ٨٥٠هـ^(١) قدم ربيعة بن مانع من بلدهم القديم المسمى (بالدرعية) قرب القطيف، على ابن درع صاحب حجر والجزعة قرب الرياض، وكان من عشيرته، فأعطاه ابن درع الملبىد وغصية المعروفين في الدرعية، فنزل هنالك وعمرها هو وبنوه من بعده واتسع في العمارة، وولد لمانع ربيعة وصار له شهرة واتسع ملكه، ثم موسى وصار أشهر من أبيه، وبعد موسى ابنه إبراهيم؛ وإبراهيم هذا جد مؤقرن، وسعود جد عائلة السعود.

قبل سنة ١١٥٠هـ - وهي السنة التي وفد فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح الكبير، على محمد بن سعود - لم يكن لآل سعود شأن كبير في نجد، ولم يكن لهم تأثير يذكر في شئون الجزيرة العربية؛ بل كان شأنهم شأن غيرهم من شيوخ المقاطعات النجدية، وكانت الجزيرة العربية مقسمة إلى مناطق عدة؛ لكل منطقة أمير يمتد أو يقصر نفوذه حسب كفاءته الشخصية واهله، والأمراء البارزون في ذلك أشراف الحجاز: بنو خالد حكام الأحساء، وما والاها، من المنطقة الشرقية على خليج فارس، وآل مؤقرن في العيينة، والسعدون في العراق، وإمام صنعاء في اليمن،

(١) انظر ابن بشر ويكرت.

والسادة في نجران، وسلطان في عمان. وبعد أن تعاهد الأمير محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، على تطهير جزيرة العرب من البدع والخرافات، ونشر كلمة التوحيد، دخلت نجد -أو بالأحرى الدرعية- مع سائر الإمارات الأخرى في حرب دينية دامية؛ كان النصر فيها لجيوش التوحيد ودعاة الإصلاح.

وربما كانت سنة (١١٧٨هـ - ١٧٦٥م) من أشد السنين على محمد بن سعود، فقد تحالف فيها حاكم الأحساء عرعر بن الخالدي، وحاكم نجران السيد حسن بن هبة الله، وتواعدا على الزحف على الدرعية للقضاء على مهد الدعوة الدينية، وخضد شوكة دعائهما، وقد زادت هموم محمد بن سعود عندما رأى ولده وجيشه ينكسر في الحائر بين الحرج والرياض، هذا وعرعر ومن معه من الجنود لم يصل بعد؛ غير أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب شدد من عزيمة محمد بن سعود وذكره بما وقع للنبي في غزوة أُحُد، كما أن زوجة محمد بن سعود -وكانت من الصادقات المخلصات للدعوة- كان لها أثر لا ينكر في زوجها، وقد تمكن محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب من الصلح مع صاحب نجران، وإطلاق ما تحت أيديهم من أسرى، ثم رجع صاحب نجران قبل أن تصل جنود بني خالد، ولذا فإن جموع بني خالد ومن التف حولهم من عشائر العجمان قد رجعت بعد ما وصلت قرب الدرعية.

وفي سنة (١١٧٩هـ - ١٧٦٦م) توفي الإمام محمد بن سعود، مؤسس دولة آل سعود، ومؤيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في دعوته، وتولى الأمر بعده أكبر أولاده عبد العزيز^(١)، فسار على خطة أبيه في التعاون مع الشيخ على تجديد ما اندرس من معالم الدين وإعلاء كلمة الله، كما أنه واصل غزواته على الإمارات والبلدان التي أظهرت التمرد ورفض الدعوة الدينية الجديدة، ففي سنة ١٢٠٨هـ فتح الأحساء

(١) ولد عبد العزيز سنة ١١٣٢هـ.

جيش التوحيد ففرض على بني خالد، كما أنه في سنة ١٢١٢هـ قضت هذه القوات على جيش الشريف غالب حول الخرمة، وهو أقوى خصم لهم، وقد قضت السياسة: أن تعقد هدنة بين الفريقين، ويفتح سبيل الحج للحجاج النجديين، فحج سعود لأول مرة في سنة ١٢١٤هـ، كما أنه حج في السنة التي تلتها، غير أن الهدنة انقطعت ورمى كلا الجانبين الآخر بعدم احترامه لشروطها المتفق عليها، وعلى كل حال فإن السياسة التي وضعها المصلحون النجديون هي: نشر علم التوحيد في كل جزيرة العرب، والقضاء على القوات المعارضة، حتى يسود الأمن سائر الجزيرة، وحتى تأمن الدعوة شر الانتفاض والمعارضة.

ففي سنة ١٢١٥هـ ساعد آل خليفة على استرداد الزبارة والبحرين من سلطان مسقط، وشمل آل خليفة بحمايته، ولم تأت سنة ١٢١٧هـ حتى كان سعود في جوف الحجاز، وفي ١٧ محرم سنة ١٢١٨هـ دخل سعود مكة بجيوشه بعدما أمن أهلها وبعدها أظهر العلماء قبولهم للإصلاح الجديد؛ غير أن الشريف ما لبث أن استرد مكة بعد رجوع الأمير سعود إلى الدرعية.

وفاة الإمام عبد العزيز

في ١٠ رجب سنة ١٢١٨هـ اغتال أحد الأجانب الإمام عبد العزيز وهو في الصلاة، وقد اختلف الرواة في جنسيته، ويرجح أنه من شيعة كربلاء المتعصبين، أراد الانتقام للبلدة وما أصابها وما أصاب أهلها من الأمير سعود في غزوته عليها سنة ١٢١٦هـ من هدم قبة الحسين، ومصادرة أموال المقيمين في تلك البلدة.

صفات الإمام عبد العزيز

اشتهر الإمام عبد العزيز بالتواضع، والبعد عن زخارف الحياة، لا يبالي بما يلبس ولا بما يأكل، وكانت غايته الوحيدة هي مواصلة عمل أبيه العظيم من القضاء على البدع والخرافات، ونشر دعوة التوحيد، كان شديدًا في الحق وتنفيذ أوامر الشريعة الإسلامية، لا يبالي بمن ينفذ عليه الحكم؛ فمروضاة الله عنده مقدمة على كل اعتبار.

وكان قاسيًا على قطاع الطرق والعاثين بالأمن من البادية؛ لا يكتفي بالتعزير البدني؛ بل يضيف إليه غالبًا شيئًا من المصادرة المالية: ومال البدوي هو الجمل والخيول والغنم؛ ولذا فقد ساد الأمن جميع الطرق والبلدان التي امتد نفوذه إليها.

سعود بن عبد العزيز

بويح للأمر سعود بعد وفاة أبيه ١٢١٨ هـ (١٨٣٠ م) وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أخذ له البيعة بعد أبيه في سنة ١٢٠٢ هـ؛ لأنه كان أكبر أبناء عبد العزيز سنًا، وأشدهم بأسًا، وأنفذهم بصيرة، وأكبرهم عقلًا، وأكثرهم تفانيًا في الدعوة إلى الله، وقد كان في حياة أبيه هو القائد للجيش، والفتاح لأكثر البلدان التي دانت لهم.

وقد استمر حكمه من سنة ١٢١٨ إلى ١٢٢٩ هـ، فتح فيها الحجاز كله، كما أنه واصل زحفه في الشمال إلى ضواحي دمشق، فدانت له بادية الشام والعراق، كما امتدت فتوحاته جنوبًا إلى رأس الخيمة في عمان وزبيد في اليمن.

وقد بلغت الدولة في أيامه أوجها وغايتها، إلا أن أغلاطه السياسية والإدارية أوقعت في مشاكل مع الأتراك والمصريين، وشدته المتناهية صرفت القلوب عنه، وجعلت الناس يتهزون الفرص للانتفاض عليه.

كان سعود من أحسن الرجال صورة وجلالاً، ورث عن عائلته جمال التقاطيع ووسامة الوجه، وقد كان يرخي لحيته أكثر مما اعتاده العرب، وكان العرب حتى خصومه يمتدحون شجاعته ومهارته الحربية، وكان عالماً بأصول الدين والفقه والحديث؛ حيث درس ذلك على جده لأمه الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وسعود لم يأذن قط لأولاده أن يتدخلوا في شئون الدولة؛ بل حصر ذلك في نفسه وفي ولده الأكبر عبد الله.

وكان يسكن هو وعائلته في بناء كبير خارج الدرعية؛ كان بناه أبوه على سفح الوادي، وكان كل أولاده وعائلاتهم، وكل إخوته وعائلاتهم يسكنون في هذا البناء، كل له جناح خاص به وبعائلته.

وفي هذا البناء كان سعود يستقبل مشايخ القبائل ويمد لهم الموائد، وينزل الكبار منهم فيه. أما الأشخاص الثانويون فإنه كانوا ينزلون في منازل الدرعية، وترسل إليهم التعيينات والعلوف لدوابهم. وقصر سعود كان دائماً غاصاً بالضيوف. وكان مجلس سعود مفتوح الأبواب للجميع، وكان من عادته أن يستقبل الزائرين في الصباح الباكر، وبعد الظهر ما بين الساعة الثالثة والسادسة، وكان من عادته بعد أن يتناول طعام العشاء أن يجلس بين قومه وزائريه، ويتلو أحد العلماء^(١) شيئاً من القرآن

(١) لا تزال هذه العادة متبعة في العائلة السعودية إلى وقتنا هذا.

وتفسيره أو من أحاديث النبي، وكثيرًا ما كان سعود نفسه يتولى تفسير ما يصعب تفسيره على السامع، وكان دائمًا يقول في نهاية كلامه: «والله أعلم».

وكان من طباع سعود أن تأخذه الحدة والانفعال عندما يتبين أن أحد الأعراب خدعه أو غشه؛ فيتناول عصاه ويهوي بها بنفسه عليه، ولكنه كان يعود إلى نفسه بعد قليل ويستغفر الله، وقد أصدر أمره لمن يكون حوله وقت غضبه أن يحولوا بينه وبين ضرب أي أحد من الناس، وقد كان دائمًا يحمد لهم هذا التدخل بعد أن تهدأ ثأثرته.

ولم يكن سعود ممن يحفل بالألقاب؛ فكان الناس ينادونه باسمه، أو بيا أبا عبد الله، أو: يا أبا الشوارب. كما كان هو بدوره لا يسمي الناس إلا بأسمائهم مجردة عن الألقاب.

وكان سعود في ملبسه مثل باقي الشعب لا يتميز عنهم بشيء؛ غير أنه كان أنيقًا في ملبسه ويحب التعطر دائمًا.

وكانت مصاريف سعود في الغالب على الضيوف وعلى الخيول، فإنه يقال: إنه كان لديه ما لا يقل عن ألفي فرس، وكان من هذا العدد حوالي ٣٠٠ أو ٤٠٠ دائمًا في الدرعية، والباقي في الأحساء حيث المرعى الجيد، فكانت أكرم جياذ بلاد العرب عنده؛ إما أنه يكون قد أخذها من أربابها عقابًا لهم على مخالفة ارتكبوها، أو دفعًا لغرامة استحققت عليهم، أو أنه اشتراها من أصحابها بماله الخاص، ويقال: إنه كان لا يتأخر أن يدفع خمسمائة أو ستمائة جنيه ذهبًا ثمنًا لفرس.

وأباح سعود أن يكون لكل ولد من أولاده حرس خيالة من (١٠٠ - ١٥٠) فارسًا. أما عبد الله فكان له وقت حياة أبيه أكثر من ثلاثمائة فارس تحت أمره وفي

خدمته، يضاف إلى هذا العدد كثير من الجمال أو النوق السريعة، حيث كان لدى سعود أحسن وأجود أصنافها في بلاد العرب.

وكان عدد الذين يتناولون الطعام يومياً في قصره يتراوح ما بين الأربعمئة والخمسمئة شخص: منهم خدمه وحاشيته والأضياف. وكانت أصناف الطعام هي: الأرز والبرغل والبلح واللحم، وكان سعود يأذن لأولاده الكبار ولكبار المشايخ أن يتناولوا الطعام على مائدته الخاصة.

ولم يحتفل سعود في قصره بأي عيد من الأعياد، كما يحتفل به في الأمصار، وكان يقول: إن هذه العادة لم تكن موجودة في صدر الإسلام.

والنظام الذي أوجده سعود^(١) من إلقاء مسئولية الجرائم التي تقع في منطقة على شيخ القبيلة الذي تقع هذه المنطقة تحت نفوذه، قد جعل الأمن يسود كل جزيرة العرب تقريباً، وأفرح قلوب الذين كانوا معرضين للغارات والنهب. والسكان سواء في نجد أو الحجاز أو اليمن قد استراحوا إلى نظام الحكومة السعودية، ولا سيما إذا قورنت بحالة الفوضى القديمة، وأقبل الأهالي على الزراعة؛ لأنهم أمنوا شر القبائل التي تهدد محصولاتهم.

كان سعود مشهوراً بالقسوة على المجرمين؛ سمعت مراراً من جلالة الملك أنه حبس مرة بعض شيوخ مطّير، فجاء بعض كبارهم للاستشفاع لهم، وأنس منهم روح الاعتزاز، فأمر بقطع رؤوس المسجونين، وأحضر رؤوسهم على مائدة قدمت لبني عمهم الذين جاءوا للاستشفاع فيهم، ثم أمرهم بالأكل من المائدة! وقد قص هذه الحكاية جلالة الملك عبد العزيز على شيوخ مطير الذين جاءوا للاستشفاع في

(١) وهذه السياسة هي التي اتبعها الملك عبد العزيز في سياسته الداخلية.

فوصل الدويش، ولكن جلالة الملك عبد العزيز لم تعرف عنه قسوة من هذا النوع؛ غير أن سعودًا وإن عرف بالشدة في معاقبته لمن يتجاوز حدود الشرع، فإنه كان كذلك مشهورًا بوفائه لأصدقائه المخلصين معه، فأبي شيخ يخلص الخدمة لسعود، يمكنه أن يعتمد عليه في جميع المهمات والشدائد.

وكانت ولا تزال أشد عقوبة يمكن أن تنزل بمجرم أن تحلق لحيته ويطاف به في الطرق، والعربي يفضل الموت على حلق اللحية.

فتح الحجاز

لقد فتح سعود الحجاز في أوائل سنة ١٢١٨هـ في أيام والده، وعين الشريف عبد المعين أمير على مكة من قبله، ولكن الشريف غالبًا تمكن من التغلب على القوة التي وضعت في مكة واستردها منهم ثانية، ثم استمرت الحرب سجالًا بين الفريقين حتى تمكنوا من الاستيلاء على الحجاز مرة أخرى في سنة ١٢٢٠هـ. على أن يبقى الشريف غالب في إمارة مكة من قبل سعود، وأمر الشريف غالبًا بهدم القبور في جدة، وأمر أهل جدة ومكة بالإقلاع عن شرب الدخان، ومنع بيعه في الأسواق، وأمر بمنع المنكرات والمجاهرة بها، وترك لبس الحرير والذهب وإبطال المكوس والمظالم، ومصادرات الناس في أموالهم. وعاهده الشريف غالب على ترك ذلك كله واتباع ما أمر الله به في كتابه العزيز: من إخلاص التوحيد لله وحده، واتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابه والأئمة، وترك ما حدث في الناس من الالتجاء إلى غير الله من المخلوقين الأحياء والأموات في الشدائد، وما أحدثوه من بناء القباب والزخارف وتقبييل الأعتاب، إلى غير ذلك مما جد وحدث وجعل دينًا، والدين منه براء، كما أمر الناس أن يبادروا إلى الصلاة

حين سماع الأذان، وألا يصلي في الحرم إلا جماعة واحدة، كما أمر العلماء أن يقرءوا الرسائل التي وضعها علماء الدرعية. ولقد استمر حكمهم للحجاز من سنة ١٢٢٠ إلى ١٢٢٨ هـ، وكان سعود وأهل نجد يحجون في كل سنة، ونفذ هذا النظام في المدينة أيضًا وسائر البلدان الحجازية.

لقد خضع أهل الحجاز وشريف مكة للحكم السعودي، وأصبحت مكة قطعة من الإمبراطورية السعودية، ونفذت أحكام الدين حسب الحركة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولكن كل هذا لم يكن إلا مساهمة لقوة الفاتحين.

بدء الخلاف مع المصريين والآثراك

في سنة ١٢٢٠ هـ قال الأمير سعود لأميري الحج الشامي والمصري: ما هذه العويذات التي تأتون بها وتعظمونها؟ فأخبراء بأن هذه المحامل إشارة لاجتماع الناس، وهي عادة قديمة، فقال لهم: لا تفعلوا ذلك بعد هذا العام، وإن أتيتم بها فإني أكسرها، وكذلك شرط عليهما أن لا يأتيا بطبول أو زمور، وفي السنة التي بعدها - أي سنة ١٢٢١ هـ - كتب الأمير سعود إلى أمير الحج الشامي، وكان قد وصل قرب المدينة: لا تدخل الحجاز إلا على الشرط الذي شرطناه عليك في العام الماضي، فرجعوا تلك السنة من غير حج.

ويقول العلامة ابن بشر في تاريخه، في حوادث سنة ١٢٢١ هـ: إن سعودًا حشد جيوشًا عظيمة قرب المدينة، وأمرهم أن يمنعوا الحجاج الآتين من الشام واستنبول ونواحيها، فرجع المحمل الشامي إلى وطنه، وكان أميره عبد الله باشا العظم؛ لأن سعودًا خشي من مكائد غالب، وأخرج سعود في تلك السنة من كان في مكة من

الأتراك، كما أخرج منها كل من كان فيها من العساكر التركية، وبعد حجه تلك السنة زار المدينة المنورة، فقوى حاميتها وأجلى من المدينة كل من يحاذر منه.

قال العلامة الجبرتي المؤرخ المصري: وفي سنة ١٢٢٣هـ انقطع الحج الشامي والمصري متعللين بمنع الوهابي الناس الحج، وليس الأمر كذلك، فإنه لم يمنع أحدًا أتى إلى الحج على الطريقة المشروعة؛ وإنما منع من يأتي بالبدع التي لا يميزها الشرع: مثل المحمل والطبل والزممر، وقد حج طائفة من المغاربة فلم يتعرض لهم بسوء.

أما ما رواه السيد دحلان من حرق سعود للمحمل المصري في سنة ١٢٢١هـ، وأمره أن ينادي: لا يأتي إلى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن، فلم أجد فيما كتبه النجديون ما يؤيده أو ينفيه، والذي يظهر لنا من هذه الروايات أن سعودًا لم يقبل دخول المحمل لأنه بدعة، كما أنه لم يقبل دخول العساكر التي تصاحب المحمل خشية أن تحدث حدثًا في الحجاز، وهو بعد ليس مطمئنًا، ولا يأمن جانب الشريف غالب؛ فكبر على الأتراك والمصريين هذا الأمر الذي اعتادوه مدة طويلة.

ولقد سمعت من بعض شيوخ نجد، وسمعت هذه الرواية أيضًا من جلالة الملك انتقادًا لسياسة سعود: أنه في الوقت الذي غاضب فيه الأتراك ورد حجاجهم، وكان فيه أحد بنات أو شقيقات السلطان التركي، كان يتهاذى مع شاه إيران ويتقرب منه، كما أنه انتقده أيضًا في قبول نصائح غالب التي لم تكن تنطوي على الإخلاص؛ بل كانت تنطوي على استشارة الناس ضد الحكم السعودي، وأن الشيخ عبد الرحمن بن حسن قد نصح سعودًا بعدم الإصغاء لنصائح الشريف غالب، كما نصحه أيضًا بالاعتدال في معاملة الأتراك والمصريين؛ غير أن سعودًا كما قدمنا كان شديدًا، كما أنه كان شديد التعصب لرأيه.

أمّا أهل الحجاز فقد كرهوا الحكم السعودي؛ لأنه قطع عنهم الحجاج، وحال بينهم وبين ما كان يردهم من الصدقات؛ ولذا فقد هاجر كثير منهم إلى مصر واستنبول، وشكوا للسلطان ولمحمد علي باشا ما أصابهم من الشدة والضييق بعد الاحتلال الجديد، وانقطاع ما كان مرتباً لهم من الإحسانات. أما الشريف غالب فإنه لم يقدم خضوعه للأمير سعود، ولم يبايعه على الطاعة اعتقاداً منه أو إخلاصاً له؛ بل لأنه غلب على أمره؛ ولذا فإنه ما فتى يكتب محمد علي وسلطان تركيا يستنجدهما على خلاص الحرمين الشريفين.

وفي سنة ١٢٢٢هـ صدر الأمر من السلطان سليم لمحمد علي بتوليته الحجاز ومحاربه الوهابيين؛ غير أن محمد علي لم يكن يستطيع تنفيذ الأمر فوراً؛ لأنه لم يستقر أمره بعد في مصر، ولا يزال يخشى من نفوذ المماليك.

وفي سنة ١٢٢٦هـ بدأت الحملات العسكرية من مصر؛ فاحتلت ينبع في السنة نفسها، وبالرغم من انكسار طوسون في الصفراء والقضاء على الحملة قضاء تاماً، فإن محمد علي أعاد الكرة مرة أخرى، وأخذ يستميل بالمال أمراء العربان، والشريف غالب يمهد له السبيل حتى تمكن من استرداد مكة والمدينة والطائف في سنة ١٢٢٨هـ.

ولقد سمعت من بعض كبار النجديين أن محمد علي حاول أن يعقد هدنة لمدة عشر سنوات بينه وبين سعود؛ لأن المهمة التي وكلت إليه -وهي استرداد الحجاز- قد انتهت، وليست هنالك فائدة من الحرب، ولا مطمع لمحمد علي في نجد؛ ولكن سعوداً أبى أن يعقد هدنة أو صلحاً مع محمد علي.

ويقول السيد دحلان: إنَّ سعودًا نفسه هو الذي طلب الصلح من محمد علي، وافتداء عثمان المضايقي عامله على الطائف؛ ولكن مساعي الصلح لم تتم حيث اشترط محمد علي دفع المصاريف التي صرفت على الحملة العسكرية، ورد المأخوذ من الجواهر والأموال التي كانت بالحجرة النبوية أو ثمنها، وحضور سعود بنفسه لمقابلة محمد علي، وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية، فإن محمد علي وضع خطته للقضاء على الدولة الجديدة، وقد عمل على استتباب الأمر في مكة، فقبض على الشريف غالب وأولاده وأرسلهم إلى مصر، وبذلك لم يبق له منازع في الحجاز.

وفاة الإمام سعود

وفي ربيع الثاني سنة ١٢٢٩هـ (١٨١٤م) توفي الإمام سعود بالدرعية، على إثر حمى أصيب بها. ولئن شاء القدر أن يشاهد سعود قبل موته إفلات الحجاز من يده مرة أخرى، فإن ذلك لم يفت في عضده، ولم يكن له أثر يذكر في حالة مملكته الداخلية، وذلك بفضل شخصيته الجبارة والصلابة والشدة التي عرف بها.

وبموت سعود فقدت نجد تلك الشخصية المهيبة، وبدأ التصدع يظهر شيئاً فشيئاً في أيام ولده عبد الله بن سعود.

عبد الله بن سعود

بويع لعبد الله بعد وفاة أبيه، وقد كانت الحرب مستمرة بين نجد ومحمد علي باشا، فلم يستطع أن يمسك زمام المملكة بيد من حديد، كما لم يستطع أن يدير الحرب بمهارة كما كان يديرها أبوه.

لقد افتتح عهد عبد الله بن سعود بخلافات عائلية بينه وبين عمه عبد الله، ولم يكن هو البادئ بها؛ بل إن عمه رأى نفسه أحق بالإمامة؛ لأنه ولد محمد بن سعود المؤسس الأول، ولكن هذا ليس بمبرر صحيح، فإن سعودًا تولى الإمامة في حياة أعمامه، والحقيقة أن عبد الله العم أنس لين قناة عبد الله ابن أخيه، فأراد أن يخلعه، وليست هذه الحادثة بجديدة في بلاد العرب.

تغلب عبد الله على عمه؛ غير أن التصدع قد بدأ وانحلال المملكة قد ظهر، وأخذ أعداء الحكومة السعودية من النجديين يستفيدون من الفرصة، فكاتبوا محمد علي سراً، ومحمد علي لا يترك هذه الفرصة تمر دون أن يستفيد منها.

كان عبد الله في حياة أبيه يشار إليه بالحكمة والعقل والفتنة؛ غير أنه لم يكن له من الصفات الحربية مثل أبيه.

كان عبد الله محبوباً من البادية للين عريكته؛ ولكنه كان قصير النظر في سياسته، كما أنه لم يكن له من قوة الإرادة ما يمكنه من القبض على زمام البادية، والبدو أسرع الناس إلى الانتفاض، فسقطت إمارة آل سعود على عهده، ودخل إبراهيم باشا الدرعية، وقبض على عبد الله وأرسله إلى الآستانة.

ويقول النجديون المحنكون: إن عبد الله قد أخطأ كثيراً في إدارة الحرب، وخالف طريقة والده في الحرب؛ فعبد الله كان يعتمد على منازل المصريين، والمصريون أقوى منه آلات حربية وأقدر على إدارة الفنون الحربية. أما أبوه فكان يعتمد على الحيلة الخفيفة فيناوش أعداءه بقوات صغيرة حتى يهلك قوتهم، ثم ينقض عليهم فيقضي عليهم، وهذا ما فعله في ضرب جيش طوسون باشا سنة ١٢٢٦ هـ، وفي تربة سنة

١٢٢٩هـ، ولذا فإن عبد الله لما عمد إلى مقاتلة المصريين وجهًا لوجه انكسر في تربة سنة ١٢٣٠هـ، وتبع هذا الانكسار استيلاء المصريين على القسم الجنوبي من الحجاز.

ولقد خطأ النجديون أيضًا عبد الله في قتاله مع المصريين في الدرعية، فالصحراء واسعة، والمصريون لا يستطيعون إبقاء حاميات في جميع الأراضي النجدية.

ولقد خطأ أيضًا (Burchart) عبد الله بن سعود في عقد الهدنة مع طوسون باشا سنة ١٢٣٠هـ، فإن هذه الهدنة كانت من أكبر الأسباب التي عملت على تقويض عرش آل سعود؛ لأن المصريين كانوا في أشد الظروف حرجًا: فقد كانت ذخائرهم على وشك النفاد، كما أن الجوع قد فتك بالجنود والحيوانات، فبالهدنة مكنهم من تجديد حملاتهم على الحجاز، ولو أن عبد الله تابع القتال لكان من المحقق القضاء على الحملة المصرية الصغيرة.

أسباب سقوط الدولة السعودية

١- كانت الدولة مستندة إلى القوة العسكرية أكثر من استنادها على القلوب، والدعوة الدينية لم تتمكن بعد من قلوب الناس؛ فقد كانت الثورات تشب من وقت لآخر لطرح الحكم السعودي؛ لا سيما في البلاد البعيدة عن نجد كعسير وعلان؛ ولذا فقد وجد محمد علي باشا ونفوذه المجال واسعًا في جزيرة العرب.

٢- تحرش سعود بالأتراك والمصريين بإشارة غالب ونصائحه، والأتراك أهل الخلافة ويهمهم المحافظة على لقب (خادم الحرمين الشريفين) فهل يصبرون على عربي ينزع منهم الحرمين الشريفين ويحول دون حجهم؟ إن هذا أكثر من ثورة ضدهم؛ لذلك لم يكن لهم بد من إلقاء هذا الحمل على محمد علي باشا بعد فشل

(باشا) بغداد و(باشا) الشام في تأديب هذه الفئة. ووالي مصر يهمله أيضًا بسط نفوذه في الحجاز؛ لأن ذلك يتفق مع مظامعه الواسعة، ويشهر اسمه في العالم الإسلامي.

إنني أعتقد لو أن سعودًا اقتصر في الدعوة على جزيرة العرب، وترك الحج حرًا للأتراك والمصريين، ولم يمس الناحية الحساسة في الترك، وهي السيادة على الحجاز ما اهتم الأتراك بأمره؛ فقد مكثت جزيرة العرب مدة طويلة ونار الفتنة تاكل الأخضر واليابس، بل لقد كان الحجاج الأتراك والمصريون عرضة للنهب وللقتل في كل ناحية حلوا بها في الحجاز، وكانوا يحتملون هذا ويعدون من الأعمال الطبيعية. وأي فرق في نظر الأتراك بين آل سعود والأشراف؟ الفريقان من العرب، وأفضلهم من يحتفظ بسيادة الأتراك ولو اسميًا، مع نشر الأمن والمحافظة على سلامة الحجاج، وتوفير وسائل الراحة لهم.

رأي علماء نجد

أمّا بعض علماء القصيم فيحملون تبعة ما وقع على نجد من تخريب وتدمير على أيدي الحملة المصرية آل الشيخ^(١)؛ لأنهم كانوا المسيطرين على السياسة الموحين إلى الأمراء باتباعها، فهم الذين أملوا عليهم خطة الشدة والعداء العام لسائر الناس.

أمّا آل الشيخ فيدفعون هذه التهمة عنهم طبعًا بالطعن على هذا الصنف من العلماء، وبمخالفة أهل القصيم لوالي مصر، وترغيبهم إياه لغزو نجد وتمهيدهم السبيل لذلك، وهم ينسبون ما وقع عليهم من المحن إلى الذنوب والتقصير، والله قد يتلى عباده المؤمنين بشتى المحن.

(١) يطلق آل الشيخ علي ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

أثر الدولة السعودية في نجد

مهما قيل في الدعوة الدينية الإصلاحية، ومهما قيل في الطريقة التي اتبعت في نشر هذه الدعوة، فإن هذه قد تركت في نجد أثراً عظيماً لا ينكر، وقضت قضاء تاماً على ما كان شائعاً في نجد من الخرافات، وما كان شائعاً من تعظيم القبور والنذر لها، والاعتقاد في بعض الأشجار، وأحيت معالم الشريعة بعد اندثارها، وجعلت الرجوع إليها في مختلف الشئون أساساً من أسس الحكم. أما أهل العلم والقضاة لا سيما آل الشيخ، فإنهم فوق كل اعتبار، وأصبح مقروناً اسم آل الشيخ وآل سعود بعقيدة التوحيد والدعوة الإصلاحية؛ لا سيما في إقليم العارض. أما الجهات الشمالية: القصيم وجبل شمر، فهم أقل حاسة من الجهات الجنوبية.

الدولة السعودية الثانية

بعد إبعاد عبد الله بن سعود من نجد، وسفر إبراهيم باشا إلى مصر سنة ١٢٣٤هـ رجعت إلى نجد فوضاها القديمة، وحل الفساد وقطع الطرق محل النظام والأمن. حانت الفرصة لآل سعود مرة ثانية، ولكن من يقودهم؟ اختلف آل سعود فيما بينهم على الإمارة كما طمع غيرهم أيضاً.

طمع محمد بن مشاري بن مُعَمَّر في الإمارة؛ فانتقل من العيينة إلى الدرعية، وأخذ يستميل الناس إليه، فدانت له العارض والوشم وسدير، غير أن أمر ابن معمر لم يطل؛ فإن مشاري بن سعود وصل إلى الدرعية في جمادى سنة ١٢٣٥هـ، وانتزع الأمر من ابن معمر بلا مقاومة تذكر وبإيعاز مشاري، غير أن ابن معمر قام ثانية

فاسترد الإمارة وألقى القبض على مشاري. وهنا يقوم تركي بن عبد الله فيثأر لابن عمه مشاري، فيقبض على ابن معمر وولده ويقتلها؛ جزاء تسليمها مشاري للترك.

تركي بن عبد الله
١٢٣٥-١٢٤٩هـ

هو تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، وعبد الله والد تركي ليس هو عبد الله الذي أسره إبراهيم باشا وقتله الترك، كما توهم بعض الكتاب. ويعتبر تركي المذكور منشئ الدولة الثانية لآل سعود في سنة ١٢٣٥هـ؛ لأنه منذ هذه السنة اعتبر الزعيم الساعي لاسترداد إمارة آل سعود. لقد هرب تركي هذه السنة من الرياض بعد حصار الأتراك له؛ ولكنه خرج من الرياض وهو رافع علم الثورة ضد أولئك الفاتحين؛ وقد استمر ينتقل من بلد إلى أخرى مرة مهاجماً وأخرى مدافعاً، ولسان حاله يقول ما قاله امرؤ القيس:

فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنَكَ إِنَّمَا نَحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتَ فَنُعَذِّرَا

وقد تمكن بعد محاولات من استرداد الرياض التي جعلها مقراً له ومن إخضاع نجد كلها، وفي آخر سنة ١٢٤٩هـ دبر مشاري بن عبد الرحمن بن سعود للأمير تركي مؤامرة اغتاله فيها، وأعلن نفسه أميراً على نجد؛ غير أن فيصل بن تركي الذي كان في القطيف وقت اغتيال أبيه بادر إلى الرجوع إلى الرياض؛ ليثأر لأبيه من مشاري بعد أن استعد لذلك. وفي ١١ صفر سنة ١٢٥٠هـ دخل فيصل بن تركي الرياض، وحاصر مشاري في قصره، ولم تمض بضعة أيام حتى تسلق فيصل ورجاله القصر، وقتلوا مشاري ومن ساعده على تدبير المؤامرة لاغتيال أبيه، وأعلن فيصل نفسه إماماً وحاكماً على نجد.

فيصل بن تركي سنة ١٢٥٠-١٢٥٤هـ

ألقي القبض على الأمير فيصل فيمن ألقى القبض عليهم في الدرعية من آل سعود وآل الشيخ، وبقي في مضر من سنة ١٢٣٤-١٢٤٢هـ؛ حيث فرّ من مصر، ووفد على والده في تلك السنة، وشارك والده في كثير من غزواته وحملاته ضد المغتصبين تارة، وضد بعض أمراء آل سعود الذين رأوا الفرصة سانحة للإمارة أيضاً.

كان فيصل من أعظم الأمراء همة وشجاعة، كما كان من أتقى آل سعود وأكثرهم حمية وغيره على الدين والقومية.

لم يمكن مشاري بن عبد الرحمن بن سعود من الإمارة، وقد صعد إليها باغتيال تركي والد فيصل؛ بل ركب متن الخطر، وهل للإمارة في بلاد العرب غير طريق المخاطرة؟ فأسقطه بسرعة وقتله وقتل من عاونه. تسلم فيصل عرش الإمارة الشائك، فلم يجد من كثير من الأمراء إخلاصاً وخضوعاً؛ أما بعضهم فيفضل الاستقلال حتى يتحكم في الناس، ويتسع المجال لهواه ومطامعه، وبعضهم يخاف من بطش المصريين والأتراك؛ غير أن فيصلًا كان كجده محمد بن سعود لينًا لمن ينفعه اللين، شديدًا على من لا يصلحه غير الشدة، شمر فيصل عن ساعد الجد حتى أخضع أكثر البلاد العربية؛ ما عدا الحجاز طبعًا، وأعاد عهد النظام والأمن في البلاد العربية بعد أن سادت فيها الفوضى وانتشر الفساد.

لقد هال الأتراك ومحمد علي أمر نجد مرة أخرى، وخوفهم أن يعود الأمر لآل سعود كما كان، فأرسلوا حملة عسكرية ومعها خالد بن سعود، فأصبحت الحرب

أهلية بين آل سعود؛ غير أن أهل نجد لا سيما الجنوبيين كانوا يميلون إلى فيصل؛ لأنه لم يستعن بأحد من الأتراك، وصرحوا لخالد بأنه إذا كان يريد منهم الطاعة فهم مطيعون، أما إذا كان يريد الطاعة للأتراك فهم لا يحبون الأتراك، ولا يريدون الخضوع لهم. وقد استمرت الحرب الأهلية بين خالد ومعه جنود محمد علي ومن تبعهم من النجديين، وبين فيصل بن تركي والنجديين الصميمين من جهة أخرى، وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين؛ وأخيراً رأى ولاية الأمور - المصريين والأتراك - أن يضعوا آخر حد لفیصل بن تركي الذي يرمي إلى إعادة حكومة سعودية مستقلة لا تتأثر بالنفوذ التركي أو المصري، فوكلوا هذا إلى خورشيد باشا الذي أوفد إلى نجد سنة ١٢٥٤هـ بحملة عسكرية للقضاء على فيصل، ووصل خورشيد باشا إلى الرياض في رجب من السنة المذكورة، فانضم إليه خالد بن سعود وساروا جميعاً إلى فيصل الذي كان في ذلك الوقت في الدلم من إقليم الخرج، وبعد معارك دامية رأى فيصل أن ليس له قدرة على مقاومة المصريين، فاستسلم له فأرسله خورشيد باشا مع أخيه جلوي وولديه - عبد الله ومحمد - إلى مصر.

وقد بقي الإمام فيصل في مصر من سنة ١٢٥٤ إلى سنة ١٢٥٩هـ، كانت نجد تخوض فيها فتنة أهلية بين خالد بن سعود، وبين عبد الله بن ثنيان، الذي يريد استخلاص نجد من قوات الأتراك، استتب الأمر فيها لعبد الله بن ثنيان؛ وهرب أخيراً خالد بن سعود من الرياض إلى الأحساء، فالقطيف، فالكويت، فمكة حيث توفي بها.

فيصل

من سنة ١٢٥٩-١٢٨١هـ

تمكن الإمام فيصل بن تركي من الفرار من مصر مرة ثانية، ويقال: إنه تمكن من ذلك بمساعدة عباس باشا الأول؛ فإنه كان معجباً به وبعقله، فذابت قوة ابن ثنيان، وأسلم له سائر الرؤساء، وتمكن بعد مدة قصيرة من استعادة المملكة القديمة ما عدا الحجاز، وقد ساعده على ذلك أولاً انسحاب الجيوش المصرية من البلاد العربية، وزوال نفوذهم من تلك البلاد نتيجة لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠م، وثانياً مسلك الحكمة والتبصر الذي اتبعه الإمام فيصل مع الأتراك الذين اكتفوا بسيادتهم الاسمية على بلاد العرب، وبذلك عادت الطمأنينة إلى قلوب السكان، وشمل الأمن الطرق والبلاد التي بسط فيها فيصل سلطانه ونفوذه.

صفات فيصل بن تركي

كان الإمام فيصل قصير القامة، يميل إلى السمن، متوقد الذكاء، كثير التواضع، يميل إلى العدل، شديداً على عماله إذا رأى منهم انحرافاً عن الخطّة التي رسمها لهم، وكان في أخريات أيامه شديد العطف على الأيتام؛ بنى لهم في الرياض داراً خاصة لهم، وكان يتفقدهم بنفسه ويكرم مثواهم، ويواسيهم بكلماته الرقيقة، وقد أخبرني المرحوم الشيخ عيسى بن علي أنه مرّ بالرياض في حجه سنة (١٢٧٨-١٨٦١م) فرأى الإمام فيصلاً يزور دار الأيتام، ورآه مرة يبكي حينما قال له أحد المتخاصمين: خف الله يا محفوظ. وتمتعت نجد في أيامه بسعادة ورخاء عظيمين.

وقد زار الرياض الرحالة «بلجريف»، فوصف بلاط فيصل وما يسوده من الجاسوسية والإشاعات، كما وصف الإمام فيصل بالضعف في آخر أيامه وسيادة عبد الله ولده في خارج القصر، ومحبوب -عتيق تركي والد فيصل- في داخل القصر، كما وصف سلطة الشيخ عبد اللطيف حفيد الشيخ محمد عبد الوهاب، وأنها تأتي بعد فيصل مباشرة، وذكر أيضًا المنافسة بين عبد الله بن فيصل وسعود بن فيصل حتى اضطر فيصل إلى تعيين ولده سعود أميرًا على اليمامة والخرج؛ دفعًا للاحتكاك والمنافرة بين الولدين، وأن أهل الدين المتعصين يرون في عبد الله الزعيم، كما أن فريق المعتدلين المتسامحين يرون في سعود الزعيم البصير العاقل.

إن فيصلًا وأكثر أهل نجد يكرهون الأجانب من كل قلوبهم، ويسيتون بهم الظنون، وهم لا يلامون على هذا فقد ذاقوا من المصريين والأتراك ومن جيوشهم الأمرين، وقد ذاق فيصل نفسه الشيء الكثير منهم في الحبس والإبعاد؛ ولذا فإنه يرصد العيون على كل أجنبي قادم ولا يترك له المجال للإقامة في الرياض؛ ولكنه في الوقت نفسه كان واسع الصدر مع المسلمين غير النجديين الذين فضلوا الإقامة في بلاده؛ حيث وجدوها وطنًا صالحًا لتعاليم الإسلام الصحيحة، كما ذكر بلجريف نفسه إكرامهم لبعض الهنود؛ ولهذا السبب لم يجد بلجريف صدرًا واسعًا لإقامته، ووجد العيون تبث حوله.

وقد نشطت الدعوة النجدية في أيام الإمام فيصل بعد ما أصيبت بالجمود في أيام حملات المصريين؛ غير أن هذه الدعوة سواء كانت سلمية أو حربية، لم تخرج عن دائرة نجد والأحساء وعمان وقطر وعسير. أما الحجاز والعراق وسوريا فلم يشأ فيصل أن يدخل معها في نزاع جديد؛ لأنه رأى سلامته وسلامة بلاده في حفظ صلات المودة مع الأتراك.

واعتراف الإمام بسيادة الأتراك الاسمية لم يمنعه سنة ١٨٦٢م من مفاوضة بيلى المقيم السياسي في بوشهر، باسم الحكومة البريطانية لتوطيد صلات المودة والصداقة بين البلدين.

أمّا المملكة السعودية في أيام فيصل فقد كانت حدودها حسب وصف بيلى^(١) من الشمال خط يمتد من جوف العامر إلى قرب الكويت مباشرة عند نهايتها الشرقية، ومن الجنوب تحد نجد بالربع الخالي أو الصحراء الكبرى، ومن وادي الدواسر من نهايته الغربية إلى نقطة غير معينة في الصحراء في اتجاه الخليج الفارسي، ومن الشرق تنحدر حدود نجد إلى الخليج الفارسي إلى الكويت في طرفها الشمالي، فنازلاً إلى أبي ظبي، وبعد أن يمر خط الحدود إلى الداخل قليلاً حتى يصل إلى برّيمي ينحني خط الحدود نحو الجنوب الشرقي، ويمتد وراء تلال مسقط وعمان، ومن الغرب خط يمتد تقريباً من الشمال والجنوب بين الحجاز من جهة، ووادي الدواسر من جهة أخرى؛ بحيث يقع وادي الدواسر في نهاية الطرف الجنوبي لهذه الحدود. فهذه الجهات كان سكانها ورؤساؤها يخضعون فعلاً للإمام فيصل. وهنالك جهات أخرى كان يكتفي منها الإمام فيصل بضريبة سنوية علامة على الخضوع، فأمر البحرين كان يدفع أربعة آلاف ريال، وسلطان مسقط ستة آلاف، ورئيس ساحل عمان من رأس الخيمة إلى أبي ظبي ١٢ ألف ريال.

(١) محاضرة الكولونيل بيلى في الجمعية الملكية الجغرافية سنة ١٨٦٥م.

وفاة الإمام فيصل

في سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٦م) توفي الإمام فيصل، ففقدت نجد بموته شخصية عظيمة كان لها أثرها في جمع الكلمة، تلك الشخصية الحكيمة التي كان لها الفضل في إحياء النظام، والقضاء على الفوضى، وسيادة الأمن والقانون.

وبموت الإمام فيصل أوجد التنافس بين ولديه عبد الله وسعود سبيلاً لأعدائهما، فاستفادوا من مقاتلة الأخوين؛ حتى انتهى الأمر أخيراً بالقضاء على إمارة آل سعود مرة أخرى.

الحرب الأهلية بين عبد الله وسعود

كان التنافر بين الأخوين معروفاً منذ أيام فيصل، ولكن الإمام فيصلاً أراد وضع حد لهذه المنافسة، فجعل ولاية العهد لولده الأكبر عبد الله، وأطلق يده في كثير من الأحوال، وكان عبد الله معروفاً بالكرم والتقوى، وكان معروفاً بالتعصب الديني، وهو يرى نفسه الوارث الشرعي للإمارة.

أما سعود فكانت شخصيته تختلف تمام الاختلاف عن شخصية أخيه عبد الله: كان طويلاً كأخواله بني خالد، وكان يميل إلى الاعتدال والتسامح. وهذه الصفات ربما كانت محبوبة لدى البدو أكثر. يقول عارفو عبد الله بن سعود: إن الرجل كان طيب القلب شجاعاً؛ ولكنه أسند الأمور إلى غير أهلها، وأطلق يد موظفيه، وبعضهم ليسوا من العائلات المعروفة فعاملوا رؤساء البلدان والقبائل بغير ما

اعتادوه في أيام فيصل، من كرم الضيافة والرعاية، ولا شيء أسوأ أثراً في نفس العربي من سوء المعاملة، كما لا شيء يحدث أحسن الأثر أكثر من الإكرام وطلاقة الوجه، ولقد سمعت كثيراً جلالة الملك عبد العزيز ينصح أولاده بعدم الركون إلى الخدم وبعض الموظفين، وتصفح الشئون العامة بأنفسهم، وكثيراً ما يضرب المثل بعمه عبد الله بن فيصل، وركونه إلى خدمه الذين أسوء إلى الناس، فانصرفت قلوب الناس عنه وانفضوا من حوله، وعلى كل حال فإن الخصومة بين الأخوين أخذت تزداد، وأخذ كل فريق يجمع أنصاره حتى ينازل خصمه ويتغلب عليه، وقد بدأت أجزاء المملكة في الانحلال؛ فإن القسم الشمالي من نجد أصبح تحت نفوذ آل رشيد، ولم تبق لآل سعود إلا سلطة اسمية، ولم يبق على ولاء مع آل سعود إلا الرياض والخرج وبعض الأقسام الجنوبية.

ترك سعود الرياض بعد وفاة أبيه، وأخذ يبحث عن أنصار له؛ فوجد في العجمان أنصاراً أقوياء، والعجمان وبنو خالد كانوا أصحاب النفوذ في إقليم الأحساء، وقضى فيصل وأسلافه على نفوذهم في تلك البقاع، وها هي الفرصة سانحة لاسترداد نفوذهم فهل يتركونها تفلت من أيديهم.

تحالف رَا كان بن جثليل زعيم العجمان مع ابن خليفة حاكم البحرين، يساعدهم قبائل آل مرة، وتقدموا على الهفوف (عاصمة الأحساء)، وكان فيها أحمد السديري، حاكماً من قبل عبد الله بن فيصل فحاصروه فيها، وأخذ عبد الله بمساعدة أخيه محمد بن فيصل يجمع القوات لضرب خصومه، وفك حصار عامله؛ ولكن لبعد المسافات بين البلدان لم يتمكن عبد الله من حشد عدد كبير من المحاربين؛ ولذلك أسرع بقوة صغيرة لنجدة البلد المحاصر، وقد بقي حاكم المدينة محاصراً عدة أسابيع، ولكن سلمها لهم لما هددوه بإتلاف البساتين، وقد علم عبد الله بسقوط

الهفوف وهو في منتصف الطريق من الرياض إليها، فقرر الانتقام والأخذ بالشار فوراً، فقسّم قوته إلى عدة سرايا، وأمرهم أن يجردوا السير من طرق مختلفة إلى الماء المسمى جُودة، حيث كانت تعسكر قوة العدو الرئيسية، وحيث تتقابل كل هذه السرايا في ليلة معينة، فيأخذوا العدو على غرة قبيل شروق الشمس؛ غير أن خصومه الذين كانوا يحتلون منازل المياه على مسافات واسعة بددوا هذه الفرق الصغيرة، وقتلوا أكثر من ألفي مقاتل من محاربي عبد الله المخلصين.

أمّا سعود فإنه سارع وأتباعه لاحتلال الرياض عاصمة ملك عائلته، فدخلها في نهاية سنة ١٨٧٠م واستولى عليها وأقام نفسه حاكماً عليها، وقد حاولت بعض المدن وأهمها البصرة أن تقاوم سعوداً، ولكن عبد الله هُزم هناك مرة أخرى، وبعدها لم يستطع الإقامة في بلاد أجداده، فحمل خزائنه ونفائسه على مائة بعير، وصار يتنقل من ناحية لأخرى لعله يجد نصيراً أو مساعداً، فتوجه أولاً إلى زامل السليم حاكم عنيزة، ولكن خوفه من بطش سعود جعله يوعز إلى عبد الله بالرحيل عن بلاده، فتوجه عبد الله إلى محمد بن الرشيد في حائل، غير أنه لم يجد صدراً رحباً منه، فرحل إلى سلطان الدويش (والد فيصل الدويش المعروف) وعساف أبوثنين رئيسي مطير وسبيع، وكانا يحنقان على حاكم الرياض سعود ويسعيان لإضعاف نفوذه.

وأراد عبد الله أن يسعى من جهة أخرى لإضعاف نفوذ أخيه سعود، فأرسل عبد العزيز بن بطين إلى مدحت باشا والي بغداد؛ ليستمد منه المعونة ضد أخيه، فوجد مدحت باشا الفرصة سانحة للاستيلاء على الأحساء وسائر البلاد التي كانت خاضعة لتركيا قبل دولة آل سعود، فاستعان على غرضه هذا بناصر باشا السعدون رئيس قبيلة المُتَفِق، وعبد الله بن صباح حاكم الكويت، وبمساعدة هؤلاء وبني خالد أنصار عبد الله احتلت القوة التركية الأحساء، وأطلقوا عليها ولاية نجد.

وقد تحقق عبد الله الذي كان يحسد أخاه سعودًا على ولاية الأحساء، أنها قد خرجت من أيديها جميعًا.

أمّا سعود فقد بدأت القلوب تنصرف عنه بسبب الفظائع التي ارتكبها أنصاره وأصهاره العجمان، فاجتمع أهل الرياض تحت قيادة عمه عبد الله بن تركي، وطرده من الرياض سنة ١٨٧١ م، فوجد عبد الله بن فيصل المقيم في الأحساء الفرصة سانحة، فترك الأحساء ودخل الرياض بدون مقاومة، ولكن سعودًا لم يهن عزمه، فجمع أنصاره وأصدقاءه الدواسر، ونازل أخاه عبد الله في الجُرْعَة وضربه ضربة شديدة، ودخل الرياض ظافرًا.

أراد سعود أن يسترد الأحساء من الأتراك بعد أن أضاعها أخوه عبد الله، فرأى البدء في مفاوضات مع الأتراك لحل هذه المشكلة، فأرسل أخاه عبد الرحمن والد الملك عبد العزيز إلى بغداد، فأقام عبد الرحمن بن فيصل في بغداد أربع سنوات دون أن يصل إلى نتيجة، وأتى له ذلك والأتراك يرونون يبصرهم إلى داخل الجزيرة.

ترك عبد الرحمن بن فيصل بغداد سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م) مصرًا على الاستيلاء على الأحساء بالقوة، بعد أن فشلت المفاوضات السياسية، فنزل إلى بادية الأحساء واستحثها على قتال الترك، فاجتمع حوله العجمان، فهاجموا الأحساء واستولوا عليها ماعدا الكويت (القلعة) ولكن الأتراك بمساعدة بني خالد هزموا عبد الرحمن والعجمان وطرده من الأماكن التي احتلها، فرحل عبد الرحمن إلى الرياض، وأخبر أخاه سعودًا بما مني به من الفشل في محاولاته السياسية والحربية. ولم يكن حظ سعود نفسه بأسعد من حظ أخيه عبد الرحمن؛ فإن مُسلط بن ربيعان من رؤساء عتيبة حينما أنس الضعف من سعود، وما مني به في الأحساء أخذ ينهب الجانب الغربي من الرياض، وأخيرًا حينما خرج سعود لغزو عتيبة أحاط به أعداؤه في واد ضيق، وقتلوا

أكثر أنصاره، وجرح هو نفسه جرحاً بليغاً، وقد نقله عبيده إلى الرياض؛ فبقي بها مريضاً حتى مات في صيف سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م).

فبايع أهل الرياض أخاه عبد الرحمن بن فيصل إماماً لهم وحاكماً عليهم، ومضى على ذلك نحو سنة، غير أن عبد الله بن فيصل عزَّ عليه أن يرى أخاه الأصغر حاكماً في الرياض، وهو طريد من عشيرة إلى أخرى، فدخل الرياض وأعلن نفسه إماماً وحاكماً عليها، فرأى أخوه عبد الرحمن أن يضع حداً للفتن الداخلية، فتنازل عن الإمارة وبايع أخاه عليها، غير أن هذا الحكم لم يدم طويلاً؛ فإن خصومه وأعداءه من أبناء أخيه سعود تمكنوا من القبض عليه وحبسه سنة ١٨٨٧ م، فأسرع محمد بن رشيد حاكم حائل إلى مساعدته، فضرب أعداءه وفك أسرَه وأخذه معه إلى حائل، وأقام في الرياض عاملاً من قبله بجانب عبد الرحمن بن فيصل، ثم مالبت أن استقدم عبد الرحمن إلى حائل ليقيم مع أخيه عبد الله.

ومن ذلك الوقت أخذ نجم آل سعود في الأفول، وأصبحت الكلمة العليا في نجد لآل رشيد عمال السعود بالأمس، فأخذوا يسطون نفوذهم على سائر الأنحاء النجدية. وشخصية محمد بن رشيد زعيم الرشيد، قد ساعدت على ذلك أتم مساعدة، فقد اشتهر الرجل بالكرم، ولين الجانب، وكبر العقل، وحبه للسلم؛ فدانت له العشائر كلها راضية أو مكرهة.

وقد رأى أن يملك قلوب أهل الجنوب، فأذن في سنة ١٨٩٠ م لعبد الله بن فيصل بسكنى الرياض بالنظر إلى تقدمه في السن، واشتداد المرض عليه، وأذن لأخيه عبد الرحمن أن يصحبه، وأن يسكن الرياض أيضاً، غير أن المنية لم تمهل عبد الله بن فيصل، فمات بعد وصوله إلى الرياض بيوم واحد.

أما الإمام عبد الرحمن فقد كبر عليه أن يعيش في الرياض - بلد آبائه وأجداده - بعيداً عن النفوذ، يرى بعينه عامل ابن الرشيد هو السيد المطاع، وكان عامل الرشيد من جهة أخرى لا يسير نحو آل سعود من الإكرام، وحسن المعاملة بما ينسبهم تراثهم الزائل، فقام عبد الرحمن بن فيصل يشد أزره أهل الرياض والموالون لآل سعود، وقبضوا على عامل محمد بن الرشيد وبايعوا الإمام عبد الرحمن بالإمامة، فجهز محمد بن الرشيد جيشاً حاصر به الرياض؛ ولكنه لم يتمكن من دخولها فصالحه أهلها على أن يترك لعبد الرحمن الإمارة، وهم يطلقون عامله المدعو ابن سَبَّهَان.

غير أن الأمير عبد الرحمن الذي أصبح تحت رحمة الرشيد، والذي لم تتعد سلطته الرياض وما حولها، كبر عليه أن يرى من كانوا بالأمس عمالاً من قبلهم لهم هذا النفوذ العظيم، وكذلك أهل القصيم كبر عليهم أن يروا حاكم حایل يتمتع بهذا السلطان، وليس أقدم منهم بيتاً، ولا أكرم حساباً أو نسباً، ولكن القوة هي التي أملت عليهم الخضوع والاستسلام.

كانت فكرة أهل القصيم وفكرة الأمير عبد الرحمن ترمي إلى غرض واحد، فاتفقوا على مبايعته ومباغته محمد الرشيد في حایل، وضربه ضربة تضعف سلطته وتقلل من نفوذه، ولكن محمد الرشيد لم تكن عينه غافلة عما يكيد له خصومه في الخلفاء؛ فإنه ما كاد يعلم بأن خصومه أخذوا يتأهبون، حتى باغتهم بقواته في عنيزة، وانقض عليهم فمزقهم شرمزق. وقد قتل في هذه المعركة زامل آل سليم حاكم عنيزة وابن مَهْنَأ حاكم بريدة، وتعرف هذه الواقعة بواقعة المَلَيْدَة.

ومنذ سنة ١٨٩١م وهي السنة التي كسر فيها محمد الرشيد خصومه، أصبح السيد المطاع في نجد، وإن كان لا يزال يعاني بعض الصعاب في جميع الضرائب من الأقاليم الجنوبية.

أمّا عبد الرحمن بن فيصل فقد نقل أهله من الرياض إلى آل مرة قرب الأحساء، ومكث لديهم نحو سبعة أشهر، ثم هجم على الرياض فاستخلصها من الرشيد هي وسائر إقليم العارض، ولكن ابن الرشيد جهز جيشاً عظيماً التقى بجيش عبد الرحمن بحر يملأ، ففُضي عليه القضاء الأخير، فأيقن عبد الرحمن أن الأمر فوق مقدوره، فترك نجداً إلى الأحساء فالقطيف فالكويت؛ حيث ألقى عصا التسيار فيها منتهزاً الفرصة وما تأتي به المقادير.

فأقام ابن الرشيد محمد بن فيصل أخا الإمام عبد الرحمن حاكماً على الرياض، وقد كان معتقلاً في حائل، أما عبد الرحمن الذي اختار الإقامة في الكويت في سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م)، فأخذ يقيم العراقيين في وجه ابن الرشيد، وأوغر صدر الأتراك عليه في بغداد والأحساء، كما ساءت العلاقات بينه وبين حاكم الكويت أيضاً، فأخذ ابن الرشيد في تجهيز حملة لفتح الكويت المنفذ الطبيعي لنجد سنة ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م)، ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل بعد أن كبده خسائر فادحة في المال والرجال، كما أنها وسعت هوة الخلاف بين الكويت وحائل.

الدور الثالث لآل سعود

لقد كتب القدر أن يرى عبد الرحمن بن فيصل مجد أبيه، ويرى مأساة الخلاف بين أخويه عبد الله وسعود، تلك المأساة التي انتهت بانسحابه إلى الكويت يعيش فيها ضيقاً غريباً بعد أن كان أميراً مهيب الجانب، ولكن الله الذي أعد للصابرين أجرهم عوض عبد الرحمن بن فيصل خيراً، فأراه قبل موته راية ولده عبد العزيز ترفرف لا على مملكة الإمام فيصل فحسب؛ بل على مملكة الحجاز أيضاً.

في آخر سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٧م) اغتال الشيخ مبارك بن صباح أخويه الشيخ محمد والشيخ جراح لخلاف بينهما، وتبوأ عرش الكويت، ثم استكتب أعيان الكويت عريضة يتهم فيها الشيخ يوسف بن إبراهيم بقتل أخويه، وأرسل عريضة إلى والي البصرة فاطلع الشيخ يوسف بن إبراهيم على العريضة، وقد كان خارج الكويت في الصيد، فقرر هجر الكويت واتخذ الدَّوْرَة وهي من أملاكه الواسعة قرب مصب نهر شط العرب. وحاول مبارك في الوقت نفسه أن يغري الشيخ يوسف بالقدوم إلى الكويت، أو أن يقبض الأتراك عليه فلم يفلح؛ لأن يوسف بن إبراهيم لم يأمن كيد مبارك.

لجأ أولاد محمد الصباح وجراح إلى يوسف خشية من عمهم، وهو يعتبر كخال لهم، واستجاروا به وطلبوا منه الأخذ بثأر أبيهم، فبدأ الخلاف الخطر بين بيت آل إبراهيم يعاونه قسم من أهالي الكويت، وبعض عائلة الصباح وبين الشيخ مبارك.

لقد حاول الشيخ يوسف أن يهجم على الكويت فيأخذها عنوة، فجهز حملة بحرية في بعض شواطئ إيران وملأ السفن بالمقاتلة، ولكن الحظ خدم مباركاً بوقوفه على المؤامرة قبل وصول السفن إلى الكويت بيوم واحد، فرجعت الحملة خائبة حينما رأت أن أمرها قد انكشف، وأخيراً لجأ الشيخ يوسف إلى الأتراك وابن الرشيد، وهنالك بذل الذهب وبين للجميع سهولة الاستيلاء على الكويت. وكان نتيجة هذه المحاولات إعلان الحماية البريطانية على الكويت، حينما أرسل الأتراك سفينة حربية صغيرة لنقل شيخ الكويت إلى استنبول؛ لأنه عُيِّن عضواً في مجلس الشورى، فلم يقف البريطانيون مكتوفي اليدين، فأعلنوا حمايتهم وهددوا السفينة بإطلاق النار عليهم إن لم تنسحب، فانسحبت حالاً، وقد أخبرني الشيخ مبارك والسيد رجب النقيب بقصة إعلان الحماية البريطانية على الكويت، وسنذكرها في مذكراتنا إن شاء الله.

وقد ازدادت العداوة بين حاكم الكويت وعبد العزيز آل رشيد، ويوسف بن إبراهيم يذكي نار الخلاف، وفي سنة ١٣١٨ هـ (يناير سنة ١٩٠١ م)، وصلت إلى عبد العزيز بن رشيد أسلحة كثيرة من الأتراك، فاستغلها في حملة ضد مبارك الذي كان يتقدم للغزو بمساعدة بعض العشائر التي تميل إلى ابن سعود، وبعض القبائل الجنوبية التي كانت ترغب في الخلاص من حكم الرشيد، فاصطدمت قوات الطرفين في الصّريف - الماء المعروف في القصيم - وانقضت قوات ابن الرشيد على قوات ابن صباح ومزقتهم شر ممزق، وفر مبارك إلى الكويت لا يلوي على شيء، وقد أصيب أهل الكويت في هذه الواقعة بمصيبة لا يزالون يذكرونها، فلم يكذب بيت من بيوت الكويت يخلو من قتيل، غير أن هذه الواقعة أثبتت أن عبد العزيز الرشيد كان سفاحاً لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً؛ فإن أكثر من قتلوا لم يقتلوا في المعركة؛ بل قتلوا بعد ما سلموا سلاحهم، وقد سقنا هذه القصة هنا وإن كانت ألصق بتاريخ الكويت؛ لما لها من العلاقة الوثيقة في تاريخ نجد الحديث.

عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود

في الوقت الذي هاجر فيه الأمير عبد الرحمن بن فيصل إلى الكويت، كانت سن ولده عبد العزيز (الملك عبد العزيز الآن) لا تزيد عن اثنتي عشرة سنة، فهو لم يشاهد مجد جده فيصل؛ بل شاهد محنة أبيه عبد الرحمن وعائلته.

لقد ذاق عبد العزيز مرارة العيش في الكويت، ولم يحتمل أن يعيش تلك الحياة الهادئة، وقد كبر على نفسه أن يعيش تحت جناح الشيخ مبارك بعد ما كانوا بالأمس سادة نجد، فقرر أن يخاطر: فإما أن يفوز فيكون قد أدى واجبه نحو نفسه ونحو عائلته، وإما أن يموت فيستريح من عذاب الضمير.

بدأ الأمير عبد العزيز مخاطرته بالحملة على الرياض لبعدها عن مركز قوة ابن الرشيد، ولما فيها وفي بلاد الجنوب من الأنصار والمخلصين لعائلة آل سعود.

خرج عبد العزيز بن سعود من الكويت سنة (١٣١٩هـ - ١٩٠١م) ومعه أربعون رجلاً كلهم من آل سعود والموالين لهم، وكانت خطة ابن سعود أولاً ترمي إلى ضرب العشائر التابعة لابن الرشيد حتى يلتف حوله رؤساء البدو، وبالفعل فإنه نجح في ذلك حتى بلغ جيشه ألفاً وقرسائه نحو ٤٠٠، واتخذ هدفه نجداً الجنوبية.

شكا ابن الرشيد للدولة العثمانية من هذا العدو الصغير، وكتب لقاسم بن ثاني - أمير قطر - يجرضه عليه، فمنعت الدولة ابن السعود أن يُمَوَّن من الأحساء، وقطعت راتب والده، وانفض البدو من حوله، ولم يبق حوله إلا الأربعون رجلاً الذين خرجوا من الكويت وتحالفوا معه على الحياة أو الموت.

كتب له الشيخ مبارك ووالده بالرجوع؛ إذ لا قبل له بمنأوة الدولة العثمانية وابن الرشيد؛ ولكن ابن سعود كان يحاول ملكاً، فإما أن يصل إليه أو يموت.



صورة تاريخية لحالة الملك ابن السعود مع الشيخ مبارك صباح الكويت

أراد عبد العزيز أن يضرب ضربته الأخيرة فسار بجماعته الأوفياء، وقد التف حولهم عشرون رجلاً، فوصل إلى حدود الرياض أول الليل، فترك من قومه هنالك عشرين رجلاً على مسافة ساعتين من الرياض، وتقدم بالأربعين الآخرين، فلما وصل الشمسية -وهي بساتين خارج الرياض- ترك من جماعته ثلاثين على رأسهم أخوه محمد بن عبد الرحمن، ثم تسلق سور البلد، ولكنه ماذا يصنع في هذا الليل البهيم وكيف يقضي ليلته؟

طرق باب البيت المجاور لقصر عامل ابن الرشيد المدعو عجلان.

- من الطارق؟

عبد العزيز بن سعود مجيباً: رجل من خدام الأمير عجلان يريد زوجك لغرض.

المرأة: اذهب لا بارك الله فيك، ما جئت إلا لتبغي النساء، وهل يطرق باب الناس في الليل إلا فاسد.

عبد العزيز: لا والله يا خالة ما جئت لهذا؛ ولكنني أخشى على زوجك من القتل غدًا إذا لم يلب نداء الأمير حالًا.

سمع الرجل التهديد فخرج ليرى جليلة الخبر، وكان ابن السعود يعرفه جيدًا ويعرف نساءه، ومنهن من كن في خدمة بيوت آل سعود، فلما خرج أمسكه وقال: اسكت وإلا قتلتك في الحال، ثم دخل البيت فلما رآه النساء صحن: عمنا عبد العزيز. فقال: اسكتن ولا بأس عليكن. ثم جمعهن جميعًا في غرفة وأغلق عليهن الباب جميعًا، ثم تسلق الجدار إلى البيت المجاور للحصن، فوجد اثنين نائمين فلفهما في فراشهما بهدوء، ثم أدخلهما في إحدى الغرف وأغلق عليهما الباب، ولما اطمأن باله أرسل إلى أخيه محمد من الخارج ومن معه، فجاءوا إليه دون أن يشعر بهم أحد.

كان البيع المجاور للبيت الذي هو فيه أحد بيوت عجلان عامل ابن الرشيد، وكان عجلان يزوره نهارًا وأحيانًا في الليل، فمشى عبد العزيز ومعه عشرة من رجاله فدخلوا البيت، ثم فتشوا غرفة واحدة واحدة، فوجد اثنين نائمين على فراش واحد ظنهما ابن سعود عجلان وزوجته، فدنا منهما عبد العزيز ليتحقق من شخصيتهما على ضوء سراج كان يحمله أحد الخدم، فوجدتهما زوجة عجلان وأختها.

عرفت المرأة عبد العزيز فسألته: أنت عبد العزيز؟ فأجابها: نعم! أنا هو...!

- من تبغي؟ ومأربك هنا؟ فأجابها: أريد عجلان لا سواه. فقالت: يا بني، لا تغرر بنفسك، انج بنفسك في هذا الليل وإلا قتلوك.

عبد العزيز: ما جئنا لنسمع منك نصيحة؛ ولكن نريد أن نعرف متى يخرج عجلان من القصر الداخلي.

زوجة عجلان: بعد شروق الشمس بساعة.

عبد العزيز: هذا كل ما نريد، وإنكن إذا لزمتم السكوت والسكون فلا بأس عليكن؛ وإلا فالموت لا محالة. ثم جمع النساء جميعاً في غرفة واحدة وأغلق عليهن الباب.

انتصف الليل وخيم السكون على البلد؛ كأن لم يكن هنالك شيء، ثم في هذا السكون أخذوا يحكمون الرأي في تدبير الهجوم على قصر عجلان. انبثق الفجر وأخذت الشمس تشرق بنورها الساطع على البلد، وفتح باب القصر وأخرج العبيد الخيل، فدخل عبد العزيز القصر وتبعه من رجاله خمسة عشر فقط، وكنوا في داخله، وبعد دقائق خرج عجلان ليرى الخيل كعادته، فصادفه في الطريق فراءه منظرهم، فهم يريد الرجوع، فأدركه عبد العزيز بطلقة لم تدرك منه مقتلاً فتبعه عبد العزيز، وتصارع ابن سعود وعجلان؛ ابن السعود يريد القضاء على خصمه، وعجلان يحاول إدخال ابن السعود إلى الباب الداخلي. في هذه اللحظة أخذ رجال عجلان يطلقون النيران من نوافذ الحصن المشرفة على السوق، فقتلوا اثنين من رجال ابن سعود، وجرحوا أربعة، وتراجع المهاجمون، يا له من خطر داهم!

هنا دخل عبد الله بن جلوى (أمير الأحساء اليوم، وابن عم عبد العزيز بن سعود) وعدا وراء عجلان الذي أقلت من عبد العزيز، فرماه بطلقة أودت بحياته، وبعد ساعة تبادل رجال عبد العزيز وحرس القصر النار، ثم سلم حرس القصر على أن يتركوا أحياء، ظناً منهم أن عبد العزيز معه من الجند ما يكفي للقضاء عليهم، وما

كاد النهار ينتصف حتى أذن المؤذن: أن الحكم لله، ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن، وأن عجلان عامل ابن الرشيد قد قتل، فسمع الناس وأطاعوا.

إن هذه القصة التي تشبه قصص أبطال اليونان، ترينا عظم الأخطار التي أحاطت بابن السعود، وهي تعطينا صورة من مخاطرته بحياته، وهل العظمة إلا ناحية من نواحي المخاطرة؟ وهل يمكن أن يكون الجبان عظيماً؟

وأخذ الأمير عبد العزيز بعد فتح الرياض يعمل لنقض مملكة ابن الرشيد، واسترداد ملك آبائه وأجداده، وقد مكث أكثر من عشرين سنة يجالذ، ويغالب الخصوم من النجديين الأشراف والأتراك؛ يضرهم حيناً ويلين حينها يرى السياسة واللين أنجح من الخصام والقتال.

فتم له في سنة ١٣٢٠هـ الاستيلاء على القسم الجنوبي من نجد (الخرج والأفلاق) وفي سنة ١٣٢١هـ تم له الاستيلاء على سدير والوشم والمحمل والقصيم، وقد تداخل الأتراك في الخصام بين ابن الرشيد وابن سعود، وكانوا دائماً في صف ابن الرشيد، وأعقب هذا التداخل معارك دموية بين ابن سعود من جهة وابن الرشيد وحلفائه الأتراك، وكانت الحرب سجّالاً بين الفريقين؛ ولكن انتهى الأمر بانكسار وانسحابهم من نجد سنة (١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م).

وقد ضعف أمر آل الرشيد بقتل زعيمهم عبد العزيز بن متعب سنة ١٣٢٤هـ، واستراح ابن سعود بعض الراحة؛ لأن آل الرشيد قد كفوه أمرهم بخلافاتهم الداخلية على الإمارة، وسعى بعضهم لاغتيال البعض الآخر. وربما كانت أشد السنين على الأمير عبد العزيز هي سنة (١٣٢٨هـ - ١٩٠٩م) فقد واجه ثلاث جيّهات مرة واحدة: ابن الرشيد من جهة، وثورة أبناء عمه في الجنوب، وتقدم

الشريف حسين إلى نجد وأسر سعد بن عبد الرحمن شقيقه، ولكن ابن سعود الذي لا يعرف قلبه الخور تمكن من التغلب على خصومه، استعمل السيف مع الشائرين وابن الرشيد، والسياسة بعد ذلك مع الملك حسين، ونجح في ذلك نجاحاً عظيماً، وكانت هذه الحادثة هي أول احتكاك بين الشريف حسين وبين الأمير عبد العزيز، استطاع منها أن يزن أمير نجد كياسة الأمير حسين السياسية ومبلغ أطماعه وطموحه.

وفي سنة (١٣٣٠هـ - ١٩١٣م) رأى الأمير عبد العزيز الدولة التركية آخذة في التصدع والانهيار، ورأى المطامع تكتنفها من كل ناحية، فانتهاز فرصة خروجها من حرب البلقان منهوكة القوى، وانقض على إقليم الأحساء واستخلصه من النفوذ التركي، وأعاد إلى ذلك الإقليم الأمن والسكينة بعد ما كان مسرحاً لأطماع البدو، وباستيلائه على الأحساء نفذ إلى خليج فارس، واتصل بالحكومة البريطانية بعد ذلك اتصالاً سياسياً ما زال آخذاً بالتوثق والنمو إلى الآن.

في سنة ١٩١٤ اندلعت نيران الحرب العظمى، واندفع الأتراك يخوضون غمارها في صف الألمان، فرأى الأمير عبد العزيز الفرصة سانحة للاستفادة من الحرب، فكتب لأمرء العرب يحثهم على التفاهم والاستفادة من الفرصة؛ ولكن لم يصغ إلى ندائه أحد من أمرء العرب، وانضم بعضهم - ابن الرشيد - إلى الأتراك يشد أزهرهم. أما الأمير ابن سعود ففضل الوقوف على الحياد المشرب بروح المودة للبريطانيين، وفي سنة ١٩١٥م^(١) عقد معاهدة القطيف مع البريطانيين كسائر المعاهدات التي عقدها أمرء الخليج مع البريطانيين، وفي هذه المعاهدة تجلّى قصر نظر مستشاري ابن سعود بما يجري في العالم والاستفادة من الفرص، على أن هذا الخطأ قد أصلح بمعاهدة جدة

(١) راجع نص المعاهدة في الذيل.

سنة ١٩٢٧ م؛ حيث اعترف له بالاستقلال التام وبمخاطبة الدول والاتفاق معها حسب ما تمليه مصلحة بلاده، بعدما كان محروماً من هذا الحق في معاهدة القطيف، وفي صفر سنة ١٣٢١ هـ تمكن من الاستيلاء على حائل والقضاء على أقوى خصم نجد، بعدما رآه يحاول التفاهم مع الأشراف وحاكم الكويت، وبذلك طويت صحيفة بيت الرشيد من حكم نجد.

ابن سعود وجيرانه

ابن سعود والكويت

كانت الصلات التي تربط آل صباح والسعود دائمة ودية يرعاها الفريقان بها ينميها ويقويها، وكان مبارك يلقب أمير نجد دائماً بولدي عبد العزيز، كما كان الأخير يلقب الأول بالوالد، وكانت مصالحهما المشتركة تقضي عليهما بالتعاون، وكان كل واحد منهما لا سيما ابن سعود كثيراً ما يغضي عن أخطاء الآخر؛ لأن موقفهما من أعدائهما لا يسمح لهما بدقة الحساب. ومبارك الداهية المراوغ كان يعرف كيف يرضي صديقه أمير نجد، كما كان يعرف كيف يزيل من نفسه كل أثر لسوء تفاهم يحدث.

في سنة ١٩١٥م قامت فتنة في الأحساء، ثار العجمان وهم من عشائر ابن السعود على حكمه، وكان ينفخ في بوق الفتنة بعض أبناء عمومة ابن سعود. والسبب الحقيقي للثورة هي سعي ابن سعود لتأديب العجمان الذين تجرأوا بنهب إبل لابن صباح وأهل الكويت، وكانت هذه الفتنة بعد معركة جراب التي وقعت بين ابن الرشيد وابن سعود، وخرج منها ابن السعود منهوك القوة؛ ولكن العجمان بعد أن حاصروهم ابن سعود وضيق عليهم، وجدوا لهم ملجأ في الكويت، كما وجدوا في الكويت سوقاً لبيع منهوباتهم التي أخذوها من أهل الأحساء، فأحدث هذا العمل أثراً سيئاً في نفس ابن سعود الذي أراد أن يحاسب مباركاً على هذا العمل غير الودي، ولكن المنية عاجلت مباركاً فمات بموته كل أثر لسوء التفاهم، وعاد الصفا إلى ما كان عليه في السنة التي تولاها الشيخ جابر بن الشيخ مبارك. كما عاد

سوء التفاهم مرة أخرى في عهد الشيخ سالم المبارك، حتى أدى ذلك إلى معركة حمص سنة (١٣٣٧هـ - ١٩١٩م) وفيها خسر الكويت من المهات والذخائر والإبل ما لا تقل قيمته عن ثلاثين ألف جنيه، ثم إلى معركة الجهرة حيث حاصر الإخوان الشيخ سالمًا فيها سنة (١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م) وكادوا يأسرونه لولا استعماله السياسة في فك الحصار.

وقد توفي الشيخ سالم سنة ١٩٢١م، فعاد الصفاء إلى سابق عهده، وفي سنة ١٩٢٢م حددت الحدود بين الكويت ونجد في ميناء العقير.

ابن سعود والأشراف

شرحنا في فصل سابق شيئاً عن تاريخ الصلات بين الأشراف وآل سعود، ولكن الأشراف الذين لا يتعدى مركزهم الحجاز أصبح لهم شيء من النفوذ والسلطان في العراق وشرق الأردن أيضًا، وازدادت الجبهة التي يواجهها ابن سعود، وما كاد الأمير فيصل يصل إلى العراق ويبيع له بالملك، حتى رأينا الحدود العراقية النجدية يسودها الفوضى والاضطراب. غير أن الإنجليز الذي يهمهم استتاب الأمن وسيادة القانون والسلم، عاجلوا هذا الأمر مع ابن السعود، بوضع معاهدة المَحْمَرَّة وبروتوكول العقير سنة ١٩٢٢م.

ولما رأى البريطانيون أن المعاهدة المذكورة لم تف بالغرض، عمدوا إلى محاولة أخرى لاقتلاع جذور الخلاف بين ابن سعود والأشراف، وإزالة كل أسباب سوء التفاهم بين الأشراف وابن السعود، فعقدوا لهذا الغرض مؤتمر الكويت، وهو الذي سنتكلم عليه في الفصل التالي.

مؤتمر الكويت

ربما كان هذا المؤتمر أهم المؤتمرات التي عقدت في جزيرة العرب أثناء الخمس عشرة سنة الأخيرة: ففي هذا المؤتمر ظهر الأشراف في بغداد والحجاز وشرق الأردن، بمظهر الحلفاء المتضامين ضد خصمهم ابن السعود، الذي أحس بالخطر المحيط به، فأخذ يعمل لدفع هذا الخطر، فوجه همّه إلى الشجرة الشريفة في مكة، فاقتلعها من جذورها على ما سيجيء بعد.

حاولت الحكومة البريطانية أن تزيل سوء التفاهم بين الشريف حسين والملك ابن سعود، فسعت في أثناء الحرب لاجتماعهما في عدن أو في مكان آخر محاييد، وسعت لفتح باب المفاوضات بين الفريقين؛ ولكن هذه المحاولات لم تثمر الثمرة المطلوبة.

وقد حاولت كذلك حل مشكلة الحدود بين العراق ونجد، فنجحت بعض النجاح؛ ولكن النفوس كانت لا تزال تحمل الإحن، وقد عمل «السير برسي كوكس» صديق الملك ابن السعود لاجتماع الملك فيصل بالسلطان عبد العزيز، ولكن الظروف - على ما يظهر - لم تكن مساعدة من كل وجه فحبط المسعى، ثم أخذت حوادث الحدود النجدية وشرق الأردن، تتكرر فيها الاعتداءات من عشائر الفريقين، وأخذ الإخوان يهددون شرق الأردن نفسه أخذاً بثأر إخوانهم، وأخذت الحوادث في الحجاز تأخذ شكلاً لا يقل خطورة عما يحدث على حدود العراق وشرق الأردن.



الملك عبد العزيز بن سعود والمرحوم الملك فيصل على ظهر البارجة «لون» سنة ١٩٣٠م

ويجب أن نقرر هنا للحقيقة أنه فيما عدا حادثة تربة سنة ١٩١٩م، التي أيّدت فيها قوات الشريف حسين، لم يكن للملك ابن السعود يد ظاهرة في هذه الحوادث، وما كان يستطيع أن يمنعها تمامًا إلا بثورة أهلية، ولكن طبيعة التطور الأخير في البادية وانتقال الإخوان من البادية إلى سكني الحضر، وتشريهم بروح الدين والتعصب ضد كل من خالفهم، وبالأخص المجاورين لهم. والملك ابن سعود وإن لم يرغب في الاعتداءات على البلاد المجاورة المشمولة بالنفوذ الإنجليزي، أو يشجع

عليها، فإنه لم يكن يكره ذلك، فما دام الإخوان يخضدون شوكة الأعداء ويعودون بالغنائم سالمين، وما دام الأعداء يسعون للقضاء عليه وعلى دولته، فلا بأس من تركهم والإخوان يتصارعون. لقد كان الملك ابن السعود ينصح الإخوان من وقت لآخر بالكف عن أذى الحكومات المجاورة، والركون إلى السلم؛ ولكن نصحه لم يكن يلقى أذناً سمیعة من الإخوان، وكانوا يقولون: يا للعجب! أليس هؤلاء كفاراً؟ أليسوا محاربين لنا؟ أليس كبيرهم يحول بيننا وبين أداء فريضة الحج؟ فما بال ابن السعود يأمرنا بالكف عنهم، وما له وما لنا، إننا نقوم بفريضة الجهاد، فمن عاش رجع غانماً، ومن مات لقي الله شهيداً وهو عنه راضٍ! ولكن الحكومة البريطانية وقد أصبح لها مركز خاص في العراق وشرق الأردن، يهمها أن يخيم السكون على تلك البلاد؛ لذلك فكرت في عقد مؤتمر في الكويت تحت رئاسة الكولونيل نويس المعتمدين في الخليج الفارسي؛ لحل جميع المسائل المعلقة بين الأشراف جميعاً وبين ابن السعود.

وصلت الدعوة إلى المؤتمر، وكان السلطان مريضاً مرضاً خطيراً، فتأخرت الإجابة طبعاً، وبعد أن زال عنه الخطر وعرضت عليه الدعوة، رأى أن يطلب من الحكومة البريطانية تأجيل المؤتمر ريثما يتم شفاؤه، ولكن الكولونيل نويس الذي تقرر إحالته على المعاش كان حريضاً على عقد المؤتمر، وعلى حل المشاكل المعلقة التي لا تزيد الأيام إلا تعقيداً وإشكالاً. وهل هناك فخر أعظم من حل هذه العقدة التي تركها السير برسي كوكس، وهو أقدر رجل عرفه العرب، وأعظم الإنجليز مهارة في حل المشاكل!

ظنَّ الكولونيل نويس -وهو عين الحكومة الإنجليزية في خليج فارس- أن ابن السعود يريد أن يتخلص من الاشتراك في المؤتمر، فأرسل إليه باسم حكومته رسالة

شديدة اللهجة لا تخلو من تهديد، فقبل ابن السعود الاشتراك في المؤتمر على مضض، واشترط لقبوله أن لا يشترك الأشراف في المفاوضات؛ بل يفاوض كل حكومة على حدها، فقبلت الحكومة البريطانية هذا الشرط.

دور المؤتمر الأول

اجتمع المؤتمر في الكويت، واجتمع مندوبو نجد والعراق وشرق الأردن، ولم يحضر أحد عن الحجاز، وبعد عدة جلسات رأينا جميع المندوبين متضامين، فاحتج مندوبو نجد، واعتبروا هذا إخلالاً بما اشترطه سلطانهم لقبول الدعوة، ووافقهم وزارة المستعمرات على ذلك، واعتدل مندوبو العراق، وبقي مندوب شرق الأردن على شططه بالرغم من تنبيه رئيس المؤتمر له مراراً، ويكفي أن نذكر هنا طلبات شرق الأردن، لتعلم ما يمكنه القدر لمؤتمر الكويت.

يطلب مندوب شرق الأردن ما يأتي:

١ - تنفيذ مقررات النهضة التي عقدت بين الشريف حسين وبين الحكومة البريطانية، والتي تقضي بأن تكون حدود حكومة نجد كما كانت سنة ١٩١٩م، ويجب إخلاء الجوف وسكاكه ووادي السرحان جميعه والأراضي الحجازية التي شغلها مثل: تربة والخزرة والحائط والحويط وخيبر وبيشة ووادي شهران وبلاد بني شهر.

٢ - تكون الحدود الفاصلة بين الحجاز ونجد هي الصحراء القاحلة.

٣ - لا يمكن عقد صلح على غير هذا الأساس.

وينبغي أن يفهم هنا أن الغرض من الاعتراف بحدود معاهدة سنة ١٩١٩م فقط، هو عدم الاعتراف بما تم من القضاء على حكومة الرشيد وإلحاقها بنجد.



منظر آخر لجلالة الملك ابن السعود والمرحوم فيصل على ظهر البارجة «لوبي»

ولما كانت هذه الطلبات عقبة كأداء في سبيل الاتفاق، لم يكن هنالك بد من أن تؤجل الحكومة البريطانية المؤتمر بضعة أسابيع، ويرجع كل فريق إلى حكومته لإيقافها على النقط التي دار عليها البحث، وأخذ تعليمات جديدة منها، وتقوم الحكومة البريطانية بتقريب مدى الخلاف، ونصح كل فريق بالاعتدال كي يمكن الوصول إلى طريق للاتفاق، وإزالة سوء التفاهم السائد بين الجميع. وقد سعت

الحكومة البريطانية لحمل الملك حسين على الاشتراك في المؤتمر، فاشترط أن يرسل الأمير زيداً على شرط أن يرسل سلطان نجد أحد أولاده، فلم يقبل ابن سعود، وصرح بأنه يثق بمندوبيه، ولا يرى أي ضرورة لتغييرهم. وهكذا فشل اشتراك الحجاز في مؤتمر الكويت، وقد أبدى سلطان نجد مهارة فائقة ومرونة سياسية، دلت على بعد نظره وتقديره الظروف حق قدرها، وأنه يعرف عقلية خصومه معرفة تامة.

لقد أوصانا رئيس المؤتمر - قبل مغادرتنا الكويت - بأن نبذل نفوذنا لإقناع سلطان نجد بالتساهل، وأرسل في الوقت كتاباً لعظمته يشرح له حقيقة الموقف. وبالرغم من التكتم الشديد الذي ساد جو المؤتمر؛ فإن الإشاعات الكثيرة سبقتنا إلى نجد، فقام وقعد لها النجديون. لقد كبر على الإخوان أن يسمعوها شرق الأردن والعراق يمليان عليهم هذه الشروط القاسية، وهم لم تنكس لهم راية ولم ينكسر لهم جيش، فقام الدويش ومعه رهطه من الإخوان ومطير وهجم على عشائر العراق، كما أن بعض الأشقياء من مطير كانوا يهجمون من وقت لآخر على حدود نجد، وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم.

الدورة الثانية للمؤتمر

لم يحضر في هذه الدورة أحد من جهة العراق أو الحجاز؛ بل حضر مندوبان فقط من شرق الأردن ولم يعد لهما طلباء في المرة الأولى، ولكن رئيس المؤتمر معهما من البحث في أي مسألة من المسائل الخاصة بالحجاز، فانحصر البحث في حدود شرق الأردن ونجد، فطلبوا من نجد أن يكون حدودها النقود، وتتخلل عن الجوف ووادي السرحان بأكمله، وقد طلب مندوبو سلطان نجد استفتاء أهل الجوف وأخيراً فشل المؤتمر.

أما السبب الحقيقي في فشل المؤتمر فهو صلابة الملك حسين وتعسفه، وعدم وقوف الأشراف في العراق وشرق الأردن على حقيقة الحالة في نجد، وأن أحكامهم على نجد المبنية على ما يصل إليهم من الأخبار كانت خاطئة. ولو أنهم تغلبوا على العقبات التي وقفت في طريق المفاوضات في المؤتمر بشيء من التساهل، لكان ابن السعود حتى الآن في نجد.

لقد أخبرني إبراهيم بك هاشم أحد مندوبي شرق الأردن، أنه سمع في بغداد أن عمر سلطنة نجد لا تتجاوز الستة أشهر، كما أخبرني حضرة الضابط على خلقي بك بأنه يستطيع أن يقضي على سلطنة نجد في مدة أقصر من هذه المدة، وقد أفهمناهم بأنهم مخطئون جدًّا، وأن ما يرى من الاختلال على الحدود ومن شغب الأشيقاء لا قيمة له، وأن البادية من قديم لم ينقطع منها أمثال هذا الشغب، وأن ستة أشهر التي قدرت عمرًا لسلطنة نجد، ربما كانت عمر حكومة الحجاز، وأنه ليملكنا الأسف والأسى على ما وصل إليه العرب من التخاذل، وأن يكون موقف المتعلمين من العرب هذا الموقف المزري. والحقيقة أن الأشراف جميعًا، ومن اشتغل معهم ما كانوا ينظرون إلى ابن سعود إلا أنه رجل بدوي أو شيخ عشيرة، وأنه ليس بأهل للتفاهم معه، وأنه ليس من الخطر بمكان حتى يخشى، ولكن الحوادث كانت كفيلة بإظهار خطئهم، وأن الآمال التي كانوا يعقدونها على قيام ثورات في نجد لم يتحقق شيء منها، وأن ما عجز مؤتمر الكويت عن حله قد حل في أكتوبر سنة ١٩٢٥م في مؤتمري حذاء وبَحْرَة، وفي سنة ١٩٣٠م بين ملكي العراق والحجاز ونجد.

وها هو السكون يخيم على الحدود العراقية النجدية، ويعود الصفاء بين مكة وبغداد، ويتناسى الفريقان الأحقاد العائلية القديمة ويعملان كلاهما على ما فيه خير

الشعبين العربيين، وها هي شرق الأردن تحذو حذو العراق، وتصفي مشاكلها مع الحجاز، ويتبادل أميرها مع الملك عبد العزيز كتب الود والصداقة، ويتعاون الفريقان تعاونًا صادقًا على الضرب على أيدي المفسدين من البدو؛ فيسود السكون على الحدود، وتعود الحياة إلى مجراها العادي، ولا تزال آمال مفكري العرب وعقلائهم، معقودة على اتحاد الأمراء وتعاونهم لخير العرب.

غزوة الحجاز والمؤتمر الإسلامي^(١)

كيف نشأت فكرة الغزوة؟

لم يكن لجلالة الملك ابن السعود أي فكرة عن غزو الحجاز وفتحه حتى سنة ١٩٢٣م؛ أولاً: لأنه لم يكن واثقاً تمام الوثوق بإمكان تغلب قواته على الحجاز، وثانياً: لأنه لم يكن واثقاً من موقف الحكومة البريطانية، وبحق له أن يحسب لموقفها ألف حساب؛ فهي التي أرغمته على ترك الحجاز والرجوع إلى نجد سنة ١٩١٩م بعد ضرب القوات الشريفية في تربة، وقد كان في إمكان قواته في ذلك الوقت أن تتقدم وتستولي على الطائف ومكة، لولا إنذار إنجلترا له بأنها تعتبر تقدمه في الحجاز عملاً عدائياً موجهاً ضدها.

من سنة ١٩٢٢م رأينا علاقات الملك حسين تسوء مع المصريين، فرجع المحمل من جدة، كما ساءت بينه وبين الإنجليز والهنود على شتى المسائل: على المعاهدة، والبعثات الطبية، وسوء معاملة الحجاج الهنود، مع عجزه عن تأمين الطريق بين مكة والمدينة. ومما لا شك فيه أن فريقاً كبيراً من مسلمي الهند ومصر، لم ينظروا نظرة استحسان لقيام الشريف حسين ضد الأتراك؛ ولهذا فإنهم قابلوا إعلان الملك حسين نفسه خليفة سنة ١٩٢٤م في فلسطين إثر إلغاء الخلافة التركية بالاستياء الشديد.

(١) لارتباط المسألتين ببعضهما ارتباطاً وثيقاً، وضعناهما بجانب بعضهما.

كانت نجد في سنة ١٩٢٣ م تكاد تكون في عزلة تامة عن العالم، وقد أتاح لها الملك حسين الفرص، فهل تركها تغلت من يدها؟! لقد تمكن مستشارو السلطان عبد العزيز من إقناعه بفائدة الاتصال بالعالم الخارجي، فبدأ بإرسال برقية منه إلى جلالة الملك فؤاد يهنئه بافتتاح أول برلمان مصري، ثم بأحد الأعياد، وأعلن الأمير فيصل في منشوراته كلها موقف نجد إزاء مسألة الخلافة، وإزاء بعض المسائل العربية؛ كالاتحاد العربي، واتصلت الهيئات الإسلامية في الهند بسلطان نجد، وتم التفاهم على الأغراض الإسلامية العامة، والجميع متفقون على الاستياء من حالة الحجاز، وسوء النظام السائد فيه.

أخذت كتب التأييد تترى من سائر المدن الإسلامية، وقوى الصلة بين نجد ومصر أن جلالة الملك ابن السعود شارك علماء مصر في موقفهم حيال مسألة الخلافة وحلها في مؤتمر يعقد في مصر، فاكتملت نجد قوة أدبية لا تنكر.

فشل الإنجليز في محاولتهم تصفية المشاكل بين ابن سعود والأشراف في مؤتمر الكويت، وكان المسئول الأول عن هذا الفشل الملك حسين، وخرج ابن السعود من المعركة ظافراً؛ لأنه كان متواضعاً في مطالبه على خلاف الأشراف، فإنهم كانوا مغالين، ولو أن الأشراف انتصروا على ابن السعود في الحرب، وأملوا عليه ما يريدون من الشروط لم تكن شروطهم أشد قسوة مما اشترطوا، فكيف وهو حتى هذه الساعة لم يهزم له جيش، والبلاد التي يطالب بها الملك حسين ويدعي ملكيتها لا تزال بيده. وضعت نجد لأول مرة الكتاب الأخضر، وشرحت فيه المسائل المختلف عليها، وما يطالب به الحجاز وشرق الأردن والعراق ليضع الموضوع كله أمام العالم الإسلامي والعربي، فكانت خطوة موفقة اكتسب بها السلطان عبد العزيز عطف

عقلاء العرب والمسلمين؛ ولكنه لم يصغ إلى ما أشار به مستشاروه من الهجوم على الحجاز، ولو لتصفية الخلاف مع الملك حسين لاعتبارات كثيرة.

خرج السلطان من مؤتمر الكويت وهو موقن بأن الأشراف لا يريدون به خيرًا، وأنهم لا يألون جهدًا في خلق المشاكل له ولبلاده؛ ولكنه قنع أخيرًا بفكرة الهجوم على الطائف، والاستيلاء عليه فقط ليساوم الملك حسينًا عليه؛ فلعل الرجل يعدل عن غطرسته، وتقرر أن يكون ذلك بعد رجوع الحجاج إلى ديارهم؛ دفعًا لما قد يحدث من المشاكل، وسينجلي موقف الملك حسين وموقف الحكومة البريطانية بعد احتلال الطائف.

لقد كنت موقنًا بأن الإخوان سيتغلبون على قوة الشريف، وموقنًا بأن إنكلترا ستقف موقف الحياد؛ لأن سياسة ابن السعود إزاءها كانت سياسة مجاملة تامة وودية للغاية؛ بعكس سياسة الملك حسين.

جاء عيد الأضحى وقدم رؤساء الإخوان - أهل الخرمة وعتيبة وأهل الغطط - وغيرهم من قادة الإخوان للمعايدة على ولي أمرهم، وانتهاز هذه الفرصة وعرض عليهم مسألة غزوة الحجاز، فهشوا وبشوا للمشروع؛ لأنه سيظهرون بيت الله من البدع، وينشرون دين الله الصحيح، ولأنهم سيغنمون الأموال وقد ذاقوا حلاوتها في تربة، كما سيغنمون أجر الجهاد من الله. وقد وضعت خلاصة عما دار في المؤتمر من الأحاديث، وأرسلت إلى جميع الصحف العربية والهندية؛ فكان لها صدى استحسان.

ترك الإخوان الرياض إلى بلدانهم ليستعدوا للجهاد - جهاد الملك حسين - وما أسهل استعدادهم للغزو، وهل يحتاج الأمر إلا إلى الناقة والبندقية والزاد والذخيرة؟ لم يتتصف شهر محرم سنة ١٣٤٣ حتى بدأ الإخوان بمناوشاتهم مع بادية الحجاز،

وأكثرها ناقم على الملك حسين، ثم أخذوا يتقدمون وجيوش الملك حسين لا تقف في وجوههم حتى استولوا على الطائف في ٥ صفر، ثم وقفوا ينتظرون أمر مولاهم. ولقد حاول الملك حسين أن يستغل الحوادث التي وقعت في الطائف ضد خصمه في تنفير العالم الإسلامي؛ ولكنه فشل في ذلك ومرت الحادثة بدون أن يكون لها أثر عظيم في نفوس المسلمين. وبرنامج ابن سعود خلاب يجتذب النفوس ويتفق مع الروح الطيبة التي يتمناها عقلاء المسلمين لمهبط الوحي.

إنَّ برنامجَه أنه لا يريد الفتح ولا علوًّا في الأرض ولا فسادًا، وكل ما يريدُه هو طرد الأشراف وتطهير بيت الله، ومهبط وحيه من ظلمهم وتحكمهم، وأن مكة للمسلمين عامة، وأنه سينزل على رغبة العالم الإسلامي في ذلك كله.

ظل الإخوان في الطائف ينتظرون أمر إمامهم، وليس هنالك سيارات أو تلغراف بين الطائف والرياض. والمواصلة الوحيدة هي الجمل، والمسافة ذهابًا وإيابًا لا تقل عن ٢٥ يومًا، إذن يجب أن ينتظر الإخوان هذه المدة وسلطانهم قد شدد عليهم ألا يتجاوزوا الطائف، وإلا فهو يبرأ إلى الله منهم؛ أي أنهم سيكونون عاصين في عملهم، ولا داعي إلى ذلك، فالغنائم التي استولوا عليها تحتاج إلى وقت لتقسيمها بينهم بالعدل.

جمع الملك حسين آخر ما لديه من جنود وجهازهم بآخر ما لديه من الأسلحة، وسيرهم إلى الطائف لضرب الإخوان وطردهم منها، وهنا كانت معركة الهدى التي انقض فيها الإخوان على جنود الملك حسين وهزمهم هزيمة منكرة، واستولوا على جميع ما كان لديهم من مال وسلاح.

هنا رأى الملك حسين أنه لم يبق له مقام في مكة، فاستعد للرحيل منها وتنازل عن الملك لولده علي، بعد أن أدخلوا مكة ونقلوا كل ما يمكن نقله، ثم وصل الإخوان مكة صلحاً لا حرباً، فدخلوها خاشعين، وتولى الشريف خالد بن لؤي إمارة مكة. ولقد صدق المثل «كما تدين تدان»، فكما سلط الشريف حسين البدو على الأتراك وبيوتهم، فأعملوا فيها يد النهب والسلب، كذلك سلط الله عليه الإخوان، فقاموا بنفس الرواية التي مثلت مع الأتراك، ما عدا القتل فإن يدهم لم تمتد إلى قتل أحد في مكة.

وبعد فتح مكة أرسلت الدول التي لها ممثلون في جدة مذكرة إلى الطرفين المتحاربين يذكرونها برعاياهم وحسن معاملتهم، ويحملونها تبعة ما يقع عليهم من الأضرار، وأنهم جميعاً سيقفون موقف الحياد في النزاع بين الفريقين، فكانت هذه المذكرة أحسن بشرى للملك الذي كان يساوره بعض القلق، فعجل بالسفر إلى الحجاز ليتولى بنفسه استصفاء الحجاز، وليحول دون تكرار مأساة الطائف. ولم يكن هنالك ما يمنع الإخوان من الاستيلاء على جدة، لولا ما أمرهم به إمامهم، فكانت هذه خير فرصة للشريف علي حصن فيها جدة، وحشد فيها من القوات العسكرية التي جمعها من فلسطين وشرقي الأردن ما جعلها تقاوم نحو سنة.

حاول الملك علي عقد الصلح، فوسط الأستاذ الريحاني ومستر فلبسي (والسيد طالب) النقيب، ولكن البرنامج معروف: المسألة إسلامية يا ريحاني ويا مستر فلبسي، فليس من شأنكم التوسط فيها، والرأي يا «سيد طالب» للعالم الإسلامي، فما على الأشراف إلا أن يرحلوا من الحجاز، ويجتمع مؤتمر إسلامي ينظر في مسائل الحجاز من كل نواحيه.

وقد مضت مدة الحرب دائرة بين الطرفين، وكل يعاني شدتها، ولكن شدتها على الملك علي كانت أشد على كل حال. وفي إبريل سنة ١٩٢٥م عرض قنصل السوفيت، ووكيل قنصل إيران، ووكيل قنصل هولاندا وساطتهم للصلح بصفة خاصة؛ لأن دولهم لم تكلفهم بذلك، فلم يقبل السلطان ذلك.

وفي مايو من السنة نفسها قدم فؤاد بك الخطيب إلى معسكر السلطان ابن سعود، محاولاً الوصول إلى طريقة يوقف بها الحرب ويضمن بها بقاء الأشراف في الحجاز فلم يفلح. وفي أغسطس وسط الملك علي الدولة الإنجليزية للصلح، ولكن الحكومة البريطانية حينها عرضت وساطتها بين الفريقين صرحت بأنها تقبل الوساطة إذا رضي الفريقان هذه الوساطة، فكان جواب ابن سعود:

«إنه أعطى عهداً للعالم الإسلامي أن تكون الحجاز ومكة للمسلمين عامة».

وفي سبتمبر سنة ١٩٢٥ وصل فضيلة الشيخ المراغي، وكان رئيساً للمحكمة العليا الشرعية ومعه عبد الوهاب بك طلعت من موظفي السراي الملكية، ومعهما كتاب رقيق من جلالة ملك مصر جواباً لكتاب سلطان نجد بمناسبة عزمه على زيارة مكة.

إنه ظرف ملائم جداً وفرصة نادرة لتوثيق العلاقات بين مصر ونجد، وسلطان نجد كان ولا يزال معترفاً بزعامه مصر من وجهة الثقافة والمدنية، ويجب أن توطد العلاقات بينه وبين مصر.

رأى عظمة السلطان بعد الاجتماع مع الوفد المصري، والتحدث معه في شتى المباحث أن أقوم بالبحث التمهيدي، وما نصل إليه من النتائج نعرضه على عظمته أولاً بأول.

لقد سبقت الوفد عدة شائعات: منها أن الشريف عليًا طلب بسط حماية مصر على الحجاز، وطلب أن ترسل الصدقات المعتاد إرسالها إلى مكة والمدينة إلى جدة، لتوزع على جنوده واللاجئين إليها من أهل مكة؛ ولكننا لم نقم وزنًا لهذه الإشاعات أو غيرها.

لقد تبين من المباحثات الأولية أن الوفد جاء لغرض وساطة مصر للصالح بين الفريقين المتحاربين، فما المخرج من هذا الموقف الدقيق؟ إننا لا نريد إغضاب مصر، وسلطان نجد يجب ملك مصر ويحرص على اتصال حبل المودة معه، ولكننا لا نحب الصلح الآن؛ لأن حكم الأشراف في الحجاز قد آذن بالزوال، فالمعلومات تصل إلينا عما تقاسيه جدة والمدينة، وأن النصر قاب قوسين أو أدنى.

أخبرت الوفد بسعي الحكومة البريطانية قبل شهر للصالح، واعتذار السلطان عن قبول هذه الوساطة، وليس من اللياقة قبول توسط مصر الآن. ماذا جتته مصر من الملك حسين؟ ألم يرد المحمل المصري من جدة؟ ألم يتهم البعثة المصرية بأنها تحاول تسميم المياه؟ أم يتزع من كسوة الكعبة المشرفة اسم ملك مصر؟ ألم يعتمد إلى الإساءة إلى كل ما هو مصري؟ إذا كنتم تريدون أدلة أخرى فهاكم ملفات الحكومة الهاشمية، اقرأوها إن شئتم فإنها دليل ناطق على ما كانت تطويه جوائح الملك حسين نحو مصر وملكها وشعبها. ألا يحسن أن نبحث موضوعًا آخر يكون فيه الخير للبلاد المقدسة ولأهلها وللواقدين عليها من المسلمين؟ إذا وضعنا أساسًا لذلك فإننا بلا شك نكون قد قمنا بواجب عظيم نحو ديننا، ونكون قد خدمنا الإسلام والمسلمين أجل خدمة. أما الأساس الذي كان نتيجته البحث فهو:

(١) أن الحجاز للحجازيين من جهة الحكم، وللعالم الإسلامي من جهة الحقوق التي لهم في البقاع المقدسة.

(٢) إجراء استفتاء عام لاختيار حاكم للحجاز، تحت إشراف مندوبي العالم الإسلامي.

(٣) يجب أن تكون الشريعة الإسلامية الدستور للحجاز.

(٤) استقلال الحجاز الداخلي.

(٥) جعل الحجاز على الحياد.

(٦) لا تعقد حكومة الحجاز اتفاقات اقتصادية مع دولة غير إسلامية.

(٧) تحديد الحدود الحجازية، ووضع النظم المالية والاقتصادية والإدارية موكل لمندوبي الممالك والشعوب الإسلامية.

وقد وافق عظمة السلطان ابن سعود على هذا الأساس وقال للوفد المصري: لكي تعلموا مقدار محبتي لمصر ولملكها، وللمنزلة العظيمة التي له في قلبي، أو كل جلالته أن يدعو في مصر مندوبي المسلمين لينظروا في هذه الأمور، وما يقررونه سأقوم بتنفيذه. فسر الوفد كثيراً وعد النتيجة التي وصل إليها خيراً من المهمة الأولى. وسررنا نحن أيضاً؛ لأننا اكتسبنا مودة ملك مصر، وهي شيء عظيم عندنا، وسافر الوفد المصري حاملاً كتاب عظمة سلطان نجد المتضمن هذا الأساس.

وفي أكتوبر سنة ١٩٢٥ وصل جلال السلطنة وزير إيران المفوض بمصر، وعين الملك قنصل إيران الجنرال في سوريا إلى الحجاز، وأخبر عظمة السلطان بأنها موفدان للوقوف على صحة أو كذب ما أشيع عن إصابة القبة النبوية بالقنابل، وفي أثناء إقامتهما في المعسكر السلطاني في حذاء وفي مكة بحثنا معهما شئون الحجاز: ماضيه ومستقبله، وأخبرناهما بالكتاب الذي حمله الوفد المصري، وبالدعوة التي

سيوجهها جلالة ملك مصر إلى العالم الإسلامي، لوضع مسألة الحجاز على بساط البحث على الأساس الموضح في الكتاب، فأظهر الوزير امتعاضه، وصرح بأن حكومته لا تقبل دعوة مثل هذه من مصر؛ لأن مصر دولة غير مستقلة من كل وجه، ولا شأن لها بالبلاد المقدسة، وقال لعظمة السلطان: لماذا لا يدعو هو المسلمين في مكة؟ أليس هو أولى بالدعوة؟ أو أليس هو صاحب الشأن؟ فأجابهم عظمتهم أنه اختار مصر لقربها من سائر البلاد الإسلامية، ولأن الحجاز لا يزال في حالة حرب، وقد وكلت ملك مصر ولن أرجع في قولي، فطلب الوفد الإيراني كتاباً من عظمة السلطان إلى رئيس حكومة إيران، يتضمن الأسس المتقدمة، ورجع الوزير مسروراً من زيارته بعدما وقف على الشيء الكثير من المعلومات من الإيرانيين المقيمين في الحجاز عن حكم الأشراف في الحجاز، وما تركه السلطان ابن السعود في نفوس الحجاز من تواضعه وحلمه، وبساطته ولطفه، وحسن معشره ولين جانبه، وأنه لولا خشونة الإخوان، لكان حكم السلطان ابن السعود نعمة من نعم الله لا تعادلها نعمة.

مضى نحو أربعة أشهر والحرب لا تزال على حالها، ولم يصل إلى عظمتهم شيء عما تم في أمر المؤتمر: إن الحرب قد تطول أكثر من ذلك، فلماذا لا يفتح طريق الحج من جهة «رابع» فيقضي القضاء الأخير على جدة؟ لقد نجح هذا الطريق بعض النجاح في الحج الماضي، ووفد من الحجاج نحو أربعة آلاف نفس.

رأى عظمة السلطان أن يوفدني إلى مصر للبحث مع حكومتها في الإذن للحجاج من هذا الطريق، وقبل مغادرتي رابع دخلت جيوش السلطان المدينة ظافرة، فكان ذلك مشعراً بأن حكم الأشراف في الحجاز في حالة النزاع.

وصلت إلى مصر في أواخر نوفمبر سنة ١٩٢٥م، وبعد مدة قصيرة استسلمت جدة آخر المدن الحجازية، ففرح المسلمون فرحاً عظيماً، وقابلت الصحف العربية

والهندية هذا الحادث بحماسة شديدة، ونشر عظمة السلطان في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٥م منشورًا عامًا على أهل الحجاز: يحضهم على الإخلاء إلى السكون والانصراف إلى أعمالهم، وختم المنشور بالجملة التالية:

«وأما مستقبل البلاد فلا بد لتقريره من مؤتمر يشترك المسلمون جميعًا فيه؛ لينظروا مستقبل الحجاز ومصالحها».

العدول عن المؤتمر

وبعد أسبوعين من صدور المنشور الأول، أصدر عظمة السلطان بلاغًا عامًا بتاريخ ٢٢ جمادى الآخرة - ٧ يناير سنة ١٩٢٦م يعلن فيه عدوله عن فكرة المؤتمر الإسلامي؛ لأن دعوته التي وجهها إلى الشعوب الإسلامية وإلى قادة المسلمين، لم يجبه عليها أحد، وفي اليوم نفسه بايع جلالة أهل الحجاز ملكًا على الحجاز، فأصبح لقلب جلالة «ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها».

تمت هذه الخطوة الجديد وأنا في مصر أفأوضح حكومتها في شئون الحج، ولم يُخف على أولو الأمر استياءهم، كما أن التلغرافات والصحف نشرت الشيء الكثير من استياء الهنود وجمعية الخلافة على الأخص، وعدوا ذلك نكتًا بوعود جلالة الملك الكثيرة، وقد أبرقت لجلاله الملك أخبره بحقيقة الحالة في مصر والهند، وأن جلالة لو كان تريث قليلًا لكسب الحجاز وقلوب المسلمين، فأجابني جلالة ببرقية يشرح فيها الأسباب التي دعت للتعجيل؛ وهي إصرار أهل نجد والحجاز على ذلك، وأن حالة البلاد تستدعي البت في هذا الأمر، وقد نشرت الصحف هذه البرقية في حينها؛

غير أن السلطات المصرية لم يقنعها هذا الجواب، واعتقدت أن مسألة البيعة وما اكتنفها من طلب الحجازيين والنجديين، إن هي إلا إيجاء من حكومة الحجاز.

أما أنا شخصياً فكنت أهتم بموضوع المؤتمر الإسلامي؛ لأنه وسيلة من وسائل تفاهم المسلمين وإصلاح كثير من الشئون الدينية والاجتماعية، وطريقة من الطرق المثلى التي يمكننا بها خدمة الحجاز وأهل الحجاز والوافدين على الحجاز.

فالحجاز يحتاج إلى كثير من وجوه الإصلاح، وهو وحده لا يقوى على القيام بأعباء هذا الإصلاح، ويجب أن يستعين الحجاز بعقول المسلمين المدبرة. كما يجب على المسلمين أيضاً أن يعينوا الحجاز بالأموال للقيام بهذه الإصلاحات، وواجب على حكومة الحجاز أن توسع صدرها لسماع كل نقد، والأخذ بكل رأي صالح.

لقد سئلت في مصر عن المؤتمر الإسلامي: هل عدل عنه نهائياً؟ سئلت هذا السؤال من كثير من كبار المصريين ورجال الحكم في ذلك الحين، فلم أكن أملك الإجابة؛ لأن الفصل في هذا الموضوع الخطير في مكة.

لقد كتبت إلى كثير من أصدقائي الهنود يسألون نفس السؤال، ويلحون عليّ في بذل نفوذي لعقد المؤتمر؛ لأن هذا العمل من أعظم الأعمال لخدمة الإسلام والمسلمين.

غادرت مصر راجعاً إلى مكة، فاجتمعت بجلالة الملك عبد العزيز، وأخبرته عن رحلتي والأثر الحسن الذي تركته في مصر حكومة وشعباً، ولم أخف مبلغ التأثير السيئ الذي تركه إعلان الملكية في مصر والهند، ولكن ليس في الإمكان الرجوع فيما تم طبعاً، فماذا يمكن أن نعمل للقضاء على سوء الأثر.

بحثت مع جلالة الملك مسألة المؤتمر الإسلامي، فلم أجد جلالته مستعداً لقبول الفكرة، فتركت الموضوع للزمن.

تكررت الكتب والتلغرافات من الهند وغيرها من الممالك الإسلامية بطلب عقد المؤتمر، ووصل عينُ الملك قنصل إيران العام في سوريا للبحث مع جلالة الملك في شئون الحج الإيراني، ومسائل القباب والأضرحة المهدمة، وأخبرني أن المرحوم إبراهيم وجيه باشا لا يزال ينتظر مني أن أخبره عن مسألة عقد المؤتمر الإسلامي، وبالطبع أخبرت جلالة الملك بذلك، فكانت هذه العوامل الكثيرة لها أثرها في نفسه، فقبل عقد المؤتمر الإسلامي في مكة على شرط ألا يتعرض المؤتمر لمسألة الحكم في الحجاز، وعلى ذلك أرسلت الدعوة إلى الشعوب الإسلامية والحكومات الإسلامية، وحدد يوم ٢٠ القعدة سنة ١٣٤٤ هـ لاجتماع المؤتمر، وقد لبي الدعوة أكثر من دعوا.

فشل المؤتمر

ليس هنالك من شك في أن الذين حضروا إلى المؤتمر، كانت تحذوهم الرغبة في إصلاح الحجاز والخير للبلاد المقدسة، وسكانها والوافدين عليها من جميع طوائف المسلمين، وليس من شك في أن الملك ابن سعود لا يقل رغبة عن هؤلاء. فلماذا إذن لم ينجح المؤتمر في الغرض الذي عقد من أجله، ما دامت رغبة المليك والمؤتمريين تلتقي عند خير الحجاز والمسلمين؟

إن السبب الرئيسي هو عدم التجانس بين أعضاء المؤتمر، وبينهم وبين النجديين من جهة أخرى. فما يعدّه النجديون أساساً للعمل ويتعصبون له، لا يشاركهم فيه

بعض الشعوب الإسلامية الأخرى، وما يعتقده الهنود من وسائل الإصلاح، لا يشاركونهم فيه الجاويون والهنود من أهل الحديث.

إنَّ النجديين يرون أن التوحيد هو الدواء الوحيد لما أصاب العالم الإسلامي من الأمراض. لقد كانت مكة والمدينة مهبط الوحي ومصدر التشريع، فيجب أن نبدأ فيهما بهدم القبور وتسويتها، وهدم القباب والمساجد المقامة على القبور، وهدم كل مكان تشتم منه رائحة الإخلال بالتوحيد، كما يجب إبطال جميع البدع من الحجاز.

إنَّ سائر المؤتمرات سياسيون أكثر منهم دينيين، فهم - وإن كانوا يتفقوا مع النجديين على إصلاح حالة العالم الإسلامي، وإصلاح الحجاز - ولكنهم لا يتفقون مع النجديين في طريقة الإصلاح، ويقولون: إن العالم الآن يختلف تمام الاختلاف عنه قبل ثلاثة عشر قرناً. وإن الواجب الآن تأليف القلوب وجمع الكلمة والتدرج في الإصلاح، وهنا يقع الخلاف بين الفريقين، ويشد النزاع، ولا سبيل إلى التوفيق.

وهناك مسائل سياسية عربية يرى بعض المؤتمرات إثارتها، وترى حكومة الحجاز عدم الخوض فيها.

لقد كان الملك ابن السعود حكيماً، فإنه في حفلة افتتاح المؤتمر منح الحرية المطلقة للمؤتمرين، إلا ما يتعلق بالسياسة الدولية، وما بين بعض الشعوب الإسلامية من خلاف؛ ولكن بعض أعضاء المؤتمر لم يصنع إلى نصيح الملك ابن سعود، وحاولوا البحث في مشاكل سياسية لم يكن هنالك حاجة في إثارتها، لا سيما وحاجات الحجاز كثيرة، ووجوه الإصلاح عديدة. ولكنهم على كل حال كان رائدهم حسن النية وخير المسلمين.

أريد أن أذكر القصة الآتية؛ لأنها تدل على ما كان يسود جو المؤتمر وما كانت حكومة الحجاز تعانيه؛ لأنها لا تريد أن تسوء علاقتها السياسية مع الحكومات الأجنبية، كما لا تريد أن تمس عواطف أعضاء المؤتمر المتحمسين: أخبرني جلال الملك أن السيد رشيد رضا والشيخ عبد الله بن بليهد رئيس القضاة في ذلك الوقت، أخبراه بأنهما - بالاتفاق مع وفد الخلافة - سيأخذون قراراً من المؤتمر، على أن يجتمع أعضاء المؤتمر جميعاً أمام الكعبة، ويتعاهدوا في اليوم السابع أو الثامن صباحاً بأنهم سيسعون بكل قواهم لتخليص جزيرة العرب من نفوذ الأجانب، وأنهم يعتقدون أن لهذا تأثيراً عظيماً في الرأي الإسلامي. فقلت لجلالته: إن نية إخواننا حسنة بلا شك، وأنهم لا يريدون إلا الخير للإسلام والمسلمين، وأن ما يتمنونه هو أمنية كل مسلم؛ ولكن ما هي الفائدة من هذا العهد؟ إن من يريد أن يعمل فمجال العمل أمامه واسع، وعلى كل حال فالمشروع إلى الآن لم يعرض على لجنة المشروعات. فقال لجلالته: إن الجماعة سيجتمعون عندي بعد العشاء - وكنا في اليوم الرابع من شهر ذي القعدة - فيجب أن تحضر لتتفقوا جميعاً على رأي واحد.

حضرنا عند جلالة الملك بعد صلاة العشاء، وكان الحاضرون هم الشيخ عبد الله بن بليهد، والسيد رشيد رضا، والسيد أمين الحسيني، والمرحوم محمد علي، ومولانا شوكت علي، وكاتب هذه الأسطر، والدكتور عبد الله الدملاجي، والشيخ يوسف ياسين، والشيخ محمد أبو زيد المصري، وغيرهم ممن لا أذكر أسماءهم الآن.

افتتح الحديث الشيخ عبد الله بن بليهد، فقرأ صيغة القسم، وشرح الأغراض من العهد، والروح الجديدة التي تسري في المسلمين والعرب حين سماعهم ذلك. وبعد أن ساد المجلس السكون طلب مني جلالة الملك رأيي.

فطلبت من الشيخ ابن بليهد الإيضاح عن المقصود بجزيرة العرب، فقال: إن المراد منها فلسطين، سوريا، العراق، وسواحل الجزيرة التي للأجانب نفوذه فيها. فقلت: إني أشكر أصحاب الفكرة على هذه الروح الطيبة. ولا شك أن كل عربي ومسلم يتمنى أن يتمتع العرب في كل ناحية بما يتمتع به غيرهم من الاستقلال. ولم هذه العجلة؟ إن تركيا ومصر وأفغان واليمن قد أرسلوا مندوبين إلى المؤتمر، وهم في طريقهم إليه. أليس من الحكمة أن نأخذ رأيهم في هذا الموضوع الخطير، وهم أعلم منا بالسياسة الدولية، وأعرف بطرق معالجة هذه الشئون، فإذا وافقوا على هذا الاقتراح فإن لموافقتهم من القوة المعنوية ما ليس لموافقتنا. فقبل الجميع هذا الاقتراح، وسر جلالة الملك من هذه الفكرة التي هيأت له فرصة للتفكير. وبالطبع لم يقبل أحد من مندوبي الدول هذا الاقتراح؛ لأنه توريط لدولهم في مشكلة هم في غنى عنها.

وقد انتهى المؤتمر الإسلامي الأول بقرارات ورغبات وتمنيات، كان نصيبها الإهمال من العالم الإسلامي؛ لأنه لم يعد لها القوة ولم يتمكن المندوبون من جمع الإعانات التي كانوا يؤملون جمعها، وحكومة الحجاز لا تستطيع أن تقوم بما طلب منها، فليس لديها من المال ما تستطيع به تنفيذ جميع رغبات العالم الإسلامي. وبالجملة فإن جميع الآمال التي كنا نرمي إليها من المؤتمر الإسلامي من الإصلاح الديني والاجتماعي العام، وإصلاح البلاد المقدسة إصلاحًا يتفق مع مقتضيات هذا الزمن، ورفع مستوى الحجاز إلى المستوى اللائق بجلاله وقديسيته، قد فشلت. فلعل المسلمين ينتفعون من أغلاطهم، ويعملون لقد مؤتمر آخر يعمدون فيه إلى الإصلاح، ويتركون المساعي السياسية التي ليس من ورائها فائدة إيجابية.

ابن السعود وإمام صنعاء

لم تكن هنالك صلة مراسلة أو غيرها بين ابن سعود وإمام صنعاء حتى سنة ١٩١٩م، فإن حادثة الحج اليماني^(١) في عسير كانت سبباً للتعارف وتبادل الرسائل من وقت لآخر، ثم أخذت مصالح الحكومتين في التضارب بعد موت السيد محمد علي الإدريسي، وانتهاز الإمام يحيى الفرصة لطبي صحيفة حكمهم من عسير، وتقدم سلطان نجد في الحجاز، كل هذا جعل الفريقين وجهًا لوجه. فإن الأدارسة بعد ما أحسوا بالخطر المحدق بهم ولوا وجههم شطر ابن سعود حليف محمد علي الإدريسي. فأعلن الحماية على عسير، وأخبر الإمام يحيى بذلك في خريف سنة ١٩٢٦م، ثم أخذ الفريقان يتبادلان الكتب والوفود للوصول إلى حل حاسم خاص بالحدود والقبائل؛ فلم يوفقوا إلى ذلك؛ لأن حسن النية لم يكن متوفرًا من كل وجه. وأخيرًا اضطر ابن سعود لامتناع الحسام بعد أن أعيته الحيل، وبعد أن انتهك الإمام يحيى حرمة بلاده باحتلال قسم منها. وقد تمكن في مدة قصيرة من التقدم في تهامة حتى الحديدية؛ غير أنه - وهو الرجل العاقل النافذ البصر - لم يكن يرمي في الحقيقة إلى فتح اليمن؛ لأن ذلك يلقي عليه مسئوليات جديدة، وربما يعرض البلاد العربية للتدخل الأجنبي، والملك عبد العزيز يفضل أن يفتح قلب إمام اليمن ويكتسب وده وصداقته أكثر من فتح اليمن نفسها. وقد وصل إلى الغرض الذي كان يرمي إليه. فإمام اليمن قد أفهمته الحوادث قوة ابن سعود، وأن ما توهمه من ضعف لم يكن إلا حلمًا وطول أناة، وقد ضرب الملك عبد العزيز بالصلح الذي عقده مع إمام اليمن أفضل الأمثال في التسامح واكتساب صداقة خصمه، كما ضرب أفضل الأمثال في

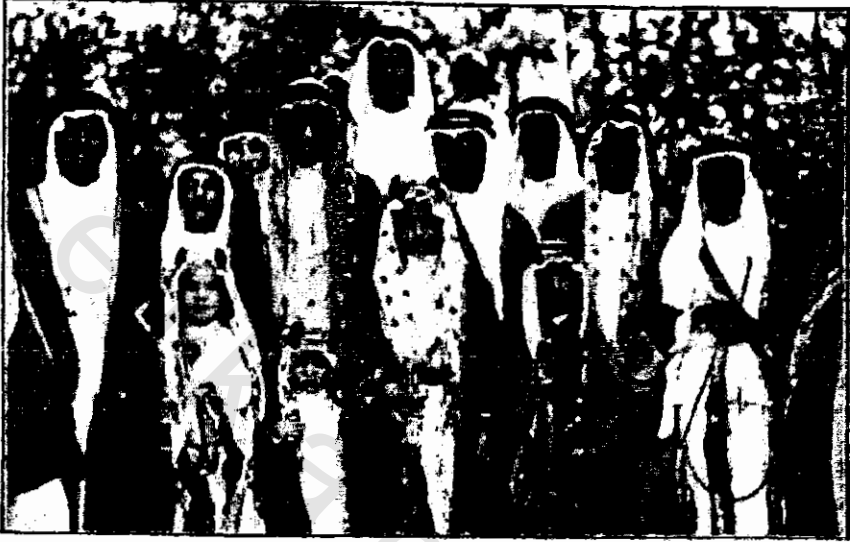
(١) من يريد تفاصيل مغامرات اليمن، فليراجع الكتاب الأخضر الذي أصدرته وزارة خارجية الحجاز.

حبه للتفاهم مع أمراء العرب، وسعيه للاتحاد العربي الذي ينشده أحرار العرب ومفكروهم من نصف قرن. ولعلنا نرى في المستقبل القريب الرغبة الصادقة من ملوكهم وأمرائهم في التفاهم، وإزالة ما بينهم من إحن شخصية، وتقديم المصالح المشتركة العامة على الاعتبارات الشخصية. فإن مجد العرب لا يسترد إلا باجتماع كلمة العرب واتحادهم. بصر الله العرب وملوكهم بما فيه خيرهم وصلاتهم.

حياة الملك عبد العزيز الشخصية

لقد صحبت الملك عبد العزيز في السلم وفي الحرب، وعاشرته في البادية والحاضرة، وخبرته في حالتي الرضا والغضب، وحياته الشخصية لا تكاد تختلف إلا سيراً، فهي أشبه بنظام أتوماتيكي لا يكاد يتغير.

يقوم الملك عبد العزيز عادة قبل الفجر بساعة، فيقرأ القرآن حتى إذا أذن مؤذن الفجر أدى فريضة الصلاة، ثم انصرف إلى بيته يقرأ شيئاً من القرآن والأوراد الصحيحة النسبة عن النبي صلى الله عليه وسلم. ثم تعرض عليه الأشياء التي يقتضي البت فيها بسرعة، ثم ينام بعد ذلك قليلاً، فيغتسل كل يوم صباحاً ويلبس ثيابه ويفطر. ثم يخرج إلى مجلسه الخاص، فتعرض عليه مهام الحكومة، ويعطي أوامره لموظفيه. وإذا انتهى من ذلك قابل الناس من شيوخ البدو وكبار العرب مقابلات خاصة، يسمع شكوى المشتكى ونصح الناصح، ويبحث زعماء الزوار فيما يهم من شئونهم. ثم يذهب إلى المجلس العام الذي يجتمع فيه كل من يريد مقابله، ويقضي في هذا المجلس نحو ساعة يمضيها في حديث أشبه بخطابة فيما يهم من أمور الدين والدنيا، وينصرف إلى الغذاء، ثم يرجع إلى بيته فينام قليلاً، ثم يصلي الظهر، ثم يرجع إلى مجلسه الخاص، فتعرض عليه الشئون الهامة، ثم ينصرف لصلاة العصر، فيحضر عنده إخوانه وأولاده وأقاربه، وكبار الموظفين يسامرهم، ثم يخرج بعد ذلك في سيارته إلى الخارج للرياضة، وبعد العشاء يجلس في مجلس عام، وهنالك يحضر قارئ يقرأ نحو ساعة ونصف من كتب مختلفة في الحديث والتفسير والتاريخ والأدب، وبعد ذلك ينصرف إلى بيته.



أنحاب السمو الملكي ، انجال جلالة الملك ابن السعود بين نفر من الحراس

ومما يجب أن يذكر: أن الملك عبد العزيز - أثناء إقامته في الرياض - يقوم بزيارة والده الإمام عبد الرحمن كل يوم، وكذا سائر أقاربه الأذنين. وكذلك لا تزال هذه عادته في مكة يزور كل يوم الحاضر من أقاربه.

والملك ابن سعود مشهور في بلاد العرب بكرم الخلق وبسط اليد، لا يعرف أي قيمة للدرهم، إلا أنه وسيلة لبناء المجد، أو حسن الذكرى. فقلما يرد سائلاً يطلب معونته، أو محتاجاً يقصد بابه. وهو يشرف بنفسه على إعطاء القاصدين حسب منازلهم؛ لأنه هو يعرفهم حق المعرفة، وقلما يعتمد على أحد آخر في ذلك، على أن هذه العطايا قد يكون لها مرام سياسية بعيدة يرمي إليها، وديوانه مفتوح للقادمين

يقابل زائريه مهما صر مقامهم بوجه باش، ويأخذ ألباهم بابتسامته التي لا تكاد تفارقه، ومجلسه لا يخلو من خطبة صغيرة يراعي فيها نفسية السامعين.

ولا يضيق صدر الملك عبد العزيز إلا عندما يجد خزائنه تضيق عن الطلبات والعطايا، فهو يتكدر خوف أن يظهر بمظهر العاجز أمام السائلين الذين تعودوا رفته.

وكان الملك يسخر منا كثيرًا حينما ننصحه بالإدخار، ونقول: إن المستقبل علمه عند الله، وأن الرخاء ليس بدائم. فيقول: إن المال لا ينفع، هل أفادت عبد الحميد خزائنه وما ادخره من المال؟ وهل أفادت خزائن الرشيد الرشيد؟ وأعتقد أن الملك قد غير فكره في هذه الأزمة التي أخذت بالخنق، وأصبح يعتقد في المال وفائدة ادخاره لوقت الشدة.

والملك عبد العزيز من المعجبين بمحمد بن الرشيد أمير حائل، والذي امتدت سيادته على نجد كلها، والذي في أيامه هاجر الأمير الصغير مع والده إلى الكويت، وهو ينحو نحوه في طريقة العطاء، وهو دائمًا يقص القصص الآتية إعجابًا بتصرف الرجل:

وفد شيخ من مشايخ البدو الكبار على محمد بن الرشيد، فأكرمه وأعطاه شيئًا قليلًا، وفي نفس الوقت وفد شيخ من مشايخ البدو الصغار - وكان الأخير في وقته يقطع الطرق مع رجال قبليته في شمال نجد - فأكرمه إكرامًا زائدًا، وكساه وأعطاه منحة كبيرة، فسئل محمد بن الرشيد عن هذا التصرف الغريب؟ فقال: أما الأول فإنه وإن كان قويًا وكبيرًا، ولكنه يحس بما عليه من المسؤولية، وإنه يحافظ على مركزه وماله بالولاء لنا، فهو في حاجة إلينا، وأما الآخر فمثل العصفور ينتقل من شجرة إلى

أخرى يتعبك صيده، فنحن في حاجة إلى تأليفه وإرضائه، وما نكفه به شره لا يساوي شيئاً إذا قورن بما نبذله لتأديبه وعقوبته.

والملك عبد العزيز وفي لأصدقائه، محافظ على ودهم، لا يحب أن يبدأ أحداً بالعداء، ويميل إلى استرضاء الناس واكتساب ودهم مهما كلفه ذلك، ولكن إذا تيقن أن ليس هنالك من سبيل للصدقة، فإنه يعادي - ويعادي بشدة - ولكنه قلما يهاجم خصمه، فإذا هاجمه خصمه فإنه يبذل كل ما يمكنه بذله للقضاء عليه، وهو في هذه الحالة يأخذ بسياسة «الغاية تبرر الوسيلة».

والملك عبد العزيز طيب القلب، لا يكاد يضرر حقداً. وهو إذا غضب - وغضبه قليل - فإنك ترى أسداً يزأر، أو جملًا يهدر، وتكاد عينك تكذب أن هذا الغضبان هو عبد العزيز بن سعود، الرضي الخلق، الوسيم الوجه. وكثيراً ما كان يعتذر عن التصرفات التي تصدر في حالة غضبه، كما أنه كثيراً ما يغمر خدمه الذين يصيبهم شرر غضبه فينسيهم ألم ما أصابهم.

وهو متواضع، طيب العشرة، رقيق السمر، له جاذبية لمن يعرفه تشبه السحر. وإنني لا أذكر أن واحداً من كبار الإنجليز عرفه وعامله إلا أحبه، ولا يزال له أصدقاء من الإنجليز الذين كان له معهم اتصال سياسي. وهو كثير الشبه بمعاوية بن أبي سفيان في حلمه وبعد نظره، وحسن حيلته في تصريف الأمور.

في سنة ١٩٢٥م كان الملك ابن السعود يظهر إعجابه بالإنجليز وسعة ملكهم، وإخلاص رجالهم لبلادهم للجنرال كلايتون، فقال الجنرال: إن ما ذكرته صحيح؛ ولكن هذا الملك الواسع لم يؤسس إلا في مئات السنين، ولكن ألا يصح لنا - نحن الإنجليز - أن نعجب بك؛ فإنك في ثلاثين سنة قد أسست ملكاً واسعاً، وإذا اطرء

لك هذا الفتح وهذا التقدم، فأظن أنه في نصف المدة التي أسسنا ملكنا، تؤسس أنت إمبراطورية مثل أو أكبر من إمبراطوريتنا. وهذا ليس ببعيد إذا ساعدتكم تصرفات الزمان، وأخذتم بسنن التقدم، فإن أسلافكم العرب قد شيدوا إمبراطورية عظيمة في مدة قصيرة جداً لم يعرف التاريخ مثلها. فقال الملك: هذه وإن كانت أمنية العرب؛ ولكنني لا أعتقد في نفسي القدرة لتحقيق ذلك، وكل ما أتمناه أن يجعل من رجالنا من يماثلكم في الإخلاص والتضحية لبلادهم.

والملك ابن سعود ربما كان أحلم أمراء العرب، وأبعدهم عن الانتقام من الموظفين؛ ولا سيما الموظفين الذين يعرف لهم سوابق خدمة أو إخلاص؛ فإن هؤلاء أقصى عقوبة لهم العزل.

والملك ابن سعود يتساهل في كل شيء إلا ما يمس سيطرته الشخصية، أو ما يمس مركز حكومته؛ فإنه لا يتساهل فيه، وقد يعاد المعزول إلى منصبه أو أعلى منه إذا تصرف بعد العزل تصرفاً يرضي الملك. لقد عزل الملك أمير الطائف سنة ١٩٢٧م لشدته، فلما أن حضر إلى مكة قال له الملك: إننا لم ن عزلك من منصبك لنقص في دينك، أو شبهة في أمانتك؛ ولكننا نحيناك لشدتك، ونحن نريد اللين مع الناس، فقال له الأمير: الحمد لله؛ لقد ولاك الله على المسلمين وأنت أعلم بمصالحهم، ولئن حرمت من المنصب فإني أتمتع برؤيتكم صباحاً ومساءً، وهذا لا يعادله شيء في هذه الدنيا. فسر الملك لهذا الجواب اللطيف وواظب هذا الأمير على حضور مجلس الملك كل يوم، فلم تمض بضعة أشهر على عزله من الطائف حتى عين أميراً للمدينة، وهو فيها إلى الآن حائر لرضى الملك، متمتع بثقته.

والملك عبد العزيز من الرجال العمليين الذي لا تغرهم مظاهر الأمور؛ كان علماء الرياض لما اعترضوا عليه سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) إذنه بإقامة الاحتفالات

لمناسبة عيد جلوسه على عرش الحجاز، ومخالفة ذلك للسنة، أرضاهم بالنزول على رأيهم؛ لأن ما يتعلق بشخصه لا أهمية له في نظره؛ ولكن هذا لم يمنعه من معارضتهم في تميم المواصلات اللاسلكية في بلاده وتشيدها؛ لاعتقاده بخطأ المعلومات التي تصل إلى نجد عن التلغراف اللاسلكي من أنه من عمل الشيطان، وأنها بالعكس ركن من أركان السلم، وحفظ الأمن، وإنجاز الأعمال.

أعمال الملك عبد العزيز الإصلاحية

لا يقدر مجهودات الملك عبد العزيز حق قدرها إلا الواقفون على أحوال البلاد العربية المتصلون بها، الخابرون بشئونها، الملمون بأحوال سكانها وطرق معيشتهم. إن الذي يعرف بلاد العرب - قبل ثلاثين سنة - عن خبرة شخصية، أو يقرأ كتب الجوايين من الإنجليز: يعرف ما لهذا الرجل من فضل في استتباب الأمن، والضرب على أيدي قطاع الطرق من القبائل.

والذي يعرف بلاد العرب وما كانت عليه من تشاحن بين أمرائها، وحروب مستعرة بين حكامها، يقدر مجهود هذا الرجل في قطع دابر الخصومات بتوحيد بعض الإمارات المتخاصمة.

ولقد ذكرنا في فصول متفرقة في هذا الكتاب ما له من الأيادي، كإدخال النظام الصحي الحديث في نجد والأحساء: بالإكثار من الأطباء، وإنشاء المستشفيات المتنقلة لمعالجة المرضى؛ لأن حالة البلاد المالية لا تساعد على إنشاء مستشفى في كل بلد، كما أدخل نظام التطعيم ضد الجدري بالرغم من معارضة بعض المتعصبين، كما ذكرنا فضله على العمل لنشر التعليم والإكثار من المدارس، ومكافحة الجهالة بكل الوسائل الممكنة، ولولا قلة المال الذي يعوز كل مشروع إصلاحي، لوجدنا البلاد العربية التي يقود سفينتها عبد العزيز أسبق البلاد، وأسرعها خطى في طريق التقدم.

والملك عبد العزيز في طريقه الإصلاحية يفضل التؤدة والتأني، وإعداد الشعب لما يريد من الإصلاح.

إن كثيراً من القراء لا يدركون الصعوبات التي كان يعانيها الملك عبد العزيز، ولا العقبات التي تقف في سبيل ما يريد من المشروعات.

لقد مكث الملك عبد العزيز يجاهد ويحالد في سبيل التليفون والتلغراف اللاسلكي مرة مع الإخوان، وأونة أخرى مع العلماء نحو عشر سنوات، وكان هذا الموضوع من الموضوعات التي أثارت عليه حفيظة الإخوان.

سأقص عليك القصتين التاليتين، من كثير؛ لتعرف المحيط الذي يشتغل فيه الملك عبد العزيز، وتعرف الصعوبات التي كان يتغلب عليها:

أوفدني جلالة الملك للمدينة سنة (١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م) مع عالم من علماء نجد للتفتيش الإداري والديني، فجرى ذكر التلغراف اللاسلكي وما يتصل به من المستحدثات، فقال الشيخ: لا شك أن هذه الأشياء ناشئة من استخدام الجحش، وقد أخبرني ثقة أن التلغراف اللاسلكي لا يشتغل إلا بعد أن تذبح عنده ذبيحة، ويذكر عليها اسم الشيطان. ثم أخذ يذكر لي بعض القصص عن استخدام بني آدم للشيطان، ولقد كان شرحي لنظرية التلغراف اللاسلكي وتاريخ استكشافه ليس له نصيب من إقناع الشيخ، فلم أجد أي فائدة من وراء البحث؛ فسكتُ على مضض.

وفي يوم من الأيام دعاني الشيخ لمرافقته لزيارة قبر حمزة - عم الرسول صلى الله عليه وسلم - عند جبل أحد، وهو يبعد عن المدينة بالسيارة نحو نصف ساعة، فلبيت الدعوة وسرنا من المدينة بعد صلاة العصر، وفي أثناء الطريق أوقفت السيارة عند محطة التلغراف اللاسلكي، وهنا دار بيني وبينه الحديث التالي:

سأل الشيخ: لماذا وقفت السيارة؟ فأجبت: لرى التلغراف اللاسلكي، فإن كان هنالك ذبائح ودعوة لغير الله، فإني سأحرقه مهما كانت النتيجة، فالدين لله لا لابن

سعود، وقد يكون الملك مخدوعاً في أمر هذه التلغرافات، وتذكر له الأشياء على غير حقيقتها. فقال الشيخ: بارك الله فيك. فدخلت المحطة، وبعد البحث لم يجد الشيخ أي أثر لعظام الذبائح وقرونها أو صوفها، ثم أراه الموظف المختص طريقة المخابرة. وفي دقائق تبودلت المخابرات والتحيات بينه وبين جلالة الملك في جدة.

كانت هذه الزيارة البسيطة مدعاة للشك فيما كان يعتقد من عمل الشيطان في المخابرات اللاسلكية؛ ولكنه ظن أني ربما دبرت هذه المكيدة بإيعاز من الملك، فزار الشيخ محطة التلغراف بضع مرات منفرداً في أوقات مختلفة، بدون أن يخبر أحداً بعزمه، فكان يفاجئ العامل المختص بالزيارة، ويسأله عن كل ما يغمض عليه، وقد أخبرني الشيخ ونحن في طريقنا إلى مكة، بأنه يستغفر الله ويتوب إليه عما كان يعتقد، ويتهم به بعض الناس - وربما كان يقصدني في هذا الأمر - ثم ختمت الموضوع بقولي: ما قولكم يا حضرة الشيخ في رواية أولئك الثقات؟ أخشى أن تكون رواياتهم لكم عن أكثر المسائل العلمية كرواياتهم عن التلغراف! فقال: حسبي الله ونعم الوكيل.

وقد أخبرني جلالة الملك في شعبان سنة ١٣٥١هـ - ديسمبر سنة ١٩٣٢م أثناء زيارتي للرياض أن المشايخ - أي رجال الدين - حضروا عنده سنة ١٣٣١هـ لما علموا بعزمه على إنشاء محطات لاسلكية في الرياض وبعض المدن الكبيرة في نجد. فقالوا له: يا طويل العمر، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنا، وإن «فلبى» سيجر علينا المصائب، ونخشى أن يسلم بلادنا للإنجليز، فقال لهم الملك: لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد، ولست - والله الحمد - بضعيف العقل، أو قصير النظر لأخدع بخداع المخادعين، وما «فلبى» إلا تاجر. وكان وسيطاً في هذه الصفقة، وإن بلادنا عزيزة علينا لا نسلمها لأحد إلا بالثمن الذي استلمناها به.

إخواني المشايخ: أنتم الآن فوق رأسي، تماسكوا بعضكم ببعض، لا تدعوني أهرز رأسي، فيقع بعضكم أو أكثركم، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض لا يمكن أن يوضع فوق رأسي مرة ثانية؛ مسألتان لا أسمع فيهما كلام أحد؛ لظهور فائدتها لي ولبلادي، وليس هنالك من دليل أو سنة رسول الله يمنع من إحداث اللاسلكي والسيارات.

وعندما وضعت الآلة اللاسلكية في الرياض واستعملت، كان الناس يغري بعضهم بعضاً بأن إنشاء هذه المحطة هو الحد بين الخير والشر. وكان العلماء يرسلون من يأتمنهم لزيارة المحطة ورؤية الشياطين والذبائح تقدم لهم، فلم يجدوا شيئاً.

وقد أخبرني عامل المحطة بأن بعض المشايخ الصغار، كانوا يترددون عليه من وقت لآخر لسؤاله عن موعد زيارة الشياطين. وهل الشيطان الكبير في مكة أو الرياض؟ وكم عدد أولاده الذين يساعدونه في مهمة نقل الأخبار؟ فكان يجيبهم بأن ليس للشياطين دخل في عمله، وكان بعضهم يغريه بالنقود، وأنهم سيكتمون هذا السر. ولكن العامل كان يأخذ الأخبار ويرسلها أمامهم، ويخبرهم أن الموضوع صناعي محض. كانت الأيام تعمل عملها في نفوسهم، ورسلمهم ينقلون إليهم حقيقة ما يرونه ويشاهدونه، حتى لمسوا فائدة سرعة الأخبار في فتنة ابن رفاة وعسير. فقد ساعدهم ذلك في قمع الفتنة سريعاً، ولو كان الاعتماد على الجمال لكانت الأخبار لا تصل قبل ٢٥ يوماً أو أكثر، ومثلها في الرجوع، ولا يعلم إلا الله، ماذا يجري من الحوادث أثناء ذلك.

وتذكرنا هذه القصة بما كان يجري في القرون الوسطى في أوروبا، فماذا قوبل القائل بدوران الأرض؟ وبماذا قابل إمبراطور فرنسا ووزراؤه الساعة التي أهداها له هارون الرشيد؟ ألم يفزعوا منهم. ولقد حدث مثل هذا في نجد قبل ستين سنة؛ فإن

أول ساعة دقاقة كسرت، وعدت من عمل الشيطان، وحدث أن بعض الجهلة أذاع بين الإخوان هذه الفكرة، فقامت قيامة الإخوان منكرين على المشايخ استعملها، وأن أقل الأحوال فيها أنها بدعة، فتصدى لهم الشيخ سعيد بن سَحْمَان، ورد عليهم في رسالة صغيرة سنة ١١٣٤هـ (١٩١٦م) وطبعت في مصر سنة ١٩٢٣م.

فهذه القصص وأمثالها ترينا ناحية من نواحي عظمة ابن سعود، ومقدار ما كان يعانيه من الصعوبات في طريق الإصلاح، وترينا ناحية من نواحي الكفاح بين القديم والجديد.

ومن أعظم المشروعات الإصلاحية التي قام بها الملك عبد العزيز: مشروع تحضير البادية، وإقطاعهم الأراضي للسكنى والزراعة، وتعليمهم المبادئ الدينية ومكارم الأخلاق. ولما كان هذا المشروع قد شغل قسمًا من التاريخ النجدي الحديث، أحببنا أن نفرده له الفصل الآتي، مفضلين التفصيل على الإيجاز.

الإخوان

إذا ذكر الإخوان على حدود العراق، أو شرقي الأردن، أو الكويت - استولى الرعب على قلوب السكان، وهب البدو يطوون الصحراء لائذين بالبلاد القريبة منهم يهتمون بجدرانها وأبراجها. فمن هم رسل الذعر والهلع في بلاد العرب؟

إن كلمة «الأخ» قد استعملت بمعنى الخليف والمعاهد أو نشأة الإسلام، فقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الأوس والخزرج من الأنصار، وتناشوا ما بينهم من العدا والخصومات، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها}.

أمّا في السنوات الأخيرة: فقد أصبحت علما على سكان البادية الذين تركوا السكنى في الخيام، واستقروا في أماكن معينة، وبنوا لساكنهم بيوتا من الطين سميت «هجرة» إشارة إلى أنهم هجروا الحياة القديمة المكروهة إلى حياة أخرى محبوبة.

إن أول «هجرة» بنيت هي هجرة الأزطايوية سنة (١٣٣٠هـ - ١٩١١م) وسكانها خليط من حرب ومطير، ثم الغطط وسكانها من «عتيبة» ثم «دخنة» وأكثر سكانها من حرب، ثم «الأجفر» وأكثر سكانها من شمر، وتبلغ الهجر نحو ستين هجرة، ولكن أهمها ما تقدم.

ثم أخذت الهجر تنتشر بسرعة، وأخذت العشائر تقلد بعضها في ترك حياة البادية التي أصبحت تسمى بالجاهلية كما يسمون الحياة الجديدة بالإسلام.

وقد غالى فريق كبير من عتية في كره الجاهلية أو حياة البادية، فرأوا أن من آية الإخلاص لله ودينه، وآية الإيمان الصحيح: التخلص من كل ما يشتم منه رائحة الجاهلية، فأخذوا يبيعون إبلهم وأغنامهم، وينقطعون في «الهجر» للعبادة وسماع السيرة النبوية، وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وتاريخ انتشار الإسلام في جزيرة العرب، فوجدوا أن حياتهم الأولى تشبه في كثير من الوجوه حياة الجاهلية، كما أن حياتهم الأخيرة تشبه حالة الإسلام في أيامه الأولى. فعكف أكثرهم على تعلم مبادئ القراءة، وحفظ شيء من القرآن والحديث. غير أن هذا الانقلاب كان خطيراً وعنيفاً جداً.

لقد تشرب هؤلاء كثيراً من المبادئ والتعاليم، واعتقدوا أنها هي الدين، وما سواها ضلالة، كما أساءوا الظن بغيرهم من حضر نجد؛ بل وبولي أمرهم الإمام عبد العزيز.

أصبحوا يعتقدون أن لبس العمامة هي السنة، والعقال من البدع المنكرة؛ بل غالى بعضهم فجعله من لباس الكفار، ويجب مقاطعة لابسيه. وكان كثير منهم يعتقد أن لا إسلام لمن لم يسكن الهجر مهما كان عليه من الإسلام، وترك شرور البادية وعوائدها، فلا يبدأون غيرهم من هؤلاء بسلام، ولا يردون عليهم السلام، ولا يأكلون ذبائحهم. وذنب هؤلاء هو عدم الهجرة.

وكان من عوائد الإخوان إذا قدموا زائرين قاموا في المسجد، وقالوا: السلام عليكم (يا لإخوان) إخواننا يسلمون عليكم.

وكان فريق منهم يعتقد أن المشايخ مقصرون مدهنون لابن سعود، وقد كتموا الحق عنهم.

وكانوا يعتقدون أن الحضرة ضالون، وأن غزو المجاورين واجب، وأنه ألقى عليهم هذا الواجب من قبل الله، فلا يسمعون كلام أحد في منع الغزو.

ولقد نال بعضهم الإمام عبد العزيز، فرموه بموالة الكفار والتساهل في الدين، وأنكروا عليه تطويل الثياب والشارب ولبس العقال، إلى غير ذلك من ضروب الجهالة، وأصبحوا يجرمون كل ما لا يتفق وهواهم. وإن سريان هذه الروح المتمردة يرجع إلى هؤلاء الجهلة أنصاف المتعلمين الذين انتشروا في قرى الإخوان باسم العلم، ولقنوههم هذه التعاليم وحببوا إليهم التعصب الذميم. وربما كانت سنة ١٣٤٥ هـ من أشد السنين في نجد؛ إذ كادت تقع فيها فتنة أهلية بين الإخوان من جهة، وبين الحكومة والحضر من جهة أخرى، ولقد جرد الإمام جيشاً من طلبية العلم المتفقهين في دينهم وأرسلهم إلى الإخوان كي يصلحوا ما أفسد الأولون، كما أنه انتزع أولئك الذين بذروا الجهالة والغواية، ومنعهم من السكنى في الهجر. على أن السلطان - وإن نجح في ذلك كثيراً - فإنه لم يتمكن تمامًا من استئصال تلك الجذور التي تمكنت من نفوسهم، ولولا أنهم يخافون سيفه، ويهابون سلطانه وسطوته لعمت الفوضى جزيرة العرب.

لقد عرفت البدو في حروبهم وفي حياتهم البدوية، وعرفتهم بعد ما سكنوا الهجر، وعرفت كثيراً من قاداتهم في جاهليتهم وإسلامهم، فرأيت أن الدين قد غيرهم تغييراً تاماً.

كان البدوي لا همَّ له إلا النهب والسلب وقطع الطريق. ويعد هذا العمل من مفاخر البادية، والويل للضعيف في البادية. وكان لسان حالهم يقول: «المال مال الله، يوم لي ويوم لك، نصبح فقراء ونمسي أغنياء، ونصبح أغنياء ونمسي فقراء». والقوافل التجارية كانت تحت رحمة البادية، لا تمر من المنطقة إلا بإتاوة أو رفيق.

والبدوي لم يكن مخاطرًا بحياته، فإذا رأى أن النهب سيكون من ورائه خطر تركه. وكذلك إذا رأى دفاعًا قويًا من خصمه تركه. والبدوي لا يعرف قلبه الإخلاص تقريبًا؛ شيمته الرياء والنفاق، لا تنفع معه إلا الشدة المشوبة بالعدل، ولذا فلا يعول الأمراء كثيرًا على عددهم ولا على قوتهم. وكثيرًا ما كانوا وبالًا على صديقهم. فإذا بدرت منه بوادر الهزيمة، فإنهم يكونون أول الناهيين له، ويحتجون بأنه ما دام صديقهم منهوبًا، أو مأخوذًا - كما يقولون - فهم أولى به.

أما الإخوان الآن: فهم حماة الطريق، يرون حرمة التعدي على المسافر وابن السبيل، ويرون للجار والمسلم حرمة، فالمسلم حرام دمه وماله.

أصبح الإخوان لا يهابون الموت؛ بل يندفعون إليه اندفاعًا؛ طلبًا للشهادة ولقاء الله، وأصبحت الأم حينها تودع ابنها تودعه بهذه الكلمات: «اللهم اجمعنا وإياك في الجنة». وأصبحت كلمة التشجيع على الحرب: «هبت هبوب الجنة، وئن أنت يا باغيها». وكلمتهم عند الهجوم: «إياك نعبد وإياك نستعين».

ولقد شاهدت بعض مواقعهم الحربية، فوجدتهم يقدفون أنفسهم إلى الموت قذفًا، ويتقدمون إلى أعدائهم صفًا صفًا، ولا يفكر أحدهم في شيء إلا هزيمة العدو وقتله. والإخوان على العموم لا تعرف قلوبهم الرحمة؛ لا يفلت من تحت يدهم أحد، فهم رسل الموت أينما رحلوا.

وقد ظهرت قوة الإخوان الحربية في هزيمة أهل الكويت هزيمة منكرة في واقعة «حمض» سنة ١٩١٩م، ثم في حصار شيخ الكويت في «الجهرة» سنة ١٩٣٠م، وفي إبادة جيش الشريف عبد الله في واقعه «تربة» سنة ١٩١٩م، ثم في هجومهم المتكرر على العراق والكويت وشرق الأردن.

وبالرغم من أن إمامهم كان ينهاتهم كثيراً عن هذه الغزوات، وأنه كان دائماً يأمرهم بالرفق وعدم القتل، وبالرغم من أن علماءهم كانوا يوصونهم دائماً بعدم قتل الأسير أو المستجير، فإنهم لم يصغوا إلى أحد.

وإن من يقرأ رسائل العلماء في الإنكار عليهم، وعلى أنصاف المتعلمين الذين سمموا أفكارهم، يرى أن علماء نجد لم يقصروا في النصيحة، ويعلم أن ما يعمله بعض الإخوان مما تاباه طبائع العرب، ولا تقره الشريعة الإسلامية، لا يصح أن تلقي تبعته على علماء نجد أو سلطان نجد.

وللإخوان قصص طريفة تدل على بساطتهم وشدة تأثرهم بالدين:

جاء أحد الإخوان إلى أحد المشايخ وسأله عن النفاق، فأخبره بحده الشرعي. ثم سأله عن الخوف في الحرب، فقال له العالم: إذا لم تعط العدو ظهره، فلا يسمى هذا فراراً أو نفاقاً. فقال: لا - إن شاء الله لا أعطي العدو ظهري - إن هذا كفر يا شيخ. لا، إن في قلبي نفاقاً، إني حينما كنت أهجم وجدت في نفسي شيئاً من التردد بسبب أزيز الرصاص، لا بد أن يكون النفاق في جنبي. أخرج النفاق بعصاك أيها الأخ. ولكن الشيخ أفهمه بصعوبة أن هذا ليس من النفاق أو الكفر أو الهزيمة.

وجاء رجل آخر حاملاً صرة فيها نقود ذهبية وجدها بعد معركة «تربة»، فسأل الشيخ: هل هي حلال له؟ فقال الشيخ: إنها من الغنيمة، ولا يحل لك إلا ما سيصيبك بعد القسمة، فسلمها من فوره لمتولي الغنيمة، ثم قال: لا والله لا أستحلها. فأين هذا من خلق البادية؟

إذا وجدك الأخ في الطريق ووجد شاربك طويلاً، فإنه يدعوك إلى السنة، ثم يضع يده على شاربك ويقص الزائد. أما إذا كنت ماراً بالهجرة، فإن العملية تتم قسراً وزجراً لا بطريق النصح واللطف.

وكذلك إذا وجدوا الثوب زائداً، فإن المقص يعمل عمله في الزائد تنفيذاً للحديث: ((فضل الإزار في النار)). وبالرغم مما يأتيه الإخوان من الخطأ والخطل، وتجاوزهم حدودهم إزاء الحكومة، فإن الملك ابن السعود كان يغضي عن أذاهم، ويحتمل نقدهم بحلم وصبر، قلما عرف عن غيره من ملوك العرب. وكان دائماً يقول: إن الإخوان يجب احتماهم، ومهما فعلوا فحالتهم الآن خير من حالتهم الأولى. وأما هذه الغيرة والشدة: فالزمن كفيف بتخفيف حديثها.

أما شدة الإخوان في مكة - أول دخولهم لها - فحدث عنها ولا حرج، فلم تكن هنالك أي هيئة للحكومة، فكل ما يعتقد الأخ منكرًا يزيله بنفسه، ببندقية أو بعصاه أو بيده.

وكثيراً ما كان الملك ابن السعود ينزل على رأيهم اتقاء لفتنة قد تحدث. كما أنه كثيراً ما يقبض عليهم بيد من حديد، إذا رأى أن المسايرة قد تضعف سلطانه في جزيرة العرب.

لأول مرة شاهد الملك ابن السعود التليفون في مكة، ورأى الفائدة العظيمة التي يسديها التليفون في إنجاز الأعمال وسرعة المواصلات، ولما نقل معسكره من الزاهر (الشهداء بقرب مكة) إلى حذاء أراد أن يمد سلكاً تليفونياً بين مكة وبين حذاء، وسلكاً آخر بين الرغامة وبين حذاء، حتى يكون على اتصال تام فيما بين مكة ومقره وبين ميدان الحرب. وكنا نقطع المسافة بين مكة وبين معسكره الخاص في ٤ ساعات

ذهابًا، ومثلها إيابًا، بالبغال أو الإبل السريعة، وكانت الخيل تقطع المسافة أيضًا في مثل هذه المدة من الرغبة إلى حذاء، ولكنه عدل أخيرًا عن هذه الفكرة؛ لأن إنشاء التليفون يهيج نائرة الإخوان، فأرجأ هذه المسألة. وكثيرًا ما كان الإخوان يقطعون أسلاك التليفون؛ لأنه منكر يجب إزالته. وكثيرًا ما كانوا يتعمدون قطع الأسلاك الموصلة إلى قصر السلطان أثناء وجوده في مكة. كل هذا كان يتحملة على مضض معتمدًا على الزمن. وحدث مرة أن أحد الإخوان ضرب خادماً للملك يركب عجلة (بسكليت) وتسمى بلغة نجد (عربة الشيطان) أو (حصان إبليس) بدعوى أنها بدعة، وأنها تسير بقوة السحر وعمل الشيطان؛ بدليل أن الراكب إذا نزل لم تقف، ولكن الملك أدب هذا المعتدي أدبًا أرجعه إلى رشده.

وفي سنة ١٩٢٦م اضطر جلالة الملك أن ينزل على رأيهم في إيقاف تلغراف المدينة اللاسلكي، وهدم بعض المساجد المقامة على القبور؛ لأنه لم يكن يسعه غير ذلك، والحكمة كانت تقضي بذلك، فهو لا يقف أمام التيار، بل يتركه يسير بطبيعته، ثم بعد أن تهدأ العاصفة يعمل فكره لضرب خصومه في الظروف المناسبة، وعند سnoch الفرص المناسبة.

وأشد الناس على الإخوان: الأمير عبد الله بن جلوي حاكم منطقة الأحساء، فكثيرًا ما سمعته يقرع رؤساء بني خالد وآل مرة والعجمان على شدتهم وغلوهم، وأن حالتهم الأولى - على ما فيها من الشرور - خير من حالتهم هذه، وإن الدين ليس في العرائم. وهو لا يسمح لأحد منهم كائنًا من كان أن تمتد يده إلى أحد من أهل الأحساء، وإذا تجرأ أحد فجزاؤه أصرم العقوبات، ولذلك إذا دخلوا الأحساء للميرة نزعوا عمامتهم وقضوا حوائجهم في هدوء وسكون. لقد سمعت الأمير عبد الله بن جلوي وغيره من آل سعود، وكبار آل الشيخ ينصحون الملك عبد العزيز

بالتبصر في غلو الإخوان، وخروجهم عن حدودهم، ولكن الملك كان دائماً يقول: هؤلاء أولادي. وواجبي احتمالهم والتجاوز عن سيئاتهم وخطئهم، وبذل النصيحة لهم، وإني لا أنسى أعمالهم وأعتقد أنهم حسنو النية، وسينكشف الحق لهم.

أول مؤتمر للإخوان

في عيد الفطر سنة ١٣٤٣ هـ - وهو أول عيد لنا في مكة - زرت الشريف خالد بن لؤي أنا والدكتور عبد الله الدمولوجي، وكان لديه فيصل الدويش وجماعة من الإخوان، اجتمعوا هنالك بعد صلاة العيد للمعايدة على بعضهم، فخطب الحضور فيصل الدويش، وهذه عادة من عادات الإخوان، لا تخلو مجالسهم من نصيحة أو عظة، فقال مخاطباً خالداً وجماعته:

نحمد الله يا خالد، ويا «الإخوان» على نعمته، فقد دخلنا بلد الله الحرام وطردنا الشريف من هذا البيت. إننا جند الله وخدم لدينه، لا نريد إلا أن تكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر، ولا نريد إلا رفع المظالم وإزالة البدع والمنكرات. وإن هذا السيف وهذا الجند سيعمل هذا العمل في كل من يسير في طريق الشريف، ويعمل عمله، فأمن الإخوان كلهم على كلامه. فكان هذا في الحقيقة أول إنذار من أحد قادة الإخوان، ولم تمض سنة على هذه الخطبة حتى سمعنا أن هنالك مؤتمراً يعقد في الأرطاوية، حضره رؤساء الإخوان من مطير وعُتيبة والعجمان، تعاهدوا فيه على نصرة دين الله والجهاد في سبيله، ثم أنكروا صراحة على الملك عبد العزيز:

أولاً: إرسال ولده سعود إلى مصر «بلد الشرك».

ثانياً: إرسال ولده فيصل إلى لندن.

ثالثًا: استخدام السيارات والتلغرافات والتليفونات.

رابعًا: الضرائب الموجودة في الحجاز ونجد.

خامسًا: الاحتجاج على إذنه لعشائر العراق وشرق الأردن بالرعي في أراضي المسلمين.

سادسًا: الاحتجاج على منع المتاجرة مع الكويت؛ لأن أهل الكويت إن كانوا كفارًا حوربوا، وإن كانوا مسلمين فلماذا المقاطعة؟!

سابعًا: النظر في شيعة الأحساء والقطيف، وإجبارهم على الدخول في دين أهل السنة والجماعة.

لقد عجل الملك عبد العزيز بالرجوع من الحجاز إلى نجد، عن طريق المدينة ليعالج الحالة بحكمته، فدعا زعماء الإخوان إلى مؤتمر أمر بعقده في الرياض في ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥هـ - يناير سنة ١٩٢٧م، وقد لبى الدعوة جميع زعماء الإخوان ما عدا سلطان بن بجاد. ففي هذا الاجتماع شرح الملك عبد العزيز موقفه شرحًا وافيًا، فوصف نفسه بأنه خادم الشريعة، محافظ عليها أتم المحافظة، وأنه هو الذي يعهدونه من قبل لم يتغير. كما يتوهم بعض الناس، ولا يزال ساهرًا على مصالح العرب والمسلمين.

وقد انتهى هذا الاجتماع بالفتوى المشهورة التي أصدرها علماء نجد في صدد المسائل التي كانت سبب تشويش الإخوان، وأعلن الحاضرون تعلقهم بإمامهم وملكهم، وبايعوه بالملكية على نجد، فأصبح لقبه الرسمي «ملك الحجاز ونجد وملحقاتها». وفيما يلي نص الفتوى:

من محمد بن عبد اللطيف، وسعد بن عتيق، وسليمان بن سحمان، وعبد الله بن عبد العزيز العتيق، وعبد الله العنقري، وعمر بن سليم، وصالح بن عبد العزيز، وعبد الله بن حسن، وعبد الله بن عبد اللطيف، وعمر بن عبد اللطيف، ومحمد بن إبراهيم، ومحمد بن عبد الله، وعبد الله بن زاحم، ومحمد بن عثمان الشاوي، وعبد العزيز بن العثري، إلى من يراه من إخواننا المسلمين. سلك الله بنا وبهم الطريق المستقيم. وجنبنا وإياهم طريق أهل الجحيم، آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد: فقد ورد علينا من الإمام -سلمه الله تعالى- سؤال من بعض الإخوان عن مسائل يطلب منا الجواب عنها، فأجبناه بما نصه:

أما مسألة البرقي^(١) فهو أمر حادث في آخر هذا الزمان ولا نعلم حقيقته، ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم، فتوقفنا في مسألته، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم، والجزم بالإباحة والتحريم يحتاج إلى الوقوف على حقيقته. وأما مسجد حمزة وأبي رشيد فأفتينا الإمام -وفقه الله- بهدمهما على الفور. وأما القوانين: فإن كان موجوداً منها شيء في الحجاز فيزال فوراً، ولا يحكم إلا بالشرع المطهر. وأما دخول الحاج المصري بالسلاح والقوة في بلد الله الحرام، فأفتينا الإمام بمنعهم من الدخول بالسلاح والقوة، ومن إظهارهم الشرك وجميع المنكرات. وأما المحمل فأفتينا بمنعه من دخول المسجد الحرام، ومن تمكين أحد أن يتمسح به أو يقبله، وما يفعله أهله من الملاهي والمنكرات يمنعون منها. وأما منعه عن مكة بالكلية: فإن أمكن بلا مفسدة تعين، وإلا فاحتمال أحد المفسدتين لدفع أعلاهما سائغ شرعاً. وأما الرافضة: فأفتينا الإمام أن يلزمهم البيعة على الإسلام، ويمنعهم من إظهار شعائر دينهم الباطل،

وعلى الإمام أيضًا أن يلزم نائبه على الأحساء أن يحضرهم عند الشيخ ابن بشر، ويبايعوه على دين الله ورسوله، وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم، وعلى ترك سائر البدع من اجتماعهم على مآتهم وغيرها مما يقيمون به شعائر مذهبهم الباطل، ويمنعون من زيارة المشاهد، كذلك يلزمون بالاجتماع على الصلوات الخمس هم وغيرهم في المساجد، ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون ونواب من أهل السنة، ويلزمون بتعليم ثلاثة الأصول وكذلك إن كان لهم محال مبنية لإقامة البدع تهدم، ويمنعون من إقامة البدع في المساجد وغيرها. ومن أبي قبول ما ذكر ينفي من بلاد المسلمين. وأما الرافضة من أهل القطيف: فيلزم الإمام -أيده الله- الشيخ ابن بشر أن يسافر إليهم ويلزمهم بما ذكرنا. وأما البوادي والقرى التي دخلت في ولاية المسلمين: فأفتينا الإمام أن يبعث لهم دعاة ومعلمين. ويلزم نوابه من الأمراء في كل ناحية بمساعدة المذكورين على إلزامهم بشرائع الإسلام، ومنعهم من المحرمات. وأما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين: فأفتينا الإمام بكفهم عن الدخول في مراتع المسلمين وأرضهم. وأما المكوس: فأفتينا أنها من المحرمات الظاهرة، فإن تركها فهو الواجب عليه، وإن امتنع فلا يجوز شق عصا طاعة المسلمين والخروج عن طاعته من أجلها. وأما الجهاد: فهو محمول إلى نظر الإمام، وعليه أن يراعي ما هو الأصلح للإسلام والمسلمين على حسب ما تقتضيه الشريعة الغراء. ونسأل الله لنا وله ولهم ولكافة المسلمين التوفيق والهداية، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

[حرر في ٨ شعبان سنة ١٣٤٥هـ].

إزاء هذه الفتوى اضطر الملك إلى عدم قبول المحمل، كما اضطر إلى هدم مسجد حمزة، وتعطيل التلغراف اللاسلكي، فعمل بذلك على تلافي الفتنة أو تأجيل وقتها. لم

يرض الدويش - وهو أول الرأس المدبر لثورة الإخوان - أن يحبط ابن سعود عمله وتديره، فوضعه أمام مشكلة جديدة؛ وذلك أنه أرسل قوة صغيرة في أكتوبر سنة ١٩٢٧م قتلت عمال مخفر بُصَيَّة على الحدود العراقي النجدية، وقتلت بضعة أنفار من الشرطة كانوا مع العمال، فأدى هذا العمل إلى إنذار السلطات البريطانية في العراق للعشائر التي على الحدود للابتعاد إلى داخل نجد، ثم هجوم الطيارات البريطانية واشتباكها مع العشائر النجدية نحو ثلاثة أشهر، فرأت الحكومة البريطانية - بعد مفاوضات مع جلالة الملك عبد العزيز - إيفاد السير جلبرت كلايتون لحل المشاكل القائمة. وقد رأى جلالة الملك أن يعقد مؤتمر بُرَيْدَة في إبريل سنة ١٩٢٨م لتهدئة ثائرة الإخوان وإفهامهم أنه يشاركهم الرأي في سحقهم على بناء المخافر على الحدود؛ ولكنه يرى الأفضل حسم المشكل بطريق المفاوضات، وأخبرهم أنه مسافر إلى جدة للاجتماع بالمفاوض البريطاني، ووعدهم بالاجتماع معهم في الرياض بعد رجوعه من الحجاز، ومفاوضه الحكومة البريطانية، لإيقافهم على جلية الأمر؛ غير أن المفاوضات البريطانية لم تسفر عن قبول وجهة النظر النجدية، وأصررت هي والحكومة البريطانية والعراقية على موقفها في بناء المخافر.

رجع الملك عبد العزيز من الحجاز إلى الرياض، فوصلها في ديسمبر سنة ١٩٢٨م، وأمر بعقد المؤتمر النجدي - أو الجمعية العمومية - كما سميتها أم القرى في ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٤٧هـ - ١٩ أكتوبر سنة ١٩٢٨م.

اجتمعت الجمعية العمومية في أحد أروقة القصر الداخلية. وكان عدد الحاضرين نحو ٨٠٠ من علماء ورؤساء حضر وبدو، ولم يحضر الدويش ولا ابن بجاد هذا المؤتمر. وقد افتتح الملك المؤتمر بخطبة شرح فيها تاريخه في نجد من بدء استرداده الرياض إلى الوقت الحاضر، وأعماله في توحيد الجزيرة، وتأمين الطرق،

والإخاء بين العشائر. وبعد أن انتهى من خطبته عرض على الحاضرين تنازله عن العرش، ووجوب اختيار غيره من آل سعود، وأنه يعاهدهم أنه سيساعد من يختارونه. وأخبرهم أيضًا بنتيجة المفاوضات البريطانية وتمسك الإنجليز بالمباني؛ ولكنه ألقى على الدويش مسئولية بناء المخافر بسبب تعديه على الحدود العراقية من وقت لآخر.

أما مسألة التنازل عن العرش فلم تقبل بالطبع؛ لأنهم يعلمون أن ابن سعود لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بمعونة الله ثم بسيفه، ولذا فقد بايعوه مرة أخرى على السمع والطاعة والسير وراءه. وفي الواقع لم يكن الملك يرمي في هذا المؤتمر إلا إلى اجتماع كلمة النجديين وإثارة حميتهم ضد الإخوان المتطرفين. وهذه الناحية قد نجح فيها نجاحًا تامًا. أمّا الإخوان المتطرفون الذين التفوا حول ابن بجاد وفيصل الدويش وابن حثلين: فإنهم لم يأبهوا لهذا المؤتمر. وقد أذاعوا في المهجر أنهم قائمون بأمر الدين وإقامة الشريعة التي كاد يهدمها ابن سعود، وأن ابن سعود طالب ملك، وموال للكفار، وشريك لهم في جميع الأعمال، وأتبعوا هذا التهديد بالإغارة على حدود الكويت والعراق أحيانًا، ونهب القوافل النجدية أيضًا.

وقد أثبتت حوادث ثورة الإخوان أنه لا يزال للعصية شأن كبير في جزيرة العرب. فإن كثيرًا من الإخوان الذي حضروا الجمعية العمومية من مطير والعجمان وعتيبة، كانوا تحت لواء الدويش وابن حثلين في الثورة بالرغم من مبايعتهم وعهودهم التي قطعوها للملك ابن السعود، ثم أخذوا يتعدون على السابقة بدون أن يفرقوا بين أهل نجد وغيرهم، وأخذوا يعملون السيف في رقاب من توقعه الأقدار تحت أيديهم لأنهم كفرة.

لم يستطع الملك ابن السعود صبراً على هذه الحالة التي أصبحت تهدد البنيان الذي أسسه في ثلاثين سنة. فاستحث أهل نجد عليهم، وكلهم ناظم عليهم؛ بل أكثرهم كان ناقدًا لسياسة ابن السعود في ملايتهم وإرخاء الحبل لهم.

اجتمع أهل نجد حول راية ابن السعود في القصيم. كما اجتمع حوله كثير من الإخوان: حرب، وقحطان، وبعض من مطير وعتيبة، الناقمين على الدويش وابن حميد. فلما أن علم الإخوان بوصول ابن سعود إلى بريدة، اجتمعوا كلهم بعد ما كانوا مشتتين، واعتزموا على مهاجمة ابن السعود، وهم واثقون من الفوز تمام الثقة. ولقد كان مع ابن سعود سلاح آخر لا يقل عن سلاح الجند وهم العلماء، ولكن العاصين لم يعودوا يثقون حتى بالعلماء.

استمرت المفاوضات بين ابن السعود وبين الإخوان مدة، والملك وجنوده منهم حتى تقارب الجيشان في السَّيْلَة قرب الزلفي.

ابن بجاد يرسل رسولاً إلى ابن سعود

أرسل ابن بجاد رسولاً إلى ابن سعود في معسكره، فدخل الرسول يحمل كتاباً إلى ابن سعود، فلم يسلم هذا الرسول على الملك؛ لأنه مبتدع في زعمهم. إنها لكبيرة، وهل يصبر ابن السعود على هذه الإهانة؟

- من أنت؟ أأنت ماجد بن حَيْلَة؟ وأخذ يسرد عليه تاريخه. أتدخل عليّ ولا تسلم؟ اذهب من فورك إلى الذي أرسلك، وأخبره أننا قادمون للهجوم عليهم غداً، فإذا أرادوا أن يحقنوا دماءهم، فليستسلموا بلا قيد ولا شرط، والشرعية هي الحكم بيني وبينهم، وهؤلاء العلماء حاضرون، قم واذهب إلى رفيقك.

وقد أخبرني ماجد - وكان كالوزير لابن بجاد - بأنه أشار عليه بتقديم خضوعه إلى إمامه قبل أن يحكم القضاء؛ لأن ابن سعود ليس هو الرجل اللين الذي كانوا يعهدونه، ولكن الدويش طلب منهم أن يذهب هو بنفسه ليرى جلية الأمر، وأخبرهم أنه إذا لم يرجع إليهم مساء يكون ابن سعود قد اعتقله.

وصل الدويش إلى المعسكر، ثم أخذ يتملق الملك ومن معه، وأظهر استعداداه للتسليم، وأنه ليس على رأي ابن حميد، وأنه سيبيت عندهم، فقال له الملك: قم فتم عند قومك وموعدكم غداً بعد شروق الشمس، وإن كنت صادقاً فتنح عن الجماعة، وإن لم تكن صادقاً فسترى وخامة العاقبة، والله ولي الصابرين.

- ماذا رأيت (يا الدويش؟) سؤال وجه إليه من أركان حرب الإخوان.

- ماذا رأيت! رأيت حضرياً ترتعد فرائضه من الخوف، وليس حوله إلا طبايخ (طهارة) لا يعرفون إلا النوم على الدواشع (المراتب)، أبشروا إخوان، لقد وجدت لديهم حلالاً كثيراً وأموالاً عظيمة، فأبشروا بالكسب والغنيمة، وسنقهز هذا الطاغوت غداً ونستولي على ماله. هذه رواية بعض الإخوان الذين كانوا مع العصاة.

وفي اليوم الثاني ٣٠ مارس سنة ١٩٢٩م هاجمت جيوش الملك ابن السعود جنود الإخوان، وحملت عليهم حملة عنيفة لم يقدرُوا على ردها، ولم ينتصف النهار حتى ولى الإخوان الأدبار، ففر ابن بجاد من المعركة، وحمل الدويش جريحاً إلى الملك يحوط به بناته وزوجته، وهن يبكين يستشفعن فيه، فتأثر الملك من هذا المنظر وعفا عن الدويش الذي عاهد على السمع والطاعة بعد ذلك، وبعد ثلاثة أيام استسلم ابن بجاد في سُقْرَا، فأمر بسجنه لأنه كان خطراً على الأمن، ولا يأمن شره من الانتقاض،

ثم أمر الملك ولده وأخاه بتأديب العصاة حسب درجاتهم، كما أمر ابن جلوى بتأديب العجمان.

الثورة تعود مرة أخرى

رجع الملك إلى الحجاز بعد أن قهر الإخوان، غير أن الضربة لم تكن فاصلة. فإن الدويش الذي كان يظن أنه سيموت متأثراً من جراحه قد برئ، وبدلاً من أن يعود إلى صوابه، ويستغفر الله عما ارتكب، ظن أن ابن سعود قد يقبض عليه ويلقيه في غياهب السجن مثل ابن بجاد وجماعته. فترك الأوطاية واستقر بين الكويت والأحساء، وانضم إليه العجمان بعد أن قُتل زعيمهم بيد فهد بن جلوى، وبعد أن قتلوا هم أيضاً فهداً انتقاماً لزعيمهم، وأخذوا يعيشون الفساد تارة جنوباً وتارة شمالاً، ولم يقتصر أمرهم على النهب والسلب؛ بل تعداه إلى قتل الشيب والنساء والأطفال.

عادت الثورة أشد مما كانت، فعتيبة انتشرت بين نجد والحجاز، وفصلوا المملكتين بعضهما عن بعض، وكادت المواصلات تنقطع بين مكة والرياض وخليج فارس؛ غير أن أهل نجد - لا سيما الحاضرة - لا تحمل في قلبها إلا الإخلاص والولاء لإمامها ومليكها لتواضعه وكرمه وسهره على مصالحهم، وتفانيه في الدفاع عنهم، وقد كون منهم أمة لها نصيبها من الحياة تحت الشمس.

وهل كانوا ينقمون عليه إلا تساهله مع الإخوان، وغضه الطرف عن مساوئهم؟ إن الفرصة قد سنحت لتقليم أظافر الفوضى ودعاتها.

أخذ الملك عبد العزيز يعالج الموقف بما عرف عنه من سعة الحيلة وبعد النظر، فقوي الحاميات في الأحساء والقطيف وحائل، ثم أخذ يجمع الجند، فأرسل قوة كبيرة من الرياض يسندھا القسم الموالي من عتيبة، وضرب عتيبة ضربة لا تقوم لها قائمة بعدها، وصادر جمالهم وسلاحهم، وترك لهم الضروري لحياتهم، والتقى ابن مساعد بعبد العزيز بن فيصل الدويش في أم الرضمة، فوقعت بين الفريقين موقعة دامية قتل فيها ولد الدويش، ولم يفلت من العصاة سوى بضعة أنفار. وهؤلاء كانوا أفضل رجال مطير الحربيين، ففتت هاتان الضربتان من عضد الدويش وهزته هزاً عنيفاً، وأيقن أنه مقضي عليه لا محالة، ولكن كيف يكون المصير؟

الدويش يطلب الصلح

أخذت الرسل تغدو بين الرياض وبين الدويش لطلب الأمان؛ ولكن الملك أصر على التسليم بلا قيد ولا شرط، ثم الخضوع لحكم الشريعة، وأنه يعد بالعقوبة حياة الدويش فقط.

خرج الملك يقود القوات بنفسه مستعيناً هذه المرة بالسيارات والمدافع الرشاشة. وفي ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٩م هجم على الدويش مُحسن الفَرْم (من حرب) من الإخوان، ومعه عربان العراق، ابن طَوَّالة وابن سُويط، وهؤلاء كانوا موتورين من الدويش، فانتهزوا الفرصة السانحة للانتقام قرب الحفر، ونهبوهم وأشعلوا النار في خيمة الدويش، وهؤلاء لم يكن لهم علم بوجود الملك ابن السعود قرب الصَّافَة^(١).

وكان الدويش -حتى تلك الساعة- يكذب بوجود ابن السعود في أصفافه، ويقول: إنه يستحيل أن يقدم ابن سعود؛ لأن نجدًا محل، وليس هنالك ما ينقل عليه ابن سعود قوته. ومع أني الذي أذعت الخبر إذ كنت بالكويت أمثل ابن السعود لدى السلطات الإنجليزية، ومع أن الخبر وصل إلينا بسيارات خاصة، فإن الدويش كذب هذه الأخبار حتى لا ينفذ من حوله العشائر والطامعون في النهب والسلب، ولكن بالرغم من تكذيب الدويش هذه الأخبار، فإن الأخبار انتشرت في جميع القبائل المشتركة معه في العصيان، وأيقنوا أن ليس في طاقتهم المقاومة، ففرقوا من حول الدويش، كما لجأ بعضهم إلى الحدود العراقية، وفر بعضهم إلى نجد، واستسلم الدويش وبعض رؤساء مطير والعجمان إلى السلطات الإنجليزية، التي كانت بالجهرة في ٩ يناير سنة ١٩٣٠ م.



في اجتماع «خباري واضعة» - من اليمين: قائد الطيران في العراق، الملك عبد العزيز بن سعود، الكولونيل بيكو رئيس الوفد البريطاني وذلك بمناسبة تسليم «الدويش» سنة ١٩٣٠

مؤتمر خباري واضحة^(١)

كانت المفاوضات منذ سنة تقريباً بين الملك ابن السعود والحكومة البريطانية بخصوص العصاة، وطلب تسليمهم إذا لجأوا إلى حدود العراق والكويت، وهما هم الإخوان قد استسلموا الآن.

أوفدت الحكومة البريطانية في ١٩ يناير سنة ١٩٣٠م الكولونيل بيسكو، رئيس قناصل خليج فارس يساعده الكولونيل ديكسون فنصل الكويت، وفي عشرين منه سافرت على الطائرة فيكتوريا مع البعثة إلى «خباري واضحة» في جنوبي الكويت حيث عقد المؤتمر. واستمر المؤتمر منعقدًا نحو أسبوع، انتهى بموافقة الحكومة البريطانية على تسليم الدويش ورفقائه على أن يبقى الملك على حياتهم، وعلى أن يتعهد بتسليم المنهوبات التي نهبوها من أهل الكويت والعراق.

وفي يوم ٢٨ يناير وصل الكولونيل ديكسون وقائد البارجة الحربية في طائرة إنجليزية، ومعه الدويش ورفقاؤه المعتقلون، فاستقبلتهم بالنيابة عن جلالة الملك، ثم أقلتهم السيارات إلى خيمة جلالة الملك.

الدويش في حضرة ابن سعود

وصل الدويش إلى خيمة جلالة الملك بعد أن اخترق المعسكر، ولم يسمع اللعنات التي كانت تصوب إليه بسبب مسير السيارة. دخلنا خيمة جلالة الملك فقدمت قائد البارجة إلى جلالتهم، ثم الكولونيل ديكسون بالنيابة عن حكومة

(١) اسم مكان.

بريطانيا، وأنهم قدموا ليسلموا الدويش ورفقائه إلى جلالة الملك، فشكرهم وشكر الحكومة البريطانية على صداقتها ومودتها، وأنها في كل يوم تقيم له برهانا جديداً على مودتها الوطنية ... ثم انصرفوا.

لقد رأيت الدويش هذا اليوم، ورأيت مراراً يزور الملك في الرياض، فما أعظم الفرق بين الحالتين! كان الدويش حينما يقدم على الرياض يصحبه نحو ١٥٠ رجلاً مسلحاً، يدخلها كقائد عظيم، وكرجل عظيم له منزلة عظمى في نفوس أهل الرياض وعلماؤها وملك نجد، إذا جلس لا يجلس إلا بجوار ابن سعود، يعتبره الملك كصديق قديم وقائد من قواده العظام. أما غطرسة الدويش وجفاؤه وترفعه عن السلام لأي مخلوق يضمه القصر - ما عدا العلماء طبعاً - فحدث عنها ولا حرج، وكان كل من يعرف الدويش في الجاهلية، ويعرف أخلاقه الشخصية، يجزم بأنه منافق في دينه، وأن ما يظهره من الشدة والغلو مصطنع. أما إذا استأذن الدويش الملك في الرجوع إلى الأوطان، فإن القائمة التي اعتاد تقديمها للملك تبدئ من جبال الآبار ونعاله إلى السلاح والجواري، وما بين ذلك من ملابس له ولأولاده وزوجاته والطيب والعود، وكل قائد من قواد الإخوان يطلب هذه الطلبات، ولكن قائمته تكون محلاً للرفض أو التحوير، أما قائمة الدويش فلا يدخلها أي تحوير أو تعديل.

اليوم يقف الدويش ذليلاً أمام الملك ابن السعود، وأما قواد الجيش، وكلهم كانوا بالأمس دون منزلة.

ابن السعود يخاطب الدويش

- إنك تعلم يا فيصل ما عملت معك في الماضي، ما قصرت في شيء نحوكم، لقد كنت في حرب دائمة مع أهل نجد من أجلكم، فهل هذا جزائي معكم؟ هل كنتم تريدون الملك؟ لقد كنتم كلكم ملوكًا في الجهات التي كنتم فيها، من منكم له الفضل عليّ؟ الفضل لله وحده. من منكم من لم أخذه بسيفي؟ ليس منكم إلا من قتلت أباه أو أخاه، ولم أخضعكم إلا بالله ثم بالسيف. قد كنت أنفذ رغائبكم، فكنت أشقى لأجلكم، وأواصل الليل بالنهار لراحتكم وسعادتكم. ألا تخاف الله حينها تكتب لجُلُوب^(١): أنك تريد الهجرة للعراق، وأنت تحب أن تكون تابعًا له؟ فهل تظن أنك كنت ستكون في منزلة أعلى من منزلتك التي كنت فيها؟

(١) جلوب: المفتش الإداري على الحدود.



فيصل الدويش على ظهر الباخرة البريطانية بعد استلامه للبريطانيين

الدويش يتكلم

- يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا، وقد فعلت كل ما يبيض وجهك، وقد قابلنا معروفك بالإساءة، لقد فررنا من وجهك إلى الكفار، فحملونا إليك في طيارة من طياراتهم، ويكفي ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الإخوان، بعدما كنت عزيزاً محترماً. قاتل الله الشيطان! لقد أغرانا وزين لنا سوء أعمالنا، فأوصلنا إلى ما أصبحنا فيه الآن!

فأمر الملك أن ينقل الدويش وزملاؤه إلى خيمة قريبة منه وأحاطها بالحرس، وبعد ثلاثة أيام نقلوا إلى الرياض في سيارات حيث اعتقلوا فيها. ويصح أن تعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة بين الفوضى والنظام، ونصرًا للتقدم على الرجعية؛ ولا تسلم عن سرور أهل نجد والحجاز، فهؤلاء قد قاسوا الشيء الكثير من تعذيبهم وإساءتهم وغلوهم.

أما الملك عبد العزيز: فإن سروره قد عبر عنه بجملتين في خيمته بعد تسليم الدويش: «من اليوم سنُحيا جديدة».

نعم إن الملك ابن السعود قد حبي حياة جديدة، فقد ربط بلاده بالتلغرافات اللاسلكية، وربط مكة والرياض بالتليفون اللاسلكي، ولم يعد للإخوان ذلك السلطان القاهر، وأصبح شأنهم شأن غيرهم من الرعية.

ولقد عاقت حركة الإخوان الأخيرة تقدم المشروع الأصلي، وهو تحضير البادية، فإننا لم نسمع منذ سنة ١٩٣٠م أن قبيلة من القبائل رغبت في سكنى جهة من الجهات، على أن حركة وعظ البادية وإرشادهم إلى مبادئ الدين ومكارم الأخلاق، لا تزال سائرة في طريقها، وبذلك يعمل الملك عبد العزيز لاستئصال شرور البادية بالسيف من جهة، والعلم من جهة أخرى.

وبالجملة فإن حركة الإصلاح الموجودة الآن في جزيرة العرب، هي غرس يد هذا الرجل الفذ الذي لا يزال يرعاها برعايته وعنايته، حسب موارد بلاده المادية، وحسب استعداد أمتة وشعبه لقبول الإصلاح.

الدعوة الإصلاحية في نجد

نرى واجباً علينا أن نتحدث عن حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والدور الإصلاحية العظيم الذي قام به في نجد، ونمهد لذلك بذكر نبذة يسيرة عن حياة مصلح عظيم آخر: هو أحمد بن تيمية الذي قام في القرن السابع الهجري، وأوائل القرن الثامن سنة (٦٦١هـ - ٧٢٨هـ) لما بين الرجلين من التشابه العظيم في الدعوة إلى الحق، ولأن ابن تيمية كان المثل الأعلى للمصلح النجدي الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

كان الإمام ابن تيمية آية من الآيات في فهم الشريعة الإسلامية وأسرارها، كما كان آية في رفع علم الدعوة إلى الحق، واحتمال كل أذى في هذا السبيل.

كان ابن تيمية شجاعاً لا يخشى إلا الله، ولا يخاف سطوة سلطان، وعقيدته: مَنْ كان مع الله كان الله معه. وله مواقف معروفة في غزوات التتر أثناء هجومهم على الشام.

كانت الدعوة التي يدعو إليها ابن تيمية ترمي إلى ما يأتي:

(١) الرجوع إلى الكتاب والسنة، واتباع سبيل السلف الصالح في فهم آيات وأحاديث الصفات، وترك طريق الفلاسفة والمتكلمين والصوفية؛ حيث إنها لا تتفق مع الروح السلفية القديمة.

(٢) محاربة البدع والمنكرات؛ ولا سيما ما كانت وسيلة للشرك؛ كالتمسح بالقبور والصلاة عندها، وطلب الحاجة منها، والاستعانة أو الاستغاثة بغير الله، والتبرك بالأشجار والأحجار التي يعتقد فيها العامة الخير أو دفع الشر.

(٣) ترك الغلو في الرسول صلى الله عليه وسلم والاكتفاء بالاهتداء بهديه.

(٤) فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، وإعلان الحرب على المقلدين المتعصين.

هذه هي الأسس التي قامت عليها دعوة ابن تيمية، والتي وقف عليها حياته، وهي نفس الأسس التي قامت عليها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد.

أثارت دعوة ابن تيمية - في الشام ومصر - أثارة الصوفية وأرباب الطرق عليه، كما أثارت أيضًا أثارة المتعصين للمتكلمين والفلاسفة، وأكثرهم من القضاة وأهل المناصب في الدولة وذوي النفوذ فيها، فأوغروا صدور الأمراء عليه، وصوروه خطرًا على مستقبل الدولة، وأن أمره قد يعظم كابن تومرت في المغرب. فيصبح صاحب الحول والطول، فيضمحل نفوذهم أمام نفوذه. وفي كل زمن لا يجد الخصوم ذوو الضمائر الميتة سبيلًا إلى النكاية بخصومهم إلا التوسل بوسائل الخوف على المملكة وسلامتها وأمن الدولة، وغير ذلك من الوسائل التي تمس الناحية الحساسة في الأمراء، ومن من الأمراء يسمع أن حياته وملكه في خطر من شخص ويغتمض عينه عن هذا الشخص؟ إن كثيرًا منهم في سبيل الملك يقتلون الإخوة والأقارب، ولا يردعهم رحم أو يؤنبهم ضمير، فهل يسكتون عن رجل أجنبي؟

تعتبر سنة ٧٠٥ هـ بدء عهد الاضطهاد لابن تيمية، ففي هذه السنة اجتمع العلماء لمباحثة ابن تيمية في قصر نائب السلطنة؛ غير أن هذه المجالس كانت في صف ابن تيمية؛ لأن نائب السلطنة كان يؤيده ويأخذ بناصره.

وأخيرًا لم يسع نائب السلطنة في الشام إلا أن يرسل الإمام ابن تيمية إلى مصر، حسب أمر السلطان الجاشنكير، فإن دسائس الصوفية وخصوم ابن تيمية قد ملأت قلب السلطان حقداً وغضباً على الرجل.

وصل ابن تيمية مصر في رمضان سنة ٧٠٥هـ، فأحضر أمام العلماء للمناظرة وكلهم من خصومه، وهل تكون أمثال هذه المناظرات وسيلة من وسائل الإقناع أو الرجوع عن الخطأ؟ أدخل الشيخ ابن تيمية السجن لأنه امتنع عن الإجابة؛ لأن القاضي ابن مخلوف المالكي الذي كانت الدعوى أمامه كان من خصوم ابن تيمية.

وقد أعيدت المناظرات عدة مرات بدون طائل، وبعد ثمانية عشر شهراً أخرج من السجن، فعاد إلى الدعوة الإصلاحية، وأعاد الكرة على الصوفية وزعمائهم: ابن سبعين وابن عربي وأشباهم، كما شن الغارة على سائر المبتدعة، فاعتقل ثانية في شوال سنة ٧٠٧هـ، وفي السجن اشتغل بإصلاح المساجين، وترك ما هم فيه من العبث وإضاعة الوقت، حتى اشتهر أمره، وصار الناس يترددون على السجن لاستماع وعظه ودعوته، فنقل إلى الإسكندرية وضيق عليه، ومنع الناس من الاختلاط به والتردد عليه؛ خشية انتشار دعوته الإصلاحية.

وفي ٨ شوال سنة ٧٠٩هـ أطلق سراح الشيخ ابن تيمية من برج الإسكندرية وأرسل إلى القاهرة؛ إجابة لرغبة السلطان الملك الناصر الذي تغلب على خصومه فقربه إليه، فأقام بالقاهرة داعياً إلى مقاومة البدع ووجوب الرجوع إلى الله في كل الملمات، وترك البدع التي تقام على القبور؛ لمخالفتها للتوحيد الذي جاء به النبي الكريم.

وفي ذي القعدة سنة ٧١٢هـ رجع الشيخ إلى دمشق، بعد أن تغيب عنها سبع سنوات، فكان يوم رجوعه إلى دمشق يومًا مشهودًا، خرج فيه لاستقباله مريدوه والمناصرون لدعوته.

وفي دمشق استأنف الشيخ دعوته الإصلاحية بنشاط، وعكف على نشر دعوة التوحيد ومقاومة المبتدعة والرجوع إلى الكتاب والسنة. وقد كان يفتي بمسائل تختلف عن رأي الأئمة الأربعة؛ ولكنها في نظره تتفق مع آراء غيرهم من الأئمة الآخرين، وهو يعتقد أن هذا الرأي أقرب إلى السنة.

لقد كان طبعياً أن يثور الرجعيون الجامدون والمتعصبون للقبور والمتصوفة على الشيخ، كما ثاروا عليه بالأمس. وكان طبعياً أن تعود المناظرات مع الشيخ مرة أخرى.

ولقد أراد الله أن تغلب قوة خصوم الشيخ ابن تيمية، وهم أهل الحل والعقد في الدولة، وأخيراً حبس الشيخ مرة أخرى في سنة ٧٢٠هـ، ثم أطلق سراحه بعد خمسة أشهر ونصف، فعاد إلى ما عاهد الله عليه من الدعوة إلى الله والرجوع إلى الكتاب والسنة؛ فتألب عليه خصومه مرة أخرى، ووجدوا الفرصة سانحة للنيل من الشيخ واتهامه بعدم احترام الأنبياء والصالحين؛ لأن الشيخ أفتى بتحريم شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، فلا تشد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين.

لقد اجتمعت كلمة خصوم الشيخ على القضاء عليه وعلى الدعوة التي قام بها، فطلبوا من السلطان قتله، فلم يوافقهم على طلبهم؛ ولكنه اكتفى بحبسه اتقاء الفتنة، ولمَّا هُزلَّاء الخصوم من قوة لا يستهان بها اعتقل الشيخ مرة أخرى في سنة ٧٢٦هـ بقلعة دمشق، واضطهد تلاميذه والمتسبون إليه حتى خفت صوت الدعوة إلا من

قلوب المخلصين، وقد بقي الشيخ في معتقله حتى توفي سنة ٧٢٨هـ، فلم يصبح لهذه الدعوة القوة التي كانت لها من قبل، ولئن قام تلاميذ الشيخ وأنصاره الفترة بعد الأخرى، فلم يكن لهذه الدعوة القوة والنشاط التي كان لها في أيام الشيخ.

ولا يسع الإنسان بعد أن يلم بسيرة ابن تيمية، وما لقيه من الاضطهاد في سبيل الدعوة إلى الحق؛ إلا أن يجد تشابهاً عظيمًا بين حياته وبين حياة لوثر المصلح البروتستانتي، الذي جاء بعد عصر ابن تيمية بنحو قرنين، فإن الأركان التي قامت عليها الدعوتان واحدة بالرغم من الاختلاف الديني، والوسط الديني الخاص.

كان ابن تيمية يدعو إلى الاجتهاد، ونبذ التقاليد المخالفة للكتاب والسنة، والرجوع إليهما غير ملتفت إلى ما سواهما.

وكان لوثر يدعو الناس إلى تفهم الكتاب المقدس، وقد عمل هو على ترجمته تقريبًا لأفهام الناس، وكان ينكر على رجال الدين دعواهم أن حق التفسير والفهم خاص بهم.

كان ابن تيمية ينكر على الصوفية تعاليمهم التي لا تتفق مع الكتاب والسنة، كما كان ينكر الغلو في حب الأنبياء والأولياء: بالصلاة عند القبور والدعاء عندها، والاستغاثة بها، وطلب الغفران منهم. وكان لوثر ينكر على القسس بيع صكوك الغفران، كما كان ينكر عليهم حق التدخل بين العبد والرب.

وليس من غرضنا في هذا الفصل البحث التفصيلي بين الدعوتين، ولا بين الرجلين لخروجه عن موضوع الكتاب.

غير أن الذي نريد أن نقرره: هو أن الدعوة الإسلامية والإصلاحية التي قام يدعو إليها ابن تيمية في آخر القرن السادس، وأول القرن السابع من الهجرة (أي الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الميلادي) قد انتهت بالفشل، وأن الجهود التي بذلها ابن تيمية لم تثمر الثمرة المطلوبة؛ لأن رجال الدولة كانوا ضده، ولأن الرجل كان ينقصه اللين السياسي.

أما مارتن لوثر -الذي جاء في القرن الخامس عشر- فقد نجح بفضل المؤازرة التي لقيها من الأمراء والحكام. ولقد أراد الله أن تحيا دعوة ابن تيمية، وتنال نصيبها من القوة والانتشار والذيع على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، بمعاوضة الأمير محمد بن سعود في القرن الثاني عشر الهجري؛ أي بعد عصر ابن تيمية بأربعة قرون تقريبًا. والذي كان له الفضل الأعظم في نشر كتب ابن تيمية وكتب تلاميذه، وبعثها من جديد، والتنويه بفضلهم وعظيم أثرهم هو:

الشيخ محمد بن عبد الوهاب

وُلد الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١٥ هـ الموافقة سنة ١٧٠٣ م في بلدة العيينة الواقعة شمال الرياض، عاصمة نجد الحاضرة. وقد تلقى على والده دروسه الأولية، ثم سافر بعد ذلك إلى الأحساء والحجاز والبصرة^(١) باحثًا وراء العلم والتحصيل، ولذلك صار حجة في الحديث والفقه واللغة العربية. وصار أيضًا ذا قدم ثابتة في كل ما له علاقة بدراسة الدين، وقد وقف في رحلاته على الأمراض التي

(١) في كتاب «لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب» أن الشيخ رحل إلى فارس أيضًا، وتعلم بها الحكمة الشرقية، كما تعلم في رحلته أيضًا صنع البنادق وتحضير الذخيرة، وغير ذلك من فنون الحرب.

انتابت المسلمين، وما أصاب الشريعة الإسلامية في كثير من الأمصار من انصراف العلماء إلى الدنيا ومتابعتهم لأهواء الحكام، فرجع إلى نجد وقد أخذ على عاتقه التفرغ للدعوة الإصلاحية الدينية، ومحاربة البدع والخرافات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فدرس دراسة وافية كثيراً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وأتباعه، وخاصة ابن القيم وابن كثير.



خرائب المينة موطن الشيخ محمد بن عبد الوهاب

نجد في أيامها الأولى

كانت نجد - من الوجهة الدينية - كسائر الأمصار الأخرى: مرتعاً للخرافات والعقائد الفاسدة التي تتنافى مع أصول الدين الصحيحة؛ فقد كان فيها كثير من القبور تنسب إلى الصحابة يحج الناس إليها، ويطلبون منها حاجاتهم، ويتوسلون إليها دفع كروبهم. فكانوا في الجبيلة يؤمنون قبر زيد بن الخطاب لتحسين حالهم وإجابة ملتمسهم، كما كان أهل الدرعية - التي صارت فيما بعد مقر حكم آل سعود - يزورون مثل هذه القبور لمثل هذه الأغراض. وأغرب من ذلك توسلهم بفحل النخل في بلدة «منفوحة» واعتقادهم أن من تؤمه من العوانس تتزوج لعامها، فكانت من تقصده تقول: «يا فحل الفحول، أريد زوجاً قبل الحول!». وكان في الدرعية غار يقصدونه، ويزعمون أنه كان ملجأ لإحدى بنات الأمير التي فرت هاربة من تعذيب بعض الطغاة. واتخذت في أحد الجبال الصخرية مأوى لها؛ فانشق لها الكهف بمعجزة لتأوي إليه. فهذه الروايات تكشف عما كانت عليه نجد من العقيدة الدينية. أما من حيث الأحكام: فلم يكن هناك قانون أو شريعة إلا ما قضت به أهواء الأمراء وعمالهم. ومن حيث السياسة: فقد كانت بلاد العرب منقسمة إلى ولايات عديدة، يحكم كل واحدة منها أمير لا تربطه وجاره أية رابطة. ومن أشهر هؤلاء الأمراء بنو خالد في الأحساء، وآل معمر في العيينة، والأشراف في الحجاز، وآل سعود في الدرعية، والسعدون فيما بين النهرين، وعدا هؤلاء أمراء لا داعي لذكرهم هنا. وقد كان سكان بلاد العرب - وهم الحضر - في حروب دائمة مع البدو سكان البادية، وكذلك كان الأمراء على قدم الاستعداد عندما تسنح الفرص للتعدي على جيرانهم إذا بدا من هؤلاء الجيران ضعف أو عدم استعداد، وباختصار فهذه

كانت حالة بلاد العرب عندما رجع الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى وطنه، وقد استقر به النوى في العيينة، حيث جد به العزم أن ينقذ نَجْدًا مما حل بها من البلاء؛ فبدأ يدعو الناس إلى أن يعودوا إلى دين الله، ويتركوا كل ما جد من البدع، وغيرها مما يتنافى مع نصوص الكتاب والسنة. وفي الوقت نفسه طلب إلى الأمراء ذوي الشأن أن يطبقوا أحكام الشرع. وقد قام بدعوته مسالمًا لا يدعو إلى شدة أو عنف. وراسل علماء عصره في البلاد الإسلامية الأخرى، وأظهر ألمه لما أصاب المسلمين، وحضهم على أن يكونوا من زمرة المصلحين الدينين، فكان ذلك سببًا طبيعيًا لغضب خصومه، وأولئك الذين خافوا على سلطانهم من تعاليمه، وأخيرًا فقد اضطر أن يهاجر من العيينة التي هددها بالغزو سليمان آل محمد رئيس بني خالد، وأمير الأحساء والقطيف إذا لم يطرد محمد بن عبد الوهاب. ففي عام (١١٥٧هـ - ١٧٤١م) تركها إلى الدرعية مقر سعود حيث قابل زعيمهم محمد بن سعود، وهناك تحالفا على الدفاع عن الدين الصحيح، والعمل على الرجوع إلى الكتاب والسنة، وإنقاذ جزيرة العرب من البدع، وتعميم الدعوة بالإسلام وبين البدو والحضر، وتوطيد النفس على ما يواجههم من الصعاب؛ فإنهم متى نصروا الله نصرهم: {وكان حقًا علينا نصر المؤمنين}. وهكذا كان، فإن ما تمكن من قلوبهم من حب الحق، جعلهم يتغلبون على خصومهم منفردين ومجتمعين.

لقد سكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب «الدرعية» وواصل ليله بنهاره في نشر الدعوة بالوعظ وكتابة الرسائل، مكتفيًا بهذه الوسيلة السلمية، ومحمد بن سعود يؤازره بما يملك من الوسائل؛ ولكن خصوم الدعوة كانوا يعملون على تأليف القلوب لمحاربة الدعوة بكل الوسائل. فلم ير الشيخ محمد وابن سعود بدءًا من الاستعانة بالسيف بجانب الدعوة الدينية. ولقد استمرت هذه الحرب الدينية التي

تشبه - في كثير من الوجوه - الحروب التي استعرت نيرانها بين الكاثوليك والبرتستانت في الغرب أكثر من ستين عامًا.

وفي عام ١١٧٠هـ (١٧٦٥م) مات الأمير محمد بن سعود وخلفه ابنه «عبد العزيز» الذي اقتفى أثر أبيه في مساعدة الشيخ ابن عبد الوهاب على نشر دعوته في سائر بلاد العرب.

وفي سنة ١٧٩١م مات محمد بن الوهاب بعد أن قام بواجبه خير قيام، ووضع من الكتب والرسائل ما أصبح أساسًا يسير عليه خلفاؤه، وقد سار أولاده على خطة أبيهم من التحالف مع آل سعود، والتعاون معهم حتى أصبح الجميع كبيت واحد.

وفي سنة ١٨٠٥م كان جميع شبه جزيرة العرب، بما في ذلك جزء كبير من اليمن وعمان يخضع لسلطان آل سعود، تؤدي واجباتها الدينية حسب الدعوة الإصلاحية التي قام بها محمد بن عبد الوهاب. ولقد عز على الترك أن يروا دولة دينية تقوم في بلاد العرب - بلاد صاحب الشريعة الإسلامية - كما عزَّ عليهم أن يروا دولة حديثة مدنية يقيم دعائمها محمد علي في مصر، فأشعلوا نار الحرب بين الإثنين، فكانت محنة عظيمة على نجد عامة، وعلى آل سعود خاصة؛ لكن القوة الغشوم - وإن نالت من سلطة الحكام - فإنها ما كانت لتصل إلى قلوب أهل الإيمان.

ما هي تعاليم الوهابية؟

لم يكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب نبيًا كما ادعى نبيهر الدانمركي، ولكنه مصلح مجدد داع إلى الرجوع إلى الدين الحق، فليس للشيخ محمد تعاليم خاصة، ولا آراء خاصة، وكل ما يطبق في نجد من الفروع هو طبق مذهب الإمام أحمد بن حنبل،

وأما في العقائد فهم يتبعون السلف الصالح، ويخالفون من عداهم، وتكاد تكون تعاليمهم مطابقة تمام المطابقة لما كتبه ابن تيمية وتلاميذه في كتبهم، وإن كانوا يخالفونهم في مسائل معدودة من فروع الدين. وهم يرون فوق ذلك أن ما عليه أكثر المسلمين من العقائد والعبادات، لا ينطبق على أساس الدين الإسلامي الصحيح. وإننا نلخص فيما يلي المسائل التي اشتهروا بها، والتي تعد كأنها طابع خاص بالنجديين.

أولاً: «التوحيد»: يعتقدون -استناداً إلى كلام الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة السلف- أن معنى «لا إله إلا الله» ترك كل معبود غير الله، والتوجه إلى الله وحده، وأن العبادة إذا صرفت لغير الله صار ذلك الغير إلهاً مع الله، وإن لم يعتقد الفاعل ذلك، فالمشرك مشرك سواء سمي شركه شركاً أو توسلاً. وليس لديهم من شك في أن من قال: يا رسول الله، أو يا ابن عباس، أو يا عبد القادر، أو غيرهم من المخلوقين، طالباً بذلك دفع شر أو جلب خير من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى مشرك يهدر دمه، ويستباح ماله.

ثانياً: «الشفاعة»: لا ينكرون شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة حسبما ورد. وهم يثبتونها لسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسبما ورد أيضاً، وتُسأل من المالك لها وهو الله، وإذنه فيها لمن شاء من الموحدين، فيقال: اللهم شفّع نبينا محمداً فينا يوم القيامة، اللهم شفّع فينا عبادك الصالحين أو نحو ذلك. وأما ما يجري على ألسنة الناس من قولهم: يا رسول الله، أو يا ولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها؛ كأدركني أو أغثنني أو نحو ذلك؛ إذ لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ولا أثر من السلف الصالح.

ثالثاً: «القبور»: الكلام على القبور يتناول أولاً: البناء عليها وزيارتها، ثانياً: ما يفعله الناس عندها من الدعاء والصلاة وغيرها، ثالثاً: ما يقام عليها من القباب والمساجد. رابعاً: السفر إليها. أما زيارة القبور: فهي مندوبة للاعتبار والاتعاظ والدعاء للميت وتذكير الآخرة. ويراعى فيها الطريقة التي سنّها النبي صلى الله عليه وسلم في الزيارة، أما الذبح للقبور والاستغاثة به والسجود له، فهي شرك. وأما تخصيص القبور والبناء والكتابة عليها فكلها من الأمور المبتدعة المنهي عنها. وهم يستدلون على ذلك بأحاديث كثيرة وردت، وبأقوال السلف الصالح وعملهم. ولذا فقد هدموا في مكة والمدينة القبور المرتفعة وسوّوها، كما أزالوا القباب عند استيلائهم على الحرمين الشريفين في القرن الماضي، كما أزالوها مرة أخرى في الفتح الحاضر سنة ١٣٤٣ و ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ و ١٩٢٦ م) أما شد الرحال والسفر إلى القبور فبدعة.

رابعاً: إعلان الحرب على البدع الشائعة في الأمصار؛ مثل الاجتماع في وقت مخصوص على من يقرأ سيرة المولد الشريف، اعتقاداً منه أنه قُرْبَة، ومثل الزيادات على الأذان المشروع.

وبالجملة: فإنهم يحرصون على العادات الشرعية أن تكون بالصفة التي وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم بلا زيادة أو نقص.

ويلحق بهذا ما هو شائع في كثير من الأمصار من خروج النساء وراء الجنائز، وخروجهن لزيارة القبور، والاحتفالات السنوية المسماة بالموالد، وإقامة الحفلات للأذكار، وما يفعله بعض الدراويش من الرقص والمزمار؛ فإن ذلك كله محرم، وقد منعوا ما كان موجوداً منه في الحجاز.

وبسبب ذلك كان الخلاف بين الحكومة العربية السعودية، وبين الحكومة المصرية على المحمل وقبوله في الحجاز. والنجديون يحتجون بأنه بدعة لا يصح إقرارها في بلد الوحي والدين، والمصريون يقولون: إنه عادة وشعار للحج ليس إلا.

خامساً: الجهاد: مما لا جدال فيه أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يعتبر ما انصرف من العبادات لغير الله إسلاماً، ولذا فإنه كان يبدأ الأمر بالدعوة إلى التوحيد، وتنفيذ أوامر الله بلا هوادة؛ فمن أطاع فقد سلم، ومن خالف أو عاند فقد حل دمه وماله؛ وعلى هذا الأساس كانت غزواتهم في نجد وخارج نجد من اليمن والحجاز وضواحي سوريا والعراق.

كل بلد يدخلونها حرباً فهي حلال لهم، إن أمكنهم البقاء بها ألحقوها بأملاكهم، وإن لم يمكنهم البقاء اكتفوا بما يصل إلى أيديهم من الغنيمة. وهنا يجيء الخلاف بينهم وبين معارضيهم؛ فإن غيرهم يقول: إن من قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فقد عصم ماله ودمه، أما هم فيقولون: إن القول لا عبرة به ما لم يدعمه العمل، فمن قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهو لا يزال يدعو الموتى ويستغيث بهم ويسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، فهو كافر مشرك، حلال الدم والمال. ولا عبرة بقوله. ولهم على هذا أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، ليس هنا موضع تفصيلها.

والجهاد -أو إعلان الحرب- من حقوق الإمام ينظر فيه إلى المصلحة أو دفع المضرّة، فإن رأى المصلحة تعين عليه إعلان الجهاد، ووجب على سائر رعيته متابعتها والدخول في سلك الجندية، وعلى هذا كانت الغزوات القديمة والحديثة معتبرة من الجهاد الشرعي.

سادساً: الاجتهاد: للشيخ محمد بن عبد الوهاب بعض رسائل في الدعوة إلى الاجتهاد، والرد على أهل التقليد والمعاندين، استند في أكثرها إلى ما كتبه ابن القيم في أعلام الموقعين.

ولكن الشيخ محمد - وإن كان له بعض مسائل اجتهادية مثل جعل دية المسلم ٨٠٠ ريال بدل مائة ناقة - فإنه في الحقيقة يخطو خطوات الإمام أحمد، ويعتمد على كتب الفروع المؤلفة على طريقته.

ومما لا شك فيه: أن علماء نجد في بدء النهضة الإصلاحية كانوا أكثر إحاطة بالسنة وعلمًا بالشريعة، وأوسع مدارك، وأبعد نظرًا في نظرهم للأحكام.

إن الحكومة العربية السعودية الحاضرة - وهي الحكومة القائمة على أساس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - اضطرت إلى اقتباس كثير من القوانين التجارية وسمتها نظامًا؛ لأن كتب الفقه لم تتناول كثيرًا من المعاملات التجارية التي يتعامل بها أهل هذا الجيل، كما اضطرت إلى تشكيل محكمة تجارية سميتها «المجلس التجاري» للنظر في المنازعات التجارية، ولا أعلم لماذا لا تلحق هذه النظم بأبواب الفقه؛ كي يدرسها الطلاب أسوة بالمسائل الفقهية الأخرى التي أصبحت ملحقة بالتاريخ، ما دام هنالك يقين بأن هذه النظم لا تتعارض مع أحكام الكتاب والسنة.

إن هنالك مجالًا واسعًا للإصلاح الديني، وإدخال كثير من التجديد على أبواب الفقه؛ ولكن يعوزنا همة العلماء ورغبة الأمراء.

والنجديون يحرصون أشد الحرص على تنفيذ أحكام الشريعة في تحريم لبس الحرير للرجال وتحليهم بالذهب، كما يجرمون التدخين، ويجلدون المدخن أربعين

جلدة. ومما لا شك فيه: أن حكومتهم الأولى كانت أصرم في هذا من الحكومة الحالية.

ولقد كانت مسألة الدخان من المسائل التي دار البحث فيها بين الحكومة المصرية والحكومة السعودية سنة ١٩٢٦م، ومال مفتي مصر فيها إلى الكراهة، كما أنه أورد رأي فريق من العلماء ممن يرى التحريم.

لقد روى بـالجـريـف في رحلته إلى نجد سنة ١٨٦٢م أنه سمع من بعض النجدين: أنهم يرون أن شرب الدخان أشد لديهم من الخمر والزنى، وبعض المحرمات المنصوص عليها، ولا شك أن هذه الرواية قد سمعها من جاهل. فقد سمعت شيئاً قريباً من هذا من بعض النجدين المقيمين بالكويت؛ ولكنهم لم يكونوا من العلماء، ولا يعبرون عن رأي علماء نجد الذين يعدون مثل هذا القول جرأة على الدين.

إن علماء نجد - وإن أجمعوا على تحريم الدخان - فلم أسمع أحداً منهم يقول مثل هذا القول، كما أني لم أقف على شيء مثل هذا فيما كتبه متقدموهم أو متأخروهم. وعلماء نجد يحرمون التصوير ويكرهون الموسيقى، ولا يقبلون أي تأويل في ذلك.

ما ينسب إلى النجديين وهم أبرياء منه

لا شك أن الحرب النجدية المصرية في القرن الماضي، وما أعقب ذلك من خلاف بين آل سعود والأتراك قد صحبه كثير من الدعايات السيئة ضد النجديين، وكثير من الأشياء التي نسبت إليهم مكذوبة.

(١) لقد نسب إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب والآخذين بدعوته كراهية النبي صلى الله عليه وسلم، والخط من شأنه وشأن سائر الأنبياء والأولياء الصالحين.

لقد نسب هذا إلى الإمام ابن تيمية وإلى تلاميذه، كما لا يزال ينسب إلى كثير من العقلاء والمصلحين في الهند وغيرها، حتى ممن ليست لهم أي صلة بنجد وأهلها.

إن منشأ هذه النسبة: هو أن النجديين استناداً إلى حديث: ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)). يرون أن السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يعملها أحد من الصحابة أو التابعين، ولم يأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، وقد سبق ابن تيمية وابن عبد الوهاب طوائف كثيرة من العلماء المتقدمين بهذا الرأي.

(٢) إن النجديين يمنعون استقبال قبر الرسول صلى الله عليه وسلم عند الدعاء، كما يمنعون السجود عند قبره وقبر غيره، ويمنعون التمسح والتمرغ عند القبر، كما يمنعون كل ما من شأنه الاستغاثة، أو الطلب مما شاع عمله عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبور الصالحين في مصر وبغداد والهند وكثير من الأمصار.

(٣) هدم القباب والأبنية المقامة على القبور، وإبطاهم لسائر الأوقاف التي رصدت على القبور والأضرحة.

(٤) إنكارهم على البوصيري قوله في البردة:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وقوله:

ومن علومك علم اللوح والقلم

وقوله:

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

فإن هذا القول مجازفة وغلو، وفيه مخالفة صريحة لنصوص القرآن والأحاديث الصحيحة؛ وهم -فوق هذا- يعتقدون أن من اعتقد هذا على ظاهره فهو مشرك كافر.

فاتهمهم خصومهم بكراهية النبي، ونسبوا إليهم أقوالاً هم أبرياء منها، نسبوا إليهم القول بأن العصا خير من النبي، إلى غير ذلك من التهم غير الصحيحة. ولقد سمعت في نجد أن حكام نجد الشمالية أثناء خصومتهم مع آل سعود، كانوا يكتبون إلى الأتراك أن آل سعود اتخذوا راية شعارها: لا إله إلا الله محمد رسول (بحذف ميم محمد) أي: لا أحد رسول الله، وهذا كله تنفير للأتراك من خصومهم، وهم يعلمون حق العلم أن هذا كذب.

ولقد حضر إلى مكة أثناء الحرب الحجازية النجدية في سنة ١٩٢٥م بعض أفاضل السنغاليين وتَطَوَّان، وكانوا أثناء حديثهم سيكون لشدة تأثرهم؛ لقد أخبرونا أنهم سمعوا في الإسكندرية أشياء كثيرة تنسب إلى النجديين، لم يجدوا لها أثراً في الحجاز؛ لقد سمعوا من بعض الناس: أن الوهابيين هدموا الكعبة لأنها حجر، وسمعوا أنهم في الأذان يقولون: «أشهد أن لا إله إلا الله» فقط، ولا يقولون: «وأشهد أن محمداً رسول الله».

إن النجديين أحرص الناس على محبة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ولكنهم يكرهون الغلو، ويقاومون البدع مهما كان نوعها، ومهما كان الدافع لها، ويقولون: إن المحبة للرسول هي الاهتداء بهدي الرسول وأتباعه، أما الابتداع وتعطيل الشريعة وتقديم الأهواء فهو كراهة لا محبة. وفي القرآن الكريم: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني}.

ومما ينسب إلى أهل نجد: تكفيرهم من عداهم، وهو بلا شك تزوير من خصومهم، وإن وقعت بعض أشياء من بعض جفاة الأعراب والجهال، فليس من الإنصاف أن ينسب ذلك إلى أهل نجد.

أما الشيخ ابن عبد الوهاب وتلاميذه: فإنهم لا يكفرون من صحت ديانتهم، واشتهر صلاحه، وحسنت سيرته، وإن أخطأ في بعض المسائل؛ ولكنهم يكفرون من بلغته دعوة الحق ووضحت له الحجة، وقامت عليه وأصر مستكبراً، هذا في الأفراد. أما في البلاد (ما يعتبر منها بلاد إسلام وبلاد كفر) فإننا نقتبس ما كتبه العلامة الشيخ محمد بن عتيق من رسالته التي وضعها عن مكة: هل هي بلاد كفر، أو بلاد إسلام؟ هنالك أصلاً لا اعتبار البلدة مسلمة:

(١) التوحيد: وهو أن يكون الله معبود الخلائق لا سواه، والتوحيد لا يصح مع وجود الشرك.

(٢) طاعة النبي في أمره وتحكيمه في دقيق الأمور وجليلها، وتعظيم شرعه ودينه والإذعان لأحكامه في أصول الدين وفروعه.

فإذا تحقق وجود هذين الأصلين، علمًا وعملاً ودعوة، وكان هذا دين أهل البلد؛ أي بلد كان، بأن عملوا به ودعوا إليه، وكانوا أولياء لمن دان به، ومعادين لمن خالفهم، فهم موحدون.

أما إذا كان الشرك فاشيًا؛ مثل دعاء الكعبة والمقام، ودعاء الأنبياء والصالحين، وفشا مع ذلك الربا والظلم، ونبذت السنن، وفشت البدع والضلالات، وصار التحاكم إلى الظلمة، وصارت الدعوة إلى غير القرآن والسنة؛ فلا شك أن هذا البلد يعتبر بلد كفر. ولا عبرة بالصلاة والحج والصوم والصدقة.

إن التوحيد قد تقرر في مكة بدعوة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، واستمر أهل مكة عليه ردحًا من الزمن، ثم فشا فيهم الشرك؛ فصاروا مشركين وصارت بلادهم بلاد شرك، مع أنهم قد كانوا على بعض أشياء من الدين، فكانوا يحجون ويتصدقون على الحجاج وغير الحجاج.

أثر التمسك بالشرعية الإسلامية في الحياة العامة وأثر الانصراف عنها

إن العقيدة الراسخة عند النجدين -أمرائهم وعلمائهم- أن الله مكنهم في جزيرة العرب، وأن سلطانهم في تلك الجزيرة لإحياء معالم الشريعة، وإظهار دين الله،

وجعل سلطان التوحيد في الجزيرة هو السلطان الأول، وإزالة كل أثر من آثار الشرك.

ولقد قال الإمام سعود في خطبته بعد دخول مكة سنة ١٢١٨ هـ: «إنا كنا من أضعف العرب، ولما أراد الله ظهور هذا الدين دعونا إليه، وكل يهزأ بنا ويقاقلنا».

ولا يزال الملك عبد العزيز في كل مناسبة يشير إلى هذا، ذاكراً بفضل الله عليه وعلى أجداده من قبل، وأن ما وقع على آل سعود في أيامهم الأولى لم يكن إلا عقوبة لهم من الله، لتهاونهم في أمر المحافظة على الدين والانصراف إلى أمور الدنيا.

ولذا فإن المشايخ --من وقت لآخر-- ما زالوا يقدمون النصيحة لإمامهم ويوصونه بالمحافظة على الدين، والأخذ على أيدي المتهاونين، إذا رأوا شيئاً من التراخي والتهاون من ذوي النفوذ والسلطان.

ففي أيام الإمام فيصل كان الشيخ عبد الرحمن بن حسن، وولده الشيخ عبد اللطيف لا يتوانيان عن النصيحة ولفت نظر الإمام إلى عماله ورعاياه، وتذكيره بعاقبة التفريط، وأن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

المراجع العربية

أخبار مكة للأزرقي

تقويم البلدان لأبي الفداء

معجم البلدان لياقوت الحموي

رحلة ابن بطوطة

رحلة ابن جبير

القاموس المحيط للفيروزبائي

تاريخ ابن غنام (نسخة مخطوطة بالمكتبة الملكية البريطانية).

تاريخ ابن بشر مطبوع بمكة.

لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب (نسخة خطية بالمكتبة الملكية البريطانية).

مقدمة ابن خلدون

تاريخ الجبرقي

المغني والشرح الكبير

فتح الباري شرح صحيح البخاري.

مجموعة المسائل والمسائل النجدية.

تاريخ مكة للسيد دحلان

العقيد الثمين للفاسي

الأعلام بإعلام بلد الله الحرام لقطب الدين المكي

تاريخ العصامي

مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري

الكتب الإنجليزية

Travels through Arabia, M. Niebuhr, ١٧٩٢, Vol ٢.

Nates on the Beduins and Wahabiays, J. S. Burckhardt, ١٨٣١ Vol ١.

Travel in Arabia, J. S. Burckhardt, ١٨٢٩, Vol ٢.

A. Brief History of Wahaby, Sir H. J. Brydges, ١٨٣٤ (One Vol).

Historical Geography of Arabia, C. Fastee, ١٨٤٤ (Two Vol).

Central and Eastern Arabia, W. G. Palgrane, ١٨٧٧.

The Southern Arabia, J. T. Bent, ١٩٠٠.

The Penetration of Arabia, T. G. Hagarth, ١٩٠٤.

History of Arabia, Andrew Crichton, ١٨٣٣ (Two Vol).

The Heart of Arabia

Arabia of the Wahhabis

H. stj B. Phiby.

Arabia Deserta, Charie Daugthy.

In unknown Arabia, R. E. Chessman, ١٩٢٦ (One Vol).

The Persian Gulf, Sir A Welson, ١٩٢٨ (One Vol).

Revolt in the Arabia, T. E. Lawrance, ١٩٢٧.

The independen Arab, Young, ١٩٣٣.

Northern Negd, A. Mucil. ١٩٢٨.

Hand book of Arabia, ١٩٢٠.

(وهذا غير المجلات والصحف).

ذيل خاص بالوثائق والمعاهدات التي جاء ذكرها في مواضع من الكتاب

المعاهدة الإنجليزية مع ابن السعود
في ٢ كانون أول (يناير) سنة ١٩١٥ ميلادية
النص
بسم الله الرحمن الرحيم

بين الحكومة البريطانية من جهة، وبين عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، أمير نجد والأحساء والقطيف وجبيل وجميع المدن والمرافئ التابعة لهذه المقاطعات من جهة أخرى.

الحكومة البريطانية باسمها وعبد العزيز باسمه وباسم ورثته وأخلافه ورجال عشيرته، عينت الحكومة البريطانية الكولونيل السير برسي كوكس معتمداً في سواحل خليج العجم مفوضاً لأجل أن يعقد معاهدة مع عبد العزيز عبد الرحمن فيصل السعود ضمن المقصد الآتي: توطيد وتوكيد الصداقة الموجودة بين الطرفين منذ زمن طويل، وتأييد منافعها المتقابلة: إن الكولونيل السير برسي كوكس، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود - المعروف بابن السعود - اتفقا وتعاقدا على المواد الآتية:

أولاً: إن الحكومة البريطانية تعترف وتقبل بأن نجدًا والأحساء والقطيف وجبيل وملحقاتها التي تعين هنا، والمرافق التابعة على سواحل خليج العجم - كل هذه المقاطعات هي تابعة للأمير ابن سعود وآبائه من قبل، وهي تعترف بابن سعود حاكمًا مستقلًا على هذه الأراضي، ورئيسًا مطلقًا على جميع القبائل الموجودة فيها، وتعترف لأولاده وأعقابهم الوارثين من بعده، على أن يكون خليفته منتخبًا من قبل الأمير الحاكم، وأن لا يكون مخصصًا لإنجلترا من الوجوه؛ أي أنه يجب أن لا يكون ضد المبادئ التي قبلت في هذه المعاهدة.

ثانيًا: إذا تجاوزت إحدى الدول على أراضي ابن سعود أو أعقابهم من بعده دون إعلام الحكومة البريطانية، ودون أن تمنح الوقت المناسب للمخاطبة مع ابن سعود لأجل تسوية الخلاف، فالحكومة البريطانية تعاون ابن سعود ضد هذه الحكومة، وفي مثل هذه الظروف يمكن للحكومة البريطانية بمساعدة ابن سعود أن تتخذ تدابير شديدة لأجل محافظة وحماية منافعها.

ثالثًا: يتعهد ابن سعود أن يمتنع عن كل مخاطبة أو اتفاق أو معاهدة مع أية حكومة أو دولة أجنبية، وعلاوة على ذلك فإنه يتعهد بإعلام الحكومة عن كل تعرض، أو تجاوز يقع من قبل حكومة أخرى على الأراضي التي ذكرت آنفًا.

رابعًا: يتعهد ابن سعود - بصورة قطعية - أن لا يتخلى ولا يبيع ولا يرهن ولا بصورة من الصور يقبل بترك قطعة، أو التخلي عن الأراضي التي ذكرت آنفًا، ولا يمنح امتيازًا في تلك الأراضي لدولة أجنبية أو لتبعية دولة أجنبية دون رضا الحكومة البريطانية، وأنه يتبع نصائحها التي لا تضر بمصالحه.

خامسًا: يتعهد ابن سعود بأن يبقى الطرق المؤدية إلى الأماكن المقدسة مفتوحة، وأن يحافظ على الحجاج أثناء ذهابهم إلى الأماكن المقدسة ورجوعهم منها.

سادسًا: يتعهد ابن سعود كما تعهد والده من قبل بأن يمتنع عن كل تجاوز، وتداخل في أرض الكويت والبحرين وأراضي مشايخ قطر وعمان وسواحلها، وكل المشايخ الموجودين تحت حماية إنجلترا، والذين لهم معاهدات معها.

سابعًا: الحكومة البريطانية وابن سعود يتفقان فيما بعد بمعاهدة على التفاصيل التي تتعلق بهذه المعاهدة.

التوقيع

٢ يناير سنة ١٩١٥

المعاهدة المفقودة
بين السيد الإدريسي وبريطانيا العظمى
في ٣٠ نيسان (أبريل) سنة ١٩١٥

(١) إن هذه المعاهدة التي هي معاهدة صداقة وولاء، قد وقع عليها المجاور جنرال شو Shaw المعتمد في عدن باسم حكومة بريطانيا العظمى، والسيد مصطفى بن السيد عبد الله، باسم حضرة السيد محمد علي بن محمد بن أحمد بن إدريس - السيد الإدريسي وأمير «صبيا» وأطرافها.

(٢) المقصد من هذه المعاهدة: هو إعلان الحرب على الأتراك، وتوطيد عرى الصداقة ما بين حكومة بريطانيا والسيد الإدريسي المذكور آنفاً وأعضاء قبيلته.

(٣) الإدريسي يتعهد بقتال الترك، وأنه سيجتهد لطردهم من مواقعهم في اليمن، وأن يتعقبهم، وله أن يوسع أراضيه على حساب الأتراك.

(٤) عمل السيد الأساسي يتجه ضد الترك فقط، ويمتنع عن كل حركة عدائية ضد الإمام يحيى ما دام هذا لا يضع يده بيد الترك.

(٥) تتعهد الحكومة البريطانية بالمحافظة على أراضي السيد الإدريسي من كل اعتداء يقع من قبل أي عدو كان على السواحل، وبضمان استقلاله في أراضيه الخاصة، وباستعمال كل الوسائل السياسية عند ختام الحرب، في سبيل تأليف مطالب السيد الإدريسي مع الإمام يحيى أو أي خصم آخر.

(٦) إنَّ الحكومة البريطانية لا تقصد توسيع أراضيها في غرب البلاد العربية؛ ولكنها تتمنى بصورة صريحة أن ترى رؤساء العرب في حالة سلمية وأخوية، كل منهم في منطقته، وكل موال للحكومة البريطانية.

(٧) إنه -كدليل على تقدير الحكومة البريطانية للأعمال التي سيقوم بها السيد الإدريسي- فهي ستعونه بالمال والمثونة، وتستمر على معاونته طول الحرب. وستكون هذه المعاونة متناسبة مع ما يقوم به السيد الإدريسي من الأعمال.

(٨) تسمح الحكومة البريطانية للإدريسي -أثناء الحصار البحري المضروب على سواحل تركيا في البحر الأحمر- أن يتاجر مع عدن وسواحلها، وهي تضمن استمرار هذه الحالة ما دامت العلاقات الحسنة موجودة بين الطرفين.

(٩) تكون هذه المعاهدة نافذة المفعول على إثر موافقة الحكومة الهندية عليها.

يوم الجمعة ٣٠ نيسان (إبريل) سنة ١٩١٥

الموافق ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٣٣

التوقيع
B. G. L. Shaw
متعهد بريطانيا في عدن

التوقيع
السيد مصطفى بن السيد عبد العلي
توقيع
هاردنغ
حاكم الهند العام

ملحق: تعطى جزيرة فرسال للإدريسي منعاً لمطالب إيطاليا.

معاهدة سايكس-بيكو سنة ١٩١٦
ترجمة عن الإنكليزية

قد تمّ التفاهم بين كل من الحكومتين الفرنسية والبريطانية.

(١) أن فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا بحكومة عربية مستقلة أو حكومات عربية متحدة أو مستقلة، أو تؤيداها في الأماكن المشار إليها بحرف (A) وحرف (B) على الخريطة الملحقة بهذا، وأن تكون هذه الحكومة أو الحكومات تحت سيادة زعيم عربي، وأن يكون لفرنسا في المكان المشار إليه بحرف (A) ولبريطانيا العظمى في المكان المشار إليه بحرف (B) أولية الحق في المشاريع والقروض المحلية، وأن كلّاً من فرنسا في حرف (A) وبريطانيا في حرف (B) تقدم وحدها المستشارين والموظفين الأجانب الذين تطلبهم الحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة.

(٢) يسمح لكل من فرنسا في المنطقة الزرقاء وبريطانيا في المنطقة الحمراء، أن تنشئ من الإدارة أو الحكومات مباشرة أو غير مباشرة، ما تريد أو ما ترى تدبيره موافقاً مع الحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة.

(٣) أن ينشأ في المنطقة الخضراء إدارة دولية مشتركة، يقرر شكلها بعد استفتاء روسيا أولاً، ثم استفتاء الحلفاء الآخرين واستفتاء مندوبي شريف مكة.

(٤) أن يعطي لبريطانيا العظمى ثغر حيفاء و ثغر عكاء، ويضمن لها المقدار الكافي من مياه دجلة والفرات في منطقة (A) لإرواء منطقة (B) وتتعهد حكومة جلالة الملك أن لا تخاير في أي زمن كان دولة من الدول، للتنازل لها عن جزيرة قبرص بلا موافقة حكومة فرنسا.

(٥) تكون الإسكندرونة ميناء حرًا فيما يتعلق بتجارة الإمبراطورية البريطانية، وأن لا يكون فيها تمييز في تعيين ضرائب الميناء أو التسهيلات فيما يتعلق بالبضائع أو السفن البريطانية، وأن يكون للبضائع البريطانية حرية المرور في الإسكندرونة وفي سكك الحديد التي في المنطقة الزرقاء، سواء كانت هذه البضائع صادرة عن المنطقة الحمراء أو المنطقة حرف (B) أو المنطقة حرف (A) أو واردة إليها، وأن لا يكون تمييز سواء كان ذلك مباشرة أو غير مباشرة ضد البضائع البريطانية على أية سكة حديد كانت، أو ضد البضائع البريطانية والسفن البريطانية في أي ميناء من الموانئ المذكورة سابقًا لهذه المناطق، وأن تكون حيفاء ميناء حرًا فيما يتعلق بتجارة فرنسا وممتلكاتها ومحمياتها، وأن لا يكون فيها تمييز بتعيين ضرائب الميناء أو التسهيلات فيما يتعلق بالسفن الفرنسية والبضائع الفرنسية، وأن يكون للبضائع الفرنسية حرية المرور في حيفاء. وفي السكك البريطانية التي في المنطقة الحمراء سواء كانت هذه البضائع صادرة عن المنطقة الزرقاء أو المنطقة حرف (A) أو المنطقة حرف (B) أو واردة إليها، وأن لا يكون تمييز سواء كان ذلك مباشرة أو غير مباشرة ضد البضائع الفرنسية على أية سكة حديد كانت، أو ضد البضائع والسفن الفرنسية في أي ميناء من موانئ المناطق المذكورة آنفًا.

(٦) أن لا تمتد سكة حديد بغداد جنوبًا في منطقة (A) إلى ما وراء الموصل، ولا تمتد شمالًا في منطقة (B) إلى ما وراء سامراء إلى أن يتم إنشاء سكة حديد تصل ما بين بغداد وحلب في وادي الفرات، وذلك بموافقة الحكومتين.

(٧) أن يكون لبريطانيا العظمى وحدها الحق بأن تنشئ وتدير وتملك سكة حديد توصل حيفا بالمنطقة (B) ويكون لها الحق الدائم في نقل الجيوش عليها في أي وقت كان. والمفهوم بين الحكومتين أن هذه السكة هي لتسهيل المواصلات بين بغداد

وحيفا. والمفهوم أيضًا أنه إذا حالت الصعوبات الهندسية والنفقات دون إنشاء هذا الخط في المنطقة السمراء وحدها، فإن الخطوط الآتية وهي: بانياس، نيس معرب، صلخد، تذا، صدى ومسمية تصل إلى المنطقة (B).

(٨) تبقى الرسوم الجمركية معمولًا بها عشرين سنة في جميع أنحاء المنطقتين الزرقاء والحمراء، كذلك في المنطقة (A) والمنطقة (B)، ولا تزداد الرسوم إلا بعد اتفاق الحكومتين.

ولا تضرب رسوم داخلية تكون عائقة بين المناطق المذكورة آنفًا. أما الرسوم على البضائع الواردة فتؤخذ في الميناء التي تصل إليها البضائع، وتسلم إلى حكومة المنطقة الواردة إليها.

(٩) لا يجوز للحكومة الفرنسية في أي زمن من الأزمان أن تخابر دولة ثانية في أمر التنازل لها عن حقوقها، ولا يحق لها التنازل عن هذه الحقوق لغير الحكومة العربية، أو الحكومات العربية المتحدة إلا إذا وافقت الحكومة البريطانية على ذلك. وعلى الحكومة البريطانية مثل هذه العهود للحكومة الفرنسية فيما يتعلق بالمنطقة الحمراء.

(١٠) تتعهد كل من حكومة فرنسا وحكومة بريطانيا العظمى: أن لا تمتلك أرضًا في جزيرة العرب، وأن لا توافق على امتلاك دولة ثالثة لأرض هناك، سواء كان ذلك على السواحل الشرقية منها، أو جزر البحر الأحمر. على أن هذا لا يمنع من تعديل حدود عدن بسبب اعتداء الترك.

(١١) أن المخابرات مع العرب لوضع حدود للحكومة العربية، أو الحكومات العربية المتحدة يستمر كما كان بالنيابة عن الحكومتين الفرنسية والبريطانية.

(١٢) قد وقع الاتفاق على أن الوسائل اللازمة للسيطرة على توريد السلاح إلى الأراضي العربية، تستشار فيها الحكومتان.

كتاب من أمير نجد إلى الشريف حسين بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة جناب الأجل الأفخم، بهي الشيم، أمير مكة المكرم، سيدنا الشريف حسين باشا ابن السيد علي، دام مجده وعلاه آمين.

بعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام، مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر، لا زلتم بكمال الصحة والسرور، حائزين الأوصاف الحميدة. أحوالنا من كرم الله جميلة، وتقدم لسعادتكم قبل هذا كتاب نرجو أنه وصل وأنتم مسرورين. ثم نعرض لدولتكم العزيز: أنه بموجب شفقتكم وعلو هممكم وأنظاركم العالية، قدمنا أخانا عبد العزيز عبد الله السعود لموجب خدمتكم، وأحبينا المصاوغة معه لموجب التبرك بإقدامكم، وأرسلنا معه الصقلاوية والحمداني وكحيلان، ولا والله قصدنا في إرسالها لأنكم بحاجة، ولا شك في غايتنا نبي «نبغي» نقرب منكم. فإننا هنا حاسبين أنفسنا من خواصكم، والله ثم لكم، وإلا هديتنا لحضرتكم رؤسنا وما تحت أيدينا، ولكنها هي صوغة للأولاد والكرام، وحررنا هذا الكتاب لموجب التعرض لخدمتكم، وما يبدو منه اللازم، وإلا أمرك علينا تام على كل حال، ومهما تفعلونه معنا، وتخطون أنظاركم علينا تجدونه إن شاء الله مضاعفا بالخدمات والسمع والطاعة. هذا ما لزم تعريفه. والولد برسم الخدمة مع إبلاغ السلام حضرة الإخوان السادات الكرام علي وفيصل وزيد،

ومن عندنا أولادنا محمد وسعود، وكافة السعود يسلمون ودمتم
محروسين.

خادم الدولة والملة والوطن
أمير نجد ورئيس عشائرها
عبد العزيز السعود
(ختم)

١٨ من سنة ١٣٢٨

من أمير نجد إلى الشريف حسين
بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة جناب الأجل الأجدد الأفخم، بهي الشيم، أمير مكة المكرمة، سيدنا
الشريف الحسين باشا ابن السيد علي، دام مجده وعلاه آمين.

بعد إهداء مزيد السلام التام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام، مع السؤال
عن شريف خاطركم العاطر، لا زلتكم بكمال الصحة ووافر السرور حائزين
الأوصاف الحميدة، أحوالنا من كرم الله جميلة بأشرف وقت أخذنا مشرفكم المكرم،
فسرنا ما تضمنته من صحة أحوالكم واعتدال أوقاتكم، وما عرف جنابكم كان لدى
ابنكم معلوماً مخصوصاً ما عرف جنابكم من جهة عتيبة والقصيم، وأنهم يلقون
إليك من الأكاذيب الذي ليس لها حقيقة، ويتظلمون عند حضرتكم. فنحن نقول
عما قالوا: سبحانه هذا بهتان عظيم، فأما من جهة نظركم علينا وعليهم، فهذا شأن
مثلكم، وهو مقامكم العزيز، ونحن متيقنون إن حنا بأنفسنا أقرب منهم ومن غيرهم

لسعادتكم، وأدنى جواب يصدر منكم إلينا بمنع السوء عنهم إذا كان صادر منا شيء، فنحن نمثل به لموجب رضا الله، ثم لخدمة سعادتكم. مع أني والله ما أعلم أن أحدا من أهل نجد يطلب مني مثقال حبة من خردل من ظلم، إلا إن كان عدواً ضعيفاً جاني ولجنايته سبب، وقول العدو ما يؤخذ في عدوه، وإلا أدام الله وجودكم نجد يوم جيته ما فيه من جميع مأموريته أحد. كلها مناصيب لابن رشد، وولانا الله عليه بهداية الله ثم هدايتكم، وأمرنا كل في منصبه، فمنهم من أطاع واستقر وإلى الآن بمكانه، ومنهم من ظلم الرعية وبنا غدر، وأعانا الله عليه وأحسننا فيه، فالآن ابنكم وخادمكم وملككم فضلكم ثاني نفسه سامع مطيع لله، ثم لحضرتكم لأدنى واحد من أهل القصيم أو من عتية يدعى علي بأدنى شيء منه ظلم. فكما تأمرون أفعل امتثالاً لأمر الله ثم أمركم، وجميع ما زوروه على حضرتكم دواء الكذب المقابل، فإن كنتم المجرم فأنا تحت أمركم كما تأمرون أفعل ومصطبر لأدبكم. فإن كانوا هم الكاذبين وتحقق عند جنابكم ذلك، فنحن قد دمعنا لهم من الزلات أكثر. وحقنا على جنابكم أن تكونوا على حذر من أقوال الغاشين للإسلام والمسلمين، وأنا والله وبالله وتالله، إن رضاكم وامتثال خدمتكم عندي أعز من رضا عبد الرحمن وخدمته، ثم أنا معطيكم عهد الله وأمان الله، إني ولد لك سامع مطيع ما أخالف شوفتك في جميع أمر، وأنا تحت أمركم إن كان تريدون المقابلة بيني وبين المزورين في أي وقت تبغونه أحضر، فإن كان تحبونه من بعيد فالمراجعة بيننا ونحن تحت تدبير الله ثم تدبيركم؛ وإنما لا يزورون على حضرتكم أني مستغزي أهل نجد قصدي محاربتكم أو مكابرتكم لا والله لا والله، لا والله. إني ما استغزيتهم إلا لموجب بني خينا وبعض الفساد إلى ما يخفى جنابكم. ولا يقطع عقلكم أن قدومي بها المحل قصدي محاربة أو أمر يغضب خواطركم، إلا إنما هو تقرب لخدمتكم وعن البعد الذي يحصل به الاتحاد للأعداء، ويزورون أعظم مما زوروا سابق، واجبنا تعجيل الطارش لموجب

رد جوابكم العزيز، ونحن بانتظار تدبير الله ثم تدبيركم، وتحت الأمر. هذا ما لزم.
والرجاء إبلاغ سلامنا الإخوان السادات الكرام ومن عندنا أولادكم محمد وسعود،
وكافة السعود يقبلون أياديكم ودمتم محروسين.

خادم الدولة والملة والوطن
أمير نجد ورئيس عشائرها
عبد العزيز السعود
(ختم)

١٥ ل سنة ١٣٢٨

مشروع الوحدة العربية كما كان يفهمها الملك حسين
(صورة وثيقة)

الأساسات المتعلقة بنجد التي يتمكن معها سكّون البلاد، وصيانتها من كل
موانع الترقّي والسعادة والفلاح المطلوبة لها حسب فكري المخصوص، فالأصل
الأصيل الذي يمكن قبله تقرر عمل هو تفريق سكان الغطف والإرطاوية والقروني
وفريثان، ونحوهم من المنازل التي يسكنها الزمرة الموسمة بالإخوان الحادثة من
ستتين التي هي عبارة عن معسكرات، وقبل هذا والتعهد به؛ أي بتفريق سكنة تلك
المنازل، وأن كل شخص يذهب إلى قبيلته المنسوب إليها لا ثمرة لأي عمل كان، كما
أشير بريقمنا ١٢ الحجة سنة ١٣٣٦ هـ، ومع ذلك فعلى سبيل المعلومات والتسهيل،
لا بأس من الإتيان بها سيذكر أدناه على وجه الاختصار.

(١) الأحكام بكتاب الله وسنة رسوله.

(٢) أمراء نجد يكون تعيينهم على تعاملهم وقاعدتهم الجارية المعرفة.

(٣) إلغاء الضريبة التي تؤخذ على جمال المتسعة بصورة كلية، وهو المعروف

بالباج.

(٤) أمير نجد له حق تعيين صنوف المأمورين في داخل إمارته.

(٥) لا حق لأمر نجد أن يخبر أي دولة كانت في أي مسألة كانت، بأي شكل

وصورة، وهذه أيضًا من حقوق المركز وعائد إليه، وتكون برأيه وواسطته واستحسانه.

(٦) الحدود من الجنوب والجنوب الشرقي والغربي الجبل المعروف بالعرض،

وما سامته والشقرا ومسكة وتربه ووادي الدواسر تكون جميعها تابعة للمركز، والغرب والغرب الشمالي حدود عنيزة والقصيم والشمال والشرق معلومة.

(٧) القبائل السهول وسييع الأسفلين تابعون للمركز.

(٨) لا يمنع القبائل التابعين للمركز ولا سواهم من أي أرض يحتلوها للرعي،

أو أن يمتاروا من أي قرية من القرى التابعة لأمر نجد، وإن وقع من القبائل المذكورة تعدي في الحال يرفع خبره للمركز لإجراء مقتضاه.

(٩) امتثال أوامر المركز وتنفيذها في حق من يرد إلى داخل حدود الإمارة

المذكورة، ممن لم يكونوا من أهلها.

(١٠) كل من يرد من أهالي نجد إلى المركز، أو إلى أي بلاد في داخلية المملكة يعاملون بمثل معاملة أهالي تلك البلاد في كل شئونهم.

(١١) المحافظة على كل حقوق وكافة معاملات من يكونون في الخارج من أهالي نجد؛ أي في بلاد أجنبية فهي عائدة للمركز ومن حقوقه.

(١٢) المركز يتعهد بحفظ كيانه وصيانة أدنى حقوقه من كل تعدي.

(١٣) يجتنب بكل حذر واهتمام ما يوجب القلاقل والشغب في داخلية، أو فيما جاوره من المملكة.

هذا يكون دستوراً لكافة الأمراء ومن يكونون أمثال أمير نجد؛ على أن الإدريسي حدوده قضاء صبية المعروفة في زمن الترك، وكذا إمام صنعاء ما كان يتصرف فيه من الأراضي في زمنهم هذا ملخصه. ولكل من تأمل مسلكي وخطتي في ظرف هذه الأعوام نحو الإمارة المذكورة رغماً عن عجرفاتها، وخطتي عندما توجهت لأبها، ونهج ابني فيصل على ذلك الأثر عند توجهه إلى تهايم عسير لعين تلك الغاية التي توجهت إليها، يدرك لأول وهلة سلامتنا من شوائب المقاصد بما تدون أعلاه. أما عنيزة والقصيم - أي بريدة وملحقاتها - فلهم الرأي ينتخبوا ابن سعود للالتحاق به أو ابن الرشيد، أو يكونوا مستقلين على أنفسهم الخيار لهم في ذلك، ولزيادة الإقناع والسلامة من الشوائب، فإنهم إذا انتخبوا المركز فهو لا يقبلهم. وعلى أي حال فهم تحت ما ذكر من الشرائط، على أن مسألة تفريق سكان الغطط والأرطاوية القرايا المذكورات أعلاه من أمهات المواد المتعلقة بقبول البقاء في رئاسة البلاد.

صورة بلاغ من المعتمد البريطاني بمجدة
عما أشاعه الأتراك من تقسيم البلدان العربية

جدة في ٨ فبراير سنة ١٩١٨.

جلالة صاحب السيادة العظمى ملك الحجاز وشريف مكة وأميرها المعظم.

بعد بيان ما يجب بيانه من الاحترام والتوقير، قد أمرني جناب فخامة نائب جلالة الملك أن أبلغ جلالتكم البرقية التي وصلت إلى فخامته من نظارة الخارجية البريطانية بلندن، وقد عنونتها حكومة جلالة الملك - ملك بريطانيا العظمى - باسم جلالتكم، وهذا نصها بالحرف الواحد:

إن الرغبة والصراحة التامة التي اتخذتموها جلالتكم في إرسالكم التحريرات، التي أرسلها القائد التركي في سوريا إلى سمو الأمير فيصل وسمو الأمير عبد الله، إلى جناب نائب جلالة الملك كان لهما أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى، وإن الإجراءات التي اتخذتموها جلالتكم في هذا الصدد لم تكن إلا رمزاً يعبر عن تلك الصداقة والصراحة، التي كانت دائماً شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى. ومما لا يحتاج إلى دليل أن السياسة التي تنسج عليها تركيا هي إيجاد الارتياح والشك بين دول الحلفاء والعرب، الذين هم تحت قيادة وعظيم إرشادات جلالتكم، قد بذلوا الهمة الشاء ليظفروا بإعادة حريتهم القومية. إن السياسة التركية لا تفتأ غرس ذلك الارتياح بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يرغبون في الأراضي العربية، وتلقي بأذهان

دول الحلفاء أنه يمكن إرجاع العرب عن مقصدهم، ولكن أقوال الدساسين لن تقوى على إيجاد الشقاق بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد.

إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها ما زالت واقفة موقف الثابت لكل نهضة تؤدي إلى تحرير الأمم المظلومة، وهي مصممة أن تقف بجانب الأمم العربية في جهادها؛ لأن تبني عالمًا عربيًا يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني، ويتحد التنافس الصناعي الذي أحدثته الصفات الرسمية التركية.

إن حكومة ملك بريطانيا العظمى تكرر وعدها السالف بخصوص تحرير الأمم العربية، وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قد سلكت مسلك التحرير، وتقصد أن تستمر عليه بكل استقامة وتصميم بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط في وهدة الدمار، وتساعد الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم.

وفي الختام ألتمس قبول خالص التحيات، وعظيم الاحتشامات والتمنيات.

نائب المقيم البريطاني بمكة

الكولونيل باست

صورة ما تحرر لفخامة نائب الملك بمصر

من الملك حسين وشرح أغراضه من الثورة العربية

ما رأيته خصوصًا بهذا الأثناء عن اعتناء فخامتكم وتأكيدها في إزالة أسباب دواعي سوء التفاهم، الذي لا أرتاب بأن المقصود بذلك الاعتناء هو صيانة تأثير حسيات مخلصكم خاصة لذا ولما تكون المواد البسيطة أيضًا من ذلك المعنى، رأيت أن أتبين من حكومة جلالة الملك في الأساس المقرر مع عظمتها في النهضة، وما بنيت عليه من مواد الاتفاق المقدم طيه بيانها بأني ما طلبت للبلاد أمام حكومة جلالة

الملك ما طلبته من المواد، التي تعهد عظمته بها رغبة مني في تأسيس حكومة، أو تشكيل دولة لأستأثر بحاكميتها، أو حرصاً على جاهها أو رياستها، ولكن عندما دعتني بريطانيا إلى ما دعنتي إليه، وعلمت أن مقاصدها بهذا أيضاً تأمين مصلحة المسلمين عامة والعرب خاصة، لم يسعني إلا الإجابة وطلبها أقله تلك المواد المؤدية في اعتقادي لما يأتي:

أولاً: لحفاظة الكيان الإسلامي بالنظر لما حل وما سيحل بتركيا.

ثانياً: صيانة العظمة البريطانية من الاستهداف مما سترمي به عكس مقاصدها.

ثالثاً: سلامتي من الاتهام بالتواطؤ معها ضد الأساس المقصود بالنهضة.

نعم إنني لم أجد من جناب الفاضل الأديب المستر استورس عند اجتماعي بحضرته في السنة الأولى بجدة، ثم بعده بحضرة الشهم الهام السير مارق سايكس، ثم في السنة الماضية بالقمندان الهام هو غارت الموقر ما يشير إلى ما يخالف أو يخجل بتلك المقررات، غير أن ما في طبيعة مشرونا وتتماته الحياتية من الرقة، وما يتصادف من بعض حالات يستدعي سياقها زيادة تعين الأمر وتأكد الحقيقة عن الحدود فقط، وإلا باقي المواد، فإننا نعجز عن أداء شكر الوفاء بها شكراً يملأ الخافقين، خصوصاً أمر الإعانة عما لو فهمت الغلط في مقرراتنا المذكورة أساساً، أو حدث ما يوجب تعديلها، الأمر الذي لا أقول: إنه يمس كيان العالم الإسلامي، ولكن أظن - وبعض الظن إثم - أنه لا يخلو من شيء من ذلك. هذا على فكري الخصوصي. فمتى أضفنا عليه تظاهر عجزي بعدم حصول ما كان يؤمل من النتائج يتحتم عليّ الانسحاب من الأمر والتنازل عنه، لا اعتقادي الشخصي أن تعديل مقرراتنا المذكورة، بصرف النظر عما في إخلاله بالغايات المقصودة، وعرضتنا لحذر موادنا الثلاثة آفة البيان وطمس

صحيفة تاريخي، فهو يزيل ويسقطني من ثقة واعتماد بلادي وأقوامي الأقربين، حينما يظهر لهم عكس تلك المقررات التي أعلنتها لهم، وصرحت به شفاهًا وتحريرًا في ظرف هذه المدة، وأسست عليه الأعمال، وأكون خدعت نفسي وغششتكم يا أصدقائي بما وراء هذا من اضطراب البلاد بالفتن والثورات ونحوه، مما لا يمكن لي معه حتى الاستفادة لذاتي، وما يزيل كل ظن حكومة جلاله الملك بي، وأكد إخلاصي يجبرني أن أقول من الآن: إن مبادئ هذه الخطرية على وشك التحسس بها بالنسبة للطلبات المتكررة المختلفة عن أمرهم بإعلان استقلال بلادهم، ولم أجد ما أدفعهم به إلا قولي: إن استقلالي هو استقلال عموم أنحاء البلاد؛ ولكنهم يقيموا الحجة على دفعي هذا بأوجه أخرى، وعليه فإن كان ولا بد من التعديل فلا لي سوى الاعتزال والانسحاب، ولا أشتبه في مجد بريطانيا بالألا يتلقى هذا منا إلا أنه أمر يتعلق بالحياة لا لقصد عرضي أو فكر غرضي، وإنما لا ترتاب في أي وأولادي أصدقائها الذين لا يتغير ولاؤهم وإخلاصهم، ثم تعينوا البلاد التي تستحسن إقامتنا فيها للسفر إليها في أول فرصة وإن رأت ذلك، ولكن مشاكل الحرب الحاضرة تقضي بتأجيله إلى ختامها؛ فمعروفها وجهيل مكارمها يفرض علينا الثبات أمام ما سيتضاعف علينا من المهات ونحوه من العموم مما لا مقاومة لدينا أمامها إلا حسن النية فالأمر إليها. أما عطف الأمر وتعليقه بمؤتمر الصلح، فالجواب عليه من الآن بأن لا علاقة لنا به ولا مناسبة بيننا وإياه، حتى نتظر منه سلبًا أو إيجابًا، ولو قرر المؤتمر المذكور أضعاف مقرراتنا، وكان ذلك عن غير وساطتكم وقبلناها، فنكن من المطرودين من رحمه البارئ جل شأنه الرقيب على قولي. هذا الذي أتوسل إليه الآن أن يتولانا جميعًا بعنايات رأفته الأحدية، وقبول ما أقدمه لفخامتكم في الختام من جزيل احتشاماتي هو من سجايا شيمكم.

الإعانة الإنكليزية

جدة في ١٣ إبريل سنة ١٩١٩ - ١٢ رجب سنة ١٣٣٧ هـ.

صاحب السيادة العظمى جلالة ملك الحجاز، وشريف مكة، وأميرها المعظم
صاحب الجلالة.

بعد بيان ما يجب بيانه لجلالتكم من التوقير، أتشرف بإحاطة علم جلالتكم بأن
حكومة جلالة الملك قد رخصت بدفع مبلغ ١٠٠.٠٠٠ جنيه (مائة ألف جنيه)
لإعانة شهر إبريل، وهذا بتنقيص ٢٠.٠٠٠ (عشرين ألف جنيه)، أما الثمانين ألف
جنيه الشهرية، فجارى دفعها طبقاً إلى دمشق علاوة على المائة ألف. ومن حيث هذا
التخفيض لا يخفى على جلالتكم، أنه عند ما تشرفت بالبحث مع جلالتكم في مسألة
الإعانة في شهر فبراير الماضي، قد أخبرت جلالتكم أن حكومة جلالة الملك رغبت
في عمل تخفيض عظيم في إعانة شهر مارس، بناء على ما كنتم جلالتكم قد وافقتم
عليه مع ذلك طلبتم جلالتكم أن إعانة شهر مارس يجب أن تبقى كما كانت بلا
تغيير؛ إلا أنكم وعدتم بتنقيص كبير في إبريل، فعرضت رغائب جلالتكم على
حكومة جلالة الملك، فصارت موافقة خصوصية على صرف إعانة شهر مارس
بتمامها، مع العلم بأنه كان مفهوماً أن تنقيصاً عظيماً قد عمل لشهر إبريل بناء على
وعد جلالتكم، وعندما كنت بمصر كانت حكومة جلالة الملك قد عينت هذا
التخفيض إلى أربعين ألف جنيه، إلا أن فخامة نائب جلالة الملك رأى أنه لمناسبة
الأحوال الحاضرة يحتمل أن جلالتكم تفضلون أن يخصم من إبريل عشرين ألف
جنيه فقط، وقد صارت الموافقة بذلك من قبل حكومة جلالة الملك، على شرط أن
جلالتكم تعملون كل سعي لتخفيض مبلغ شهر مايو إلى ثمانين ألف جنيه، وأن
تعطوني الميزانية ببيان مطالب جلالتكم المتنوعة، وإني قد أخبرت حكومة جلالة

الملك منذ بضعة شهور أن جلالتم قد وعدتموني بالميزانية بعد سقوط المدينة مباشرة. وأؤمل أن جلالتم تتمكنون من إعطائي التفاصيل عن الإيراد والمصاريف المنتظرة للحجاز عند ما أتشرف بمواجهة جلالتم قريباً. وعندئذ أستطيع أن أرف طلبات جلالتم بصورة فعلية، وإني سوف أستطيع طبعاً البحث مع جلالتم في جميع التفاصيل، إلا أن الميزانية المطلوبة من قبل حكومة جلالة الملك لا تشمل مثل تلك المفردات، كتصليح الخط والاحتياجات الخصوصية (خلاف الإدارية) للمدينة، وخلافها التي لا تدخل في ميزانية اعتيادية. ولكنها تكون في الواقع ونفس الأمر مختصة بقروض مخصوصة وما شاكل ذلك، ولا تشمل أيضاً مصاريف الإدارة العربية بدمشق؛ لأن تلك الإدارة تتناول اليوم مائة وخمسين ألف جنيه شهرياً، وإنني لمتطلع باشتياق لمشاهدة جلالتم ثانياً، وأرجو الله أن تكونوا جلالتم بصحة جيدة، وتفضلوا بقبول خالص تمنياتي الطيبة وعظيم احتراماتي.

مخلصكم
ولسن باشا

جدة في ١٧ يونيه سنة ١٩١٩م، موافق ١٨ رمضان سنة ١٣٣٧هـ.

صاحب السيادة العظمى جلالة ملك الحجاز، وشريف مكة وأميرها المعظم صاحب الجلالة.

بعد بيان ما يجب بيانه من التوقيع، قد اندهشت جداً عند تلقي تحرير جلالتم نمرة ١٥٣٤ بتاريخ ١٦ يونيه؛ وإني لم أفهم السبب الذي جعل جلالتم تكتبون

أنكم يلزمكم طلب الاستقالة والانسحاب ردًا على خطابي بخصوص الإعانة، وإني قد أبرقت لجلالتكم عندما اطلعت على برقيتكم لسمو الأمير زيد التي تقولون فيها: أن لا إعانة تدفع بعد الشهر القادم، وذلك أكدي أن خطابي لم يكن كامل الوضوح أو غير ظاهر العبارات، الأمر الذي أبدى مزيد أسفي عليه. وأن جلالتم تتذكرون أن حكومة جلالة الملك رغبت في تنقيص الإعانة وجعلها ثمانين ألف جنيه في شهر إبريل الماضي، وسألتم عن تفصيلات لميزانية الحجاز، وقد أعطيتوني جلالتم ذلك، وقد أرسلت إلى لندرة، وبعد ذلك قررت حكومة جلالة الملك عدم جعلها ثمانين ألف، وصدقت على استمرارها مائة ألف جنيه إلى نهاية شهر يوليو، وهذا ما قصدت إبداءه لجلالتكم في تحريري، وهذا لا يدل على أنه بعد شهر يوليو، لم يكن فيه إعانة كما ذكرتم جلالتم في برقيتكم لسمو الأمير زيد، وعليه ألتمس أمركم بأني أرفع العبارة الخاصة بالإعانة من البرقية. وإننا اليوم في وقت حرج، ولذا أرجو جلالتم رجاء صميًا أن تطرحوا فكرة طلب الاستقالة في هذا الوقت الذي فيه بلادكم، وأمر الإسلام في أشد الحاجة لكم. وأحب أن أطلب من جلالتم أن تستمروا على انتمايكم لحكومة جلالة الملك ولفخامة الجنرال اللنبي ولنفسى، كما فعلتم على الدوام، وقد طلبت نفس هذا الطلب في خطابي بتاريخ أمس، فرغما من عظيم ارتياحي لاشتغالي لأجل النهضة العربية، ثم وعظيم سروري لاشتغالي في هذه السنين كلها مع جلالتم، كما ورغما عن افتخاري بتمثيل بريطانيا العظمى مع جلالتم، فإنني مشتاق للتمكن من القيام للإجازة والاستراحة قليلا، ولكن هو واجبي أن أبقى كل ما أمكن من الزمن، وبذلك أوئل أن أكون مقدما بذلك بعض الخدمات الصغيرة لجلالتكم. نعم إنه بعد عناء الثلاثة سنين الماضية الشديدة، أنا أعلم أنه من المتعب جدًا لجلالتكم ملاقة هذا الوقت الحرج الحالي؛ ولكنني أطلب من جلالتم طلبًا صميًا أن تطرحوا ظهريًا كل فكرة خاصة بترككم مركزكم العظيم

مهما صعبت الوضعية، ولا شك حيث إن جلالتم قائد النهضة العربية العظيم؛ بل وحليف بريطانيا العظيم المخلص إذا تنازلتم عن الأعمال في الآونة الحاضرة، كان في ذلك البلية العظمى، وقد عرفتموني جلالتم هذا الزمن الطويل، وأنا على يقين أن جلالتم تعتقدون في صدق إخلاصي، وأن هذا الخطاب لم يكتب إلا بكمال الإخلاص المحض، ومالي إلا أن أرفع أكف الرجاء إلى حضرة ذي الجلال: أن يمن على جلالتم بالقوة والمقدرة على الاستمرار على العمل.

وفي خاتمة خطابي أتمس قبول خالص تمنياتي وعظيم احتشاماتي القلبية الخالصة.

مخلصكم
ولسن باشا

مذكرة المستر لويد جورج
رئيس الوزارة البريطانية
عن الاحتلال المؤقت لسورية وفلسطين والعراق ريشا يرم أمر الانتداب

(١) تتخذ التدابير اللازمة حالاً؛ لانجلاء الجنود البريطانية عن سورية وكيكلية، ومن جملتها نفق جبال السلسلة (طورس).

(٢) لقد أعلن كل من الأمير فيصل والحكومة الفرنسية: أن في القدرة الشروع في الانجلاء عن سورية وكيكلية في أول نوفمبر سنة ١٩١٩.

(٣) إنَّ المسؤولية في وضع الحاميات في المقاطعات التي يتم إخلاؤها يكون على مقتضى عهود وتصريحات الحكومة البريطانية والحكومة الإفريقية، ليس فقط بينهما؛ بل بين كل منهما وبين العرب.

(٤) تستبدل على مقتضى ذلك حاميات سورية في غربي خط (سايكس-بيكو) وحاميات كليكية بجنود فرنساوية، وتستبدل حاميات دمشق وحمص وحماة وحلب بجنود عربية.

(٥) إنه بعد انجلاء الجنود البريطانية، لا تبقى مسؤولية ما على الحكومة البريطانية، ولا على القائد البريطاني العام في المناطق التي أخلتها الجنود.

(٦) المقاطعات التي تبقى فيها الجنود البريطانية هي فلسطين، وتكون حدودها مطابقة للحدود القديمة المسماة (دان إلى بئر السبع) والعراق ومن جملتها الموصل؛ فيكون هذا الاحتلال مطابقاً للاتفاق المعقود في ديسمبر سنة ١٩١٨، بين الموسيو كليمنصو والمستر لويد جورج.

(٧) إن الحكومة البريطانية مستعدة في أي وقت كان، أن تبحث في أمر الحدود بين فلسطين وسورية، وإذا وقع خلاف بشأن هذه الحدود، فالحكومة البريطانية مستعدة أن تقبل تحكيم (حكم) يعينه الرئيس ولسون.

(٨) إنه بمقتضى مبادئ اتفاق (سايكس-بيكو) يحق للحكومة الفرنسية أن تعترض على منح الحكومة العربية للحكومة البريطانية الحق في إدارة وإنشاء وامتلاك خط حديدي، يصل ما بين حيفا والعراق. وذلك في طريق تقرر بدل التخطيط في أي جهة كانت إلى موازاة (دير الزور) شمالاً، ويحق كذلك للحكومة البريطانية أن تنشئ أنابيب للبترول، كما يحق لها إنشاء سكة الحديد، ويكون للحكومة البريطانية علاوة

على ذلك حق دائم في جميع الأزمنة؛ للقيام بتحسين التسهيلات للسكة المذكورة والأنابيب، وأن تنقل الجيوش على السكة الحديدية، ويمكنها أن تتمتع بهذه الحقوق حتى في زمن الحرب، وذلك بدون خرق حياد الحكومة الفرنسية والحكومة العربية؛ وإذا وقع خلاف في رسم الطريق لسكة الحديد وأنابيب الزيت (البترول) فالحكومة البريطانية مستعدة أن تقبل تحكيم (حكم) يعينه الرئيس ولسون.

(٩) الحكومة البريطانية تعلن الحكومة الفرنسية والأمير فيصل: أن غايتها الإسراع في الرسم لتجد طريقاً إن أمكن للسكة الحديدية ولأنابيب البترول في الأراضي التي هي تحت الوصاية البريطانية، حتى تجتلب بذلك التمتع بالحقوق المذكورة آنفاً (أي: حتى لا تستعمل حقها في المرور في الأراضي العربية).

(١٠) إنه إلى أن تقرر الحدود بين فلسطين والعراق - يكون للقائد العام البريطاني الحق في احتلال مخافر أمامية على الحدود التي تدعيها الحكومة البريطانية.

(١١) لما كانت الحكومة الفرنسية قد اتخذت على عاتقها حماية الشعب الأرمني، فالحكومة البريطانية توافق على إرسال جنود فرنساويين حالاً عن طريق مرسين والإسكندرونة لهذا الغرض.

باريس ١٣ سبتمبر سنة ١٩١٩

رد سمو الأمير على مذكرة المستر لويد جورج الأولى «النص»

لندن في ٢١ سبتمبر ١٩١٩

حضرة صاحب الفخامة:

لي الشرف بأن أضع بين يدي فخامتكم خلاصة جوابي على المذكرة التي تفضلتم بإعطائي صورة منها يوم الجمعة في ١٩ سبتمبر ١٩١٩، وذكرتم أنكم رفعتكم للمسيو كلمنصور في ١٣ سبتمبر نسخة منها أيضًا، وكذلك للمندوب الأميركي المستر فولك في ١٥ منه فأقول:

(١) إن هذا الاتفاق الأخير مجحف تمامًا بحقوق العرب، ويخالف ما كانوا يتوقعونه من الحكومتين الجليليتين خاصة. ومن العالم المتمدن عامة، بعد الذي قاموا به من مقاتلة الخلافة، وجعل البلاد المقدسة ميدانًا للحرب؛ انتصارًا لمبدأ جاهر به الحلفاء رسميًا، وفي محافلهم وكتاباتهم الماثورة.

(٢) إن العرب الذين جرى الاتفاق على بلادهم، ويدون علم منهم البتة، لا يمكنهم أن يعترفوا بما وقع، ولا أن يتحملوا تبعه الرضى بما يفضي إلى بوارهم على غير ما تم اجتراحه.

(٣) إن معاهدة سنة ١٩١٦ التي جعلت دعامة هذا الاتفاق ليست معروفة رسميًا عند العرب، ولا هي مما يسوغ أن يعول عليه بعد الذي وقع من إجماع الحلفاء والدول المشتركة على نحو المعاهدات السرية، وبعد الذي تلقاه العرب بشأنها من

وزارة خارجية جلالة الملك نفسها ردًا على اعتراض والدي عليها، عند ما وقعت إليه نسخة منها منشورة في جريدة (المستقبل) الباريسية، نقلًا عن صحف الشام التي أذاعها فيها جمال باشا التركي في يونيو سنة ١٩١٨ لإثارة الخواطر، وهذا نص البرقية:

«إنَّ البولشفيك لم يجدوا في وزارة الخارجية في بترغراد معاهدة معقودة؛ بل محاورات ومحادثات مؤقتة بين إنجلترا وفرنسا وروسيا في أوائل الحرب؛ لمنع المصاعب بين الدول أثناء مواصلة القتال ضد الترك، وذلك قبل النهضة العربية؛ وإن جمال باشا - إما من الجهل أو الخُبث - غير في مقصدها الأساسي، وأهمل شروطها القاضية لضرورة رضى الأهالي، وحماية مصالحهم. وقد تجاهل ما وقع بعد ذلك من أن قيام الحركة العربية ونجاحها الباهر، وانسحاب روسيا قد أوجد حالة أخرى تختلف عما كانت عليه بالكلية منذ أمد مضى».

وقد زكى هذا القول المنوط برضى الشعب ومشيتته ما فعلته الدولتان المعظمتان (إنجلترا) و(فرنسا) من تأكيد ذلك بالمنشور الذي أصدرتاه معًا في نوفمبر سنة ١٩١٨، فضلًا عن قانون جمعية الأمم، الذي لم ينضب مداده بعد، وآخرها بلاغ الكولونيل ماينس هارجن بحضور المسيو لافوكارد: «إن الحكومة البريطانية لا ترغب أي شعب على قبول انتداب لا يريده».

(٤) إن القائد العام الذي يقود جيوش الحلفاء المشتركة قد بلغنا رسميًا في أوائل احتلال سورية وغيرها؛ مرة عن طريق المندوبين السياسيين بالقول والكتابة، أنه المسئول الرسمي الوحيد عن إدارة البلاد جميعها باسم الحلفاء، ولدى مؤتمر السلام بواسطة نظارة الحربية البريطانية. وقد أيد هذا القول الضابط السياسي الأعلى البريطاني الكولونيل (ماينس) أثناء الاجتماع الرسمي في الشام، يوم الثلاثاء ٩

سبتمبر سنة ١٩١٩ بحضور المعتمد الإفرنسي المسيو لافوكارو. وقد دام هذا الاحتلال سنة كاملة، ولا أرى من الأسباب الكافية ما يدعو إلى تغيير هذا النظام في هذه البرهة القصيرة الباقية لعقد الصلح - كما تقولون - مع تركيا.

(٥) يأبى العرب أن يعترفوا بأمر لا علم لهم به، وباجتماع لم يشهده أحد منهم، وبقرار لم يشتركوا فيه في الوقت الذي تستوي فيه مسئولية الجميع لدى القائد العام لجيوش الحلفاء.

(٦) إن المعروف رسمياً أن التدابير الحاضرة المتخذة في سورية مؤقتة، وقد جاء في تلك (المذكرة الملحقه) أيضاً أن التدابير المقصودة مؤقتة. فما معنى استبدال أمر مؤقت بمثله؟ وما الفرق بين التدبيرين حتى يقوم أحدهما مقام الآخر، ويعمل بموجبه في وقت غير مناسب، ومع سهولة إبقاء الحالة حتى القرار الأخير؟ وإني أحذر أولي الشأن من قادة الأمم أن تنفيذ هذه الخطة الجديدة سيؤدي إلى ما لا تحمد عقباه في البلاد العربية، وتقع المسئولية على عاتق الذي أبرم ذلك القرار الظالم الممقوت.

(٧) جاء في الفقرة الثالثة من المذكرة الملحقه بأن هذا التدبير والتغيير في مواقع الحاميات العسكرية، قد جرى على مقتضى عهود وتصريحات إنجلترا وفرنسا، ليس فقط بينهما؛ بل بين كل منهما وبين العرب. وبما أنني لا أملك نسخة من هذه العهود والتصريحات القاضية بتمزيق وحدة البلاد؛ ولا سيما بين العرب وفرنسا مباشرة، فأرجوكم أن تفضلوا بإعطائي نسخة منها موقعة، فإنه لا علم لي بغير المعاهدة المعقودة بين بريطانيا العظمى والعرب. وعلى خلاف ما يقضي به الاتفاق الأخير وبالتصريح الذي أصدرته الحكومتان معاً لإعطاء الشعب حرية الاختيار (١٩١٨).

(٨) ومع أن المعاهدة تذكر أن التدبير مؤقت، فإنني أحتج بشدة على ما ورد في المذكرة الملحقه بشأن التخوم وتحديداتها. وإنني أرى في ذكر الحدود واستعداد الحكومة البريطانية لقبول التحديد برهانًا قاطعًا على تجزئة البلاد، ودخولًا لا مسوغ له في شأن مصيرها قبل أن يصدر أي قرار من مؤتمر السلام عنه.

(٩) إنني أسأل بريطانيا العظمى التي صرحت أنها لا تقبل انتدابًا في سورية عما جرى بعهدتها السابق الذي بنت عليه معاهدتها مع العرب، فإنها أكدت لهم (أنها تعترف باستقلال العرب وتأخذ بناصره) فهل ترضى بريطانيا العظمى أن تقول للعرب: لا شأن لي معكم بعد، فإن مصالحتي اليوم غير مصالحتي بالأمس، وهي التي قد طالما جاهرت بإنصاف الشعوب المظلومة، وقاتلت دون الضعيف المستهدف للمطامع الخسيسة الأشعبية، ذلك ما أترك الحكم فيه لوجدان فخامتكم، وللرأي العام البريطاني الكريم.

(١٠) إذا كان لا بد من (انسحاب) الجيوش البريطانية في سورية، فلماذا لا تنسحب أيضًا سائر الجيوش الأوروبية، وتترك المسؤولية للحكومة العربية المستعدة لقبول تلك المسؤولية لدى الحلفاء والدول المشتركة معهم لحماية الأمن العام في البلاد، ريثما يبرم مؤتمر السلام قراره بشأن مصير سورية.

(١١) هذه هي الملاحظات الابتدائية التي أردت بسطها لفخامتكم.

وفي الختام أطلب إلغاء ذلك التدبير المقترح بين فرنسا وإنجلترا بالكلية؛ لأنه يخالف المراد من قانون جمعية الأمم، ويناقض العهود المبنية على أساس الشرف القومي؛ وإنه فوق ذلك رجوع غير عادل إلى سياسة الاستعمار الأشعبي الذي ينبغي هدم بنيانه بعد هذه الحرب هدمًا لا قيام بعده. وسيضطر العرب من أن يدافعوا عن

وحدثهم ووجودهم بأقصى ما لديهم من قوة وحمية، ثم إنهم لا يعدمون وسيلة ينشرون فيها للعالم المتمدن أجمع ما جرى من تمزيق المعاهدات وتبديل الخطة الموضوعة، مهما قيل في شأنها أنها مؤقتة، فإن الحالة النفسية لأهالي البلاد تحملهم على الاعتقاد بأن هذا الترتيب مقدمة إلى تقسيم واقع، ولن يقبلوا في ذلك معذرة أو حجة. ولا أدري كيف رضي القائد - مع معرفته بتلك الحقائق - أن يعرض البلاد التي ساعد على تحريرها إلى قلاقل مؤكدة. ولا جرم أنه من الأنفع ترك الحالة على ما هي عليه، أو انسحاب الجيوش الأوربية برمتها ريثما يبرم القرار الأخير.

هذا ما أردت بيانه لفخامتكم؛ تخلصاً من كل مسئولية لديكم ولدي العالم أجمع، وتفضلوا بقبول فائق احترامي وتعظيماتي.

التوقيع

.....

نص الكتاب الإضافي

لندن في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٩

رئيس الوزارة البريطانية المعظم:

حضرة صاحب الفخامة:

لي الشرف أن أقدم لفخامتكم الملحوظة التالية - علاوة على المذكرة التي قدمتها لفخامتكم بالأمس والمؤرخة ٢١ سبتمبر ١٩١٩.

استدعاني حضرة القائد العام للجيش المتحالفة في سورية، وسألني بالأمس أن أبحث معه بشأن (انسحاب) الجيوش البريطانية من البلاد. وقد أنبأت فخامته بأني أرفض البحث في هذا الموضوع، وبينت الأسباب الموجبة لذلك الرفض.

وهأنذا أذكر فخامتكم أيضًا بأن الجنرال البريطاني في بيروت عند ما أجبر الجيوش العربية على الانسحاب من المنطقة الساحلية، قد كتب لقائدها العربي الجنرال شكري باشا بأن الموجب لهذا التغيير عسكري محض ومؤقت، إلى أن يصدر قرار مؤتمر السلام بشأن مستقبل البلاد. والقوات البريطانية هي التي تولت بنفسها إنزال الأعلام العربية المرفوعة على بنايات الحكومة وغيرها بواسطة الأهليين.

ولهذه الأسباب أطلب أحد أمرين: إما إعادة السواحل إلى الجيوش العربية، كما كانت عليه الحالة في أوائل الاحتلال، وهي تتولى مسئولية الأمن وحماية البلاد إلى أن تبرم النهاية، وإما بقاء الحالة على ما هي عليه الآن إلى الحين المذكور. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والإجلال.

التوقيع

كتاب آخر من الأمير فيصل لرئيس الوزارة البريطانية

٩ أكتوبر سنة ١٩١٩

رئيس الوزارة البريطانية المعظم:

حضرة صاحب الفخامة:

لقد تفضلتم فأنبأتمونا عند اجتماعنا في (جيلد هول) منذ يومين: أن الأزمة الأخيرة حالت بينكم وبين الرد على مذكرتي المؤرخة في ٢١ سبتمبر سنة ١٩١٩، وأنكم عازمون على إرسال الجواب في أقرب مدة. فأشكركم على ذلك اللطف الجزيل، وإنما لما كانت الأزمة قريبة الوقوع تجاسرت على تقديم هذا الكتاب سلفاً، وإني أضع فيه أمامكم المطالب الآتية:

لقد بسطت لكم سابقاً آرائي عن الوفاق الأخير في باريس، ولا أقصد الآن إلا أن أؤكد لكم بأنني لم أزل على ذلك الرأي. ومهما يكن في ذلك الوفاق من حسن أو قبح، فالواقع أنه سينظر إليه من جمهور السكان بسخط عظيم. والأرجح أن انسحاب الجيوش البريطانية من سورية يؤدي إلى كارثة عظيمة، يكون فيها القضاء على العالم العربي وعلى المشروع العمومي الذي يزود عنه الحلفاء، وإني شديد الرغبة أن أتجنب كل ما يؤدي إلى إحراج المركز، أو ما يثول إلى اضطراب الحبل بين الحلفاء والعرب، وما يمكن أن يفضي أيضاً إلى جعل التسوية على قاعدة مقبولة من المستحيل، وأريد أن أبذل جهدي لأؤيد الوفاق المكتوب بالدم المراق من الجميع نصرة للحق والعدل. ورغبة في منع أي حادث يؤدي على زيادة الخطورة في المركز، رأيت أن أعرض لفخامتكم ما يأتي:

(١) إلغاء القرار الباريسي، أو في الأقل إرجاء العمل به.

(٢) أن تعرض المسألة كلها على مؤتمر السلام؛ لتسويتها النهائية بدون تأجيل، والنظر فيها من قبل المؤتمر بأجمعه، أو من لجنة أخرى فرعية يعينها المؤتمر، تؤلف من أعضاء بريطانيين وفرنساويين وعرب تحت رئاسة أحد الأمريكان للبحث في هذه المسألة الخطيرة، ولتقديم قرار عن ذلك إلى مؤتمر السلام.

إني أعتبر إلغاء ذلك القرار الباريسي من الأوليات الحيوية للوصول إلى حل مرضي، وأنه إن لم يعمل بذلك فالكارثة في سورية يعجل وقوعها. وربما تطرأ أمور تمنع المباحثات الودية، ولذلك فأنا أثق بأن مطالبتي هذه التي هي جوهرية لمصالح الجميع، تقابل من فخامتكم بالاستحسان، وإني معتمد على مساعدة الحكومة البريطانية لتأكيد ما أرجو من فخامتكم أن تتكرموا عليّ بالجواب في أسرع أوان، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

التوقيع

.....

صورة الكتاب الوارد من رئيس الوزارة البريطانية

١٠ دونج ستريت

(لندن) ١٠ أكتوبر سنة ١٩١٩

يا صاحب السمو:

وصلني كتابكم المؤرخ في ٩ أكتوبر الذي ترتأون فيه أن الاقتراحات عن احتلال سوريا بعد الانسحاب البريطاني، ينبغي أن تلغى، أو على الأقل تؤجل، وأن القضية كلها تعرض على مؤتمر الصلح، أو على مؤتمر فرعي يعينه المؤتمر لأجل التسوية النهائية بدون تأخير.

لا أظن أنه يجب عليّ أن أبحث مرة ثانية في الدواعي التي حملت حكومة جلالته على عرض الاقتراحات المذكورة في المذكرة؛ لأنها قد أوضحت كفاية في الكتاب المرسل إليكم من قبل وزير الخارجية. ولتلك الأسباب المذكورة لا يظهر لي أن الاقتراح الذي تبدو الآن يمكن العمل به؛ فحكومة جلالته قد أقرت عزمها على أنه يستحيل عليها أن تداوم على احتلال سورية بالجيش البريطاني. وقد أعلنت منذ ستة أشهر مضت لمؤتمر السلم ولذاتكم أيضًا، أنها لا تقبل انتدابًا في سورية في أية حال من الأحوال، فاحتلالها للبلاد الذي كبدها نفقات طائلة قد طال أكثر مما كان في انتظارها، على أمل أن مؤتمر السلام يقدر على مباشرة البحث في القضية التركية بعد بضعة شهور، ومرض الرئيس ولسون المكدر الذي بدون مشاركته بالعمل معنا لا يمكن الوصول إلى بت نهائي سيؤجل عوضًا عن أي عجل البت في هذه القضية.

وعليه فمن المستحيل لحكومة جلالته أن تسحب الاقتراحات التي أبدتها للعمل في القضية السورية أثناء التأجيل، إلى أن يفصل فيها مؤتمر السلام.

على أنها تسر جداً بأن تدبر سريعاً اجتماعاً بين ذاتكم ومفوض فرنساوي وأمريكاني وبريطاني، لتسوية القضايا المتعلقة بالانسحاب المنوي وقوعه للجيش البريطاني في أول نوفمبر على أحسن طريقة حبية مرضية للجميع.

وكما أنبأتكم قبلاً أنني أرغب في استماع مطالعات سموكم شخصياً في مواجهة ثانية عن هذه المسألة، نهار الإثنين القادم الساعة الرابعة في ١٠ دونج ستريت، وإن لي الشرف أن أكون خادماً سموكم المطيع.

ليود جورج
رئيس الوزارة البريطانية

مذكرة من وزارة الخارجية الإنكليزية للامير فيصل

نظارة الخارجية البريطانية:

لندن في ٩ أكتوبر سنة ١٩١٩:

يا صاحب السمو:

لي الشرف أن أنبئكم بوصول الملاحظات الابتدائية، التي تفضلتم بتعليقها على مذكرة رئيس الوزارة التي قدمها للموسيو كليمنصو ولشخصكم عن الاحتلال العسكري في سورية وفلسطين والعراق، ريثما يبرم مؤتمر السلام قراره بشأن الانتداب. ولقد أرسلنا نسخاً منها أيضاً إلى كل من المستر فولك مندوب الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى السنيور تيتوني مندوب المملكة الإيطالية:

وبناء على ما يلوح لنا من أن هنالك سوء تفاهم في مغزى المذكرة، فإني أريد - قبل كل شيء - أن أبين أن تلك الوثيقة المذكورة لا تمثل بأي وجه من الوجوه اتفاقاً بين الحكومتين الإفرنسية والبريطانية؛ بل تشتمل على مقترحات قدمتها الحكومة البريطانية من تلقاء نفسها عن الاحتلال العسكري في الولايات التي كانت فيها سبق من الزمن تابعة لتركيا - إلى أن يقرر مؤتمر السلام مسألة مستقبلها نهائياً.

وهذه المقترحات التي تتمسك بها الحكومة البريطانية لم تضعها إلا بعد أن قررت أنه يستحيل عليها أن تستمر على احتلال سورية بالجيش البريطانية. وقد دعتكم الحكومة البريطانية إلى أوروبا، وأسرعت في تدبير أمر سفركم قبل أن تبلغ هذا

القرار للحكومة الفرنسية أو المؤتمر، ووضعت تلك المقترحات في يدكم للنظر فيها على إثر وصولكم.

ويظهر أن سموكم تنظرون إلى هذا التدبير المقترح لاستبدال الجيوش البريطانية بالإفريقية والعربية، كأنه من بعض الوجوه مغاير للعهود التي عقدتها حكومة جلالة الملك، مع والدكم الجليل جلالة الشريف حسين ملك الحجاز. ودفعاً لحصول أدنى سوء تفاهم بشأن هذا الأمر، فإني أبعث إليكم بالمراسلات التي دارت بين والدكم الجليل ملك الحجاز وبين نائب جلالة الملك بمصر، وأدّت بموجب الشروط التي تشتمل عليها إلى دخول العرب في الحرب ضد تركيا. وهذه الأوراق تحتوي على جميع المكاتبات المختصة بهذا الموضوع، وهي في حيازة حكومة جلالة الملك.

أما الوثيقة التي قدمتموها سموكم لرئيس الوزارة في الاجتماع، الذي انعقد منذ بضعة أيام فهي فقط خلاصة الشروط التي طلبها الملك حسين في وقت سابق؛ ولكنها لم تؤخذ بعين الاعتبار ولم تُقبَل. ولذلك لا دخل لها في المسألة الموضوعة على بساط البحث.

وإنه لمن الواضح لسموكم من المكاتبات المرسلة طيه أن حكومة جلالة الملك بَيَّنت من الأول: أنه في رأيها أن مقاطعات -مرسين وإسكندرونة وبعض أقسام سورية الواقعة إلى غرب مقاطعات دمشق وحمص وحماة وحلب- لا يمكن أن يقال عنها: إنها عربية خالصة، وإنه ينبغي إخراجها من الحدود المقترحة والتخوم التي كانت الحكومة البريطانية مستعدة أن تعترف باستقلال العرب فيها، ولها ملء الحرية أن تتصرف فيها بما لا ينافي مصالح حليفتها فرنسا. وهذه الفقرات واردة في كتاب السر هنري مكماهون إلى جلالة الشريف بتاريخ ٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٥. وقد أجاب

جلالة الشريف حسين عن هذا الكتاب في ٥ نوفمبر بقوله: «إنه يتنازل عن إلحاحه بإدخال ولايتي مرسين وأطنة في المملكة العربية».

ولكنه صرح بأن: «ولاية حلب وبيروت وسواحلها، إنما هي ولايات عربية خالصة».

وردًا على هذا الكتاب قال نائب جلالة الملك بمصر في ١٤ ديسمبر ما يأتي:

«إنه يرحب بموافقة جلالة الشريف على استثناء ولاية مرسين وأطنة من حدود الأمصار العربية».

وزاد على ذلك ما يأتي:

«أما فيما يختص بولاية حلب وبيروت: فحكومة بريطانيا العظمى قد نظرت بعين الاعتبار إلى ملاحظتكم؛ ولكن بما أن مصالح حليفنا داخلية في هذه المسألة فيقتضي لذلك اعتبارات مهمة، ومراسلات أخرى عن الموضوع تقدم لكم في حينها».

وأما الحاجة إلى مكاتبة جديدة فقد استغنى عنها، لورود كتاب من جلالة الشريف حسين، مؤرخ في أول يناير سنة ١٩١٦ يقول فيه:

«إنه بخصوص الأقسام الشمالية وسواحلها، قد أوضحنا قبلاً في كتابنا السابق ما يمكننا القبول به من التغييرات، وقد وجب ذلك لإتمام المطالب التي بلوغها منوط بمشيئته سبحانه وتعالى، إن هذا الشعور ذاته. وهذه الرغبة التي تبعثنا على تجنب كل ما يمكن أن يضر بالمعاهدة بين إنجلترا وفرنسا، والاتفاق المعقود بينهما مدة الحرب ورزاياها، على أننا نجد أن من واجبنا أن نؤكد لحضرة الوزير أنه عند

سنوح أول فرصة بعد انتهاء الحرب، نطالبكم بما نغض النظر عنه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها».

وقد شرح جلالته ذلك الرأي بقوله فيما بعد:

«من المؤكد أن الأهليين في بيروت لن يقبلوا هذه الاستثناءات، وربما أجبرونا أن نتخذ أموراً جديدة قد تعود على بريطانيا العظمى، بما لا يقل عن مشاكلنا الحاضرة؛ لأننا نعتقد ونؤكد أن مصالحنا متبادلة. وهذا الأمر هو الذي جعلنا أن لا نخاطب دولة غيركم، ولذلك يستحيل علينا أن نسمح بأي تحوير يخول فرنسا أي نفوذ أو أي شبر واحد من الأرض في تلك البقاع».

وفي ٢٥ يناير أجاب نائب الملك بمصر بما يأتي:

«أما عن الأقسام الشمالية: فقد لاحظنا بمزيد الرضى، أنكم ترغبون أن تتجنبوا كل ما يضر بالمعاهدة بين بريطانيا العظمى وفرنسا؛ لأن ذلك كما تعلمون عزمنا الأكيد، وأنه لا يمكن أن يطرأ أي شخص يخفف ولو في أقل الدرجات تضامنتنا على مداومة الحرب إلى نتيجة النصر. وعلاوة على ذلك فالصداقة بين بريطانيا العظمى وفرنسا، متى تقرر النصر تزيد رسوخاً وثباتاً؛ لأنها تكون موثقة بدماء الإنجليز والفرنسيين الذين ماتوا جنباً لجنب ذائدين عن العدل والحرية».

تلك كانت آخر المكاتبات التي دارت عن هذا الموضوع، قبل المهاجمة المشتركة التي انتهت في نوفمبر سنة ١٩١٨ باندحار الجيوش التركية التام.

ويتضح من هذه المراسلات أمران:

الأول: «أن الحكومة البريطانية مرتبطة بمواثيقها مع الملك حسين أن تعترف بتأسيس مملكة عربية مستقلة، تشتمل حدودها على المدن الأربع؛ وهي الشام وحمّة وحلب». وحمص وحلب».

الثاني: «أن الحكومة البريطانية قد أوضحت بلا إبهام لجلالة والدكم قبل دخول العرب في الحرب، أنهم يعتبرون أن لفرنسا حقوقاً خاصة في البقاع الواقعة إلى غرب هذه المدن الأربع».

وحكومة جلالته تحب أن تزيد على هذا: أنه في سنة ١٩١٦ حينما اقتضت المصلحة الحربية العمومية أن يبرم اتفاق مع فرنسا وروسيا على احتلال الولايات التركية - عند سقوط تركيا - ألحت حكومة جلالته الملك على الاحتفاظ باستقلال العرب في الولايات، التي وعدت أن تحتفظ بها في مراسلاتها مع الملك حسين. ولم تبلغ هذا الاتفاق للملك حسين؛ لأنه كان مطابقاً للعهود التي دخلت معه بموجبها من قبل.

وقد كان موقف حكومة جلالته الملك في كل هذه المخابرات واضحة دائماً وغير متبدل، وقد دخلت مع حليفها الفرنسي والعرب بموجب شروط لا تتغير؛ بل كل واحد منها متمم للآخر، وحكومة جلالته تعلق اهتماماً عظيماً على صداقه حليفها واشترائها في العمل، وتنوي أن تقوم بتعهداتها لكل واحد منها.

وأما الآن: فأقول شيئاً عن سؤال سموكم عن السبب الموجب لنهاية الاحتلال العسكري البريطاني لسورية، عوضاً عن تأجيله حتى يتقرر الصلح مع تركيا وحلفائها.

إن حكومة جلالة الملك يسرها أن تعترف اعترافاً تاماً بالمساعدة، التي لم يكن غنى عنها، والتي بذلها الملك حسين وشخصكم الكريم والجيش العربي الباسل تحت قيادتكم تأييداً لقضية الحلفاء؛ فإن حماسة ونشاط جيوش سموكم كانت عضداً مهماً في الحرب التي انتهت بقهر الاستبداد التركي؛ ولكن حكومة جلالة الملك لا يمكنها أن تنسى أن الحصّة الكبرى في قهر تركيا قد كانت من نصيب المملكة البريطانية، فإنها منذ البداية إلى النهاية قد أرسلت إلى ميدان الحرب الشرقي ما ينيف على مليون وأربعمائة ألف جندي، وأنفقت سبعمائة وخمسين مليوناً من الجنيهات. وقد كانت هذه الأثقال علاوة على الضحايا الكبرى التي اضطرت إليها في أوروبا، لحطم قوة الألمان التي كانت تدعم الإمبراطورية العثمانية. فشعوب الإمبراطورية البريطانية قد خسرت أكثر من تسعمائة وخمسين ألف نسمة في ذلك السبيل، وجرت على نفسها ديناً فادحاً يبلغ تسعة آلاف مليون جنيه؛ لتأييد حرية أمم أوروبا والشعوب التي كانت من قبل تثن تحت النير التركي. وقد تمكنت شعوب الإمبراطورية البريطانية بهذه النفقات من مساعدة الشعوب العربية والأمم الأوربية المستبد بها، وحطمت نير المستبد؛ لتسير في الطريق المؤدية إلى النجاح والاستقلال والنفوذ في العالم، وعلاوة على هذا الجهد أثناء الحرب، فالإمبراطورية البريطانية قد تركت حاميات في الولايات المحتلة مدة سنة منذ إمضاء الهدنة، واحتملت الأثقال العظيمة والمتعبة لتأييد النظام والسلام في البلاد التي تحررت من الحكم الأجنبي، راجية أن مؤتمر الصلح يأتي بحل مرض عاجلاً لجميع المشاكل الصعبة المتعلقة بمستقبل الشرق الأوسط؛ ولكنه ليس من الإنصاف أن يسأل «المكلف» الإنجليزي بأن يتحمل أكثر مما تحمل من أثقال احتلال الولايات، التي لا تنوي الإمبراطورية أن تقبل فيها مسئولية دائمة. وقد جاهرت حكومة جلالتها في مارس الأخير لمؤتمر السلام ولذاتكم أيضاً: أنها لا تقبل انتداباً في سورية في أية حال كانت. والآن بناء على

تأجيل الولايات المتحدة الأمريكية قرارها باستعدادها لقبول أو رفض المشاركة، في تأييد خير ونجاح شعوب الشرق الأوسط، فلا أمل في تقرير سلم نهائي مع تركيا قبل مضي بعض الوقت من السنة المقبلة.

وعلى هذه الحالة قد قررت حكومة جلالة الملك: أنه يستحيل عليها إبقاء جيوشها بعد في سورية، وأعلنت المؤتمر بذلك، وهي تنوي سحبهم في أول نوفمبر القادم. وقد ذكرتم سموكم في مذكرة أخرى مؤرخة في ٢٣ سبتمبر مسألة الشروط التي عليها أخلت القوات العربية مدن الساحل حين تقدّم الجيش؛ فحكومة جلالته لا تريد أن تفكر بأن سموكم تعتبرون امثال أوامر القائد العام الذي كنتم تحت أمره (وهي أوامر كانت عنده قوة كافية لإنفاذها) نتيجة مقاوله. أما إن سموكم قد اعتقدتم أن الاحتلال البريطاني سيدوم إلى إمضاء السلام فأمر أفهمه جيداً؛ لأن ذلك كان أيضاً في رأي حكومة جلالته في ذلك الوقت. وقد أطالت أجل الاحتلال البريطاني أكثر مما كانت تظن هي أو غيرها في الأرجح؛ لكن بالنظر إلى العبء الفادح الواقع عليها، فمن حقها أن تلح أن احتلالها ينبغي أن ينتهي. وهي عندما أنبأت مؤتمر السلام بما سبق ذكره عن عزمها على سحب جيوشها حالاً، عرضت حكومة جلالته مشروع الاحتلال المؤقت للبقاع التي كانت سابقاً تركية، كما هو منشور في المذكرة. وهي لا ترى أن هنالك اقتراحاً يمكن العمل به في خلال هذه المدة. ولا يوجد رجل ثقة يعتقد بقدرة الشعب السوري على القيام بشئون نفسه في الوقت الحاضر، فتجربة هذا الحل الذي تشيرون به يكون مضرّاً لترقي الشعب السوري سريعاً، وبملء الحرية. وبالنتيجة لاستقلال الشعوب السورية والعربية، وعلاوة على ذلك فإنه ينبغي -ريشما يتقرر الصلح مع تركيا- أن تحتل قوة أوربية من الدرجة الأولى البقاع الواقعة إلى الجنوب الشرقي من الأناضول، وبعرضها هذا الاقتراح، كما هو مفصل في المذكرة، قد نظرت حكومة جلالة الملك إلى التعهدات

التي تحملتها نحو حلفائها العرب والإفرنسييس، وهي تعهدات -كما سبق إيضاحه- قد بُيّنت للملك حسين قبل دخوله في الحرب، وهي لم تستطع إلا بعد صعوبة أن توطد لسموكم تأسيس مملكة عربية مستقلة في ذلك القسم من سورية المشتمل على دمشق وحماة وحمص وحلب، كما سبق الوعد للعرب مع الملك حسين.

أما فيما يتعلق باحتلال فرنسا لبقية سورية، فهي تسأل سموكم: أن تذكروا أن العرب مديونون بنيل حريتهم بدرجة عظمى للضحايا العظمى التي تكبدتها الأمة الفرنساوية في هذه الحرب. وحقيق أن المساعدة الفرنساوية في سوريا عينها لم تكن عظيمة؛ لاشتغال فرنسا بالعراك في جهات أخرى غيرها، ولكنها في ميادين الحرب الحيوية في أوربا قد خسرت مليون وأربعمائة ألف جندي، وتكبدت ديناً لا يقل عن الدين الذي تكبدته بريطانيا العظمى، لسحق القوة التي أيدت الاستبداد التركي، والتي لولا معونتها لم تستطع القوة الحربية التركية من أن تدوم أكثر من بضعة أسابيع. ولذلك فحكومة جلالة الملك تؤمل من سموكم أن ترضوا بالاقتراحات التي بينتها في مذكرتها عن احتلال سورية، ريثما يتم الصلح مع تركيا. وأما الاعتبارات التي تذكرونها عن مستقبل الشعب السوري والعربي، ستطلب بالحاح من مؤتمر السلام -الذي أنتم أحد أعضائه الموقرين- والذين يكون له القوة التامة للبت في المسألة العربية كلها، والذي لا يقتصر في أعماله على رأي سموكم ورأي الشعب العربي فقط؛ بل يتناول سائر التعهدات والمجاهرات الصادرة من الدول العظمى.

وإن حكومة جلال الملك لا تشك أبداً في أن أحسن الطرق للشعب العربي: هو أن يقبل التدبير المؤقت المقترح، وأن يدخل في تدابير حبية عملية لأجل إنفاذها مع حليفته بريطانيا العظمى وفرنسا، وهي كما أشارت سابقاً تلح الآن بأن سموكم

تبحثون حالاً في هذه التدابير مع الحكومة الفرنسية، وحكومة جلالته تعمل ما في وسعها بكل سرور؛ لتسهيل اتفاق مرض حبي بين حليفيها فيما يتعلق بالاحتلال سحابة هذه المدة.

وتعتبر الحكومة البريطانية أنها مقصرة بواجبها نحو حلفائها العرب إذا لم توضح بحرص وبكل مودة أنها لا تقدر أن تتصور شيئاً أشد مثلاً لآمال العرب ونجاحهم في مؤتمر السلم وبعده من طريقة المقاومة العسكرية، الملمح إليها في كتاب سموكم، وهي بصفتها صديقة العرب المخلصة والمريدة لهم كل خير، تدعوهم إلى قبول التدبير المقترح.

وعلاوة على ذلك أرجو أن يكون هذا الكتاب معيناً، على نجاح محادثاتنا في المستقبل مع سموكم، والتي أتطلع إليها بكل سرور، وإني أثق أنه يكون وسيلة لتمهيد العلاقات بين هذه البلاد وحليفيها الفرنسيين والعرب.

وإني ألتمس من سموكم أن تثقوا بأن للحكومة البريطانية العاطفة والإعجاب بالشعب العربي اللذين حملاها على تأييد جلالته الملك حسين في ثورته ضد الترك، واللذين يمثلان طرق العلاقة مع سموكم في الحرب العظيمة الظافرة، التي اشتركتم سموكم في الجهاد فيها زمناً طويلاً.

ولي الشرف أن أكون خادم سموكم الخاضع المطيع.

اللورد كرزون أوف مدلتون
وكيل خارجية حكومة جلالة الملك

مذكرة

إلى المجلس الأعلى لمؤتمر السلام في فرساوي

استدعاني فخامة رئيس الوزارة البريطانية من دمشق في خلال شهر سبتمبر، لمفاوضة الدول العظمى في المسألة السورية، وسلمني فخامته في لوندرة مذكرة تحتوي على تغييرات معينة في الإدارة الحالية في سورية، وقال: إن نسخاً منها سلمت لمندوبي فرنسا وأمريكا وإيطاليا. وقد فهمت من المكاتبات والمعاملات التي تبعت ذلك أن المذكرة المشار إليها لم تكن مبنية على اتفاق بين بريطانيا العظمى وأية دولة أخرى؛ وإنما هي بيان لقرار اتخذته بريطانيا العظمى لأسباب اقتصادية فيما يتعلق بانسحاب جيوشها من بعض الولايات العربية، ويقال: إن المسألة كلها اتفاق عسكري مؤقت، وليس له صفة إدارية أو سياسية، وإنما اتخذ لحفظ النظام إلى القرار النهائي الذي سيصدره مؤتمر السلام عن حكومة البلاد المستقبلية.

فأنعمت النظر في هذه المكاتبات، ولما كنت أراقب عن كثب الحالة العامة في البلاد العربية، منذ عقدت الهدنة مع الترك، (ولا يخفى على حضرتكم أي في موقف يؤهلني للحكم بأحوال بلادي) فقد وصلت إلى النتيجة الآتية:

إن تنفيذ هذا المشروع مخالف لحقوق الأمم، ومجحف بحقوق شعبي وبلادي، وغل بالأمن العام في الشرق كله، وإني واثق أن الدول العظمى ذات المصالح في الشرق يصيبها من الضرر بقدر ما لها من المصالح هناك، وأن الدولتين لا يمكن أن تكونا عالميتين بالمشاكل التي قد تقع من تغيير الحالة الحاضرة المؤسسة منذ الاحتلال؛ لأن هذا الاتفاق يغير الإدارة المؤقتة منذ الاحتلال بلا اتخاذ تدبير مؤقت يقوم مقامه.

لما أخبرتني الحكومة البريطانية عن هذا المشروع الذي يسمونه (مشروعاً مقترحاً) مبنياً على معاهدة سايكس - بيكو سنة ١٩١٦ احتججت ودونت الأسباب التي دعنتني إلى ذلك. فلما تحققت الحكومة البريطانية حرج الموقف، قبلت اقتراحي بتعيين لجنة أمريكية وبريطانية وفرنسوية وعربية للنظر في المسائل المتعلقة بالجللاء الآتي، ولتأسيس إدارة واحدة مؤقتة تقوم مقام الإدارة الحاضرة، فلما عرض هذا الاقتراح على الحكومة الفرنسية أخبرني اللورد كرزون وزير خارجية بريطانيا العظمى أن المسيو كلمنصو لم يستحسن هذا الاقتراح، وأعرب عن رغبته في أن يراني في باريس، وعلاوة على ذلك فإن الحكومة الفرنسية رفضت الموافقة كما هي، وأخبرتني بنفسها على اقتراح بريطانيا إلا فيما يختص بجللاء الجيش البريطانية في أول نوفمبر، فالحكومتان نظرتا فقط إلى ما يختص بمصالحهما في المسألة ولم تقدرتا التقدير اللازم لما يكون لذلك من التأثير في الشعب السوري، ولما كانت عليّ مسئولية سلامة ونجاح بلادي، فقد أخبرت الحكومة الفرنسية كذلك عن الأسباب التي تمنعني عن الموافقة على هذا الاتفاق، وأعدت عليها الاقتراح بتأليف اللجنة المختلطة، فرئيس الوزارة الفرنسية في رده علي رفض قبول أي اقتراح من اقتراحاتي؛ اعتقاداً منه أن المجلس الأعلى قد اتخذ قراراً في هذا الأمر، وقال: إن الجنود الفرنسية مستعدة لحفظ النظام في منطقتها، ومساعدتي على ذلك في منطقتي حالما أطلب ذلك منها. وأظن أن المسيو كلمنصور يعتقد أن الحركة التي نخشاها يكون سببها المحرضون، وليس انفجاراً ذاتياً لشعور وطني. وإني في ريب من أن المجلس الأعلى والرأي العام في العالم المتمدن أجمع يوافق على اتخاذ الوسائل؛ لإخماد الحركات الوطنية المشروعة، مما لا يكون من نتائجه إلا سفك الدماء. وقد فهمت أن المجلس الأعلى لم يتخذ أي قرار في هذا الأمر. والذي أعلمه أن غاية ما فعله: أنه دون هذا الاتفاق في ١٥ سبتمبر. ويظهر أن المجلس الأعلى فهم أن هذا المشروع المقترح لم تكن الغاية منه

سوى استبدال الجيوش، وأنه لم يشمل أي تغيير سياسي أو إداري في بلاد العدو المحتلة التي تدار شئونها الآن باسم الحلفاء. فمن الواضح إذن أن المشروع المقترح لم يوافق عليه أولو الأمر المناط بهم ذلك، ويجب أن يعاد النظر والمناقشة فيه في المجلس الأعلى، وإني أعرض فيما يأتي الأسباب الجوهرية التي قد تدفع الشعب إلى اليأس من مستقبله، والتي أبنى اعتراضى عليها على الاقتراح:

(١) يصعب عليّ أن أفهم أن المشروع عسكري محض، ويظهر لي أنه يحتوي على أمور اقتصادية وسياسية لا يمكن البت فيها إلا في مؤتمر السلم، فإن مجرد نزع السلطة العليا في الإدارة من يد واحدة، وقسمة البلاد إلى ثلاث مناطق مختلفة، مرجع كل منها حكومة دون غيرها، وكل منها تعمل على نظام مختلف - هو بلا ريب تغيير ذو شأن - لا يمكن أن يقال: إنه إجراء عسكري، فإن بعض المسائل كالاتفاق على السكك الحديدية ومناطق النفوذ وغير ذلك، لا تدخل في جملة الوسائل المتخذة لحفظ النظام حتى يصدر القرار النهائي في المسألة السورية من قبل مؤتمر السلم.

(٢) إنه بموجب التدبير المقترح تقسم الولايات العربية إلى ثلاث مقاطعات: واحدة منها تحت الإدارة البريطانية، والثانية تحت الإدارة الفرنسية، والثالثة تحت الحكومة العربية. ومعنى ذلك: أن الأمة السورية التي طالما تآقت إلى وحدة الإدارة قد تقطعت أوصالها، وجعل لكل جزء منها حكومة خاصة؛ فالضرر الناشئ عن ذلك هو ضربة قاضية على البلاد؛ فإن المنازعات بين سكان المقاطعات المختلفة التي قد تكون تحت رحمة - أو جهل - الموظفين الذين قد ينشطوا منها، أو تزداد المزاومة بين الحكام المختلفين؛ فيقف ذلك في سبيل الفوائد التي تنجم عن وضع البلاد تحت إدارة واحدة.

ثم إن الجزء الذي ترك للحكومة العربية يقال: إنه ولاية عربية مستقلة؛ ومع ذلك فقد وضع تحت نفوذين مختلفين: أحدهما بريطاني، والآخر فرنسوي، وكل مساعدة لأحد هذين الجزأين يجب أن تطلب من الدولة التي لها النفوذ هناك. فهل سمع في تاريخ العالم أن أمة من الأمم أمكنها الرقي في أحوال معاكسة كهذه؟ ولا شبهة أن هذا التدبير يشط عزائم الأمة، ويكون مدعاة لحنقها، فتزول ثقتها بالحلفاء، وتبذل جهدها في الدفاع عن وحدة البلاد. نعم إن الأمة ضعيفة، ويتعذر عليها المقاومة الطويلة؛ لكنها لا تحجم عن الموت في سبيل مطالبها العادلة؛ فمن يكون مسؤولاً أمام العام المتمدن عن مسئولية كهذه؟ ولا يستطيع أحد أن يقنع الأمة أنها على ضلال فيما قد وضعته نصب أعينها. وكل من اختبر الشعور الغالب على الأمة لا بد من أن يعتقد بأن الأمن العام ممكن توطيده بدون إراقة الدماء.

(٣) قد اقترح سحب الجيوش البريطانية على أساس لا يعترف به العرب، ولا حكومة الولايات المتحدة التي أعنت عند دخولها الحرب أنها لا تعترف بأي اتفاق سري، وأنا أشير بهذا إلى اتفاق سايكس-بيكو المبرم سنة ١٩١٦م الذي تصرف بالبلاد كأنها ضيعة من الضياع، أو سلعة من السلع في زمن كان فيه فتياها يهرعون من سورية إلى الصحراء؛ لبذل نفوسهم في سبيل استقلالها، فإن كل عمل يكون أساسه غير معترف به في مؤتمر السلم لا يمكن تنفيذه بلا مناقشة خاصة في ذلك المؤتمر.

(٤) لما احتل الحلفاء سورية أمرني القائد العام أن أستدعي عمالي من السواحل، وصرح للشعب السوري: أنه يريد احتلال البلاد وتأسيس حكومة موحدة فيها باسم الحلفاء، وأن تبقى إدارته المشكلة على هذا النمط معمولاً بها إلى أن يحين الزمن الذي يمضي فيه مؤتمر السلم قراره النهائي، وقد اعتبر السوريون هذا التصريح عهداً

من الخلفاء، وأن بلادهم تكون أمانة في ذمة القائدة نيابة عن الخلفاء، وأن ذلك يكون أساساً لحكومة واحدة، وعد على القيام بها كما ذكر آنفاً. وإني أعتقد أنه لا يمكن تغيير القواعد الأساسية في هذا التدبير قبل حلول الأجل، أو قبل إنشاء إدارة أخرى مبنية على المبادئ عينها. أما بريطانيا العظمى فإنها تعترف بهذا العهد؛ ولكنها تقول: إنها لم تكن تحسب حساباً لطول الزمن، إلى أن يمضي مؤتمر السلم قراره. فهل هذا التأخير واقع ذنبه على الأمة العربية السورية، أو هل ظهر منا أقل إخلال بولائنا نستحق عليه هذا العقاب، فقد كنا دائماً على تمام الولاء للحلفاء من اليوم الذي ثرنا فيه على الترك، وأقل ما نرجوه هو القيام بوعد القائد العام.

(٥) إن ثورة العواطف الشاملة الآن للولايات العربية وجميع الولايات الإسلامية في تركة الأسى، التي أعظم أسبابها المداخلات الأجنبية بلا ترو، لم تعد خافية على أحد، وكل من له أقل إلمام بما هو جار في المقاطعة السورية هو في أشد الاقتناع، أنه لا بد من وقوع المشاكل وفي أماكن متعددة إذا تغيرت الحالة الراهنة في الإدارة الحاضرة.

فإني لذلك أتوسل إليكم باسم الإنسانية، وحفظاً للسلم، وباسم الأمة العربية وباسم المصالح المتعددة التي لفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وأمريكا في الشرق: أن لا تفتح أبواب جديدة لمشاكل أخرى التي قد ترى أوائلها ولا يعلم أواخرها إلا الله، وإن حوادث أزمير وغيرها لا تزال حديثة العهد، وأنا أخشى أن يمتد الشر إلى جميع العالم الإسلامي؛ ظناً من الناس أن هنالك غاية معلومة للنكابة بالإسلام، ولعلكم تفكرون أن قيام العرب بزعامة والدي الملك كانت الضربة الأولى على سياسة التعصب الذميمة. فالعرب حاربوا الترك المسلمين لأنهم كانوا ظالمين، وانضموا إلى صفوف الحلفاء لاعتقادهم أنهم يحاربون دفاعاً عن الحق والعدل بلا نظر إلى

الأديان، وطالما حاربت التعصب في كل زمان ومكان مدة الحرب، فاجتمع العرب حولي من كل صوب ودين. وكان اتحادنا وطنياً لا دينياً، وعدد كبير من العاملين معي الآن في سبيل الوطن ليسوا من ديني، هذا كاف ليبرهن لكم مقدار أسفي إذا انحطت هذه الفكرة الوطنية، وتحولت إلى نزاع ديني بسبب سوء التفاهم والتدبير، فينبغي إذن أن توافقوني على قلبي: إن من مصلحة الجميع حفظ السكينة التامة في الزمن القصير الباقي، قبل القرار النهائي في المؤتمر لإثارة الفتنة لسبب غير معقول. وأرى أنه يجب أن تعلم الدول العظمى خطورة الموقف، ليتخذ الحلفاء أصحاب المصالح وإخواننا في الحرب التدبير اللازم للنظر في مصلحة كل حكومة على مقتضى مبادئ العدل التي اشتركنا في الدفاع عنها. وأصر على طلبي: أن أعرض بنفسني بياناً واثقاً عن قضيتي التي تهم بلادي أكثر من سواها؛ لأن نتائج كل عمل يقام به، تقع عليّ وعلى بلادي، سواء كان ذلك شراً أو خيراً.

التوقيع: (فيصل)

قرار أشغال كليكييا وسورية العسكري

لقد قبل موسيو كلمنصو باسم الحكومة الفرنسية اقتراحات موسيو لويد جورج، بجلاء الجيش البريطاني عن سورية وكليكييا، واستبدال هذه القوى بجنود فرنسية في كليكييا، وفي غرب خط سايكس-بيكو في سورية. ومن المفهوم الصريح: أن الحكومة الفرنسية بقبولها هذه الاقتراحات لم تتعهد بقبول أي قسم آخر من الاتفاقات المقترحة في مذكرة لويد جورج، المؤرخة في ١٣ أيلول سنة ١٩١٩ والمتعلقة باحتلال سورية وفلسطين والعراق، لحينما يصدر القرار بقضية الانتداب.

فالمؤتمر دون هذا الاتفاق المنوه عنه بصفة اتفاق مؤقت لا غير؛ لتسوية الاحتلال العسكري فقط، وهو لا يؤثر على حل قضايا الانتداب والحدود التي يجب رؤيتها بصفتها جزءاً من قضية الصلح العامة مع تركيا.

صورة البرقية المرسلة إلى جلالة الملك في مكة

٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٩

الحكومة الفرنسية رفضت اقتراحي باسم جلالتيكم بشأن سورية؛ مع أن إنجلترا قبلته، وهي مصرّة على أشغال أقسام مهمة من مقاطعات دمشق وحلب، تمسكاً بمذكرة لويد جورج التي قدمها للمؤتمر في أيلول، وأخبرت جلالتيكم عنها. ولما كان هذا مخالفاً بالحقوق والعهود بين بريطانيا و جلالتيكم، عزمت على تبليغ الدول بأن جيشكم في سورية سيقاوم كل تجاوز يخل بحدود المناطق الحاضرة. وإني حررت لحكومة بريطانيا اليوم أؤكد لها عظيم ثقتنا بإخلاصها، وأذكرها بعهودها لجلالتيكم في ٢٤ أكتوبر. أننا لا نريد إلا أن نكون على وفاق تام مع حليفتنا الأولى بريطانيا، التي هي سند نجاحنا، ومع سائر الحلفاء، وفرنسا أيضاً إذا رضيت باقتراحي الأخير الذي لا حياة بدونه الآن؛ وهو إبقاء الحدود الحاضرة كما هي، وتأليف لجنة تحفظ وحدة الإدارة بين المناطق الثلاث، حتى قرار المؤتمر النهائي.

الموضوع: احتجاج على الاحتلال البقاع.

من: سمو الأمير فيصل المعظم.

إلى: رئيس وزارة فرنسا المسيو كليمنصو.

التاريخ: ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٩

(النص)

فخامة الوزير:

أخبرني المسيو غورو اليوم شفهيًا، الساعة الثالثة بعد الظهر: أنه على إثر حادثة ضابط الارتباط الفرنسي، وجرح جاويشه، بتاريخ ١٤ ديسمبر، مشيت الجنود الفرنسية في اليوم الثاني للحادثة نحو بعلبك؛ بحجة تأمين النظام والأمن. ولعمري إن هذا القرار الذي اتخذته الجنرال غورو دون أن يدع لحكومة دمشق فرصة لاتخاذ التدابير اللازمة بهذا الشأن، مما يخالف الاتفاق المعقود بيننا، والذي ينطق صراحة بأن القوة الموجودة في تلك الجهات إذا كانت غير كافية يؤتى بالمدد من دمشق؛ تأمينًا للنظام، وإعادة الأمن الذي تسأل عنه الحكومة العربية دون سواها.

إني واثق بأن الحكومة الفرنسية لا يمكنها أن ترضى عن مثل هذا العمل الذي يناقض علنًا نص اتفاقها، وإني لا أشك أبدًا أن الحكومة الفرنسية لا بد أن تعمل بما يوحى إليها شرف تعهدها، وأن تصدر الأوامر اللازمة للجنرال غورو ليسحب هذه الجنود من الأماكن المحتلة؛ خلافًا لاتفاقنا السابق، وحبًا بالمحافظة على مواده. ومع أني أرجو أن تطمئنوني عن هذا الأمر، في الشرف أن أقدم لفخامتكم فائق تحياتي.

المخلص
فيصل

صورة كتاب من المسيو برتلو إلى سمو الأمير فيصل

باريس - بلاد تاريخ

أخذ يوم الجمعة ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٩م

مولاي:

أريد أولاً أن أبين لكم السرور الذي خامر رئيس مجلس الوزارة عندما أخذ علمًا بالاتفاق الذي أوصلتنا إليه روح التألف، المتبادل بشأن اللجنة العسكرية التي ينبغي أن تفصل في الاختلافات التي قد تحدث بين مناطق الاحتلال المختلفة، وبشأن الموقف المؤقت في البقاع.

أما من حيث هذه النقطة الأخيرة: فإني أعتبر أن الصراحة التامة التي ينبغي أن تكون رائد محادثاتنا، تقتضي أن يكون معلوماً فيما بيننا: أنه مقابلة لرغبة شخصية أظهرتموها، واحتراماً لعواطفكم الودية الخالصة التي أبديتها، تنازلت الحكومة الفرنسية مؤقتاً عن حقها الذي صادق عليه المؤتمر بخصوص احتلال أراضي البقاع بجنود فرنسية.

وإذا لم يؤكد هذا الاتفاق المؤقت الذي وصلنا إليه باتفاق مرض وقاطع إلى ثلاثة أشهر، فليكن معلوماً أن الفريق يستأنفان حرية العمل. ومع هذا فإني لا أشك في أن روح الائتلاف التي يشعر بها الفريقان لا تسمح لهذا الاتفاق القاطع؛ إلا أن يبرم لخير منافع الجميع قبل انتهاء هذه المدة.

وأرجو أن تعتقدوا يا مولاي بشعائر الاحترام العالي، والعاطفة الحبية التي أدين بها لسموكم الملكي.

برتلو

صورة كتاب من سمو الأمير إلى المسيو برتلو مدير الأمور السياسية العام، في نظارة
الخارجية الفرنسية- باريس ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٩

عزيزي حضرة المدير:

أتشرف بإبلاغكم طية نص البرقية التي أُرغب إرسالها إلى الأمير زيد، وفقًا
لمنطوق اتفاقنا.

وإني أشكركم على المساعي التي بذلتموها في سبيل الوصول إلى ائتلاف صميم
بين فرنسا وسوريا. وفي هذا الصدد لا يسعني إلا أن أرجوكم بأن تفضلوا وتخبروا
حضرة رئيس مجلس الوزارة باعترافي بجميله؛ لقبوله اقتراحاتي بخصوص قضية
الاستبدال.

وإنك يا عزيزي المدير لا تشك بأنني سعيد لتمكني بفضل معاونتكم الناجعة
من الوصول لهذا الائتلاف الأول، الذي أؤمل أن يتبعه في القريب العاجل ائتلاف
أعم، ونفع أعظم لخير الجميع. وإني لم أزل منذ وصولي إلى باريس أصر - كما هو
معلوم لديكم - على هذه النقطة؛ وهي أن قصدي كان الوصول إلى عقد ائتلاف مع
الحكومة الفرنسية التي مع قبولي ما يضمن للشعب السوري سيادته الوطنية
ستمح للبلاد - بطلب مني - معونتها المالية ومستشارين بقصد التعاون الودي مع
الحكومة الوطنية المؤسسة من قبل الأهلين.

وتقبل يا حضرة الرئيس بيان احترامي العالي.

فيصل

صورة البرقية
المرسلة بتاريخ ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٩
إلى سمو الأمير زيد في دمشق

أخبركم بكل ارتياح وسرور أن الحكومة الفرنسية قبلت بتأليف اللجنة التي طلبتها، والتي ستكون مؤلفة من فرنسي وإنجليزي وعربي، لأجل تسوية المشاكل التي قد تحدث بين المناطق، وابتغاء لتطمين أهالي سورية بأن الاتفاق الأخير هو عسكري محض ومؤقت، فالجنود الفرنسية لا تحتل البقاع، ولا محلاً آخر من منطقتنا الحاضرة، والجنود العربية سوف تنسحب من البقاع دليلاً على ثقتنا المتبادلة. ويبقى الدرك العربي هناك مكلفاً بحفظ النظام والأمن تحت أوامر القائممقام. وعند اللزوم يؤتى بمفرزات دركية من دمشق، هذا إذا كانت القوى الموجودة غير كافية.

وسيعهد إلى هيئة مؤلفة من ثلاثة ضباط فرنسيين، وثلاثة عرب معاً، أن تلاحظ بالاتفاق حسن تنفيذ وظائف الشرطة والدرك في تلك الجهة، وترفع تقريرها إلى القائممقام.

المفاوضات جارية مع الحكومة الفرنسية بإخلاص وثقة متبادلة. فليطمئن الأهليون وليهدأ بالهم. وقد بلغت الحكومة الفرنسية هذا الاتفاق إلى الجنرال غورو.

فيصل

صورة كتاب
من سمو الأمير إلى المسيو برتلو مدير الأمور السياسية العام
في نظارة الخارجية الفرنسية

باريس ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٩

حضرة المدير العام:

تشرفت بإعراي لكم في كتابي الأخير بتاريخ ٢٦ الجاري عن امتناني وشكري،
على الاتفاق الذي مكنتنا -بفضل وساطتكم السعيدة- من حل المشكلة التي نجمت
عن انسحاب الجيش البريطاني. وقد بعثت إليكم بصورة البرقية المحتوية على
التعليقات التي أرسلتها لأخي زيد واقترنت بموافقتكم.

وإني بهذه المناسبة أسمح لنفسي بتذكيركم بأن البرقيات التي أرسلت إلى
سورية، لم يرد فيها مسألة سحب المفزة المدفعية الفرنسية التي يجب أن تنسحب مع
الجيش البريطانية من دمشق في وقت واحد.

وعلى كل أكون شاكرًا إذا بلغتم الجنرال غورو معتمد الجمهورية العالي، كي
يأمر بتنفيذ هذا الانسحاب.

إن هذا كله هو في الحقيقة فال خير، يؤملني بأن الائتلاف الذي ألتحم إليه في
برقيتكم المرسلة إلى الجنرال غورو، وإن لم نتعرض له حتى الآن، فإنه لا يلبث أن
ينجلي بفضل مذكرات تؤدي بنا إلى اتفاق مبنى على منافعنا المشتركة.

وتفضلوا يا حضرة المدير بقبول فائق احترامي.

فيصل

صورة كتاب من سمو الأمير إلى المسيو برتلو

باريس في ٤ ديسمبر سنة ١٩١٩

حضرة المدير العام:

لي الشرف أن أقدم لكم طي هذا الكتاب برقية لأخي الأمير زيد، فأرجوكم أن تتلطفوا بإرسالها إلى الشام، وأن توصوا بإبلاغي جوابها سريعاً.

وإني مع الانتظار أكون لكم شاكرًا، إذا تفضلتم بإعطائي ما لديكم من المعلومات التي تهمني بشأن الحالة الحاضرة في سورية.

وتفضلوا يا حضرة المدير العام بقبول فائق احترامي.

فيصل

صورة البرقية

الأمير زيد - دمشق

إن خبر إبعاد الجنرال الهاشمي استوجب عظيم استغرابي. انتظر بكل سرعة المعلومات المفصلة.

فيصل

صورة كتاب
من سمو الأمير إلى المسيو كلمنصو

باريس في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩١٩

يا حضرة الرئيس:

لا أزال تحت حسن تأثير الاستقبال الجميل الذي تلطفتم به عليّ، وإني أحسب من أعز واجباتي أن أشكركم على ذلك.

وقد وافقت -امثالاً لرغبة حضرتكم- على تأخير سفري إلى أن يعود المسيو برتلو؛ وذلك أملًا أن تحل في هذه البرهة مسألة حدود لبنان. وإني كنت سعيدًا جدًا؛ لتمكيني من أن أقدم في هذه المناسبة دليلًا جديدًا على رغبتني القوية في الوصول إلى اتفاق حقيقي.

ولا شك أن العطف والاهتمام اللذين أظهرتموهما لي، بعثا لي جسارة على أن أعرض بكل إخلاص على سعادتكم ما يخامرني من القلق الذي لم تكن وضعية الجنرال غورو في البقاع إلا لتزيده شدة، ورغما عن محاذرتي في إضاعة وقتكم الثمين، فإني لا أرى مندوحة عن أن أخص ل حضرتكم الموقف الحاضر كما هو:

إنه من مقتضى الاتفاق الذي عقدناه في الخامس والعشرين من الشهر المنصرم أن «لا تحتل الجنود الفرنسية البقاع، وأن تنسحب منه الجنود العربية، ولا يبقى محتلاً، وخاصة في بعلبك وحاصبيا وراشيا، إلا الدرك التابع لأوامر القائمين، وستؤلف بعثة تفتيشية من ثلاثة ضباط عرب، وثلاثة ضباط فرنسيين يرسلون معاً إلى تلك النواحي كي يلاحظوا بالاتفاق حسن تنفيذ وظائف الدرك والشرطة

المستولين عن الأمن. وإذا وجد ضباط العرب والفرنسيون قوة الدرك الموجودة هناك غير كافية فتعزز بقطعات دركية أخرى يؤتى بها من دمشق».

فهل التجاوز الذي وقع على الضابط الفرنسي وجاويشه يبرر الإخلال بهذا الاتفاق، ويميز القرار الذي اتخذته الجنرال غورو، خصوصاً أن السلطة المحلية هي المسؤولة وحدها عن إرجاع الأمن، وأن جلب القوى من دمشق عند الضرورة منصوص عنه في الاتفاق!

لذلك فإني أرى من واجبي أن أصر على لزوم الاحتفاظ بهذا الاتفاق، الذي هو أول اتفاق عقد بيننا ليكون له وقع حسن في نفوس الأهلىن، وليسهل لي القيام بمهمتي، ويزيد في الثقة المتبادلة بيننا، اللازمة لتنمية مناسباتنا المستقبلية.

وقبل أن ننظر في فصل مسألة حدود لبنان التي نعمل الآن على حلها، فإن حضر تكم إذا أعطيتكم أمراً بسحب الجنود من المحلات التي احتلتها؛ خلافاً لاتفاقنا تكونون قد أظهرتم دليلاً جديداً على اهتمامكم العالي بنجاح مذكراتنا، وخففتكم بذلك عني عبئاً ثقيلاً.

وأرجو بأن يجد طلبتي هذا قبولاً حسناً لدى سعادتكم. فإني أرجوكم أن تفضلوا بقبول فائق شعائر احترامي الخالصة.

فيصل

مشروع المعاهدة الهاشمية - الإنكليزية بسم الله الرحمن الرحيم

لما كان صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين الناهض بأقوامه العرب، مؤسس الدولة العربية الهاشمية ومليكها، حامي حمى بلد الله الأمين، ومدينة جدة سيد المرسلين، وجلالة ملك البلاد المتحدة بريطانيا العظمى، وأيرلندا، والأملاك البريطانية فيما وراء البحار، وإمبراطور الهند، بالأصالة عن نفسيهما، وبالنيابة عن ورثائهما وخلفائهما - مدفوعين بالرغبة الخالصة لتوطيد وتقوية عرى الصداقة والولاء المؤسسة بين بلادهما أثناء الحرب التي اقتحماها معاً على الدول الجرمانية وتركيا، محمولين أيضاً برغبة تمكين مصالحهما، وتأييد السلام الدائم والاتحاد بين الشعوب العربية.

ولما كان صاحب الجلالة الهاشمية قد سمي وعين صاحب السمو الملكي الأمير زيد، وحضرة صاحب الإقبال الشيخ فؤاد الخطيب وكيل خارجية جلالته الهاشمية، مفوضين من قبل جلالته لعقد معاهدة مع صاحب الجلالة البريطانية للوصول إلى هذه الأغراض.

ولما كان صاحب الجلالة البريطانية قد سمي وعين جناب الميجر و. أ. مرشال M.E.R.A.M.C معتمد وقنصل جلالته بجدة، مفوضاً من قبل جلالته لعقد معاهدة للوصول إلى هذه الأغراض مع صاحب الجلالة الملك حسين.

قد اتفق صاحب السمو الملكي الأمير زيد، والشيخ فؤاد الخطيب، وجناب الميجر مارشال على المواد الآتية وتعاقدا عليها:

المادة الأولى: سيكون السلام والمودة دائمين بين صاحب الجلالة الهاشمية، وصاحب الجلالة البريطانية وورثائهما وخلفائهما. وقد اتفق كل من الفريقين العالين المتعاقدين على استعمال جميع الوسائل التي تبيحها قوانينه؛ لمنع استخدام بلاده كقاعدة لحركات موجهة ضد مصالح الآخر الحالية أو المستقبلية، وقد وعدوا بذلك.

المادة الثانية: تتعهد الحكومة البريطانية العالية بأن تستعمل نفوذها في المساعدة على تسوية أي خلاف على الحدود يحدث بين صاحب الجلالة الملك حسين، وأحد جيرانه الذين بينهم وبين صاحب الجلالة البريطانية صلات معاهدة، وسيكون صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين حرّاً في كل الأوقات أن يطلب وساطة صاحب الجلالة البريطانية في حالة حدوث مثل هذا الخلاف.

المادة الثالثة: تتعهد الحكومة البريطانية العالية بأن تمنع بجميع الوسائل السلمية التيسرة لديها - وخصوصاً بإيقاف الإعانات من أي نوع كان - كل تعد على بلاد صاحب الجلالة الهاشمية من المقاطعات المجاورة، التي بينها وبين صاحب الجلالة البريطانية صلات معاهدة.

المادة الرابعة: قد بلغت جلالة الملك حسين المعاهدات المعمول بها الآن بين الحكومة البريطانية العالية، والسيد محمد بن علي الإدريسي، وكذا بين الحكومة البريطانية العالية، والسيد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود.

يعترف بهذا جلالة الملك حسين بالمعاهدات المذكورة الموجودة الآن بين الحكومة البريطانية العالية، والسيد محمد بن علي الإدريسي، وكذا بين الحكومة البريطانية العالية، والسيد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود، ويتعهد

جلالته بأن يمتنع عن الإتيان بأي عمل يعرقل -أو يمكن أن يعرقل- تنفيذ هذه المعاهدات الكلي بواسطة الطرفين المتعاقدين.

المادة الخامسة: يتعهد جلالة الملك حسين بأن يحافظ -بكل ما في وسعه وقوته- على السلام والصلات الودية مع جيران جلالته الذين بينهم وبين صاحب الجلالة البريطانية صلات معاهدة، وأن يمتنع عن التعدي بدون موجب فعلاً أو شكلاً على هذه البلدان المجاورة، وأن يعارض ويمنع بقدر استطاعته أي مؤامرة أو دسيسة داخل بلاد جلالته الهاشمية، تكون موجهة ضد هذه البلدان أو ضد مصالح حكماها.

في المسائل الهامة التي تحدث بين حكومة صاحب الجلالة الهاشمية، والمقاطعات المجاورة، يكون لصاحب الجلالة الملك حسين الخيار في طلب وساطة صاحب الجلالة البريطانية، كما ذكر في المادة الثانية.

المادة السادسة: اتفق وتواعد كل من الفريقين المتعاقدين العالين على قبول معتمد الآخر والاعتراف به، فيجوز لجلالة الملك حسين أن يعين معتمداً للحكومة العربية الهاشمية في لندن، ولصاحب الجلالة البريطانية أن يعين معتمداً بريطانياً يقيم في جدة، أو أي مدينة أخرى على ساحل بلاد صاحب الجلالة الهاشمية، ولا يعين صاحب الجلالة البريطانية معتمداً بريطانياً بمكة المكرمة والمدينة المنورة؛ احتراماً لصفتهما الماثورة.

وكذا سيكون لجلالة الملك حسين إذا أراد ذلك أن يعين وكيلاً قنصلياً في إنجلترا والقطر المصري والهند، ولصاحب الجلالة البريطانية أن يعين وكيلاً قنصلياً في جدة وفي مواني أخرى لصاحب الجلالة الهاشمية التي تراها الحكومة البريطانية

من أن لآخر مناسبة، وسيتمتع هؤلاء المعتمدون والوكلاء القنصليون بالامتيازات السياسية والقنصلية المعتادة.

المادة السابعة: يعترف بهذا جلالة الملك حسين بالاحتياجات المؤقتة للكورنتينا، التي اتخذتها الحكومة البريطانية العالية في القمران، كما تقتضيه شروط الاحتياطات الطبية المسنونة في العقد الدولي الصحي لعام ١٩١٢، أو أي عقد صحي آخر يكون مقيداً للحكومة المذكورة.

ومن جهة أخرى فإن بريطانيا توافق على الاعتراف بالاحتياجات التكميلية، التي يلزم اتخاذها في جدة، وفي مواني أخرى من بلاد صاحب الجلالة الهاشمية؛ تطبيقاً للنصوص الطبية الواردة في الاتفاق أو الاتفاقيات المذكورة، وذلك بمقتضى لوائح يصدرها جلالة الملك حسين.

المادة الثامنة: تتعهد الحكومة البريطانية العالية بأن لا تتدخل بأي حال من الأحوال في الإجراءات التي يتخذها جلالة الملك حسين، لراحة الحجاج والاعتناء بهم داخل بلاد جلالته الهاشمية، مع مراعاة ما جاء في المادة العاشرة.

ويتعهد جلالة الملك حسين من جهته بأن يساعد كل مجهود يبذله الرعايا البريطانيون المسلمون، والأشخاص أو الجمعيات المشمولون بحماية صاحب الجلالة البريطانية للاشتراك في سبيل رفاهية الحجاج في الحجاز، وصحتهم وتموينهم، كما يفعل جلالته فيما يختص بعين زبيدة.

المادة التاسعة: قد اتفق كل من الفريقين العالين المتعاقدين، على أن يحدد مبلغ معين على كل حاج بصفة رسوم، وأن يعين مقداره لغاية أول يوم من جمادى الأولى من كل سنة، وذلك للاحتياجات الصحية التي يتخذها كل منهما. وستكون هذه

الرسوم شاملة لمصروفات جميع الاحتياطات الصحية لحين يوم نزول الحجاج إلى البر، وتكون داخلة في ثمن تذكرة السفر التي تصرف من شركات الملاحة المختلفة.

ويستولى الملك حسين على الرسوم المفروضة للاحتياطات التي تتخذ في مواني جلالته الهاشمية، وبالمثل تستولي الحكومة البريطانية العالية على الرسوم المفروضة للاحتياطات التي تتخذ في القمران.

المادة العاشرة: وافقت الحكومة البريطانية العالية على أن تعترف بالتبعية الهاشمية لجميع رعايا جلالة الملك حسين، الذين يوجدون في أي وقت كان داخل بلاد صاحب الجلالة البريطانية، أو البلاد المشمولة بالحماية البريطانية، أو الواقعة تحت الانتداب البريطاني شرطاً أن يكون هؤلاء الرعايا الهاشميون حائزين على أوراق صادرة من جلالة الملك حسين تثبت التبعية الهاشمية لحاملها.

ووافق جلالة الملك حسين من جهته على أن يعترف بالتبعية البريطانية لجميع رعايا البريطانيين، أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية الذين يوجدون في أي وقت داخل بلاد صاحب الجلالة الهاشمية، ما دامت أسماء هؤلاء البريطانيين - أو الأشخاص المشمولين بحماية بريطانيا العظمى - مسجلة في قنصلية بريطانية في البلاد الهاشمية.

ومع ذلك فإن أحكام هذه المادة لا تسري على الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية، الذين يقيمون عادة في بلاد صاحب الجلالة الهاشمية خارج جد وغيرها من المواني التي يمكن أن يعين صاحب الجلالة البريطانية وكيلاً قنصلياً فيها.

المادة الحادية عشرة: وافق جلالة الملك حسين على أن تمتلك الرعايا البريطانيون، أو الأشخاص المتمتعين بحماية صاحب الجلالة البريطانية، تسلم في حالة موتهم في بلاد صاحب الجلالة الهاشمية إلى الممثل البريطاني فيها، أو إلى أي سلطة يعينها لهذا الغرض؛ ليتصرف حسب القوانين التي تنطبق على الحالة. ويراعى ممثل بريطانيا في البلاد المذكورة أن الرسوم والضرائب الواجبة على تلك الممتلكات بمقتضى الشرائع الهاشمية تسدد في حينها.

المادة الثانية عشرة: وافق بهذا صاحب الجلالة الملك حسين، على أنه في جميع القضايا التي تنشأ في البلاد الهاشمية، ويكون أحد الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية، مدعيًا فيها أو مدعي عليه يحضر ممثل قنصلي بريطاني في المحاكم الهاشمية أثناء سماع القضايا، وفي الأحوال التي يظهر فيها المعتمد البريطاني رغبته في إجراء مخبرات سياسية مع صاحب الجلالة الهاشمية، فلا تذاع الأحكام، ولا تنفذ خلال مدة المخبرات المذكورة، ولا تسري أحكام هذه المادة على الرعايا البريطانيين، أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية، الذين يقيمون عادة في بلاد صاحب الجلالة الهاشمية، خارج جده وغيرها من الموانئ التي يعين صاحب الجلالة البريطانية وكيلًا قنصليًا فيها.

المادة الثالثة عشرة: وافق جلالة الملك حسين على أن يأمر بتسليم الرعايا البريطانيين، أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية المقبوض عليهم، بأمر من الحكومة الهاشمية إلى السلطة القنصلية البريطانية في الأحوال التي تضمن فيها السلطة المذكورة استحضارهم متى طلبتهم منها الحكومة الهاشمية.

ولا تسري أحكام هذه المادة على الرعايا البريطانيين، أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية، الذين يقيمون عادة في بلاد صاحب الجلالة

الهاشمية، خارج جدة وغيرها من المواني التي يمكن أن يعين صاحب الجلالة البريطانية وكيلاً قنصلياً فيها.

المادة الرابعة عشرة: وافق جلالة الملك حسين على أن تنظر السلطة القنصلية البريطانية، في القضايا التي تقع بين الرعايا البريطانيين، أو الأشخاص المشمولين بحماية حضرة صاحب الجلالة البريطانية، والتي لا تمس مصالح الرعايا الهاشميين.

ولا تسري أحكام هذه المادة في الأحوال التي يرغب فيها الفريقان المتقاضيان أن يرفعا القضية إلى المحاكم الهاشمية، كالمخصوص في المادة الثانية عشرة، وكذا لا تسري أحكام هذه المادة على الرعايا البريطانيين، أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية الذين يقيمون عادة في البلاد الهاشمية، خارج جدة أو المواني التي يمكن أن يعين فيها صاحب الجلالة البريطانية وكيلاً قنصلياً.

المادة الخامسة عشرة: وافق جلالة الملك حسين على أن يشعر المعتمد البريطاني في جميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى نفي أحد الرعايا البريطانيين - أو شخص متمتع بحماية صاحب الجلالة البريطانية - من بلاد جلالته الهاشمية، وأن المعتمد البريطاني يكون مسئولاً عن نفي الشخص المعين في مدة معقولة.

المادة السادسة عشرة: وافق صاحب الجلالة البريطانية على أن يتنازل في بلاد صاحب الجلالة الهاشمية، عن جميع الامتيازات والاستثناءات التي يتمتع بها الرعايا البريطانيون، أو الأشخاص المشمولون بحماية صاحب الجلالة البريطانية، بمقتضى الامتيازات الأجنبية بين بريطانيا العظمى والحكومة العثمانية، إلا ما ذكر في هذه المعاهدة.

المادة السابعة عشرة: يعترف جلالة الملك حسين بموقف صاحب الجلالة البريطانية الخصوصي في العراق وفلسطين، ويتعهد أنه في المسائل الواقعة تحت نفوذ جلالته الهاشمية في تلك البلاد يفرغ استطاعته لمساعدة صاحب الجلالة البريطانية.

المادة الثامنة عشرة: تثبت بهذا الحكومة البريطانية العالية اعترافها بعلم صاحب الجلالة الهاشمية، شرطاً أن المراكب غير مراكب الحكومة الهاشمية التي ترفع العلم المذكور، تكون مسجلة في جدة أو ينبع، أو في أي ميناء محدد معلوم من بلاد صاحب الجلالة الهاشمية، وأن تكون حائزة على أوراق صادرة من جلالة الملك حسين، وتنطبق بصفة عامة على الشهادات والأوراق الرسمية، التي تعطيها عادة الممالك البحرية الرئيسية لمراكبها.

ويثبت جلالة الملك حسين من جهته بهذا اعترافه بالأعلام التي ترفعها المراكب التجارية التابعة لأي قسم من أملاك صاحب الجلالة البريطانية، أو البلاد المشمولة بالحماية البريطانية، أو الواقعة تحت الانتداب البريطاني، بشرط أن المراكب التي ترفع هذه الأعلام تكون حائزة على الشهادات والأوراق الرسمية التي تعطيها عادة الدول البحرية الرئيسية إلى مراكبها.

المادة التاسعة عشرة: يصرح بهذا كل من الفريقين المتعاقدين العالين، أنه أثناء مدة هذه المعاهدة لا يدخل في أية معاهدة، أو اتفاق، أو تفاهم مع فريق ثالث يكون الغرض منه موجهاً ضد مصالح الفريق الآخر المتعاقد العالين.

المادة العشرون: لا يتغلب أي شرط من الشروط الواردة في هذه المعاهدة، على أي قيود تكون قيدت بها، أو ستقيد في المستقبل أحد الفريقين المتعاقدين العالين

بأحكام عهد عصبة الأمم، أو بأي عهد آخر يكون لعصبة الأمم أن تتخذ ويدخل فيه أحد الفريقين.

المادة الحادية والعشرون: يعمل بهذه المعاهدة من تاريخ التوقيع عليها، وتبقى نافذة المفعول مدة سبع سنوات من ذلك التاريخ. وإذا لم يخبر أحد الفريقين العالين المتعاقدين الآخر، قبل مضي السبع السنوات المذكورة بستة شهور بعزمه على فسخ المعاهدة، فيستمر معمولاً بها لحين مضي ستة شهور من اليوم الذي يرسل فيه أحد الفريقين العالين المتعاقدين إعلاناً كهذا.

حررت هذه المعاهدة الحالية باللغتين العربية والإنجليزية، وستحفظ صورة من كل منهما في سجلات الحكومة الهاشمية، وأيضاً صورة من كل منهما في سجلات حكومة صاحب الجلالة البريطانية، وقد وقع عليها بجدة المفوضون المذكورون بعالية في اليوم الحادي والعشرين من شهر أكتوبر سنة ألف وتسعمائة وأحد وعشرين ميلادية، الموافق لليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة ألف وثلاثمائة وأربعين من التاريخ الهجري.

بسم الله الرحمن الرحيم

بحمد الله وتوفيقه: نحن الحسين بن علي، الناهض بأقوامه العرب، مؤسس الدولة العربية الهاشمية ومليكها، حامي حمى بيت الله الأمين ومدينة جده سيد المرسلين، نسدي السلام على من يقرأ هذه الوثيقة.

لما كان قد عقدت معاهدة بيننا وبين دولة بريطانيا العظمى، تشتمل على إحدى وعشرين مادة، ووقع عليها في مدينة جدة في اليوم التاسع عشر من شهر صفر عام

ألف وثلاثمائة وأربعين هجري، الموافق لليوم الحادي والعشرين من شهر أكتوبر عام ألف وتسعمائة وواحد وعشرين ميلادي، حضرة صاحب السمو الملكي الأمير زيد، وحضرة صاحب الإقبال الشيخ فؤاد الخطيب وكيل الخارجية اللذان حولناهما الإذن بذلك.

فنحن بعد إمعان النظر فيها نؤكد التوقيع عليها بالأصالة عن أنفسنا وبالنيابة عن ورثائنا، ونعد أننا سنرعى بكل إخلاص وأمانة الأمور المدونة في تلك المعاهدة، وأنها لا نتحمل أن ينقضها أحد، أو يتعدى عليها بأي حال من الأحوال ما دام ذلك في طاقتنا.

وتركية لجميع ذلك وتأكيداً لقانونيته، قد أمرنا بإمضاء هذه الوثيقة بختمنا ووقعنا عليها بيدنا الملوكية.

حرر في ديواننا الملوكي في جدة في اليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة ألف وثلاثمائة وأربعين هجرية، الموافق لليوم الحادي والعشرين من شهر أكتوبر سنة ألف وتسعمائة وواحد وعشرين ميلادية.

الوكالة البريطانية. نمرة ١٥٢١م - ١٥

جدة في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢١م

إلى صاحب السعادة الشيخ فؤاد الخطيب، وزير الخارجية بمكة.

سيدي:

أتشرف بأن أرسل لكم طي هذا نسخة عربية من المعاهدة كما حضرناها نحن،
ونسخة إنجليزية من كتابكم إلى الكولونيل ت. أ. لورنس حسب طلبكم. ولي
الشرف أن أكون يا سيدي خادمكم المطيع.

و. أ. مارشال
وكيل بريطانيا وقنصلها

من وزير الخارجية بجدة.

إلى الكولونيل ت. أ. لورنس.

أتشرف بأن أرسل لكم للاطلاع نسخة من محاضر المناقشات التي جرت بين
الأمير علي: نائباً عن الملك حسين، وبينكم في ٧ سبتمبر سنة ١٩٢١ م.

نجد:

أقام الأمير علي البرهان على أن رانية وخرمة وتربة وبيشة، وما حولها تابعة
لمقاطعة الحجاز، فتقبل الكولونيل لورنس هذه الحجج، ووافق على عرضها على
وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات؛ لإرسالها لابن سعود لإبداء ملاحظاته، وإذا
سلم بصحة هذه الحجج لإعلانه أن هذه الأماكن كانت تابعة وتتبع الآن للحجاز،
وأنه إذا كان لا يزال له ممثلين هناك فسيحبهم، وبعد ذلك فأبى السكان أبى الطاعة
للحكومة الهاشمية فيعامل كثائر، وإذا رفض ابن سعود أن يقبل هذه الحجج،
فالحكومة البريطانية تبلغ رده للملك حسين ليبيدي ملاحظاته عما يرى اتخاذه من
الخطوط.

اليمن:

أبان الكولونيل لورنس الموقف الحالي في اليمن وشاطئ البحر الأحمر بين عدن والحجاز، والظروف التي احتل فيها السيد الإدريسي الحديدة، وأن احتلاله للحديدة مؤقت كوصي على حقوق الحلفاء، إلى أن تقرر مصيرها الأخير بمعاهدة الصلح مع تركيا، وأن الحكومة البريطانية تكون سعيدة أن ترى حدًا مشتركًا بين الحجاز واليمن بالطرق الدبلوماسية، وقال الأمير علي: إنه يعتقد أن هذه النتيجة تتم متى احتلت الحكومة العربية الهاشمية ثانية: حرمة ورائية وبيشة.

وأوضح الكولونيل لورنس أن بريطانيا العظمى لم تعترف ولن تعترف الآن بأي سيادة في عسير، وليست مرتبطة بأي شيء يحدد حريتها في هذا الصدد؛ سوى مادة واحدة في المعاهدة مع السيد الإدريسي، تفره على كل أرض أخذها من الأتراك في أثناء الحرب. وقال الأمير علي: إن هذا التأخير سيعطي الحكومة العربية الهاشمية الفرصة لمد نفوذها جنوبًا بالطرق السلمية.

بلاد العرب:

وقال الأمير علي: إنه ليس هناك مسائل متعلقة بشاطئ بلاد العرب من عدن إلى أعلى الخليج الفارسي؛ لأن معظم هذه الأماكن تشملها معاهدات عقدت مع حليفته بريطانيا العظمى تضمن لها استقلالها.

فلسطين:

أثار الأمير علي مسألة أهالي فلسطين العرب، فأجاب الكولونيل لورانس بأن الوفد الإسلامي المسيحي يتناقش في هذه اللحظة، مع الحكومة البريطانية في

مصيرهم السياسي، وأنه لا يمكن أن يعمل أي تصريح عن فلسطين، إلى أن تظهر نتيجة هذه المناقشات. فإذا حصل الوفد على حل مرض لهم، فلا تبقى مسئولية على الملك حسين، فوافق الأمير علي على ذلك، وقال: وإذا أخفق الوفد فالملك حسين يستأنف الدفاع عن مطالب العرب القومية في تلك البلاد؛ لأن أهالي فلسطين طلبوا منه المساعدة، ومبدأه هو تأييد رغبات الأهالي بصرف النظر عن الأشخاص.

ابن رشيد:

قال الأمير علي: إن أمير جبل شمر الجديد - محمد رشيد - قد دخل في علاقات ودية مع الحكومة الهاشمية، فأشار عليه الكولونيل لورانس بأنه إذا كان قد حصل اعتراف أو اتفاق رسمي، فيجب على الحكومة العربية الهاشمية أن تبلغه الدول مباشرة.

الوحدة:

قال الكولونيل لورانس: إن الحكومة البريطانية ترحب بأي خطوات يتخذها العرب لتوحيد البلاد العربية؛ ولكن يجب أن يكون القائم بهذه المسألة هم العرب أنفسهم.

أكد الأمير على أهمية عقد معاهدة تسليم المجرمين بين الحكومة العربية الهاشمية، وابن سعود بمجرد تقرير حدودهما.

العلاقات النجدية - الحجازية

نمرة ٢٣٤م - ١١/٧/١

جدة في ٢ مارس سنة ١٩٢٣

حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك الحسين المعظم أيده الله.

بعد أداء فائق التحية وعظيم التوقير، فقد وصلني يا مولاي خطاب جلالتمكم
 نمرة ٧٤ رقم ٨ رجب سنة ١٣٤١ هـ الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٣ م، ووردتني
 أيضًا مكاتبة وكيل الخارجية وضمنها البرقية المرسلة إلى أعتابكم من قبل أمير
 جهينة. وهأنا ذا أبلغ فحوى الاثنين للجهات الاختصاصية. وإني أشكر جلالتمكم
 على تفضلكم بإفادتي عما وقع وعما تخشون أن يقع في المستقبل. وأما عن أولئك
 الذين كانوا يعتدون على بلي، فالحمد لله على ما رجعوا مقهورين خاسرين، ولكن
 اعذرني يا مولاي إن قلت: إن ذلك ليس بعداء بريطاني، كما يصفه وكيل الخارجية،
 إن بريطانيا العظمى لا تربح من أي اعتداء في شبه الجزيرة ولكن بالعكس، فإنه من
 صالح بريطانيا العظمى أن يسود السلام في جميع بقاعها، وأن تلتحم تلك المراكز
 التي فرقها النزاع في الوقت الحاضر بفضل العلاقات الودية. وإنه لا يخفى على
 جلالتمكم مقدار شدة الاهتمام، ورغبة حكومة جلالة الملك بأن نرى أن مسائل
 الخلاف فيما بين جلالتمكم ونجد قد انحلت، وأن صحيفة جديدة في التاريخ العربي
 قد ابتدأت، فهل تمنى ذلك شيء سخيف، أو غير مرغوب فيه، أو هل من المستحيل
 إنجازه؟

إنَّ هناك بعض أشخاص يفكرون أن مصالح شبه الجزيرة وسلامها وخيرها أهم بكثير جدًّا من هذا الشرط أو ذلك الشرط، وإن أولئك الذين يفكرون ذلك لا يسعهم إلا التأسف عندما يرون أن الآمال من المفاوضات والمباحثات، التي قد تنشأ منها فائدة عميمة نهائية تتحطم دائمًا عند عقبة الشروط. وتذكرون جلالتم ما قيل وكتب حينما أعطى لحجاجهم امتياز زيارة مكة في العام الماضي. وإني لا أريد أن أدعي أن ليس لجلالتم الحرية في التمسك بالرأي، بأن إيفاء الشروط التي تضعونها أهم بكثير من أي شيء ينتج من المفاوضات بين الحجاز ونجد؛ بل إن لجلالتم الحرية التامة في التمسك بهذا الرأي أو استنكار التسليم بغيره؛ إلا أن جلالتم تضعون ثقة في نتيجة البحث مع ابن سعود في مصالح شبه الجزيرة وحدود البلاد وخلافه، وأن تضعوا ثقة في عدالة الحكم الذي إن احتاج الأمر إليه، فإن حكومة جلالة الملك يكون لها السرور والفخر بإيفاده، وأن تكون هذه المباحثات أو هذا التحكيم العرفي بسيطة ومباشرة، وليست متوقفة على الإصرار بإجراء هذا الشيء أو ذاك أولاً، وبحيث أن يتقدم سلام وخير الجزيرة على كل اعتبار آخر. فهل في ذلك عدم لياقة بالكرامة أو جبن؟ أو هل هو عرضة لتأويلات الأعداء؟ أما عن الأولى والثانية فلا، وأما عن الثالثة فنعم. ولكن جميع الأعمال العظيمة عرضة للتأويلات، وإني لأعتقد أن عملاً كهذا من جلالتم يكون له أعظم شأنًا وأجمل وأبدع مكانة من أعظم الأعمال العربية في الحرب. وتفضلوا يا مولاي بقبول خالص احترامي وعظيم أشواقي.

نائب معتمد وقنصل بريطانيا

وكيل قنصل

جرفتي مميت

العلاقات النجدية - الحجازية

(مستعجل)

نمرة ٥٤٢م - ٢/٢

جدة في ٧ يونيو سنة ١٩٢٣م

حضرة صاحب الإقبال، وكيل الخارجية بمكة المحترم.

سلامًا واحترامًا وبعد؛ أتشرف بأن أخبركم بوصول تلغرافكم نمرة ٦٧ الذي وصلني ليلة أمس عن موضوع حجاج نجد. إن هذه المسألة المهمة كانت موضوع خطاب الميجر مارشال نمرة ٨٤ بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣م، الذي فيه قد تبلغتم إقبالكم بأنه خارج عن الموضوع. إن حكومة جلالة الملك تضغط بأي كيفية على ابن سعود، لتخفيض عدد الحجاج النجديين حتى إلى سنة أخرى. فكم سنة الآن مُنعت أهالي نجد من أداء هذه الفريضة المقدسة بناء على الطلب الشخصي من صاحب الجلالة الهاشمية. وإني لا أحتاج أن أجمل شرح المساعي والمباحث التي عملتها حكومة جلالة الملك، للتشجيع على تسوية حبية في المسائل المعلقة بين حكومتكم وحكومة ابن سعود، وأن هذه المجهودات التي كانت لتربية الصلات السلمية في شبه الجزيرة، لم تحرم من ملاقة عقبة من جراء إصدار حكومتكم بأن المسائل التي تحت البحث يجب الحكم فيها مقدمًا، قبل أن تصير موضع تحكيم ما. وليس في ذلك مبالغة بأن يقال: إن الإرجاء المستمر لأي سعي للمفاوضات الحبية مباشرة مع ابن سعود، من أشد علائم تثبيط العزم بالأمر السياسية العربية الحاضرة. وإني أذكر هذه النظرة السياسية في الموضوع؛ لأنها هي التي يظهر أنها تضيف على هذا البحث - بحث الحج النجدي - إحساسات واعتبارات خارجة عن صفته الدينية المستثناة. وإني أرجوكم أن تعتقدوا بأنني لست أكتب هذه الأسطر بروح المعارضة الصرفة، أو

كنصيحة ووعظ. فإن الموضوع أكبر من أن يكون موضوع شجار، وأهم من أن يجعل في كلمات خفيفة الوزن. وهل هناك برهان على نموذج الكمال في الاتحاد العربي، أعظم من أنه يفوق ويسمو كل إدراك، وأنه يحصل في النظر بصفة تشمل شبه الجزيرة ليست تقصر على أقاليم؟ وهل هناك حدود صارمة جداً، بحيث تحول بين المسلم وتادية فريضة الحج المقدسة؟

وتقبلوا عظيم التوقير.

نائب معتمد وقنصل بريطانيا في جدة
وكيل قنصل
جرافتي سميث

obeikandi.com

فهرس

٣	جزيرة العرب
٤	الوديان
٥	المناطق الداخلية الخصبة
٨	الجو
٩	السكان
٩	عددهم - الحضر والبدو
٩	الحضر
١٩	التقسيمات الإدارية
٢٠	الحجاز
٢١	طبيعة البلاد
٢٢	الجو
٢٢	السكان
٢٣	التجارة والصناعة
٢٧	الأقاليم الشمالية
٢٨	المنطقة الوسطى
٣١	القسم الجنوبي
٥٢	عشير
٥٤	السكان
٥٤	الزراعة

٥٥	التجارة
٥٥	البلاد
٥٩	خلاصة تاريخية عن حكومة عسير
٦٣	نجد
٦٤	الجو
٦٦	السكان
٦٦	الأدوات المحلية والمصنوعات
٦٨	إيالات نجد
٧٦	وادي الدواسر
٧٩	بلدان الوادي
٩٠	السكان
٩٠	المحصولات والتجارة
٩١	البلاد المشهورة
٩٦	الأحساء ^٥
٩٧	الوصف الطبيعي
٩٧	جو الأحساء
١٠٠	السكان
١٠٢	نبذة تاريخية
١٠٨	الكويت
١٠٨	حدود الإمارة

١١٠.....	الوصف الطبيعي
١١٠.....	الجو
١١١.....	السكان
١١٢.....	الصناعة والتجارة
١١٤.....	مقاطعات الكويت
١١٥.....	جزر الكويت
١١٦.....	بلدان الكويت
١١٩.....	خلاصة تاريخية
١٢٧.....	إمارة البحرين
١٢٨.....	إمارة البحرين
١٢٨.....	الجو
١٢٩.....	السكان
١٣٠.....	الصناعات والتجارة
١٣٢.....	جزيرة البحرين
١٣٣.....	بلدان البحرين
١٤١.....	نبذة تاريخية
١٤٢.....	آل خليفة
١٤٣.....	الحكومة البريطانية والبحرين
١٤٩.....	العوائد والأخلاق
١٤٩.....	الألقاب

المساواة.....	١٤٩
الكرم.....	١٥٢
الأكل.....	١٥٨
المرأة في بلاد العرب.....	١٦٠
الطب في بلاد العرب.....	١٦٦
الطب في بلاد العرب.....	١٦٧
العلوم والمعارف في جزيرة العرب.....	١٧٤
علماء الدين في جزيرة العرب.....	١٧٩
الصناعات في بلاد العرب.....	١٨٣
الحكومات العربية.....	١٨٧
السياسة الخارجية.....	١٩٧
أشرف مكة.....	١٩٨
العرب والترك.....	٢٠٣
الجمعية القحطانية.....	٢٠٥
جمعية العهد.....	٢٠٥
حزب اللامركزية.....	٢٠٥
المؤتمر العربي بباريس.....	٢٠٦
الثورة العربية.....	٢٠٩
مقررات النهضة.....	٢١١
الكتاب الأول.....	٢١١

٢١٣.....	الكتاب الثاني
٢١٦.....	الكتاب الثالث
٢١٩.....	الكتاب الرابع
٢٢٤.....	مؤتمرات الصلح
٢٢٦.....	موقف الملك حسين من مؤتمر الصلح
٢٢٩.....	الأمير فيصل بباريس
٢٣١.....	الأمير فيصل في لندن
٢٣٤.....	الأمير فيصل في باريس للمرة الثانية
٢٤٠.....	رجوع الأمير فيصل إلى سوريا وإعلان الملكية في دمشق
٢٤٧.....	أثر الثورة العربية في الحرب العامة
٢٥٢.....	شهر سبتمبر
٢٥٤.....	المعاهدة البريطانية مع الملك حسين
٢٥٧.....	المسألة الفلسطينية
٢٦١.....	العرب واليهود
٢٦٣.....	الملك حسين وجيرانه
٢٦٤.....	ابن سعود والملك حسين
٢٧٦.....	سياسة الملك حسين الداخلية
٢٨٠.....	آل سعود
٢٨٣.....	وفاة الإمام عبد العزيز
٢٨٤.....	صفات الإمام عبد العزيز

- سعود بن عبد العزيز ٢٨٤
- فتح الحجاز ٢٨٨
- بدء الخلاف مع المصريين والأتراك ٢٨٩
- وفاة الإمام سعود ٢٩٢
- عبد الله بن سعود ٢٩٢
- أسباب سقوط الدولة السعودية ٢٩٤
- رأي علماء نجد ٢٩٥
- أثر الدولة السعودية في نجد ٢٩٦
- الدولة السعودية الثانية ٢٩٦
- تركي بن عبد الله ٢٩٧
- فيصل بن تركي ٢٩٨
- فيصل ٣٠٠
- صفات فيصل بن تركي ٣٠٠
- وفاة الإمام فيصل ٣٠٣
- الحرب الأهلية بين عبد الله وسعود ٣٠٣
- الدور الثالث لآل سعود ٣٠٩
- عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ٣١١
- ابن سعود وجيرانه ٣١٩
- ابن سعود والكويت ٣١٩
- ابن سعود والأشراف ٣٢٠

- ٣٢١..... مؤتمر الكويت
- ٣٢٤..... دور المؤتمر الأول
- ٣٢٦..... الدورة الثانية للمؤتمر
- ٣٢٩..... غزوة الحجاز والمؤتمر الإسلامي^٥
- ٣٢٩..... كيف نشأت فكرة الغزوة؟
- ٣٣٨..... العدول عن المؤتمر
- ٣٤٠..... فشل المؤتمر
- ٣٤٤..... ابن السعود وإمام صنعاء
- ٣٤٦..... حياة الملك عبد العزيز الشخصية
- ٣٥٢..... أعمال الملك عبد العزيز الإصلاحية
- ٣٥٧..... الإخوان
- ٣٦٤..... أول مؤتمر للإخوان
- ٣٧٠..... ابن بجاد يرسل رسولا إلى ابن سعود
- ٣٧٢..... الثورة تعود مرة أخرى
- ٣٧٣..... الدويش يطلب الصلح
- ٣٧٥..... مؤتمر خبّارى وأضحّة^٥
- ٣٧٥..... الدويش في حضرة ابن سعود
- ٣٧٧..... ابن السعود يخاطب الدويش
- ٣٧٨..... الدويش يتكلم
- ٣٨٠..... الدعوة الإصلاحية في نجد

- ٣٨٥..... الشيخ محمد بن عبد الوهاب
- ٣٨٧..... نجد في أيامها الأولى
- ٣٨٩..... ما هي تعاليم الوهابية؟
- ٣٩٥..... ما ينسب إلى النجديين وهم أبرياء منه
- ٣٩٨..... أثر التمسك بالشريعة الإسلامية في الحياة العامة
- ٣٩٨..... وأثر الانصراف عنها
- ٤٠٠..... المراجع العربية
- ٤٠٢..... الكتب الإنجليزية
- ٤٠٤..... ذيل خاص بالوثائق والمعاهدات التي جاء ذكرها في مواضع من الكتاب